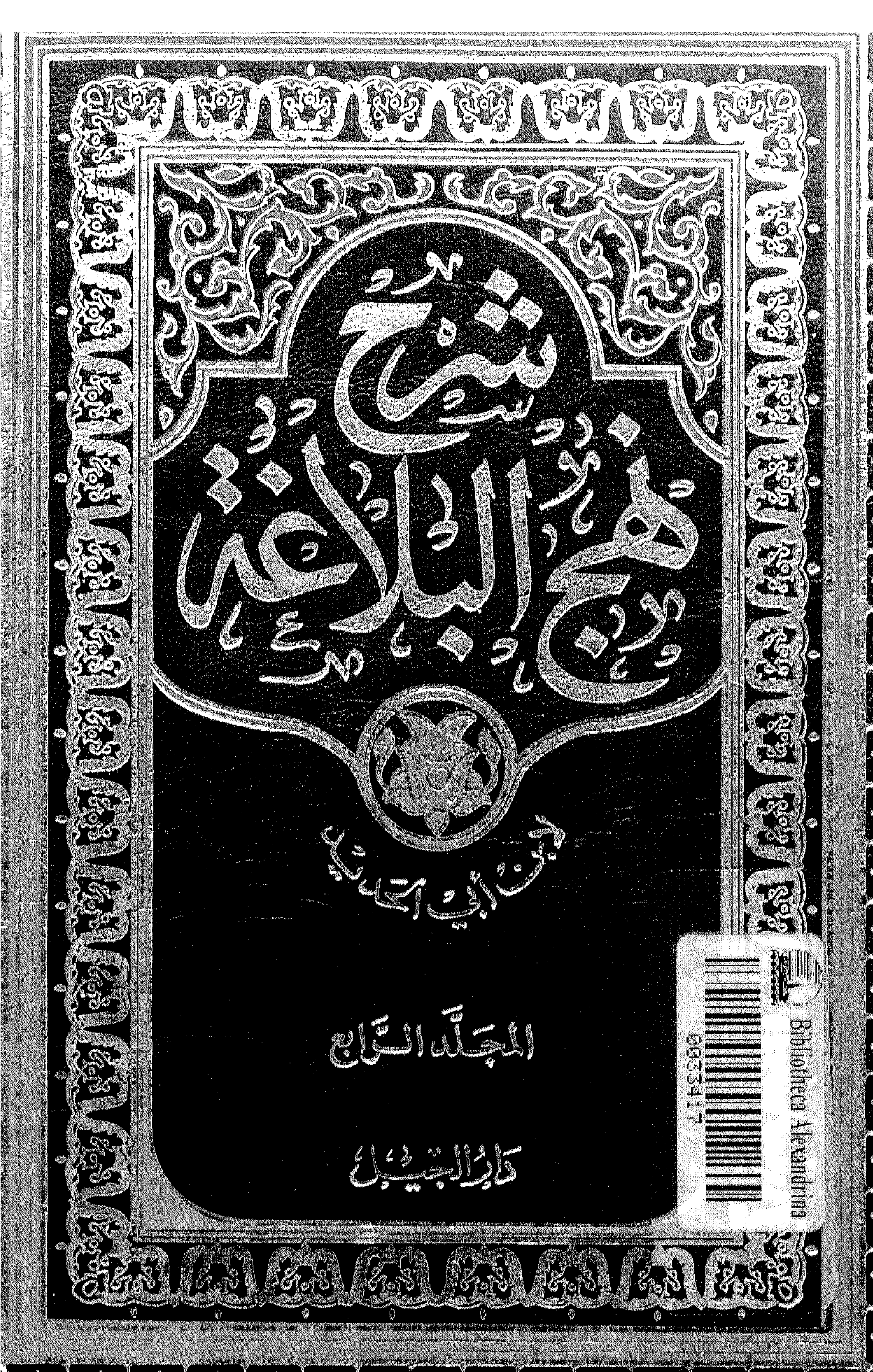

شرح
نهج البلاغة
ابن أبي الحديد
المجلد الرابع
دار الجيل
Bibliotheca Alexandrina
0033417







شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء السابع

دار الجيل
بيروت

طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٩٠)*

الأصل:

فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ، اخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خِيَرَةً[١] مِنْ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ . فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ ؛ قَرْناً فَقَرْناً ؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ .

* * *

الشرح :

مهّد أرضه : سوّاها وأصلحها ، ومنه المهاد وهو الفراش ، ومَهَدْتُ الفراش ، بالتخفيف مَهداً ، أي بسطته ووطّأته . وقوله : «خِيَرة من خَلْقه» على « فِعَلة » ، مثل عِنَبَة ، الاسم

(*) بقية الخطبة التسعين ؛ وأولها في الجزء السادس ص ٣٩٨

(١) مخطوطة النهج : « خيرة » ، بالتسكين .

من قولك : اختاره الله ؛ يقال : محمد خِيَرَة الله من خلقه ؛ ويجوز : « خِيْرة الله » بالتسكين ، والاختيار : الاصطفاء .

والجِبِلّة : الخلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1] ، ويجوز « الجُبُلّة » ، بالضم ، وقرأبها الحسن البصرىّ ، وقرئ قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾[2] على وجوه : فقرأ أهلُ المدينة بالكسر والتشديد ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ جُبْلًا كَثِيرًا ﴾ مثل قُفْل ، وقرأ الكسائىّ « جُبُلًا » كثيراً بضم الباء مثل « حُلُم » ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ جِبِلًا ﴾ بكسر الجيم ، وقرأ الحسن وابن أبى إسحق : ﴿جُبُلًّا﴾ بالضم والتشديد .

قوله : « وأرْغَدَ فيها أُكُله » ، أى جعل أُكُله ـ وهو المأكول ـ رغداً ، أى واسعاً طيباً ، قال سبحانه : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[3] ، وتقرأ رُغْداً ورغِداً بكسر الغين وضمها ، وأرْغَدَ القومُ : أخصبوا ، وصاروا فى رَغَدٍ من العيش .

قوله : « وأوعز إليه فيما نهاه عنه » ، أى تقدّم إليه بالإنذار[4] ، ويجوز « ووَعَّز إليه » بالتشديد توعيزاً ، ويجوز التخفيف أيضا وعز إليه وعْزا .

والواو فى « وأعلمه » عاطفة على « وأوعز » ، لا على « نهاه » .

قوله ، « موافاة لسابق علمه » لايجوز أن ينتصب لأنه مفعول له ، وذلك لأنّ المفعول له يكون عذرا وعلّة للفعل ، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلٰهىّ السابق ، ولا يستمرّ ذلك على مذاهبنا ، بل يجب أن ينصب « موافاةً » على

---

(١) سورة الشعراء ١٨٤ .
(٢) سورة يس ٦٢ .
(٣) سورة البقرة ٣٥
(٤) ب : « الإنذار » ، وما أثبته من ج ، د .

المصدرية المحْضَة ؛ كأنه قال : فوافى بالمعصية موافاة ، وطابق بهـا « سابق العـلم » مطابقـــة .

قوله : « فأهبطه بعد التوبة » ،قد اختلف الناس فى ذلك ، فقال قوم : بل أهبطه قبل التوبة ؛ ثم تاب عليه وهو فى الأرض . وقال قوم : تاب قبل الهبوط ، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام ، ويدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾[١]،فأخبر عن أنّه أهبطهم بعد تلقّى الـكلمات والتوبة . وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَـكُمَا عَنْ تِلْـكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَـكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَـكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَـكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَـكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[٢] . فبيّن أنّ اعترافهما بالمعصية واستغفارهما كانا قبل أمرهما بالهبوط . وقال فى موضع آخر : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾[٣]؛ فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة ، واحتجّ الأولون بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَـكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَـكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[٤]،قالوا : فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب إزلال الشيطان لهما ، ثم عقّب الهبوط بفاء التعقيب فى قوله : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ، فدلّ على أنّ التوبة بعد الهبوط .

---

(١) سورة البقرة ٣٧ ، ٣٨
(٢) سورة الأعراف ٢٢ ـ ٢٤
(٣) سورة طه ١٢١ ـ ١٢٣
(٤) سورة البقرة ٣٥ ـ ٣٨

ويمكن أن يجابَ عن هذا فيقال : إنّه تعالى لم يقل : «فقلنا اهبطوا» بالفاء، بل قال: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ بالواو ، والواو لاتقتضى الترتيب، ولو كان عِوَضها فاء لـكانت صريحة فى أنّ الإهباط كان عقيب الزلّة ؛ فأمّا الواو فلا تدلّ على ذلك ؛ بل يجوز أن تـكون التوبة قبل الإهباط ، ويخبر عن الإهباط بالواو قبل أن يخبرَ عن التوبة .

قوله عليه السلام : « وَلِيُقِيمَ الحجّة على عباده » ، أى إذا كان أبوهم أخرج من الجنة بخطيئة واحـدة ، فأخلِقْ بها ألّا يدخلها ذو خطايا جَمّة ؛ وهـذا يؤكّد مذهب أصحابنا فى الوعيد .

ثم أخبر عليه السلام أنّ البارئ سبحانه ماأخلى عباده بعد قبض آدم وتوفّيه ممايؤكّد عليهم حجج الربوبية ، بل أرسل إليهم الرسل قَرْنا فقَرنا، بفتح القاف ؛ وهو أهل الزمان الواحد ، قال الشاعر :

إذا مَامَضى ٱلقَرْنُ ٱلّذِى أَنْتَ فِيهِمُ   وَخُلِّفْتَ فِى قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ(١)

وتعاهدَهُم بالحجج ، أى جَدّد العهد عندهم بها ؛ ويروى « بل تَعَهّدَهم » بالتشديد، والتعهّد : التحفّظ بالشىء ؛ تعهّدْتُ فلانا وتعهّدت ضَيْعتى؛ وهو أفصح من «تعاهدت» لأنّ التفاعل إنما يكون من شيئين ؛ وتقول : فلان يتعهده صَرْعٌ .

قوله : « وبَلَغ المقطعَ عُذْرُه ونُذُرُه » ، مقطع الشىء حيث ينقطع ، ولا يبقى خلفه شىء منه، أى لم يزل يبعث الأنبياء واحدا بعد واحد؛ حتى بعث محمدا صلى الله عليه وآله؛ فتمّتْ به حجته على الخلق أجمعين . وبلغ الأمرُ مقطعه ، أى لم يبق بعده رسول ينتظر ؛

---

(١) البيت فى اللسان ١٧ : ٢١٢ .

وانتهت عُذر الله تعالى ونُذُره ، فعذرُه مَا بيّن للمكلّفين من الإعذار فى عقوبته لهم إنْ عَصَوْه ، ونُذُره ما أنذرهم به من الحوادث ، ومَنْ أنذَرَهُمْ على لسانه من الرسل .

* * *

[القول فى عصمة الأنبياء]

واعلم أنّ المتكلمين اختلفوا فى عصمة الأنبياء ؛ ونحن نذكر هاهنا طَرَفاً من حكاية المذاهب فى هذه المسألة على سبيل الاقتصاص ونقل الآراء ؛ لا على سبيل الحِجاج ؛ ونخصّ قِصّة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر ؛ إذ كانت هذه القصة مذكورةً فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل ؛ فنقول :

اختلف الناس فى المعصوم ما هُوَ ؟ فقال قوم : المعصوم هو الذى لا يمكنه الإتيان بالمعاصى ؛ وهؤلاء هم الأقلّون أهل النظر ؛ واختلفوا فى عدم التمكّن كيف هو ؟ فقال قوم منهم : المعصوم هو المختصُّ فى نفسه أو بدنه أو فيهما ، بخاصيّة تقتضى امتناع إقدامه على المعاصى .

وقال قوم منهم : بل المعصوم مساوٍ فى الخواصّ النفسية والبدنية لغير المعصوم ؛ وإنما العصمة هى القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية ، وهذا قولُ الأشعرىّ نفسه ؛ وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه .

وقال الأكثرون من أهل النظر : بل المعصوم مختار متمكّن من المعصية والطاعة .

* * *

وفسروا العصمة بتفسيرين :

أحدها : أنها أمورٌ يفعلها الله تعالى بالمكلّف فتقتضى ألّا يفعل المعصية اقتضاء

غير بالغ إلى حدّ الإيجاب ، وفسّروا هذه الأمور فقالوا: إنها أربعة أشياء : أوّلها أن يكون لنفس الإنسان مَلَكةٌ مانعة من الفجور ، داعية إلى العفّة ؛ وثانيها العلم بمثالب المعصية ومناقب الطاعة . وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحي والبيان من الله تعالى . ورابعها أنه متى صَدَر عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهملا ، بل يعاقب وينبه ويضيّق عليه العذر ؛ قالوا : فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوما عن المعاصي لا محالة ، لأنّ العِفّة إذا انضاف إليها العلْم بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من الشقاوة ؛ ثم أكّد ذلك تتابع الوحي إليه وترادُفه ، وتظاهر البيان عنده ، وتمّم ذلك خوفُه من العتاب على القدر القليل ، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة .

وقال أصحابنا[1] : العصمة لطف يمتنع المكلّف عند فعله من القبيح اختيارا ، وقد يكون ذلك اللطف خارجا عن الأمور الأربعة المعدودة ، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إنْ أنشأ سحابا ، أو أهبّ ريحا ، أو حرّك جسما ؛ فإن زيدا يمتنع عن قبيح مخصوص اختيارا ، فإنّه تعالى يجب عليه فعل ذلك ، ويكون هذا اللطف عصمة لزيد ، وإن كان الإطلاق المشتهر في العصمة إنما هو لمجموع ألطافٍ يمتنع المكلّف بها عن القبيح مدة زمان تكليفه .

وينبغي أن يقع [الكلام[2]] بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول :

* * *

الفصل الأول

في حال الأنبياء قبل البعثة ومَنِ الذي يجوزُ أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذي عليه أصحابُنا المعتزلة رحمهم الله ، أنه يجب أن ينزَّه النبيّ قَبْلَ البعثة عما كان فيه تنفيرٌ عن الحقّ الذي يدعو إليه ، وعمّا فيه غضاضة وعيب .

---

(١) هو التفسير الثاني للعصمة .   (٢) تكملة من ج ، د .

فالأول نحو أن يكون كافرا أو فاسقا ، وذلك لأنا نجد التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناسُ منه السُّخْف والمجون والفِسْق ، لا يقع أمرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه إلّا على السّداد والصلاح .

والثاني نحو أن يكون حَجّاما أو حائكا أو محترفاً بحِرفة يقذرُها الناس ، ويستخفّون بصاحبها ، إلا أنْ يكون المبعوثُ إليهم على خلاف ماهو المعهود الآن ، بألّا يكون من تعاطى ذلك مستهاناً به عندهم .

ووافق أصحابَنا في هذا القول جمهورُ المتكلمين .

وقال قوم من الخوارج : يجوز أن يبعث الله تعالى مَنْ كان كافرا قبل الرسالة ، وهو قول ابن فُورك [١] من الأشعرية ، لكنه زعم أنّ هذا الجائز لم يقع .

وقال قوم من الحَشَوِيّة : قد كان محمد صلى الله عليه وآله كافرا قبل البعثة ، واحتجُّوا بقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [٢] . وقال بُرغوث المتكلم ، وهو أحد النَّجّارية [٣] : لم يكن النبي صلى الله عليه وآله مؤمنا بالله قبل أن يبعثه ، لأنه تعالى قال له : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [٤] .

وروى عن السُّدِّيّ في قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [٥] ، قال : وزْره : الشرك ، فإنه كان على دين قومه أربعين سنة .

وقال بعض الكرّاميّة [٦] في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم صلى الله عليه وآله ،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ؛ الأديب المتكلم الواعظ ؛ ترجم له ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفترى ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) سورة الضحى ٦ .

(٣) النجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار ؛ ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث من رجالهم ؛ وانظر الشهرستاني ١ : ٨١ ، ٨٢

(٤) سورة الشورى ٥٢

(٥) سورة الشرح ٢ .

(٦) الكرامية ؛ أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام ؛ وانظر تفصيل آرائهم في الشهرستاني ١ : ٩٩ — ١٤٠ .

﴿قال أسلمت﴾ [١] : إنه أسلم يومئذ ، ولم يكن من قبل ذلك مسلما، ومثل ذلك ، قال اليمان بن رباب ، متكلّم الخوارج .

وحكى كثير من أرباب المقالات عن شيخنا أبى الهذيل وأبى علىّ جواز أن يبعث الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة ، ولم أجد فى كتب أصحابنا حكاية هذا المذهب عن الشيخ أبى الهُذَيل ، ووجدتُه عن أبى علىّ ، ذكره أبو محمد بن مَتّوَيْه فى كتاب « الكفاية » ، فقال : منع أهلُ العدل كلُّهم من تجويز بعثة مَنْ كان فاسقا قبل النبوّة إلا ماجرى فى كلام الشيخ أبى علىّ رحمه الله تعالى من ثُبوت فَصْل بين البعثة وقبلها ، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكبا لكبيرة ثم يتوب ، فيبعثه الله تعالى حينئذ، وهو مذهب محكىّ عن عبد الله بن العباس الرّامَهُرْمزىّ .

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى : والصّحيح من قول أبى علىّ رحمه الله تعالى مثل مانختاره من التّسوية بين حال البعثة وقبلها فى المنع من جواز ذلك .

وقال قوم من الأشعريّة ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث : إنّ ذلك جائز واقع ، واستدلّوا بأحوال إخوة يوسف . ومنع المانعون من ذلك من ثبوت نبوّة إخوة يوسف ، ثم هؤلاء المجوّزون ، منهم من جوّز عليهم فعل الكبائر مطلقا ، ومنهم مَنْ جَوّز ذلك على سبيل النُّدْرة ثم يتوبون عنه ، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح ، فأمّا لو فرضنا [٢] إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصى ، فإنّ ذلك لا يجوز ، لأنه يفوّت الغرض من إرسالهم ونبوّتهم على هذا التقدير .

وقالت الإماميّة : لايجوز أنْ يبعث الله تعالى نبيا قد وقع منه قبيح قبل النّبوة ،

---

(١) من قوله تعالى فى سورة البقرة ١٣١ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

(٢) ب : « لو فرض » ، وما أثبته من ج ، د .

لا صغيرا ولا كبيرا ، لا عمدا ولا خطأ ، ولا على سبيل التأويل والشبهة ؛ وهذا المذهب مما تفرّدوا به ؛ فإن أصحابنا وغيرهم من المانعين للكبائر قبل النبوة ، لم يمنعوا وقوع الصغائر منهم إذا لم تكن مسخّفة منفرة .

أطّردت الإمامية هذا القول فى الأئمة فجعلت حكمهم فى ذلك حكم الأنبياء فى وجوب العصمة المطلقة لهم قبل النبوة وبعدها .

* * *

الفصل الثانى

فى عصمة الأنبياء فى زمن النبوة عن الذنوب فى أفعالهم وتروكهم عدا ما يتعلق بتبليغ الوحى والفتوى فى الأحكام

جوّز قوم من الحشوّية عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء ؛ كالزنا واللواط وغيرهما ، وفيهم مَنْ جوز ذلك بشرط الاستسرار دون الإعلان ، وفيهم مَنْ جوّز ذلك على الأحوال كلها .

ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلًا ، ومنعوا أيضا مِنْ وقوع الصغائر المسخّفة منهم ، وجوّزوا وقوع الصغائر التى ليست بمسخّفة منهم . ثم اختلفوا فمنهم مَنْ جوّز على النبىّ الإقدام على المعصية الصغيرة غير المسخّفة عَمْداً[1] ؛ وهو قول شيخنا أبى هاشم رحمه الله تعالى ؛ فإنه أجاز ذلك وقال : إنه لا يقدم عليه السلام على ذلك إلا على خوف وَوَجَلٍ ، ولا يتجرّأ على الله سبحانه .

ومنهم مَنْ منع مَنْ تعمّد إتيان الصغيرة ، وقال : إنّهم لا يقدمون على الذنوب التى يعلمونها ذنوبا ، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة ؛ وهذا قول أبى على رحمه الله تعالى .

---

(١) كذا فى ج ، د ، وفى ب : « عملا » .

وحُكِيَ عن أبي إسحاق النظام وجعفر بن مبشّر ، أنّ ذنوبهم لا تكون إلّا على سبيل السّهو والنسيان ، وأنّهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعا عن أممهم ، لأنّ معرفتهم أقوى ، ودلائلهم أكثر ، وأخطارهم أعظم ؛ ويتهيّأ لهم من التحفّظ مالا يتهيّأ لغيرهم .

وقالت الإمامية : لا تجوزُ عليهم الكبائر ولا الصغائر ، لا عمداً ولا خطأ ، ولا سهواً ، ولا على سبيل التأويل والشبهة ؛ وكذلك قولهم فى الأئمة ؛ والخلاف بيننا وبينهم فى الأنبياء يكاد يكون ساقطاً ، لأنّ أصحابنا إنّما يجوّزون عليهم الصغائر ، لأنه لا عقابَ عليها ؛ وإنما تقتضى نقصان الثواب المستحقّ على قاعدتهم فى مسألة الإحباط ، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنّه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمًّا ولا عقابا ؛ والإمامية إنّما تنفى عن الأنبياء الصغائر والكبائر ؛ من حيث كان كلُّ شيء منها يستحق فاعلُه به الذمّ والعقاب ، لأنّ الإحباط باطل عندهم ؛ فإذا كان استحقاقُ الذمّ والعقاب يجب أن ينفى عن الأنبياء ، وجب أن يُنْفَى عنهم سائر الذنوب ، فقد صار الخلافُ إذاً متعلّقا بمسألة الإحباط ، وصارت هذه المسألة فرعا من فروعها .

* * *

واعلم أن القول بجواز الصّغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على ماذهب إليه شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى ؛ إنما اقتضاه تفسيرُه لآية آدم والشجرة ، وتكلّفه إخراجها عن تعمّد آدم للعصيان ، فقال : إنّ آدم نُهِيَ عن نوع تلك الشجرة لا عن عينها ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، وأرادَ سبحانه نوعَها المطلق ، فظن آدم أنه أراد خُصوصيّة تلك الشجرة بعينها ؛ وقد كان أشير إليها فلم يأكل منها بعينها ، ولكنه أكل من شجرة أخرى من نَوْعِها ، فأخطأ فى التأويل . وأصحاب شيخنا أبى هاشم لا يرضون هذا المذهب ، ويقولون إنّ الإشكال باقٍ بحاله ، لأن آدم أخلّ بالنظر على

هذا القول فى أنّ المنهىّ عنه : هل هو عينُ الشجرة أو نوعها ؟ مع أنه قد كان مدلولا على ذلك ، لأنّه لو لم يكن مدلولا على ذلك لـكانَ تـكليفُ الامتناع عن التناول تـكليف مالا يطاق ، وإذا دلّ على ذلك وجب عليه النظر ؛ ولا وَجْه يجب النظر لأجله إلا الخوف من تركه ؛ وإذا لم يكن بد من كونه خائفا فهو عالم إذاً بوجوب هـذا التأمّل والنظر ؛ فإذا أخلّ به فقد وقعتْ منه المعصية مع علمه .

وكما لا يرضَى أصحابُ شيخنا أبى هاشم هـذا المذهب ؛ فـكذلك لا يرتضُون مذهَب النَّظّام وجعفر بن مبشِّر ؛ وذلك لأنّ القول بأنّ الأنبياء يؤاخذون على مايفعلونه سهوا متناقض ؛ لأنّ السهو يُزِيل التّـكْليف ، ويخرج الفعل من كونه ذنبا مؤاخذا به ؛ ولهـذا لا يصحّ مؤاخذةُ المجنون والنائم ، والسهو فى كونه مؤثرا فى رفع التـكليف جارٍ مجرى فقد القُدر والآلات والأدلّة ؛ فلو جاز أن يخالف حالُ الأنبياء حالَ غيرهم فى صحّة تـكليفهم مع السهو ، جاز أن يخالف حالُهم حالَ غيرهم فى صحّة التـكليف مع فقد القُدَر والآلات ؛ وذلك باطل .

* * *

واعلم أنّ الشريف المرتَضى ـ رحمه الله تعالى ـ قد تـكلّم فى كتابه المسمى « بتنزيه الأنبياء والأئمة » على هذه الآية ، وانتصر لمذهب الإمامية [فيها](١) ، وحاول صَرْفها عن ظاهرها ، وتأوّلُ اللفظِ بتأويلٍ مستـكرَه غير صحيح ؛ وأنا أحكى كلامه هاهنا وأتـكلّم عليه نُصرةً لأصحابنا ، ونصرةً أيضا لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ فإنه قد صرّح فى هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام ، ألا ترى إلى قوله : « والمخاطرة بمنزلته » ؛ وهل تكون هذه اللفظة إلا فى الذنب ! وكذلك سياقة الفَصْل من أوّله إلى آخره ؛ إذا تأمله المنصف واطّرح الهوى والتعصّب . ثم إنا نذكر [كلام](١) السيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى ، قال رحمه الله تعالى :

(١) تـكملة من ج ، د .

أما قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ فإنّ المعصية مخالفـة للأمر[١]؛ والأمر من الحـكيم تعالى قد يكونُ بالواجب وبالندب معا ؛ فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوبا إلى ترك التّناول من الشجرة، فيكون بمواقعتها تاركاً فرضاً ونفلا ، وغير فاعل قبيحا، وليس يمتنع أن يسمّى تارك النفل عاصياً ، كما يُسمّى بذلك تارك الواجب ، فإنّ تسمية من خالف ماأمر به سواء كان واجبا أونفلا بأنه عاصٍ ظاهر، ولهذا يقولون: أمرتُ فلانا بكذا وكذا من الخير فعصانى وخالفنى ، وإن لم يكن ماأمر به واجباً[٢].

يقال له : الـكلام على هذا التأويل من وجوه :

أولها أنّ ألفاظ الشّرْع يجب أن تُحمَل على حقائقها اللّغوية مالم يـكن لهـا حقائق شرعية ، فإذا كان لها حقائق شرعية وجبَ أن تحمل على عُرْف الشّرْع واصطلاحـه ، كالصلاة والحجّ والنفاق والـكفر ،ونحو ذلك من الألفاظ الشّرعية ،وهكذا قال السيد المرتضى رحمه الله تعالى فى كتابه فى أصول الفقه المعروف ''بالذّريعة'' فى باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذى لامندوحَة عنه. وإذا كان لفظُ العصيان فى الاصطلاح الشرعىّ موضوعا لمخالفة الأمر الإيجابىّ لم يجُز العدول عنه وحمله على مخالفة النّدْب .

ومعلوم أنّ لفظ العصيان فى العُرْف الشرعىّ لايطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضى للوجوب ،فالقول بجواز حملها على مخالفة الأمر الندبىّ قول تبطله وتدفعه تلك القاعدة المقرّرة التى ثبتت بالاتفاق وبالدليل ، على أنّنا قبل أن نجيبَ بهذا الوجه نمنع أصلاً أنه يجوز أن يقال لتارك النفل: إنّه عاصٍ لافى أصل اللغة ، ولافى العُرْف، ولافى الشرع ، وذلك لأنّ حقيقة النفل هو مايقال فيه للمـكلّف : الأوْلى أن تفعلَ هذا ، ولكَ ألاّ تفعله ، ومعلوم أنّ

---

(١) العبارة فى كتاب تنزيه الأنبياء بعد ذكر الآية « ... قالوا : وهذا تصريح بوقوع المعصية التى لاتكون إلا قبيحة ؛ وأكده بقوله : « فغوى » ، والغى ضد الرشد . الجواب : يقال لهم : أما المعصية ... » .

(٢) تنزيه الأنبياء ٩ .

تاركَ مثلِ ذلك لا يطلَق عليه أنه عاصٍ ؛ ويبين ذلك أن لفظ « العصيان » فى اللغة موضوع للامتناع ؛ ولذلك سُمِّيتِ العصا عَصاً ، لأنه يُمتَنع بها ؛ ومنه قولهم : قد شقّ العصا ، أى خرج عن الربقة المانعة من الاختلاف والتفرّق ، وتارك الندب لا يمتنع من أمرٍ ، لأنّ الأمر الندبىّ لا يقتضى شيئا اقتضاء اللزوم ، بل معناه إن فعلت فهو أولى ؛ ويجوز ألّا تفعل ، فأىّ امتناع حدث إذا خولف أمر الندب سمى المخالف له عاصيا ، ويبين ذلك أيضا أنّ لفظ « عاصٍ » اسم ذمّ ، فلا يجوز إطلاقه على تارك الندب : كما لا يسمّى فاسقاً ؛ وإنْ كان الفسق فى أصل اللغة للخروج .

ثم يُسأل المرتضى رحمه الله تعالى عمّا سأل عنه نفسَه ، فيقال له : كيف يجوز أن يكون تركُ الندب معصية ؟ أو ليْس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة فى كل حالٍ ، وأنهم لا ينفكّون عن المعصية ؛ لأنهم لا يكادون ينفكّون من ترك الندب[1] ؟!

وقد أجاب رحمه الله تعالى عن هذا ، فقال : وَصْف تارك النّدْب بأنه عاصٍ توسّع وتجوّز ، والمجاز لا يقاسُ عليه ، ولا يعدّى عن موضعه . ولو قيل إنه حقيقة فى فاعل القبيح ، وتارك الأوْلى [والأفضل][2] لم يجز إطلاقه فى الأنبياء إلا مع التقييد ، لأنّ استعماله قد كثُر فى فاعل القبائح ، فإطلاقه عن التقييد مُوهِمٌ .

لكنا نقول : إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنّهم فعلوا القبيح ، فلا يجوز ذلك ، وإنْ أردت أنهم تركوا مالو فعلوه لا ستحقّوا الثواب ؛ ولكان أوْلَى ، فهم كذلك .

كذلك يقال له : ليس هذا من باب القياس على المجاز الذى اختلَفَ فيه أربابُ أصول الفقه ؛ لأن مَنْ قال : إذا ترك زيد الندب ؛ فإنه يسمّى عاصيا ؛ يلزمه أن يقول : إن عمْرا إذا ترك الندب يسمى عاصيا ؛ وليس هذا قياسا ، كما أنّ من قال لزيد البليد : هذا

---

(١) تنزيه الأنبياء ١٠

(٢) من تنزيه الأنبياء .

حمار ، قال لعمرو البليد : هذا حمار ، والقياس على المجاز الذى اختلف الأصوليون فى جوازه خارج عن هذا الموضع .

ومثال المسألة الأصولية المختلف فيها : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ(١) ﴾ ، هل يجوز أن يقال : طأطئ لهما عُنق الذلّ !

وأما قوله : لو سلمنا أنه حقيقة فى تارك الندب لم يجز إطلاقه فى حق الأنبياء ؛ لأنه يوهم العصيان ؛ بل يجب أن يقيّد .

فيقال له : لكن البارئ سبحانه أطلقَه ولم يقيّده فى قوله : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ ﴾ ، فيلزمك أن يكون تعالى موهما وفاعلا للقبيح ؛ لأن إيهام القبيح قبيح .

فإن قال : الدلالة العقلية على استحالة المعاصى على الأنبياء تؤمن من الإيهام .

قيل له : وتلك الدلالة بعينها تُؤمن من الإيهام فى قول القائل : الأنبياء عصاة ؛ فهلّا أجزتَ إطلاق ذلك !

* * *

وثانيها أنه تعالى قال : ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ والغىّ الضلال .

قال المرتضى رحمه الله تعالى : معنى غوى ها هنا خاب ، لأنه نعلم أنه(٢) لو فعل ما ندب إليه من ترك التناول من الشجرة لا ستحقّ الثواب العظيم ؛ فإذا خالف الأمر ولم يَصِر(٣) إلى ما ندب إليه ، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصِرْ إلى الثّواب الذى كان يستحقّه بالامتناع ؛ ولا شبهة فى أنّ لفظ « غوى » يحتمل الخيبة ، قال الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَه ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا(٤)

---

(١) سورة الإسراء ٢٤ . (٢) التنزيه : « لأنا نعلم » .
(٣) ب : « فإذا خالف الأمر إلى ما ندب إليه » .
(٤) للمرقش ، اللسان ١٩ : ٣٧٧ .

يقال له : ألستَ القائلَ فى مصنّفاتك الكلامية : إنّ المندوبات إنما ندب إليها ، لأنها كالمسهِّلات والميسّرات لفعل الواجبات العقلية ، وأنها ليست ألطافاً فى واجب عقلىّ ؛ وأنّ ثوابها يسيرٌ جدا بالإضافة إلى ثواب الواجب ! فإذا كان آدم عليه السلام ما أخلّ بشىء من الواجبات ، ولا فعلَ شيئا من المقبّحات ؛ فقد استحقّ من الثواب العظيم ما يستحقر ثواب المندوب بالإضافة إليه . ومثل هذا لا يقال فيه لمن ترك المندوب إنّه قد خاب ، ألا ترى أنّ من اكتسب مائة ألف قنطار من المال ، وترك بعد ذلك درهما واحدا كان يمكنه اكتسابه فلم يكتسبه ، لا يقال : إنه خاب !

وثالثها أنّ ظاهر القرآن يخالف ما ذكره ، لأنه تعالى أخبر أن آدم منهىٌّ عن أكل الشجرة بقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ ؛ وهذا يوجب أنّه قد عصى بأن فعل منهيًّا عنه ، والشريف المرتضَى رحمه الله تعالى يقول : إنه عصى بأن ترك مأمورا به .

* * *

قال المرتضَى رحمه الله تعالى مجيبا عن هذا : إنّ الأمر والنهى ليسا يختصّان(١) عندنا بصيغة ليس فيها احتمال واشتراك ، وقد يؤمر عندنا بلفظ النهى ويُنهى بلفظ الأمر ؛ وإنّما يكون النهىُ نهياً بكراهة المنهىّ عنه ، فإذا قال تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، ولم يكره قربهما لم يكن فى الحقيقة ناهيا ، كما أنه تعالى لمّا قال : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾(٢) ، ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾(٣) ؛ ولم يرد ذلك ؛ لم يكن آمرا به ؛ وإذا كان قد صحب قوله : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ إرادة ترك التناول ، وجب أن يكون هذا القول أمراً ؛ وإنما سمّاه منهيًّا ، وسمى

(١) التنزيه : « أما النهى والأمر معاً فليسا . . . » .
(٢) سورة فصلت ٤٠ .
(٣) سورة المائدة ٢

أمره له بأنه نهيٌ من حيث كان فيــه معنى النهى ؛ لأنّ فى النهى ترغيباً فى الامتناع من الفعل ، وتزهيدا فى الفعل نفسه ، ولما كان الأمر ترغيبامن فعل المأمور ، وتزهيدا فى تركه جاز أن يسمّى نهياً .

وقد يتداخل هذان الوضعان فى الشاهد ، فيقول أحدنا : قد أمرت فلانا بألّا يلقى الأمير ؛ وإنما يريد أنّه نهـاه عن لقائه ؛ ويقول : نهيتك عن هَجْر زيد ؛ وإنّما معنـاه أمرتُك بمواصلته(١) .

يقال له : هذا خلاف الظاهر ، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصرف اللفظ عن ظاهره ؛ ويكفى أصحاب أبى هاشم فى نصرة قولهم التمسك بالظاهر .

واعلم أنّ بعض أصحابنا تأول هذه الآية ، وقال : إنّ ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوّته ؛ لأنه لوكان نبيا قبل إخراجه من الجنّة ، لـكان إما أن يـكون مرسَلًا إلى نفسه ؛ وهو باطل ، أو إلى حوّاء وقد كان الخطاب يأتيها بغـير واسطة ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ أو إلى الملائـكة ، وهذا باطل ، لأن الملائـكة رسل الله ، بدليل قوله : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَائِـكَةِ رُسُلًا ﴾(٢)؛والرسول لايحتاج إلى رسول آخر ،أو يكون رسولا وليس هناك من يرسَل إليه ؛ وهذا محال . فثبت أن هـذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوّته وإرساله .

* * *

الفصل الثالث

فى خطئهم فى التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا : إنّ الأنبياء معصومون من كلّ خطأ يتعلّق بالأداء والتبليغ ،فلايجوز

(١) التنزيه ١١ .
(٢) سورة فاطر ١ .

عليهم الكذب ولا التغيير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة ، ولا الغلط فيما يؤدونه عن الله تعالى ، ولا السهوُ فيه ولا الإلغاز ولا التعمية ؛ لأنّ كلّ ذلك إما أنْ ينقض دلالة المعجز على صدقه ، أو يؤدّى إلى تكليف ما لا يطاق .

وقال قومٌ من الكرّامية والحشوية: يجوز عليهم الخطأ فى أقوالهم ، كما جاز فى أفعالهم؛ قالوا : وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله فى التبليغ، حيثُ قال: « تلك الغرانيق العلا * وإن شفاعتهنّ لتُرتجى » .

وقال قوم منهم : يجوز الغلط على الأنبياء فيما لم تكن الحجّة فيه مجرّد خبرهم ، لأنه لا يكون فى ذلك إبطال حجة الله على خلقه ، كما وقع من النبىّ صلى الله عليه وآله فى هذه الصورة، فإنّ قوله ذلك ليس بمبطل لحجة العقل فى أن الأصنام لا يجوز تعظيمها، ولا ترجَى شفاعتها. فأمّا ما كان السبيلُ إليه مجرّد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة بإخبارهم.

وقال قوم منهم : إنّ الأنبياء يجوز أن يخطئوا فى أقوالهم وأفعالهم ، إذا لم تَجْرِ تلك الأفعال مجرَى بيان الوحى ، كبيانه عليه السلام لنا الشريعة ، ولا يجوز عليه الخطأ فى حال البيان ، وإن كان يجوز عليه ذلك فى غير حال البيان ، كما روى من خَبر ذى اليدين[1] حين سها النبى صلى الله عليه وآله فى الصلاة، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحى، فإنه لا يجوز عليه أن يخطِئ فيه ، لأنه حجّة الله على عباده . فأمّا فى أقواله الخارجة عن التبليغ ، فيجوز

---

(١) نقله أبو داود فى كتاب الصلاة ١ : ٣٦٣ بسنده عن أبى هريرة قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتى العشى : الظهر أو العصر ؛ قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم ، ثم قام إلى خشبة فى مقدم المسجد فوضع يديه عليها ؛ إحداهما على الأخرى ، يعرف فى وجهه الغضب ، ثم خرج سرعان الناس وهم يقولون : قصرت الصلاة ! قصرت الصلاة ! وفى الناس أبو بكر وعمر ؛ فهاباه أن يكلماه ، فقام رجل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه ذا اليدين ؛ فقال : يارسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : « لم أنس ولم تقصر الصلاة » ، قال : بل نسيت يارسول الله ، وأقبل رسول الله على القوم فقال : « أصدق ذو اليدين ؟ » فأومئوا : أى نعم ، فرجع رسول الله إلى مقامه فصلى الركعتين الباقيتين ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع فكبر » .

أن يخطئ كما روى عنه صلى الله عليه وآله فى نهيه لأهل المدينة عن تأبير النّخل [١] .

فأمّا أصحابُنا المعتزلة ، فإنّهم اختلفوا فى الخبر المرويّ عنه عليه الصلاة والسلام فى سورة النّجم ، فمنهم مَن دَفَع الخبر أصلًا ولم يقبله ، وطعن فى رواته ، ومنهم من اعترف بكونه قرآنا منزّلا ، وهم فريقان : أحدُهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة ، فلما ظَنّ المشركون أنه وصفُ آلهتهم ، رفع ونُهِيَ عن تلاوته . وثانيهما القائلون إنه خارجٌ على وجه الاستفهام بمعنى الإنكار ، فتوهّم سامعوه أنه بمعنى التحقيق ، فنسخه الله تعالى ونهى عن تلاوته .

ومنهم من قال : ليس بقرآن منزّل ، بل هو كلام تكلّم به رسول الله صلى الله عليه وآله من قِبَل نفسه على طريق الإنكار والهزء بقريش ، فظنوا أنّه يريد التحقيق ، فنسخه الله بأنْ بيّن خطأ ظنّهم ، وهذا معنى قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ﴾[٢] . قالوا : فإلقاء الشيطان هاهنا هو إلقاء الشبهة فى قلوب المشركين ، وإنما أضافه إلى أمنيّته ، وهى تلاوته القرآن ، لأن بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون إلى تلاوته عليه السلام ما لم يُرِده بها .

وأنكر أصحابُنا الأخبار الواردة التى تقتضى الطّعْنَ على الرسول صلى الله عليه وآله ، قالوا : وكيف يجوز أن تصدق هذه الأخبار الآحاد على من قد قال الله تعالى له : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[٣] وقال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾[٤] وقال عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل ٤ : ١٨٣٦ بسنده عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يلقحون النخل ؛ فقال : « لو لم يفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصاً (وهو البسر الردىء) فمر بهم فقال : « ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ! قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٢) سورة الحج ٥٢ .

(٣) سورة الفرقان ٣٢ .

(٤) سورة الأعلى ٦ .

عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾[1] . وأمّا خبر ذى اليدين وخبر تأبير النخل ، فقد تكلّمنا عليهما فى كتبنا المصنّفة فى أصول الفقه.

* * *

الأصْلُ :

وَقَدَّرَ ٱلْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، فَعَدَّلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا ، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا ، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا . وَخَلَقَ ٱلْآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا ، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لِأَشْطَانِهَا ، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا .

* * *

الشّرْحُ :

الضِّيق والضّيْق : لغتان ، فأما المصدر من « ضاق » فالضِّيق بالكسر ، لا غير .

وعَدّل فيها : من التعديل وهو التقويم، وروى : « فعدَل » ، بالتخفيف، من العدل نقيض الظلم .

والميسور والمعسور : مصدران . وقال سيبويه : هما صفتان ، ولا يجيء عنده المصدر على وزن «مفعول» ألبتّة ، ويتأول قولهم: «دعه إلى ميسوره» ، ويقول كأنه قال : دعه إلى أمر يوسر فيه ، وكذلك يتأول « المعقول » أيضا ، فيقول كأنه عُقِل له شيء ، أى حبس وأيّد وسدد .

ومعنى قوله عليه السلام : « ليبتلِيَ مَنْ أراد بميسورها ومعسورها » ، هو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ إعطاء هذا المال فتنة ، وإمساكه فتنة » .

---

(١) سورة الحاقة ٤٥ ـ ٤٧ .

والعقابيل فى الأصل : الحلأ ، وهو قروح صغار تخرج بالشّفة من بقايا المرض . والفاقة : الفقر .

وطوارق الآفات : متجدّدات المصائب ، وأصلُ الطُّروق مايأتى ليلا .

والأتراح : الغموم ، الواحد ترَح ، وترّحه تتريحا ، أى حزّنه .

وخالجا : جاذبا ، والخلج الجذْب ، خلجه يخلِجه بالكسر ، واختلجه ، ومنه الخليج : الحبْل لأنه يجتذب به ، وسمى خليج البحر خليجا ؛ لأنه يجذَب من معظم البحر .

والأشطان : الجبال ، واحدها شَطَن ، وشطنتُ الفرسَ أشطُنه ، إذا شددته بالشَّطَن .

والقرائن : الحبال ، جمع قَرَن ؛ وهو من شواذّ الجموع ، قال الشاعر :

أبلغْ خليفَتنا إنْ كنتَ لاقيَه ... أنِّى لدَى الباب كالمشدود فى قَرَنِ (١)

ومرائر القرائن : جمع مَرِير ، وهو مالطُف وطال منها واشتدّ فتله ، وهذا الكلام من باب الاستعارة .

* * *

الأصْلُ :

عالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضْمِرِينَ وَنَجْوَى الْمُتَخافِتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدِ عَزِيماتِ الْيَقِينِ ، وَمَسارِقِ إِيماضِ الْجُفُونِ ، وَما ضَمِنَتْهُ أَكْنانُ الْقُلُوبِ ، وَغَياباتُ الْغُيُوبِ ، وَما أَصْغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصائِخُ الْأَسْماعِ ، وَمَصَائِفِ الذرِّ ، وَمَشاتِي الْهَوَامِّ وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهاتِ ، وَهَمْسِ الْأَقْدامِ ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلائِجِ غُلُفِ الْأَكْمامِ ، وَمُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرانِ الْجِبالِ وَأَوْدِيَتِها ، وَمُخْتَبَإِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ

(١) اللسان ١٧ : ٢١٥ من غير نسبة ، وروايته : « أبلغ أبا سمع » .

ٱلْأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِهَا ، وَمَغْرِزِ ٱلْأَوْرَاقِ مِنَ ٱلْأَفْنَانِ ، وَمَحَطِّ ٱلْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ ٱلْأَصْلَابِ ، وَنَاشِئَةِ ٱلْغُيُومِ وَمُتَلَاحِمِهَا ، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا ، وَمَا تَسْفِي ٱلْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا ، وَتَعْفُو ٱلْأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا ، وَعَوْمِ بَنَاتِ ٱلْأَرْضِ فِي كُثْبَانِ الرِّمَالِ ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ ٱلْأَجْنِحَةِ بِذُرَا شَنَاخِيبِ ٱلْجِبَالِ ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ ٱلْمَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ ٱلْأَوْكَارِ ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ ٱلْأَصْدَافُ ، وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ ٱلْبِحَارِ ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ ، وَمَا ٱعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلَالَةٍ ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُلْفَةٌ ، وَلَا ٱعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ٱبْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ ، وَلَا ٱعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ ٱلْمَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَلَا فَتْرَةٌ ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ ، وَأَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ .

* * *

الشرح :

لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله عليّ بن العباس بن جُرَيج ، لإسماعيل بن بلبل :

قالوا أبو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ ... كَلَّا ، وَلَكِنْ لَعَمْرِي مِنْهُ شَيْبَانُ (١)

وكم أبٍ قَدْ عَلَا بابنٍ ذُرا شَرَفٍ ... كَمَا عَلَا بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقرّ به عينُ أبيه إبراهيم خليل الرحمن،

(١) ديوانه الورقة ٢٧٣ (مخطوطة دار الكتب ، رقم ١٣٩ ـ أدب) .

ويقول له : إنه لم يُغْنِ ماشيّدْتَ من معالم التوحيد ، بل أخرج الله تعالى لك من ظهرى ولداً ابتدع من علوم التوحيد فى جاهلية العرب مالم تبتدعه أنت فى جاهلية القِبْط ؛ بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس ، القائل بأنه تعالى لايعلم الجزئيّات ؛ لخشع قلبهُ وقَفّت شعرُه ، واضطّربَ فكره؛ألا ترى ماعليه من الرُّواء والمهابة ، والعظمة والفخامة،والمتانة والجزالة ! مع ماقد أشرِبَ من الحلاوةوالطَّلاوةو اللطف والسلاسة؛لا أرى كلاما يشبهه هذا إلّا أن يكون كلامَ الخالق سبحانه ، فإنّ هذا الكلام نَبْعَةٌ من تلك الشجرة ، وجدول من ذلك البحر ، وجَذْوة من تلك النار؛وكأنه شَرْح قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

* * *

ثم نعود إلى التفسير فنقول :

النَّجْوى : المسارّة ، تقول:انتجى القومُ وتناجَوْا،أى تسارُّوا ، وانتجيت زيدا إذا خصصتَه بمناجاتك ؛ ومنه الحديث ، أنه صلّى الله عليه وآله أطال النَّجْوى مع علىّ عليه السلام ؛ فقال قوم : لقد أطال اليوم نجْوَى ابن عَمّه،فبلغه ذلك فقال : « إنّى ما انتجيته؛ ولكن الله انتجاه ».ويقال للسرّ نفسه النَّجْو ؛ يقال: نجوته نَجْواً أى ساررته ؛ وكذلك ناجيْتُه مناجاة ، وسُمّى ذلك الأمرُ المخصوص نجوى لأنه يستَسرّ به ؛ فأمّا قولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾ فجعلهم هم النجوى؛وإنما النجوى فعلهم ؛ فإنما هو كقولك : « قوم رضاً » وإنما الرضا ، فعلهم ؛ ويقال للذى تساره : النجىّ على « فعيل » ؛ وجمعه أنجية ، قال الشاعر :

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

* إنّى إذا ما القومُ كانوا أنجيَةْ [1] *

وقد يكون النجىّ جماعة ؛ مثل الصّدِيق ؛ قال الله تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [2] ، وقال الفرّاء : قد يكون النجىّ والنجوَى اسما ومصدرا .

والمتخافتين : الذين يسرّون المنطق ، وهى المخافتة والتخافت والخفْت ، قال الشاعر :

أُخَاطِبُ جَهْراً إِذْ لَهُنَّ تَخَافُتٌ وَشَتَّانَ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَنْطِقِ الْخَفْتِ [3]

ورَجْم الظنون : القولُ بالظّن ، قال سبحانه : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ ، ومنه « الحديث المرجّم » بالتشديد ، وهو الذى لا يدرَى أحقّ هو أم باطل ، ويقال صار رَجْماً ، أى لا يوقف على حقيقة أمره .

وعقد عزيمات اليقين ، العزائم : التى يعقِد القلب عليها وتطمئنّ النفس إليها .

ومسارق إيماض الجفون : ماتسترقه الأبصار حين تومض ، يقال : أومض البصر والبرق إيماضاً إذا لمع لَمْعاً خفيفا ، ويجوز : ومض بغير همز ، يمِض ومْضاً وميضا ووَمَضانا . وأكنانُ القلوب : غُلُفها ، والكِنّ : الستر ، والجمع أكنان ، قال تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ [4] ويروى : « أكنّة القلوب » وهى الأغطية أيضا ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [5] ، والواحد كِنَان ، قال عمر بن أبى ربيعة :

---

(١) اللسان ٢٠ : ١٧٩ ، ونسبه إلى سحيم بن وثيل اليربوعى ؛ وبعده :

وَاضطربَ القومُ اضطرابَ الأَرْشِيَهْ هناكَ أوصيني وَلَا تُوصِي بِيَهْ

(٢) سورة يوسف ٨٠ .

(٣) اللسان ٢ : ٣٣٥ من غير نسبة .

(٤) سورة النحل ٨١ .

(٥) سورة الأنعام ٢٥ .

تحتَ عَيْنٍ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّـــلُ [1]

ويعنى بالذى ضمنته أكنانُ القلوب الضمائر .

وغَيابات الغيوب : جمع غَيابة ، وهى قَعْر البئر فى الأصل ؛ ثم نقلت إلى كلّ غامض خفىّ ، مثل غَيابة ، وقد روى : « غَبَابَات » بالباء .

وأصغَتْ : تسمّعت ومالت نحوه . ولاستراقِه : لاستماعه فى خُفيه ، قال تعـالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾ [2] .

ومصائخ الأسماع : خروقُها التى يُصيخ بها ، أى يتسمّع .

ومصائف الذرّ : المواضع التى يَصِيف الذرّ فيها ، أى يقيم الصيف ، يقال : صافَ بالمكان واصطاف بمعنى ، والموضع مَصِيف ومصطاف .

والذرّ : جمع ذَرّة ، وهى أصغر النمل .

ومشاتى الهوامّ : المواضع التى تشتو الهوامُّ بها ، يقال : شتوتُ بموضع كذا وتشتَّيْت ، أى أقمت به الشتاء .

والهوامّ : جمع هامّة ، ولا يقع هذا الاسم إلّا على المخُوف من الأحْنَاش .

---

(١) اللسان ١٧ : ٢٤٣ ، وذكر قبله :

هَاجَ ذَا الْقَلْبَ مَنْزِلُ دَارِسُ الْعَهْـدِ مُحْولُ
أَيْنَا بَاتَ لَيْـــلَةً بَيْنَ غُصْنَيْنِ يُوبَلُ

قال ابن برى : صواب إنشاده :

* بردُ عَصبٍ مُرَحَّلُ *

وأنشده ابن دريد :

تَحْتَ ظِلٍّ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلُ

(٢) سورة الحجر ١٨ .

ورجْع الحنين : ترجيعه وترديده ، والمولّهات : النُّوق والنساء اللواتى حيل بينهنّ وبين أولادهنّ .

وهمس الأقدام: صوت وطئها خفيا جدا ، قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾[١]، ومنه قول الراجز .

* فَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيساً [٢] *

والأسدُ الهمُوس : الخفىّ الوطء .

ومنفسَحُ الثَّمرة ، أى موضع سعتها من الأ كام ، وقد رُوى : « متفسّخ » بالخاء المعجمة وتشديد السين وبتاء بعد الميم ، مصدرا من تفسّخت الثمرة ، إذا انقطعت .

والولائج: المواضع الساترة، والواحدة وَليجة، وهو كالكهف يستَتِر فيه المارة من مطر أو غيره ، ويقال أيضا فى جمعه : وُلُج وأولاج .

ومتقمّع الوحوش: موضع تقمّعها واستتارها، وسمى قَمَعَة[٣] بن إلياس بن مضر بذلك، لأنّه انقمع فى بيته كما زعموا .

وغِيران الجبال : جمع غارٍ ، وهو كالكهف فى الجبل ، والمغار مثل الغار والمغارة مثله .

ومختَبأ البعوض : موضع اختبائها واستتارها ، وسُوق الأشجار : جمع ساق. وألحيتُها جمع لحاء وهو القشر .

ومغرز الأوراق : موضع غَرْزها فيها .

---

(١) سورة طه ١٠٨ .

(٢) اللسان ٨ : ١٣٦ من غير نسبة .

(٣) قمعة : بفتح القاف والميم ، قال صاحب اللسان : « كان اسمه عميراً فأغير على إبل أبيه فانقمع فى البيت فرقاً ، فسماه أبوه قمعة ، وخرج أخوه مدركة بن إلياس لبقاء إبل أبيه ، فأدركها وقعد الأخ الثالث يطبخ القدر ، فسمى طابخة » .

والأفنان : جمع فَنَن ، وهو الغصن والأمشاج : ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها، جمع مَشِيج ، كيتيم وأيتام . ومحطّها : إما مصدر أو مكان .

ومسارب الأصلاب : المواضع التى يتسرب المنىُّ فيها من الصُّلب ، أى يسيل .

وناشئة الغيوم : أوّل ماينشأ منها ، وهو النّشىء أيضا ، وناشئة الليل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ (١) أول ساعاته ؛ ويقال : هى ما ينشأ فى الليل من الطاعات . ومتلاحمها ، مايلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم .

ودرور قطر السحائب : مصدر،من دَرّ يدِرّ،أى سال،وناقة دَرُور:أى كثيرة اللبن، وسَحَاب درور : أى كثير المطر ، ويقال : إن هذا السحّاب لدِرَّةً ، أى . صبًّا ، والجمع درور . ومتراكمها : المجتمع المتكاثف منها ، رَكَمْتُ الشىء أركُمه بالضم : جمعته وألقيت بعضَه على بعض ، ورمْلٌ ركام : وسحاب ركام ، أى مجتمع .

والأعاصير : جمع إعصار،وهى ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كالعمود.وقال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ (٢) .

وتسفى ، من سفَتِ الريح التراب سَفْيًا ، إذا أذرته فهو سَفِىّ . وذيولها هاهنا،يريد به أطرافها ومالاحَفَ الأرض منها .

وما تعفو الأمطار : أىْ ماتدرُس ؛ عفت الريح المنزل أى درسته ، وعفا المنزل نفسُه يعفُو : درس ، يتعدّى ولا يتعدّى .

وبنات الأرض : الهوامّ والحشرات التى تكون فى الرمال،وعَوْمها فيها : سباحتها؛ ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضا : عَوْم ،عُمت فى الماء ، بضمّ أوله أعُوم .

---

(١) سورة المزمل ٦ .
(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

وكُثبان الرمال : جمع كَثيب وهو ما انصبّ من الرَّمْل واجتمع فى مكانٍ واحد فصار تلًّا ، وكثبت الشىء أكثِبُه كثباً ، إذا جمعته ، وانكثب الرمْلُ : اجتمع .

وشَناخيب الجبال : رءوسها ، واحدها شُنْخوب . وذُرَاها : أعاليها جمع ذِرْوة وذُرْوة ، بالكسر والضم .

والتَّغريد : التطريب بالغناء ، والتغرّد مثله ؛ وكذلك الغَرَد بفتحهما ؛ ويقال : غرِد الطائر فهو غرِد ، إذا طرّب بصوته .

وذوات المنطق هاهنا : الأطيار ؛ وسمّى صوتها منطقا وإن كان لا يطلق إلا على ألفاظ البشر مجازا .

ودياجير : جمع دَيْجور ؛ وهو الظلام . والأوكار : جمع وَكْر ؛ وهو عُشّ الطائر ؛ ويجمع أيضا على وُكور ، ووَكَر الطائر يَكِر وَكْراً ، أى دخل وَكْره .

وقوله : « وما أوعبته الأصداف » ، أى من اللؤلؤ . وحَضَنت عليه أمواجُ البحار : أى ماضمّته كما تحضن الأنثى من الطير بيضها ، وهو مايكون فى لجة ؛ إما من سمك أو خشب أو مايحمله البحر من العنبر كالجماجم بين الأمواج وغير ذلك .

وسُدْفة الليل : ظلمته ، وجاء بالفتح . وقيل : السُّدفة اختلاط الضوء والظلمة معاً كوقت مابين طلوع الفجر إلى الإسفار .

وغشيته : غطّته . وذرّ عليه شارق نهار ، أى ماطلعت عليه الشمس ، وذرت الشمس تذُرّ بالضم ، ذُروراً : طلعت ، وذرّ البقل ، إذا طلع من الأرض .

وشَرَقت الشمس : طلعت ، وأشرقت بالهمزة ، إذا أضاءت وصفت .

واعتقبت : تعاقبت . وأطباق الدياجير : أطباق الظُّلَم . وأطباقها : جمع طَبَقة ، أى

أغطيتها، أطبقت الشيء أى غطّيته ، وجعلته مطبقاً ؛ وقد تطبّق هو ، ومنه قولهم : لو تطبّقت السماء على الأرض لما فعلتُ كذا . وسُبحات النور : عطف على أطباق الدياجير ، أى يعلم سبحانه ماتعاقب عليه الظلام والضياء . وسبحات هاهنا ، ليس يعنى به مايعنى بقوله : « سبحات وجه ربنا » ، لأنه هنالك بمعنى مايسبَح عليه النور ، أى يجرى ، من سَبْح الفرس وهو جَرْيه ، ويقال : فرس سابح .

والُخطوة : مابين القدمين ، بالضم ، وخطوت خَطْوَةً بالفتح ، لأنه المصدر .

ورَجْع كلّ كلة : ماترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده فى فكرك .

والنّسَمة : الإنسان نفسه ، وجمعها نَسَم ، ومثقال كلّ ذرة : أى وزن كلّ ذرة ، ومما يخطىء فيه العامة قولهم المدينار : مثقال ، وإنما المثقال وزن كلّ شىء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (١) .

وهَمَامِ كلّ نفس هامّة ، الهماهم : جمع هَمْهمة ، وهى ترديد الصوت فى الصّدْر ، وحمار هِمْهيم : يهمْهِم فى صوته ، وهمهمت المرأة فى رأس الصبىّ ، وذلك إذا نوّمته بصوت ترقّقه له . والنفس الهامّة : ذات الهمّة التى تعزم على الأمر .

قوله : « وما عليها » أى ماعلى الأرض ، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه ، اعتمادا على فهم المخاطب ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٢) .

وقرارة النطفة : مايستقرّ فيه الماء من الأماكن ، قال الشاعر :

وأَنْتُمْ قَرَارَةُ كُلِّ مَعْدِنِ سَوْءَةٍ　　وَلِكُلِّ سَائِلَةٍ تَسِيلُ قَرَارُ

والنُّطفة : الماء نفسه ، ومنه قوله عليه السلام فى الخوارج : إن مَصارعهم النطفة ، أى لايعبُرون النهر ، ويجوز أن يريد بالنطفة المَنىّ ويقويه ماذكره بعده من المُضْغة .

---

(١) سورة النساء ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن ٢٦ .

والنُّقاعة : نُقْرة يجتمع فيها الدم ، ومثله أُنقُوعة ، ويقال لوقْبَة الثّريد : أنقوعة .

والمضغة : قطعة اللّحم. والسلالة فى الأصل : ما استلّ من الشىء ،وسميت النطفة سلالة الإنسان ، لأنها استلّتْ منه ، وكذلك الولد .

والـكُلْفة : المشقّة، واعتورته مثل عرته. ونفذهم علمه ، تشبيه بنفوذ السهم، وعدّى الفعل بنفسه وإن كان معدًّى فى الأصل بحرف الجر ، كقولك : اخترت الرجال زيدا ، أى من الرجال ، كأنه جعل علمه تعالى خارقًا لهم ونافذا فيهم . ويروى : « وأحصاهم عَدّه » ، بالتضعيف .

* * *

الأصْـلُ :

اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَمِيلِ ، وَالتَّعْدَادِ ٱلْـكَثِيرِ ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ ، وَإِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ . ٱللَّهُمَّ فَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لَا أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ ، وَلَا أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ ، وَلَا أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ ٱلْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ ٱلْآدَمِيِّينَ ؛ وَالثَّنَاءِ عَلَى ٱلْمَرْبُوبِينَ ٱلْمَخْلُوقِينَ . ٱللَّهُمَّ وَلِـكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ ؛ وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ ٱلرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ ٱلْمَغْفِرَةِ .

ٱللَّهُمَّ ، وَهٰذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ ٱلَّذِي هُوَ لَكَ ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقًّا لِهٰذِهِ ٱلْمَحَامِدِ وَٱلْمَمَادِحِ غَيْرَكَ ؛ وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لَا يَجْبُرُ مَسْـكَنَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ ، وَلَا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلَّا مَنُّكَ وَجُودُكَ ، فَهَبْ لَنَا فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ رِضَاكَ ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ ٱلْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ !

* * *

الشرح :

التعداد : مصدر : وخَيْر : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : فأنت خير مأمول .

ومعنى قوله : « قد بسطت لى » ، أى قد آتيتنى لسناً وفصاحة وسعة منطق ، فلا أمدحُ غيرَك ، ولا أحمَدُ سواك .

ويعنى بمعادن الخيبة : البشر ، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب فى الأكثر ، وجعلهم مواضع الريبة ، لأنهم لا يوثق بهم فى حال :

ومعنى قوله عليه السلام : «وقد رجوتُك دليلًا على ذخائر الرّحمة وكنوز المغفرة» ، أنّه راجٍ منه أن يدلّه على الأعمال التى ترضيه سبحانه ، ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة ، وكأنه جعل تلك الأعمال التى يرجو أن يدلّ عليها ذخائر للرحمة وكنوزا .

والفاقة : الفقر ، وكذلك المسكنة .

وينعَش ، بالفتح : يرفع ، والماضى نعَش ، ومنه النعْش لارتفاعه .

والمنّ : العطاء والنعمة ، والمنّان ، من أسماء الله سبحانه .

(٩١)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان رضى الله عنه :

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي ؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا(١) أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ؛ وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ، وَعَتْبِ الْعَاتِبِ ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً ؛ خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً !

* * *

الشَّرْحُ :

فى أكثر النسخ: « لما أراده الناس على البيعة » ،ووجدت فى بعضها : «أداره الناس على البيعة » ، فمن روى الأول جعل «على» متعلّقة بمحذوف ، وتقديره «موافقا» ، ومن روى الثانى جعلها متعلّقة بالفعل الظاهر نفسه ، وهو « أداره » ، تقول : أدرت فلانا على كذا ، وداورت فلانا على كذا ، أى عالجته .

ولا تقوم له القلوب ، أى لا تصبر . وأغامت الآفاق : غطّاها الغيم ، أغامت وغامت ، وأغيمت وتغيّمت(٢) ، كلّه بمعنى ، والمحجّة :الطريق. وتنكّرت : جهلت فلم تعرف . و«وزيرا» و « أميرا »: منصوبان على الحال .

وهذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ؛ ويقولون: إنه عليه السلام لم يكن منصوصا

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب ، ومخطوطة النهج « وأعلم » .
(٢) د : « وغيمت » .

عليه بالإمامة من جهة الرسول صلى الله عليه وآله ، وإن كان أولى الناس بها وأحقهم بمنزلتها ، لأنه لو كان منصوصاً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول: «دَعُونى والتمسوا غيرى »؛ ولا أنْ يقول: « ولعلى أسمعكم وأطوعكم إن وليتموه أمركم» ، ولا أن يقول : « وأنا لكم وزيراً خيرٌ منّى لكم أميرا » وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون: إنّ الذين أرادوه على البَيْعة هم كانوا العاقدين بَيْعة الخلفاء من قبل ؛ وقد كان عثمان مَنَعهم أو منع كثيراً منهم عن حَقّه من العطاء ؛ لأنّ بنى أمية استأصلوا الأموال فى أيام عثمان ؛ فلما قتل قالوا لعلىّ عليه السلام : نبايعك على أن تسيرَ فينا سيرَة أبى بكر وعمر ؛ لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلهما ، فطلبوا من علىّ عليه السلام البَيْعة ، على أن يقسِّم عليهم بيوت الأموال قسمة أبى بكر وعمر؛ فاستعفاهم وسألهم أن يطلبُوا غيره ممن يسير بسيرتهما ؛ وقال لهم كلاما تحته رمز ، وهو قوله : « إنّا مستقبلون أمرا له وجوهٌ وألوان ، لاتقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإنّ الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكّرت » .

قالوا: وهذا كلام له باطنٌ وغَوْرٌ عميق ، معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم[1] ، وهو الإنذارُ بحرب المسلمين بعضهم لبعض ، واختلافُ الكلمة وظهورُ الفتنة .

ومعنى قوله: « له وجوه وألوان » أنه موضع شبهة وتأويل ، فمن قائل يقول :أصاب علىّ ، ومن قائل يقول : أخطأ ، وكذلك القول فى تصويب محاربيه من أهل الجمل وصِفّين والنّهْروان وتخطئتهم ، فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعّبت وتفرّقت جدا .

ومعنى قوله : « الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكّرت » أن الشبهة قد استولتْ على العقول والقلوب ، وجهل أكثرُ الناس محجّة الحق أين هى ، فأنا لكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أفتى فيكم بشريعته وأحكامه خيرٌ لكم منى أميرا محجورا عليه

(١) ساقطة من ا .

مدبّرا بتدبيركم ، فإنى أعلم أنه لا قُدرة لى أن أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله فى أصحابه مستقلًّا بالتدبير ، لفساد أحوالكم ، وتعذّر صلاحكم .

وقد حمل بعضُهم كلامه على محمل آخر ، فقال : هذا كلام مُسْتَزيد(١) شاكٍ من أصحابه ، يقول لهم : دعونى والتمسوا غيرى ، على طريق الضَّجر(٢) منهم ، والتبرّم بهم والتسخّط لأفعالهم ، لأنهم كانوا عَدَلوا عنه من قَبْل ، واختاروا عليه ، فلما طلبوه بعدُ أجابهم جوابَ المتسخّط العاتب .

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر ، فقالوا : إنه أخرجه مخرج التهكّم والسخرية ، أى أنا لكم وزيراً خيرٌ منى لكم أميرا فيما تعتقدونه ، كما قال سبحانه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٣) أى تزعم لنفسك ذلك وتعتقده .

واعلم أن ماذكروه ليس ببعيد أن يحمَلَ الكلام عليه لو كان الدليل قد دلّ على ذلك ، فأما إذا لم يدلّ عليه دليل ، فلا يجوز صَرْفُ اللفظ عن ظاهره ، ونحن نتمسك بالظاهر إلّا أن تقوم دلالة على مذهبهم تصدّنا عن حَمْل اللفظ عن ظاهره ، ولو جاز أن تصرف الألفاظُ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدف ويصدّ عنها ، لم يبق وثوق بكلام الله عزوجلّ وبكلام رسوله عليه السلام ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحال التى كانت بعد قَتْل عثمان ، والبيعة العلَويّة كيف وقعت .

* * *

[فصل فيما كان من أمر طلحة والزبير عند قسم المال]

ونحن نذكر هاهنا فى هذه القصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ (٤) فى كتابه

(١) مستزيد ، أى شاك عاتب ، وفى الأساس : « فلان يستزيد فلاناً ، يستقصره ويشكوه ؛ وهو مستزيد » .
(٢) د : « الضجر » .
(٣) سورة الدخان ٤٩

(٤) هو محمد بن عبد الله ، أبو جعفر المعروف بالإسكافى ؛ أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين . قال الخطيب فى تاريخه (٥ : ٤١٦) : « له تصانيف معروفة ؛ وكان الحسين بن على الكرابيسى يتكلم معه ويناظره ، وبلغنى أنه مات فى سنة أربعين ومائتين » .

الذى نقض فيه كتاب '' العثمانية '' لشيخنا أبى عثمان ، فإن الذى ذكره لم نورده نحن فيما تقدم .

قال أبو جعفر : لما اجتمعت الصحابةُ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد قَتْل عثمان للنَّظر فى أمر الإمامة ، أشار[١] أبو الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاريّ وعمار بن ياسر بعلىّ عليه السلام ،وذكروا فضلَه وسابقته وجهاده وقرابته ، فأجابهم الناسُ إليه ، فقام كلّ واحد منهم خطيبا يذكر فَضْل علىّ عليه السلام ، فمنهم مَنْ فَضّله على أهل عصره خاصة ، ومنهم من فضله على المسلمين كلّهم كافة. ثم بويع وصعد المنبر فى اليوم الثانى من يوم البَيْعة ، وهو يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقينَ من ذى الحجة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر محمدا فصلّى عليه ، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام ، ثم ذكر الدنيا ، فزهدهم فيها ، وذكر الآخرة فرغبهم إليها ، ثم قال :

أما بعدُ ؛ فإنه لما قُبض رسول الله صلى الله عليه استخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فعمِل بطريقه ، ثم جعلها شورى بين ستة ، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان ، فعمل ما أنكرتم وعرفتم[٢] ، ثم حُصِر وقتل ، ثم جئتمونى طائعين فطلبتم إلىّ ؛ وإنما أنا رجلٌ منكم ، لى مالكم ، وعلىّ ما عليكم ، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة ،وأقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم ، ولا يحمِلُ هذا الأمرَ إلا أهلُ الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر ، وإنّى حاملكم على منهج نبيّكم صلى الله عليه وآله ، ومنفِذ فيكم ما أُمِرت به ؛ إن استقمتم لى . وبالله المستعان . ألا إنّ موضعِى من رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته كموضعى منه أيامَ حياته ، فامضوا لما تؤمرون به ، وقِفُوا عند ما تنهون عنه ، ولا تعجلوا فى أمر حتى نبيّنه لكم ؛ فإنّ لنا عن كلّ أمر تنكرونه عذراً . ألا وإنّ الله عالم من فوق سمائه وعرشه أنى كنت كارها الولاية على أمة محمد؛ حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أيّما وَالٍ وَلِيَ الأمر من بعدى ، أقيم على حدّ الصراط ،

(١) أشاروا بفضله ؛ أى عرفوا الناس به .
(٢) كذا فى د .

ونشرت الملائكة صحيفته ؛ فإن كان عادلا أنجاه الله بعدله ، وإن كان جائرا انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله ، ثم يهوى إلى النار ؛ فيكون أوّل ما يتّقيها به أنفه وحرّ وجهه » ، ولكنى لمّا اجتمع رأيكم لم يسعنى تركُكم .

ثم التفتَ عليه السلام يمينا وشمالا ، فقال : ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمرتْهم الدنيا فاتخذوا العقَار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الرّوقة[1] ؛ فصار ذلك عليهم عارا وشنارا ؛ إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتُهم إلى حقوقهم التى يعلمون ، فينقِمون ذلك ، ويستنكرون ويقولون : حرمَنا ابن أبى طالب حقوقنا ! ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرَى أن الفضل له على مَنْ سواه لصحبته ، فإنّ الفضل النيِّر غدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، وأيّما رجلٍ استجاب لله وللرسول ، فصدق ملّتنا ، ودخل فى ديننا ، واستقبل قبلتنا ؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسَّم بينكم بالسوّية ، لافضلَ فيه لأحد على أحدٍ ؛ وللمتقين عند الله غدا أحسنُ الجزاء ، وأفضل الثواب ؛ لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرا ولا ثواباً ، وما عند الله خير للأبرار . وإذا كان غدا إن شاء الله فاغدُوا علينا ؛ فإن عندنا مالاً نقسِّمه فيكم ، ولا يتخلّفنّ أحدٌ منكم ؛ عربىّ ولا عجمىّ ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ؛ إلا حَضَر ؛ إذا كان مسلِماً حرّا . أقولُ قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم نزل .

قال شيخنا أبو جعفر : وكانَ[2] هذا أوّل ما أنكروه من كلامه عليه السلام ، وأورثهم الضِّغن عليه ؛ وكرهوا إعطاءه وقَسْمه بالسويّة . فلما كان من الغد ، غدا وغَدا الناس لقبض المال ؛ فقال لعبيد الله بن أبى رافع كاتبه : ابدَأْ بالمهاجرين فنادِهم ، وأعطِ كلّ

(١) الروقة : الحسان .
(٢) د : « فكان » .

رجل ممّن حضر ثلاثة دنانير ثم ثَنَّ بالأنصار فافعــل معهم مثل ذلك ؛ ومن يحضر من الناس كلّهم ؛ الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك .

فقال سهل بن حَنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامى بالأمس ؛ وقد أعتقتُه اليوم ؛ فقال : نعطيه كما نعطيك ، فأعطَى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير ؛ ولم يفضّل أحداً على أحد؛ وتخلّف عن هذا القَسْم يومئذ طلحة والزبير وعبــد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومرْوان بن الحـكم ؛ ورجال من قريش وغيرها .

قال : وسمع عبيدُ الله بن أبى رافع عبدَ الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد : ما خفِىَ علينا أمس من كلام علىّ ما يريد ؛ فقال سعيد بن العاص ـ والتفت إلى زيد بن ثابت : إياكِ أعنى واسمعى ياجارة ؛ فقال عبيدُ الله بن أبى رافع لسعيد وعبد الله ابن الزبير : إنّ الله يقولُ فى كتابه : ﴿ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾(١) .

ثم إنّ عبيد الله بن أبى رافع أخبرَ عليا عليه السلام بذلك ، فقال : والله إنْ بقيت وسلِمت لهم لأقيمنّهم على المحجّة البيضاء ، والطريق الواضح ، قاتل الله ابنَ العاص ! لقد عرَفَ من كلامى ونظرى إليه أمسِ أنّى أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هَلَكَ .

قال : فبينا الناس فى المسجد بعد الصبح إذ طلع الزّبير وطلحة ، فجلسا ناحية عن علىّ عليه السلام ، ثم طلع مروان وسعيد وعبدالله بنالزبير ؛ فجلسوا إليهما ، ثم جاء قوم من قريش فانضمّوا إليهم ، فتحدّثوا نجيًا ساعة ؛ ثم قام الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، فجاء إلى علىّ عليهالسلام ؛ فقال : يا أبا الحسن ؛ إنك قد وَتَرْتَنا جميعا ؛ أما أنا فقتلتَ أبى يوم بدر صَبْراً ، وخذلتَ أخى يوم الدار بالأمس ؛ وأما سعيد فقتلتَ أباه يوم بَدْر فى الحرب ـ وكان ثورَ قريش ـ وأما مروان فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه ؛ ونحن إخوتك

---

(١) سورة الزخرف ٤٣ .

ونظراؤك من بنى عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على أن تضعَ عَنّا ماأصبناه من المال فى أيام عثمان ، وأن تقتل قتلته ؛ وإنا إن خفناك تركناك ؛ فالتحقنا بالشام .

فقال : أمّا ما ذكرتم من وِتْرى إياكم فالحقّ وتركم ، وأما وضعى عنكم ماأصبتم فليس لى أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم ، وأما قتلى قتلة عثمان فلو لزمنى قتلُهم اليوم لقتلتُهم أمس ؛ ولكنْ لكم علىّ إن خفتمونى أن أؤمّنكم وإن خفتُكم أنْ أسيّركم .

فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم ، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف ؛ فلما ظهر ذلك من أمرهم ، قال عمار بن ياسر لأصحابه : قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنّه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف ، والطعن على إمامهم ؛ وقد دخل أهلُ الجفاء بينهم وبين الزُّبير والأعسر العاقّ — يعنى طلحة .

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيوب وسَهْل بن حنيف وجماعة معهم ، فدخلوا على علىّ عليه السلام ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ، انظر فى أمرك ، وعاتِبْ قومك ، هذا الحىّ من قريش فإنهم قد نَقَضُوا عهدك ، وأخلفوا وعْدَك ، وقد دعونا فى السرّ إلى رفضك ، هداك الله لرشدك ! وذاك لأنّهم كرِهوا الأسوة ، وفقدوا الأُثرة ، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوك وعظّموه ، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة ، وتألّفاً لأهل الضلالة . فرأيك !

فخرج علىّ عليه السلام ، فدخل المسجد ، وصعد المنبر مرتديا بطاقٍ ، مؤتزرا ببُرْدٍ قَطَرِىّ ، متقلّدا سيفا ، متوكئا على قوْس ، فقال :

أما بعد ، فإنّا نحمد الله ربنا وإلهنا ووليّنا ، وولىّ النعم علينا ، الذى أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة ، امتنانا منه بغير حَوْل منا ولا قوة ، ليبلُوَنا أنشكرُ أم نكفر ؛ فمن شكر زاده ومَنْ كَفَر عذّبه ؛ فأفضلُ الناس عند الله منزلة ، وأقربهم من الله وسيلة ، أطوعُهم لأمره ،

وأعلمهم بطاعته ؛ وأتبعهم لسنّة رسوله ، وأحياهم لكتابه ؛ ليس لأحد عندنا فضلٌ إلا بطاعة الله وطاعة الرسول . هذا كتاب الله بين أظهرنا ، وعهد رسول الله وسيرته فينا ، لا يجهلُ ذلك إلا جاهلٌ عاند عن الحقّ منكر ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(١).

ثم صاح بأعلى صوته : أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول ، فإنْ تَوَلَّيْتُم فإنّ اللّهَ لا يحبُّ الْكَافِرِينَ .

ثم قال : يامعشر المهاجرين والأنصار : أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم ، بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنتم صادقين .

ثم قال : أنا أبو الحسن — وكان يقولها إذا غضب — ثم قال : ألا إنّ هذه الدنيا التى أصبحتم تمنّونها وترغبون فيها ، وأصبحتْ تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ولا منزلكم الذى خلقتم له ؛ فلا تغرّنكم فقد حذرتكموها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصّبر لأنفسكم على طاعة الله ، والذّلّ لحكمه جل ثناؤه ، فأمّا هذا الفىء فليس لأحد على أحد فيه أثرة ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا ، وعهدُ نبينا بين أظهرنا ، فمن لم يرضْ به فليتولَّ كيف شاء ، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحْشة عليه .

ثم نزل عن المنبر ، فصلّى ركعتين ، ثم بعث بعمار بن ياسر ، وعبد الرحمن بن حسل القرشى إلى طلحة والزبير ، وهما فى ناحية المسجد ، فأتياهما فدعواهما ، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام ، فقال لهما : نشدتكما الله ، هل جئتمانى طائعَيْن للبيعة ، ودعوتمانى إليها ، وأنا كارهٌ لها ؟ قالا : نعم ، فقال : غيرَ مجبَرَين ولا مقسورَيْن ، فأسلمتمالى بيعتكما وأعطيتمانى عهدكما ؟

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .

قالا : نعم ، قال : فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى ؟ قالا : أعطيناك بيعتنا على ألّا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا؛ وأن تستشيرنا فى كلِّ أمر ولا تستبدّ بذلك علينا ، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت ؛ فأنت تقسم القَسْم وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا .

فقال : لقد نقمتما يسيرا ؛ وأرجأتما كثيرا ! فاستغفرا الله يغفر لكما . ألا تخبرانني ، أدفعتكما عن حقّ وجب لكما فظلمتكما إياه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسى بشىء ؟ قالا : معاذ الله ! قال : أفوقع حُكْم أو حقّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فما الذى كرهتما من أمرى حتى رأيتما خلافى ؟ قالا : خلافك عمر بن الخطاب فى القَسْم ؛ أنك جعلت حقّنا فى القَسْم كحقّ غيرنا ، وسوّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا ، وأوجفنا[1] عليه بخيلنا ورجلنا ، وظهرت عليه دعوتنا ، وأخذناه قسرا قهرا ، ممن لا يرى الإسلام إلا كرها . فقال : فأمّا ما ذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لى فى الولاية رغبة ؛ ولكنكم دعوتمونى إليها ، وجعلتمونى عليها ؛ فخفت أن أردّكم فتختلف الأمة ، فلما أفضت إلىّ نظرتُ فى كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلّانى عليه وأتبعته ، ولم أحتج إلى آرائكما فيه ؛ ولا رأى غيركما ، ولو وقع حكمٌ ليس فى كتاب الله بيانهُ ولا فى السنة برهانه ، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه ؛ وأما القَسْم والأسوة ؛ فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء ! قد وجدتُ أنا وأنتما رسولَ الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وأما قولكما : جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا ، سواء بيننا وبين غيرنا ، فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله فى القَسْم ، ولا آثرهم بالسبْق ، والله

(١) ما أوجفنا : ما أعملنا .

سبحانه موفٍ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندى ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ثم قال: رحم الله امرأً رأى حقًّا فأعان عليه، ورأى جَوْراً فردّه، وكان عونا للحق على من خالفه.

* * *

قال شيخنا أبو جعفر: وقد روى أنهما قالا له وقت البيعة: نُبايعك على أنّا شركاؤك فى هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنّكما شريكاى فى الفيء، لا أستأثر عليكما ولا على عبد حبشى مجدّع بدرهم فما دونه، لا أنا ولا وَلَدَاى هذان، فإن أبيتُما إلا لفظ الشركة، فأنتما عَوْنان لى عند العجز والفاقة، لا عند القوّة والاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشترطا مالا يجوز فى عَقْد الأمانة، وشرط عليه السلام لهما مايجب فى الدِّين والشريعة.

قال رحمه الله تعالى: وقد رُوِىَ أيضاً أنّ الزبير قال فى ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من علىّ! قمنا له فى أمر عثمان حتى قُتِل، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا مَنْ كنّا فوقه.

وقال طلحة: ما اللوم إلا علينا، كنّا معه أهل الشورى ثلاثة، فكرهه أحدنا — يعنى سعدا — وبايعناه، فأعطيناه مافى أيدينا، ومَنَعَنا مافى يده، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم مارجوناه أمس، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم.

* * *

فإن قلت: فإنّ أبا بكر قَسَّم بالسواء، كما قسمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم ينكروا ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبا بكر قَسَم محتذيًا لقَسْم[1] رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وَلِىَ عمر الخلافة، وفضّل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسُوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر،

(١) د: «محتذياً بالقسم رسول الله».

وأشربَتْ قلوبهم حُبَّ المال ، وكثرةَ العطاء . وأما الذين اهتضَمُوا فقنعوا ومَرَنُوا على القناعة ، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أنّ هذه الحال تنتقض أو تتغيّر بوجهٍ ما ، فلما ولىَ عثمان أجْرَى الأمر على ما كان عمر يُجريه ، فازداد وثوقُ القوم بذلك ، ومن ألِفَ أمراً أشقّ عليه فراقه ، وتغيير العادة فيه ، فلما ولى أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر ، وقد نسى ذلك ورفض وتخلّل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة ، فشق ذلك عليهم ، وأنكروه وأكبروه ، حتى حدَث ما حدث من نقض البيعة ، ومفارقة الطاعة ، ولله أمر هو بالغه !

(٩٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا ، وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا .

فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ،وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ[1] بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا ، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً ، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً .

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الْأُمُورِ ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ ، لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ ؛ وَذَلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ ؛ وَكَانَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً ، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ .

إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ ،وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ ؛ يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ،وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَداً ، وَيُخْطِئْنَ بَلَداً .

أَلَا وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا ، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا .

وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ الضَّرُوسِ ، تَعْذِمُ

---

(١) مخطوطة النهج : « نبأتكم » .

بِفِيهَا ، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا ، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا ، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا ، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعاً لَهُمْ ؛ أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ .

وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلَ انتصار الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شوهاً مَخْشِيَّةً ، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى ،وَلَا عَلَمٌ يُرَى ، نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بنجاة، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ ، بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً ، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ ، وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بالدُّنيا وَمَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً ، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ ؛ لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ ما أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونَنِيهِ .

* * *

الشرح

فقأتُ عينَه ،أي بخقْتُها ، وتفقّأت السحابة عن مائها: تشقّقت ،وتفقّأ الدّمّل والقُرح، ومعنى فقْئِه عليه السلام عينَ الفتنة ، إقدامه عليها حتى أطفأ نارها ،كأنه جعل للفتنة عيناً محدقة يهابها الناس ، فأقدم هو عليها ، ففقأ عينَها ، فسكنت بعد حركتها وهيجانها .

وهذا من باب الاستعارة ، وإنما قال : « ولم يكن ليجترئُ عليها أحد غيري » ، لأنّ الناس كلّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة ، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعُون مولّيهم أم لا ؟ وهل يُجْهِزُون على جريحهم أم لا ؟ وهل يقسّمون فيئهم أم لا ؟ وكانوا يستعظِمُون قتال مَنْ يؤذّن كأذاننا ، ويصلّي كصلاتنا ؛ واستعظموا أيضا حربَ عائشة وحربَ طلحة والزبير ، لمكانهم في الإسلام ، وتوقّف جماعتهم عن الدّخول في تلك الحرب ، كالأحنف ابن قيس وغيره ، فلولا أنّ عليًّا اجترأ على سلّ السيف فيها ما أقدم أحدٌ عليها ، حتى

الحسن عليه السلام ابنه ، أشار عليه ألّا يبرح عَرْصة المدينة ، ونهاه عن المسير إلى البصرة ، حتى قال له منكرا عليه إنكاره : ولا تزال تخِنّ خَنِين الأَمَة ! وقد روى ابنُ هلال صاحب كتاب " الغارات " أنه كلّم أباه فى قتال أهل البصرة بكلام أغضبه ، فرماه ببيضة حديد عَقَرَتْ ساقه ، فعولج منها شهرين .

والغيهب : الظلمة ، والجمع غياهب . وإنما قال : « بعد ما ماج غيهبها » ، لأنه أراد : بعد ماعمّ ضلالُها فشمل ، فكنّى عن الضلال بالغيهب ، وكنّى عن العُموم والشمول بالتموّج ، لأن الظلمة إذا تموّجت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التى تشملها لو كانت ساكنة . واشتدَّ كَلَبُها ، أى شرّها وأذاها . ويقال للقحط الشديد : كَلَب ، وكذلك للقرّ الشديد .

ثم قال عليه السلام : « سَلُونى قبل أن تفقدونى » ، روى صاحب كتاب " الاستيعاب " وهو أبو عمر محمد بن عبد البرّ عَنْ جماعة من الرواة والمحدّثين ، قالوا : لم يقلْ أحدٌ من الصحابة رضى الله عنهم : « سَلُونى » إلا على بن أبى طالب . وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافى فى كتاب " نقض العثمانية " عن علىّ بن الجَعد ، عن ابن شُبْرمة ، قال : ليس لأحد من الناس أن يقول عَلَى المنبر : « سَلُونى » إلا علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

والفئة : الطائفة ؛ والهاء عوض من «الياء» التى نقصت من وسطه ، وأصله « فئ » مثال « فيع » لأنه من فاء ، ويجمع على فئات ؛ مثل شيات وهبات ولِدَات .

وناعقها : الداعى إليها ؛ من نَعيق الرّاعِى بغنمه ، وهو صوته نَعَق ينعِق بالكسر نعيقا ونُعاقا ، أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فانْعَقْ بضأنكَ ياجرير فإنّما ... منّتْك نفسُك فى الخلاء ضلالا (١)

(١) ديوانه ٥٠

فأمّا الغراب ، فيقال: نَعَق ، بالغين المعجمة ينغِق بالكسر أيضا ، وحكى ابن كَيْسان « نَعَق الغراب » أيضا بعين غير معجمة .

والركاب: الإبل، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها رُكُب، مثل كِتاب وكُتب . ويقال : زيْت رِكابيّ ، لأنه يحمل من الشام عليها .

والمُنَاخ ، بضمّ الميم ، ومَحطّ بفتحها ، يجوز أن يكونا مصدرين ، وأنْ يكونا مكانين ، أما كونُ المُناخ مصدرا ، فلأنه كالمقام الذى بمعنى الإقامة ، وأما كون المحطّ مصدرا فلأنه كالمرد فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾(١) ، وأما كونهما موضعين فلأن المناخ من أنخت الجمل ، لا من ناخ الجمل، لأنه لم يأت ، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع منه يأتى مضموم الميم ، لأنّه مشبه ببنات الأربعة ، نحو دحرج ، وهذا مُدَحرجنا ، ومن قال : هذا مُقام بنى فلان ، أى موضع مقامهم جَعَله كما جعلناه نحن، من أقام يقيم ، لا من قام يقوم ، وأما المحطّ ، فإنه كالمَقْتل موضع القتل، يقال: مقتَل الرّجُل بين فكيه ، ويقال للأعضاء التى إذا أصيب الإنسان فيها هلك : مَقاتل ، ووجه المماثلة كونهما مضمومى العين .

* * *

[فصل فى ذكر أمور غيبية ، أخبر بها الإمام ثم تحققت]

واعلم أنه عليه السلام قد أقسم فى هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلّا أخبرهم به ، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدى بها مائة وتضلّ بها مائة، إلا وهو مخبرٌ لهم – إن سألوه – برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ، ومَنْ يقتل منها قتلا ، ومَنْ يموت منها موتا ، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الرّبوبية ، ولا ادّعاء النبوة ، ولكنه كان يقول : إن رسول الله صلى

---

(١) سورة غافر ٤٣

الله عليه وآله أخبرَه بذلك ، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقا ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ، كإخباره عن الضربة يُضرب بها فى رأسه فتخضب لحيته ، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام ، وماقاله فى كربلاء حيث مرّ بها ، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده ، وإخباره عن الحجاج ، وعن يوسف بن عمر ، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان ، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم ، وصَلْب مَنْ يُصْلَب ، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شَخَص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها ، وإخباره عن عبدالله بن الزبير ، وقوله فيه : « خبّ ضبّ ، يروم أمراً ولايدركه ، ينصِبُ حبالة الدين لاصطياد الدنيا ، وهو بعدمصلوب قريش » وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق ، وهلاكها تارة أخرى بالزّنج ، وهو الذى صحفّه قوم فقالوا : بالريح ، وكإخباره عن ظهور الرايات السُّود من خُراسان ، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببنى رزيق - بتقديم المهملة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم ، وكانوا هم وسَلَفهم دعاة الدولة العباسية ، وكإخباره عن الأئمة الّذين ظهروا من وَلده بطَبرستان ، كالناصر والداعى وغيرهما ، فى قوله عليه السلام : « وإن لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله » ، وكإخباره عن مقتل النفس الزّكية بالمدينة ، وقوله : « إنه يقتل عند أحجار الزيت » ، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة : « يقتل بعد أن يظهر ويُقهر بعد أن يقهر » ، وقوله فيه أيضا : « يأتيه سهم غَرْب[1] يكون فيه منيّته فيا بؤساً للرامى ! شَلّت يده ، ووهَن عَضُده » ، وكإخباره عن قتلى وَجّ ، وقوله فيهم : « هم خير أهل الأرض » .

وكإخباره عن المملكة العَلَوية بالغرب ، وتصريحه بذكر كتامة ، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الدّاعى المعلّم . وكقوله وهو يشير إلى أبى عبدالله المهدى : وهو أولهم ثم يظهرُ

(١) سهم غرب : أى لا يدرى راميه .

صاحب القَيْروان الغضّ البَضّ ، ذو النسب المحض ، المنتجَب من سلالة ذى البداء ، المسجّى بالرداء ، وكان عبيد الله المهدى أبيض[(١)] مترفاً مشرباً بحُمرة ، رخص البدن ، تارّ[(٢)] الأطراف . وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام ، وهو المسجّى بالرداء ، لأن أباه أبا عبد الله جعفرا سجّاه بردائه لما مات ، وأدخل إليه وجُوه الشيعة يشاهدونه ، ليعلموا موته ، وتزول عنهم الشبهة فى أمره .

وكإخباره عن بنى بويه وقوله فيهم : «ويخرج من دَيْلمانَ بنو الصّياد » ، إشارة إليهم . وكان أبوهم صياد السمك يصيدُ منه بيده مايتقوّت هو وعياله بثمنه ، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكا ثلاثة ، ونشر ذرّيتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم . وكقوله عليه السلام فيهم : «ثم يستشرى أمرُهم حتى يملكوا الزّوراء ، ويخلعوا الخلفاء » فقال له قائل : فكم مدّتُهم ياأمير المؤمنين ؟ فقال : « مائة أو تزيد قليلا » . وكقوله فيهم : « والمترفُ ابن الأجذم ، يقتله ابنُ عمّه على دِجْلة » ، وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معز الدولة أبى الحسين ، وكان معزّ الدولة أقطَع اليد ، قطعت يده للنّكوص فى الحرب ، وكان ابنه عزّ الدول بختيار مترَفاً ، صاحب لهو وشرب ، وقتله عَضُد الدولة فنّاخسرو ، ابن عمه بقصر الجصّ على دِجْلة فى الحرب ، وسلَبه ملكه . فأما خلعهم للخلفاء فإنّ معز الدولة خلع المستكفى ، ورتّب عِوضه المطيع ، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خَلَع الطائع ورتّب عوضه القادر ، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام .

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده ، فإنّ على بن عبد الله لما ولِدَ ، أخرجه أبوه عبد الله إلى على عليه السلام ، فأخذه وتفَل فى فيه

---

(١) ساقطة من ب .
(٢) التار : الممتلىء جسمه وعظمه رياً .

وحنّكه بتمرة قد لاكها ، ودفعه إليه ، وقال : خذ إليك أبا الأملاك . هكذا الرواية الصحيحة ، وهى التى ذكرها أبو العباس المبرّد فى كتاب " الكامل "[1] ، وليست الرواية التى يُذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمَد عليه .

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كراريس كثيرة ، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة .

فإن قلت : لماذا غَلَا الناس فى أمير المؤمنين عليه السلام ، فادَّعَوْا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التى شاهدوا صدقها عِيانا ، ولم يَغْلوا فى رسول الله صلى الله عليه وآله فيدّعوا له الإلهية ، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقينا ، وهو كان أولى بذلك ، لأنه الأصلُ المتبوع ، ومعجزاته أعظم ، وأخباره عن الغيوب أكثر ؟

قلت : إنّ الذين صحبوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، وشاهدوا معجزاتِه ، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عِيانا ، كانوا أشدّ آراء ، وأعظم أحلاما ، وأوفر عقولا من تلك الطائفة الضعيفة العقول ، السخيفة الأحلام ، الذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام فى آخر أيامه ، كعبد الله بن سبأ وأصحابه ، فإنهم كانوا من رَكاكة البصائر وضعفها على حال مشهورة ، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفّهم المعجزاتُ ، فيعتقدوا فى صاحبها أنّ الجوهر الإلهىّ قد حلّه ، لاعتقادهم أنه لا يصحّ من البشرِ هذا إلا بالحلول ، وقد قيل : إن جماعة من هؤلاء كانوا من نَسْل النصارى واليهود ، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول فى أنبيائهم ورؤسائهم ، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك . ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم مُلْحدين أرادوا إدخال الإلحاد فى دين الإسلام ، فذهبوا إلى ذلك ، ولو كانوا فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله لقالوا فيه مثل هذه المقالة ، إضلالا لأهل

---

(١) الكامل ٢ : ٢١٧ .

الإسلام ، وقصداً لإيقاع الشبهة فى قلوبهم ، ولم يكن فى الصحّابة[1] مثل هؤلاء ، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة ، ولم يهتدوا إلى هـــذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة .

ومما ينقدح لى من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنّ هؤلاء من العراق وساكنى الكوفة ، وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بَصَرٍ وتدقيق ونظر ، وبحث عن الآراء والعقائد ، وشُبَهٍ معترضة فى المذاهب ، وقد كان منهم فى أيام الأكاسرة مثل مانى وديصان ومَزْدك وغيرهم ، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان ، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعَجْرفيّة وخشونة الطبع ، ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف فطباعُهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة ، ولم يكن فيهم من قبلُ حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ، ولا موقع شبهة ، ولا مبتدع نِحلة ، ولهذا نجد مقالة الغُلاة طارئة وناشئة من حيث سكن علىّ عليه السلام بالعراق والكوفة ، لا فى أيام مقامه بالمدينة ، وهى أكثر عمره .

فهذا مالاح لى من الفرق بين الرجلين فى المعنى المقدم ذكره .

* * *

فإن قلت : لماذا قال عن فئة تهدى مائة ؟ وما فائدة التقييد بهذا العدد ؟

قلت : لأنّ مادون المائة حقير تافه لا يعتدّ به ليذكر ويخبر عنه ، فكأنه قال : مائة فصاعدا .

قوله عليه السلام : « كرائه الأمور » جمع كريهة وهى الشدّة فى الحرب . وحوازب الخطوب : جمع حازب ، وحزَبه الأمر ، أى دَهمه .

---

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ، وفى د « أصحابه » .

وفشل : جبن ؛ فإن قلت : أما فشل المسئول فمعلوم ، فما الوجه فى إطراق السائل ؟

قلت : لشدة الأمر وصعوبته ، حتى إن السائل ليبهت ويدهش فيطرق ، ولا يستطيع السؤال .

قوله عليه السلام : « إذا قَلَصت حربكم » يروى بالتشديد وبالتخفيف ، ويروى : « عن حربكم » ، فمن رواه مشددا أراد انضمّت واجتمعت ، وذلك لأنّه يكون أشدّ لها وأصعب من أن تتفرّق فى مواطن متباعدة ، ألا ترى أنّ الجيوش إذا اجتمعت كلّها واصطدم الفَيْلَقان ، كان الأمر أصعب وأفظع من أن تكونَ كلُّ كتيبة من تلك الجيوش تحارب كتيبة أخرى فى بلاد متفرّقة متباعدة ؛ وذلك لأنّ اصطدامَ الفَيْلقَيْن بأجمعهما هو الاستئصال الذى لاشَوَى [1] له ولا بقُيًا بعده . ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتزايدت ، من قولهم : قَلَصَتِ البئر ، أى ارتفع ماؤها إلى رأسها أودونه ، وهو ماء قالِص وقَليص ، ومن روى : « إذا قلّصت عن حربكم » أراد إذا قلّصت كرائه الأمور وحوازب الخطوب عن حربكم ، أى انكشفت عنها ، والمضارع من قَلَص يَقْلِص ، بالكسر .

قوله : « وشمّرت عن ساق » ، استعارة وكناية ، يقال للجادّ فى أمره : قد شمّر عن ساق ، وذلك لأنّ سبوغ الذيل مَعْثَرة . ويمكن أن يجرى اللفظ على حقيقته ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ [2] فسّروه فقالوا : الساق : الشدّة ، فيكون قد أراد بقوله : « وشمرت عن ساق » ، أى كشفت عن شدّة ومشقة .

ثم قال : « تستطيلون أيام البلاء » ، وذلك لأنّ أيام البؤس طويلة ، قال الشاعر :

---

(١) لا شوى له ؛ أى لا إبقاء له ؛ قال الكميت :

أجيبُوا رُقَى الآسِي النِّطَاسِيِّ وَاحْذَرُوا مطفِّئَةَ الرَّضْفِ التى لا شَوَى لهــا

(٢) سورة القلم ٤٢ .

فأيّام الهموم مقصّصاتٌ وأيامُ السرور تطير طـــيرا

وقال أبو تمام :

ثم انْبَرَتْ أيامُ هَـــجْر أردفتْ بِجَوًى أسًى فـكأنها أعوامُ[1]

قوله عليه السلام : « إن الفتن إذا أقبلت شبّهت » ، معناه أنّ الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثهـا ، يلتبس أمرها ولا يُعلم الحقّ منها من الباطل ، إلى أن تنقضيَ وتدبِر ، فحينئذ ينـكشف حالها ، ويعلم ما كان مشتبها منها . ثم أكّد عليـه السلام هذا المعنى بقوله : « ينـكَرْن مقبلات ، ويعرَفن مدبرات »، ومثال ذلك فتنة الجمل ، وفتنة الخوارج، كان كثير من الناس فيها فى مبدأ الأمر متوقّفين ، واشتبه عليهم الحال ، ولم يعلموا موضع الحقّ إلى أن انقضت الفتنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وبان لهم صاحبُ الضـلالة من صاحب الهداية .

ثم وصف الفتن ، فقال : إنها تحُوم حَوْم الرياح ، يصبن بلداً ، ويخطئن بلدا . حام الطائر وغيرُه حول الشيء ، يحوم حَوْماً وحَوَماناً ، أى دار .

ثم ذكر أنّ أخوف مايخاف عليهم فتنة بنى أميّة . ومعنى قوله « عَمّت خطّتها ، وخصّت بليّتها » ،أنها عمّت الناس كافةمن حيث كانت رياسة شاملةلـكلّ أحد ،ولـكن حظّ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من بليّتها أعظم ، ونصيبهم فيها أوفر .

ومعنى قوله : « وأصاب البلاء مَنْ أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عَمِىَ عنها » ، أن العالم بارتكابهم المنـكر مأثوم إذ لم ينكر ، والجاهل بذلك لاإثم عليـه إذا لم ينههم عن المنـكر ، لأنّ مــن لايعلم المنـكر مُنْـكَرا لايلزمه إنـــكاره ، ولا يعنى بالمنـكر هاهنا

---

(١) ديوانه ٣ : ١٥٢ .

ما كان منكرا من الاعتقادات ، ولا مايتعلق بالأمانة ، بل الزنا وشرب الخمر ونحوهما من الأفعال القبيحة.

فإن قلت : أىّ فرق بين الأمرين ؟

قلت : لأن تلك يلحق الإثمُ مَنْ لا يعلمها إذا كان متمكنا من العلم بها ، وهذه لايجب إنكارها إلا مع العلم بها ، ومن لا يعلمها لايلحقه الإثم إذا كان متمكّنا من العلم بها ، فافترق الموضوعان .

ثم أقسم عليه السلام فقال : « وايم الله » ، وأصله :وايمنُ الله ، واختلف النحويون فى هذه الكلمة فعند الأكثرين منهم أن ألفها ألف وصل ، وأن « ايمن » اسم وضع للقسم هكذا بألف وصل ، وبضم الميم والنون ، قالوا :ولم يأت فى الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها ، وتدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء ، فتقول : لَيْمن الله فتذهب الألف ؛ قال الشاعر :

فقال فريقُ القوم لما نشدتهمْ نعم ، وفريقٌ لَيْمُنُ الله ماندرى[1]

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف ، والتقدير لَيْمنُ الله قسمى ؛ فإذا خاطبت قلت « ليمنكَ » ؛ وفى حديث عروة بن الزبير : « لَيْمُنُكَ لئنْ كنت ابتَلَيْتَ ، لقد عافيت ، ولئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيت »[2]. وتحذف نونه فيصير « ايم الله » بألف وصل مفتوحة وقد تكسر ، وربما حذفوا الياء ، فقالوا : « ام الله » ؛ وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة ، فقالوا : « مُ الله » ،وقد يكسرونها لما صارت حرفا شبهوها بالباء ؛ وربما قالوا « مُنُ الله » بضم الميم والنون : « ومِنِ الله » بكسرهما : « ومَنَ الله » بفتحهما ، وذهب أبو عبيد وابن كَيْسان وابن دَرَسْتَويه إلى أنّ « أيمن » جمع يمين ، والألف همزة قطع ، وإنما خففت

(١) اللسان ٧ : ٣٥٤ ؛ ونسبه إلى نصيب ص ١٧٨ .
(٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٦٨ .

وطرحت فى الوصل لكثرة الاستعمال ، قالوا : وكانت العرب تحلف باليمين فتقول : يمين الله لا أفعل ، قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ يمينَ اللهِ أبْرَحُ قاعداً وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِى لَدَيْكِ وَأوْصَالِى (١)

قالوا : واليمين تجمع على « أيْمن » ، قال زهير :

فتُجْمَعُ أيْمُنٌ مِنّا ومِنْكُمْ بمُقْسَمةٍ تمُورُ بها الدِّماء (٢)

ثم حلفوا به ، فقالوا : أيمن الله ؛ ثم كثر فى كلامهم وخفّ على ألسنتهم ؛ حتى حذفوا منه النون كما حذفوا فى قوله « لم يكن » فقالوا « لم يك » . فأقسم عليه السلام لأصحابه أنّهم سيجدون بنى أمية بعده لهم أرباب سوء ، وصدَقَ صلوات الله عليه فيما قال ، فإنّهم ساموهم سوء العذاب قتْلًا وصلبا ، وحَبْسا وتشريدا فى البلاد .

ثم شبّه بنى أمية بالنّاب الضَّروس ، والنّاب : الناقة المسنّة ، والجمع نِيب ؛ تقول : لا أفعله ما حنّت النِّيب ، والضَّروس : السيئة الخُلُق تعضّ حالبها .

وتعذِم بفيها : تكدم ، والعذْم : الأكل بجفاء ، وفرس عَذُوم : يعضّ بأسنانه . والزَّبْن : الدفع ؛ زبنتِ الناقة تزبِنُ ، إذا ضربت بثَفِناتها عند الحلْب ، تدفع الحالب عنها . والدَّرّ : اللبن ، وفى المثل : « لا درّ درّه » الأصل « لبنُه » ، ثم قيل لكل خير ، وناقة دَرُور ، أى كثيرة اللبن .

ثم قال : لا يزالون بكم قتلا وإفناء لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه ، أولا يضرهم ولا ينفعُهم ، قال : حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبْد من مولاه ، أى لا انتصارَ لكم منهم ، لأنّ العبد لا ينتصر من مولاه أبدا . وقد جاء فى كلامه عليه

---

(١) ديوانه ٣٢ .

(٢) ديوانه ٧٨ مقسمة : موضع الحلف عند الأصنام ؛ وقال بعضهم : مكة ؛ لأنها تنحر بها البدن وتمور بها الدماء . وتمور : تسيل (من شرح الديوان) .

السلام فى غير هذا الموضع تتمة هذا المعنى : « إن حضر أطاعه ، وإن غاب سَبَّه » ، أى ثلبه وشتمه ، وهذه أمارة الذلّ ، كما قال أبو الطيب :

أبْدُو فيسجدُ مَنْ بالسُّوء يذكُرُنى   ولا أعاتبه صَفْحاً وإهوانا [1]
وهكذا كنتُ فى أهْلِى وفى وطنى   إنّ النفيسَ نفيسٌ أينما كانـــا

قال عليه السلام : « والصاحب من مستصحِبه » ، أى والتابع من متبوعه .

والشُّوه : جمع شَوْهاء ، وهى القبيحة الوجه ، شاهت الوجوه تشوه شَوْهاً [2] ، قَبُحت ، وشوّهه الله فهو مشوّه ، وهى شوهاء ، ولا يقال للذكر : أشوه . ومخشيّة : مخوفة .

وقطعا جاهلية ، شبهها بقطع السحاب لتراكمها على النـاس ، وجعلها جاهلية لأنها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم ، ويروى : « شوهاء » و « قطماء » ، أى نـكراء ، كالمقطوعة اليد .

قوله : « نحن أهلَ البيت منها بمنجاة » ، أى بمعزل ، والنَّجاة والنَّجوة : المـكان المرتفع الذى تظن أنه نجاك ، ولا يعلوه السيل . ولسنا فيها بدعاة ، أى لسنا من أنصار تلك الدّعوة . و« أهلَ البيت » منصوب على الاختصاص ، كقولهم : نحن معشرَ العرب نفعل كذا ، ونحن آلَ فلان كرماء .

قوله : « كتفريج الأديم » : الأديم الجلد ، وجمعه أدُم مثل أفيق وأفُق ؛ ويجمع أيضا على « آدمة » ، كرغيف وأرغفه ، ووجه التشبيه أن الجلد ينكشف عمّا تحته ، فوعدهم عليه السلام بأنّ الله تعالى يكشف تلك الغماء كانـكشاف الجلد عن اللحم ، بمن يسومهم خسفا ، ويوليهم ذلا .

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٣ .
(٢) ساقطة من ب .

والعُنْف ، بالضم : ضدّ الرفق . وكأس مصبّرة ممزوجة بالصَّبِر لهذا المرّ ؛ ويجوز أن يكون « مصبّرة » مملوءة إلى أصْبارها ؛ وهى جوانبها ، وفى المثل : « أخذها بأصبارها » أى تامّة ، الواحد صُبر ، بالضم .

ويُحْلِسهم : يلبسهم ، أحلست البعير ألبسته الحِلْس ؛ وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة ، يقال : له حِلْس وحلَس ؛ مثل شِبْه وشَبَه .

والجَزُور من الإبل : يقع على الذّكر والأنثى ، وجَزْرها : ذَبْحها .

* * *

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوّدة ، وانقراض ملك بنى أمية . ووقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه ؛ حتى لقد صدق قوله : « لقد تودّ قريش ... » الكلام إلى آخره ، فإن أرباب السِّيَر كلهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزّاب لما شاهد عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس بإزائه فى صفّ خراسان : لوددت أن علىّ بن أبى طالب تحت هذه الراية بدلا من هذا الفتى ؛ والقصة طويلة وهى مشهورة[1] .

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وهى متداولة منقولة مستفيضة ، خطب بها علىّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النّهروان ، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضىّ رحمه الله ، من ذلك قوله عليه السلام : « ولم يكن ليجترئ عليها غيرى ، ولو لم أكُ فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والنهران . وايمُ الله لولا أن تتكلوا فتدعُوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله عزّ وجلّ على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله : لمَنْ قاتلهم مبصراً لضلالتهم ، عارفا للهدى الذى نحن عليه ، سلونى قبل أن تفقدونى ، فإنّى ميِّت عن قريب أو مقتول ، بل قتلًا ما ينتظر أشقاها أن يخضَب هذه بدم » . وضرب بيده إلى لحيته .

---

(١) تفصيل حوادثها فى الكامل لابن الأثير ٤ : ٣٢٧ — ٣٣٤ .

ومنها فى ذكر بنى أمية : « يظهر أهلُ باطلها على أهل حقها ، حتى تُملأ الأرض عدوانا وظلما وبدَعاً إلى أن يضع الله عزّ وجلّ جبروتها ، ويكسر عَمَدها ، وينزع أوتادها . ألا وإنكم مدركوها فانصرُوا قوماً كانوا أصحاب رايات بدر وحُنين ؛ تؤجروا ، ولا تمالئوا عليهم عدوّهم ، فتصرعكم البليّة ، وتحُلّ بكم النقمة » .

ومنها : « إلّا مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه ، وإن توارى عنه شتَمه . وايمُ الله لو فرّقوكم تحتَ كلّ حجر ؛ لجمعكم الله لشرِّ يوم لهم » .

ومنها : « فانظروا أهل بيت نبيكم ، فإن لبَدُوا فالبدوا ، وإن استنصروكم فانصروهم ، فليفرجَنّ الله الفتنة برجل منّا أهلَ البيت ، بأبى ابن خيرة الإماء ؛ لا يعطيهم إلا السيف ، هَرْجاً هرجا ، موضوعا على عاتقه ثمانية أشهر ؛ حتى تقول قريش : لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا ، يغريه الله ببنى أمية حتى يجعلهم حُطاما ورفاتا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذُوا وقُتّلوا تقتيلا . سنّة الله فى الذين خَلَوْا من قبل ولن تجدَ لسنّة الله تبديلا » .

فإن قيل : لماذا قال : « ولو لم أك فيكم لما قوتل أهلُ الجمل وأهل النهروان » ؛ ولم يذكر صِفّين ؟ قيل : لأنّ الشبهة كانت فى أهل الجمل وأهل النّهروان ظاهرة الالتباس ، لأنّ الزبير وطلحة مَوْعُودان بالجنة ، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله فى الآخرة ؛ كما هى زوجته فى الدنيا ، وحال طلحة والزبير فى السَّبْق والجهاد والهجرة معلومة ، وحال عائشة فى محبّة الرسول صلى الله عليه وآله لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة ؛ وأما أهل النّهروان فكانوا أهلَ قرآن وعبادة واجتهاد ؛ وعُزوف عن الدنيا وإقبال على أمور الآخرة ، وهم كانوا قرّاء أهل العراق وزهادهم ؛ وأما معاوية فكان فاسقا ، مشهورا بقلّة الدين والانحراف عن الإسلام ؛ وكذلك ناصره ومظاهره على أمره عمْرو بن العاص ؛ ومن اتّبعهما من طغام أهل الشام وأجلافهم وجهّال الأعراب ، فلم يكن أمرُهم خافياً فى جواز محاربتهم واستحلال قتالهم ؛ بخلاف حال من تقدّم ذكره .

فإن قيل : ومَنْ هذا الرجل الموعود به الذى قال عليه السلام عنه : « بأبى ابن خيرة الإماء » ؟ قيل : أما الإماميـة فيزعمون أنه إمامهم الثانى عشر ، وأنه ابن أمَة اسمها نرجس ، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمىّ يولد فى مستقبل الزمان ، لأمّ ولد ، وليس بموجود الآن .

فإن قيل : فمن يكون من بنى أمية فى ذلك الوقت موجوداً ، حتى يقول عليه السلام فى أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم ، حتى يودّوا لو أنّ عليا عليه السلام ، كان المتولّى لأمرهم عوَضاً عنه ؟

قيل : أما الإماميّة فيقولون بالرجعة ، ويزعمون أنّه سيعاد قوم بأعيانهم من بنى أميّة وغـيرهم ، إذا ظهر إمامهم المنتَظر ، وأنه يقطع أيدى أقوام وأرجلهم ، ويسمُل عيون بعضهم ، ويصلُب قوما آخرين ، وينتقم من أعداء آل محمد عليه السلام المتقدّمين والمتأخرين . وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق الله تعالى فى آخر الزمان رجلا من ولد فاطمة عليها السلام ليس موجودا الآن ، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوْرا وظلما ، وينتقم من الظالمين وينـكّل بهم أشدّ النّـكال ، وأنه لأم ولد ، كما قد ورد فى هـذا الأثر وفى غيره من الآثار ، وأن اسمه محمد ، كاسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه إنما يظهر بعد أن يستولى على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بنى أميّة ، وهو السفيانىّ الموعود به فى الخبر الصحيح ، من ولد أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وأنّ الإمام الفاطمىّ يقتله ويقتل أشياعه من بنى أمية وغيرهم ، وحينئذ ينزل المسيح عليه السلام من السماء ، وتبدو أشراطُ الساعة ، وتظهر دابة الأرض ، ويبطل التـكليف ، ويتحقّق قيام الأجساد عند نفخ الصور ، كما نطق به الـكتاب العزيز .

فإن قيل : فإنكم قلتم فيما تقدّم : إن الوعد إنما هو بالسفّاح وبعمّه عبد الله بن علىّ ، والمسوّدة ، وما قلتموه الآن مخالف لذلك !

قيل : إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضىّ رحمه الله تعالى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى " نهج البلاغة " وهـذا التفسير هو تفسير الزيادة التى لم يذكرها الرضىّ ، وهى قوله بأبى ابن خِيرة الإماء . وقوله : « لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا » ، فلا مناقضةَ بين التفسيرين .

(٩٣)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْـلُ :

فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلَّذِى لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ ٱلْفِطَنِ ؛ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِى لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِى ، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِى .

* * *

الشَّـرْحُ :

البرَكة : كثْرة الخير وزيادته ، وتبارك اللهُ منه ، وبرَكتُ ، أى دعوتُ بالبرَكة ، وطعام بريك أى مبارك . ويقال : بارك الله لزيد وفى زيد وعلى زيد ؛ وبارك الله زيدا ، يتعدّى بنفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ ﴾[٢] . ويحتمل «تبارك الله» معنيين : أحدُها أنْ يُراد : تبارك خَيْره وزادت نعمته وإحسانه ، وهذا دعاء . وثانيهما أن يُراد[١] به : تزايد وتعالى فى ذاته وصفاته عن أن يُقاس به غيره ، وهذا تمجيد .

قوله عليه السلام : « لا يبلغه بعدُ الهمم » أى بعد الأفكار والأنظار ، عبّر عنها بالهمم لمشابهتها إياها . وحَدْس الفِطَن : ظنّها وتخمينها ، حَدَست أحدِس ، بالكسر .

ويُسأل عن قوله : « لا غاية له فينتهى ، ولا آخر له فينقضِى » ، فيقال : إنما تدخل الفاء فيما إذا كان الثانى غير الأول ، وكقولهم : ما تأتينا فتحدثَنا ، وليس الثانى هاهنا غير الأول ، لأن الانقضاء هو الآخرية بعينها ، فكأنه قال : لا آخر له ، فيكون له آخر ، وهذا لغو ، وكذلك القول اللفظة فى الأولى .

وينبغى أن يقال فى الجواب : إن المراد : لا آخر له بالإمكان والقوّة فينقضى بالفعل فيما

---

(١) سورة النمل ٢٧ (٢) ساقط من ب .

لا يزال : ولا هو أيضا ممكن الوجود فيما مضى ، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقا بالعدم ، وهو معنى قوله: « فينتهي » بل هو واجب الوجود في حالين: فيما مضى وفي المستقبل، وهذان مفهومان متغايران ، وهما العدم وإمكان العدم ، فاندفع الإشكال .

* * *

منها :

الأصل :

فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ ٱلْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ ٱلْأَرْحَامِ ؛ كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ ٱللهِ خَلَفٌ ، حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ ٱلْمَعَادِنِ مَنْبِتًا ، وَأَعَزِّ ٱلْأَرُومَاتِ مَغْرِسًا ؛ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ ؛ وَٱنْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْعِتَرِ ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْأُسَرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ ٱلشَّجَرِ ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ ؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ ، وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ ؛ فَهُوَ إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَىٰ ، وَبَصِيرَةُ مَنِ ٱهْتَدَىٰ .

سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ ؛ سِيرَتُهُ ٱلْقَصْدُ ، وَسُنَّتُهُ ٱلرُّشْدُ ، وَكَلَامُهُ ٱلْفَصْلُ ، وَحُكْمُهُ ٱلْعَدْلُ ؛ أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ ؛ وَهَفْوَةٍ عَنِ ٱلْعَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ .

* * *

الشرح :

تناسختهم ، أي تناقلتهم ، والتناسخ في الميراث : أن يموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث

قائم لم يقسّم ، كأن ذلك تناقل من واحد إلى آخر ، ومنه : نسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته ، أى نقلت ما فيه . ويروى : « تناسلتهم » .

والسّلَف : المتقدمون ، والخلف : الباقون، ويقال : خَلَف صدق بالتحريك ، وخَلْف سوء بالتسكين .

وأفضت كرامة الله إلى محمد صلى الله عليه ، أى انتهت . والأرومات : جمع أرومة وهى الأصل ، ويقال أَروم بغير هاء : وصدع : شقّ ، وانتجب : اصطفى . والأسرة : رهط الرجل .

وقوله : « نبتت فى حرم » يجوز أن يعنى به مكّة ، ويجوز أن يعنى به المنعة والعزّ .

وبسقت : طالت. ومعنى قوله : «وثمر لاينال» ليس على أن يريد به أن ثمرها لاينتفع به ، لأن ذلك ليس؛ بمدح بل يريد به أنّ ثمرها لا ينال قهرا ، ولا يجنى غصبا . ويجوز أنْ يريد بثمرها نفسه عليه السلام، ومَنْ يجرى مجراه من أهل البيت عليهم السلام ، لأنهم ثمرة تلك الشجرة .

ولا ينال ، أى لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد ، وقد روى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله فى فضل قريش وبنى هاشم الكثير المستفيض، نحو قوله عليه السلام : «قدّموا قريشا ولا تقدُموها »، وقوله : « الأئمة من قريش » ، وقوله : « إن الله اصطفى من العرب مَعَدّا ، واصطفى من معدّ بنى النضر بن كنانة ، واصطفى هاشما من بنى النضر ، واصطفانى من بنى هاشم » ، وقوله : « إن جبرائيل عليه السلام قال لى : يا محمد قد طفتُ الأرض شرقا وغربا فلم أجدْ فيها أكرَم منك ، ولا بيتا أكرم من بنى هاشم » ، وقوله : « نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية » ، وقوله عليه السلام : « إن الله تعالى لم يمسسنى بسفاح فى أرومتى منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبدالله

ابن عبد المطلب » ، وقوله صلى الله عليه وآله : « سادة أهل محشر ، سادة أهل الدنيا : أنا وعلى وحسن وحسين وحمزة وجعفر » ، وقوله وقد سمع رجلا ينشد :

يا أيّها الرجلُ المحوّل رحلَه هلّا نزلتَ بآل عبــد الدار ؟

أهكذا قال يا أبا بكر؟ منـكراً لما سمع ، فقال أبو بكر : لا يارسول الله ، إنه لم يقل هكذا ولـكنه قال :

يأيُّهَا الرجلُ المحوّل رَحْلَهُ هلّا نزلتَ بآل عبد منافِ[1] ؟

عَمْرو العُـلَا هَشَم الثريد لقومِه وَرِجالُ مكة مُسْنِتون عِجَافُ

فسرّ صلى الله عليه وآله بذلك ، وقوله : « أذلّ الله من أذلّ قريشا » ، قالها ثلاثا، وكقوله : « أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب » وكقوله : « الناس تبع لقريش، بَرّهم لبرهم ، وفاجرهم لفاجرهم » ، وكقوله : «أنا ابنُ الأكرمين »، وقوله لبنى هاشم : «والله لا يُبغضُـكم أحد إلاأ كبّه الله على منخريه فى النار » ، وقوله : « ما بال رجال يزعمون أنّ قرابتى غير نافعة ! بلى إنهـا لنافعـة ، وإنه لا يُبغِضُ أحدٌ أهلى إلا حرّمه الله الجنة » .

والأخبار الواردة فى فضائل قريش وبنى هاشم وشرفهم كـثيرة جدا ، ولا نرى الإطالة ها هنا باستقصائها .

وسطع الصبح يسطع سطوعا ، أى ارتفع، والسَّطيع : الصبح. والزَّند : العود تقدح به النار ، وهو الأعلى، والزَّندة: السفلى فيها ثقب، وهى الأنثى، فإذا اجتمعاقيل : زَنْدان ولم يقل : « زندتان » ، تغليبا للتذكير ، والجمع زناد وأزنُد وأزناد .

والقصد : الاعتدال . وكلامه الفصل، أى الفاصل، والفارق بين الحق والباطل وهو مصدر بمعنى الفاعل ، كقولك : رجل عَدْل ، أى عادل .

والهفوة: الزّلة، هفا يهفو. والغباوة:الجهل وقلة الفطنة، يقال: غبيت عن الشىء وغبيت

---

(١) لمطرود بن كعب الخزاعى أمالى المرتضى ٢ : ٢٦٨

الشىء أيضا، أغبى غباوة إذا لم يفطن له ، وغبىَ علىّ الشىء كذلك ، إذا لم تعرفه ، وفلان غبى على « فعيل » ، أى قليل الفطنة .

* * *

الأصْلُ :

اعْمَلُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ عَلَى أَعْلاَمٍ بَيِّنَةٍ ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ ؛ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالْأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ ، وَالْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

الطريق : يذكّر ويؤنث ، يقال : هذا الطريق الأعظم ، وهذه الطريق العُظمى ، والجمع أطرِقة وطرُق .

وأعلام بيّنة ، أى منار واضح . ونهج ، أى واضح . ودارالسلام : الجنة ، ويروى: « والطريق نهج » بالواو ، واو الحال .

وأنتم فى دار مستعتَب ، أى فى دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه ، واستعتابه.

ثم شرح ذلك فقال : أنتم ممهلون متفرّغون ، وصحف أعمالكم لم تطوَ بعد ، وأقلام الحفَظة عليكم لم تجفّ بعد ، وأبدانكم صحيحة ، وألسنتكم ما اعتُقلت كما تعتقل ألسنة المحتَضرين عند الموت ، وتوبتكم مسموعة وأعمالكم مقبولة ، لأنكم فى دار التّكليف لم تخرجوا منها .

(٩٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ ؛ حَيَارَىٰ فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ ، فَبَالَغَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فِي النَّصِيحَةِ ، وَمَضَىٰ عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ [١] .

* * *

الشَّرْحُ :

حاطبون فى فتنة : جمع حاطب ؛ وهو الذى يجمع الحطَب ، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ ، أو يتكلّم بالغثّ والسمين : حاطب ليل ، لأنه لا يبصر ما يجمع فى حَبْله .

وروى : « خابطون » .

واستهوتهم الأهواء : دعتهم إلى نفسها .

واستزلّتهم الكبرياء : جعلتهم ذوى زلل وخطأ . واستخفّتهم الجاهلية: جعلتهم ذوى خِفّة وَطَيْشٍ وخُرْق .

والزلزال ، بالفتح : الاسم ، وبالكسر : المصدر ، والزلازل : الشدائد ، ومثله فى الكسر عند الاسمية والفتح عند المصدر « القَلْقال »

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٩٥)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلْأَوَّلِ فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَٱلْآخِرِ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ ، وَٱلظَّاهِرِ فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ ، وَٱلْبَاطِنِ فَلَا شَيْءَ دُونَهُ .

الشَّـرْحُ

تقدير الـكلام : والظاهر فلا شيء أجْلَى منه ، والباطن فلا شيء أخفى منه ؛ فلما كان الجلاء يستلزم العلوّ والفوقية ، والخفاء يستلزم الانخفاض والتحتيّة ، عَبّر عنهما بما يلازمهما ، وقد تقدم الـكلامُ فى معنى الأول والآخر والظاهر والباطن .

وذهب أكثر المتكلّمين إلى أن الله تعالى يعدم أجزاء العالم ثم يعيدها ؛ وذهب قوم منهم إلى أنّ الإعادة إنما هى جمع الأجزاء بعد تفريقها لا غير .

واحتجّ الأولون بقوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾(١)، قالوا : لما كان أولا بمعنى أنّه الموجود ولا موجود معه ، وجب أن يكون آخرا بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كلّ شيء إلا ذاته تعالى ، كما كان أولا ، والبحث المستقصَى فى هـــذا الباب مشروح فى كتبنا الـكلاميّة .

* * *

(١) سورة الحديد ٣

الأصـلُ :

ومنها فى ذكر الرسول صلى الله عليه وآله :

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ ؛ فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامَةِ ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصَارِ ؛ دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ ، وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوَائِرَ ؛ أَلَّفَ بِهِ إِخْوَانًا ، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا ، وَأَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ ؛ كَلَامُهُ بَيَانٌ ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ .

* * *

الشـرح

المِهاد : الفِراش ، ولما قال : « فى معادن » ، وهى جمع معدن ، قال بحكم القرينة والازدواج : « ومَمَاهد » وإن لم يكن الواحد منها « مَمْهداً » ، كما قالوا : الغدايا والعشايا. ومأجورات ومأزورات ، ونحو ذلك . ويعنى بالسلامة هاهنا البراءة من العيوب ، أى فى نسب طاهر غير مأفون ولا معيب .

ثم قال : « قد صُرِفت نحوه » ، أى نحو الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يقل مَنْ صرفها ، بل جعله فعلا لم يُسَمَّ فاعله ، فإن شئت قلت : الصارف لها هو الله تعالى لا بالجبر كما يقوله الأشعريّة ، بل بالتوفيق واللطف ، كما يقوله أصحابنا ، وإن شئت قلت : صرفها أربابُها .

والضغائن : جمع ضغينة ، وهى الحِقْد . ضَغِنت على فلان بالكسر ضِغْنا والضِّغْن الاسم ، كالضغينة ، وقد تضاغنوا واضطغنوا : انطَوَوْا على الأحقاد . ودَفَنَها : أكنّها وأخفاها. وألّف به إخوانا ، لأنّ الإسلام قد ألّف بين المتباعدين ، وفرق بين المتقاربين ، وقال

تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (١) ، قطع ما بين حمزة وأبى لهب مع تقاربهما ، وألّف بين علىّ عليه السلام وعمّار مع تباعدهما .

قوله عليه السلام : « وَصَمْتُهُ لسان » ، لا يعنى باللسان ههنا الجارحة نفسهما ، بل الكلام الصادر عنها ، كقول الأعشى (٢) :

* إنّى أتتنى لِسَانٌ لا أُسرّ بها *

قالوا فى تفسيره : أراد الكلمة ، وجمعه على هذا ألسن ، لأنه مؤنث ، كقولك : ذراع وأذرع ، فأمّا جمع لسان للجارحة فألسنة ، لأنه مذكّر ، كقولك : حمار وأحمرة ، يقول عليه السلام : إن كلامَ الرّسول صلى الله عليه وآله بيان ، والبيان إخراج الشىء من حَيّز الخفاء إلى حَيّز الوضوح ، وصمته صلى الله عليه وآله كلام وقول مفيد ، أى أنّ صمته لا يخلو من فائدة ، فكأنه كلام ، وهذا من باب التشبيه المحذوف الأداة ، كقولهم : يده بَحْر ، ووجهه بدر .

(١) سورة آل عمران ١٠٣

(٢) هو أعشى باهلة ؛ وبقيته :

* مِنْ عَلْوَ لَا كَذِبٌ فِيهَا وَلَا سَخَرُ *

ديوان الأعشين ٢٦٦ .

(٩٦)

ومن كلام له عليه السلام :

الأصل :

وَلَئِنْ أَمْهَلَ اللهُ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ ، وَبِمَوْضِعِ [(١)] الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ .

أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ ؛ لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ ؛ وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِهِمْ [(٢)] ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي ، وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا ، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي .

اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا ، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا ، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا .

شُهُودٌ [(٣)] كَغُيَّابٍ ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ . أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا ، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا ، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا . تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ . أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً ؛ كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ .

أَيُّهَا الْقَوْمُ ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ ؛ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ ! لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ ؛ فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ !

---

(١) مخطوطة النهج : « وموضع » .
(٢) مخطوطة النهج : « باطل صاحبهم » .
(٣) مخطوطة النهج : « أشهود » .

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ : صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ ؛ لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ .

تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ ! يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا ! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ .

وَاللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى ، وَحَمِيَ الضِّرَابُ ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا . وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ؛ وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً .

* * *

الشرح

أمهله : أخّره ، وأخذه فاعل ، والمفعول محذوف تقديره : «فلن يفوته» . والمرصاد[١] : الطريق ، وهى من ألفاظ الكتاب العزيز .

ومجاز طريقه : مسلكه وموضع جوازه . والشّجا : ماينشَب فى الحلق من عظم أو غيره ، وموضع الشّجا : هو الحلق نفسه . ومساغُ ريقه : موضع الإساغة ، أسغت الشراب : أو صلته إلى المعدة . ويجوز : سغت الشراب أسُوغه وأسيغه ، وساغ الشرابُ نفسُه يسوغ سَوْغا ، أى سَهُل مدخله فى الحلق ، يتعدّى ولا يتعدّى . وهذا الكلام من باب التوسّع والمجاز ، لأنّ الله تعالى لايجوز عليه الحصول فى الجهات ، ولكنه كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ [٢] . وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [٣] .

---

(١) وهو من قوله تعالى فى سورة الفجر ٨٩ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

(٢) سورة الحديد ٤ . (٣) سورة ق ١٦ .

ثم أقسم عليه السّلام أنّ أهل الشام لابدّ أن يظهروا على أهل العراق ، وأنّ ذلك ليس لأنّهم على الحقّ وأهلُ العراق على الباطل ، بل لأنّهم أطوَعُ لأميرهم ، ومدَار النّصرة فى الحرب إنّما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره ، لاعلى اعتقادالحقّ ، فإنهليس يُغْنِى فى الحرب أن يكون الجيش محقّا فى العقيدة إذا كان مختلفالآراء ، غير مطيع لأمر المدبّر له ، ولهذا تجدُ أهل الشرك كثيرا ماينتصرون على أهل التوحيد..

ثم ذكر عليه السلام نكتة لطيفة فى هذا المعنى ، فقال : العادة أنّ الرعيَّة تخاف ظلم الوالى ، وأنا أخاف ظلم رعيتى ، ومَنْ تأمّل أحواله عليه السلام فى خلافته ، علم أنّه كان كالمحجور عليه ، لا يتمكّن من بلوغ مافى نفسه ، وذلك لأنّ العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين ، وكان السواد الأعظم ، لايعتقدون فيه الأمر الذى يجب اعتقادُه فيه ، ويرون تفضيلَ مَنْ تقدّمه من الخلفاء عليه ، ويظنّون أن الأفضليّة إنما هى الخلافة ، ويقلّد أخلافُهم أسلافَهم ، ويقولون : لولا أنّ الأوائل علموا فضل المتقدّمين عليه لما قدموهمْ ، ولا يرونه إلا بعين التبعيّة لمن سبقه ، وأنه كان رعيّة لهم ، وأكثرهم إنمايحارب معه بالحميّة وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة ، وكان عليه السلام مدفوعا إلى مداراتهم ومقاربتهم ؛ ولم يكن قادرا على إظهار ما عنده ، ألا ترى إلى كتابه إلى قضاته فى الأمصار . وقوله : « فاقضوا كما كنتم تقضون ، حتى تكون للناس جماعة ، وأموتَ كما مات أصحابى » ؛ وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير ، ومعناه واضح ، وهوأنه قال لهم : أتبِعُوا عادتكم الآن بعاجل الحال فى الأحكام والقضايا التى كنتم تقضُون بها إلىأن يكون للناس جماعة ؛ أى إلى أن تُسْفر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة ، وحينئذ أعرفكم ما عندى فى هذه القضايا والأحكام التى قد استمررتم عليها .

ثم قال: «أو أموت كما مات أصحابى» ،فمن قائل يقول: عنى بأصحابه الخلفاء المتقدّمين

ومن قائل يقول: عَنَى بأصحابه شيعتَه كسلمان، وأبى ذرّ، والمقداد، وعمّار، ونحوهم، ألا ترى إلى قوله على المنبر فى أمّهات الأولاد: «كان رأيى ورأى عمر ألّا يُبَعْن، وأنا أرى الآن بيعهنّ»؛ فقام عليه عبيدة السلمانىّ فقال له: رأيكُ مع الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك، فما أعاد عليه حَرْفاً، فهل يدلّ هذا على القوة والقهر، أم على الضعف فى السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضى فى ذلك الوقت غير السكوت والإمساك! ألا ترى أنه كان يقرأ فى صلاة الصبح وخَلْفه جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعاً صوته، معارضاً قراءة أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾. فلم يضطرب عليه السلام، ولم يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضاً له على البديهة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٢]. وهذا صبر عظيم وأناة عجيبة وتوفيق بيّن، وبهذا ونحوه استدلّ أصحابنا المتكلّمون على حُسْن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ مَنْ مُنِيَ بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصى له، المتمرّد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد فى حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه، ولا يقدر أحدٌ قدره، وقد قال بعض المتكلّمين من أصحابنا: إنّ سياسة علىّ عليه السلام إذا تأمّلها المنصف متدبرا لها بالإضافة إلى أحواله التى دفع إليها مع أصحابه، جرت مَجْرَى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذّره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تذهب إلى أن عثمان قتل مظلوما وتتولّاه وتبرأ من أعدائه، والأخرى — وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل الغناء والبأس — يعتقدون أن عثمان قُتل لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم مَنْ يصرح بتكفيره، وكلٌّ من هاتين الفرقتين يزعُم أن عليا عليه السلام موافق لها على رأيها، وتطالبه فى كل وقت بأن يبدىَ مذهبه فى عثمان، وتسأله أن يجيب بجواب واضح فى أمره، وكان عليه السلام،

---

(١) سورة الروم ٦٠، وهذه قراءة على، وقراءة المصحف: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾، وانظر تفسير القرطبي ٦ : ٤٣٩.

يعلم أنّه متى وافق إحدى الطائفتين باينته الأخرى ، وأسلمته وتولتْ عنه وخذلته ، فأخذ عليه السلام يعتمد فى جوابه ويستعمل فى كلامه ما تظنّ به كلّ واحدة من الفرقتين أنه يوافق رأيها ويماثل اعتقادَها، فتارة يقول : الله قتله وأنا معه، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنه أراد أن الله أماته وسيميتنى كما أماته ؛ وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضا، وكذلك قوله تارة أخرى : «ماأمَرْت به ولا نَهيت عنه»، وقوله : « لو أمرت به لكنت قاتلا ، ولو نهيت عنه لكنت ناصرا » ، وأشياء من هذا الجنس مذكورة مروية عنه ، فلم يزل على هذه الوتيرة حتى قُبض عليه السلام ، وكلّ من الطائفتين موالية له معتقدة أن رأيه فى عثمان كرأيها، فلو لم يكن له من السِّياسة إلا هذا القَدْر — مع كثرة خوض الناس حينئذ فى أمر عثمان والحاجة إلى ذكره فى كل مقام — لكفاه فى الدلالة على أنه أعرَفُ الناس بها ، وأحذقهم فيها ، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام ، وتدبير أحوال الرجال .

* * *

ثم نعود إلى الشرح :

قوله عليه السلام : «ونصحت لكم» ، هو الأفصح، وعليه، ورد لفظ القرآن(1)، وقول العامة : « نصحتك » ليس بالأفصح .

قوله : « وعَبِيد كأرباب » يصفهم بالكِبْر والتِّيه .

فإن قلت : كيف قال عنهم إنهم عبيد وكانوا عرَبًا صلبية ؟ قلت : يريد أنّ أخلاقهم كأخلاق العبيد ؛ من الغَدْر والخلاف ودناءة الأنفس ؛ وفيهم مع ذلك كِبْر السادات والأرباب وتيههم ؛ فقد جمعوا خِصالَ السُّوء كلها .

وأيادى سبأ ؛ مثل يضرب للمتفرّقين، وأصله قوله تعالى عن أهل سبأ : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ

(١) من قوله تعالى فى سورة الأعراف ٧٩ : ﴿ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ .

كُلَّ مُمزَّقٍ ﴾ (١) وسبأ مهموز ؛ وهو سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ؛ ويقال : ذهبوا أيدى سبا وأيادى سبا ، الياء ساكنة ؛ وكذلك الألف ؛ وهكذا نقل المثل ، أى ذَهَبوا متفرّقين ، وهما اسمان جعلا واحدا ؛ مثل معدى كرب .

قوله : « تتخادَعُون عن مواعظكم » ، أن تمسكون عن الاتّعاظ والانزجار ، وتُقْلِعون عن ذلك ؛ من قولهم : كان فلان يُعطى ثم خدع ، أى أمسك وأقلع . ويجوز أن يريد : تتلوّنون وتختلفون فى قبول الموعظة ؛ من قولهم : خلق فلان خَلُق خادع ، أى متلوّن ، وسوق خادعة أى مختلفة متلوّنة ، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها ؛ لأنه إنما يقال : فلان يتخادع لفلان ؛ إذا كان يُريه أنّه منخدع له وليس بمنخدع فى الحقيقة ؛ وهذا لا يطابق معنَى الكلام .

والحنيّة : القوس . وقوله : « كظهر الحنيّة » ، يريد اعوجاجهم ؛ كما أنّ ظهر القوس معوجّ . وأعضل المقوّم ، أى أعضل داؤه ، أى أعيا . ويروى : « أيّها الشاهدةُ أبدانهم » بحذف الموصوف .

ثم أقسم أنّه يودّ أنّ معاوية صارَفه بهم ، فأعطاه من أهل الشام واحدا ، وأخذ منه عشرة ، صَرْفَ الدينار بالدراهم ؛ أخذ هذا اللفظ عبدُ الله بن الزبير لمّا وفد إليه أهلُ البصرة ، وفيهم الأحنف ، فتكلّم منهم أبو حاضر الأسدىّ ، وكان خطيبا جميلا ، فقال له عبد الله بن الزّبير : اسكتْ ؛ فو الله لوَدِدْت أنّ لى بكلّ عشرة من أهل العراق واحداً من أهل الشام صَرْفَ الدينار بالدراهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لنا ولك مثَلا ، أفتأذن فى ذكره ؟ قال : نعم . قال : مَثلُنا ومثلُك ومثل أهل الشام قولُ الأعشى :

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلِّقَتْ رَجُــــلًا غَيْرِى ، وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ (٢)

---

(١) سورة سبأ ١٩ . (٢) هو أعشى قيس ، ديوانه ١٣ .

أحبّك أهلُ العراق وأحببتَ أهل الشام وأحبّ أهل الشام عبدَ الملك فما تصنع ؟ ثم ذكر عليه السلام أنهُ منِي، أى بُلِيَ منهم بثلاث واثنتين ، إنما لم يقل بخمس ، لأن الثلاث إيجابية والاثنتين سَلْبية ، فأحبّ أن يفرّق بين الإثبات والنفى .

ويروى : « لا أحرار صدُق عند اللقاء » جمع صادق . ولا إخوان ثقة عند البلاء ، أى موثوق بهم .

تربتْ أيديكم ، كلمة يدعى على الإنسان بها ، أى لا أصَبْتُم خيرا ، وأصل « ترب » أصابه التراب ، فكأنه يدعو عليه بأن يفتقر حتى يلتصق بالتراب .

قوله : « فما إخالكم » أى فما أظنُّكم ؛ والأفصح كسر الألف وهو السماع ؛ وبنو أسد يفتحونها وهو القياس .

قوله : « ألّو » أصله « أن لو » ثم أدغمت النون فى الألف فصارت كلمة واحدة .

وحمِس الوغى ، بكسر الميم : اشتدّ وعَظُم ، فهو حمس وأحمس ؛ بيّن الحَمَس والحماسة . والوغى فى الأصل : الأصوات والجلبة ، وسميت الحرب نفسها وَغًى لما فيها من ذلك .

وقوله : « انفراج المرأة عن قُبُلها » ، أى وقت الولادة .

قوله : « ألقطه لَقْطا » يريد أنّ الضلال غالب على الهدى ؛ فأنا التقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لقطا من ها هنا وها هنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة ، قد اكتَنَفها الشوْك والعوْسَج من جانبيْهما كليهما ، فهو يلتقط النّهْج التقاطا .

* * *

الأصْلُ :

انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ ،وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ ،فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى ، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى ، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا ، وَإِنْ نَهَضُوا فانْهَضُوا ، وَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا ، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا .

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فَما أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ ٱلْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ المِعْزَى ، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ ؛ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ ٱلشَّجَرُ يَوْمَ ٱلرِّيحِ ٱلْعَاصِفِ ، خَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ .

الشرح

السَّمْت : الطريق ، ولَبَدَ الشيء بالأرض ، يلبُد بالضم لُبودا : التصق بها. ويصبحون شعثا غبْرا ، من قَشَف العبادة وقيام الليل وصوم النهار وهجر الملاذّ ، فيراوحون بين جباههم وخدودهم ، تارة يسجدون على الجباه ، وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة ؛ تذللا وخضوعا . والمراوحة بين العمل : أن يعمَل هذا مرّة وهذا مرة ، ويراوح بين رجليه ؛ إذا قام على هذه تارة وعلى هذه أخرى .

ويقال معزى لهذا الجنس من الغنم ومَعِز ومعيز وأُمعوز ومَعْز ، بالتسكين ، وواحد المَعْز ماعز ، كصَحْب وصاحب ، والأنثى ماعزة والجمع مواعز .

وهملتْ أعينُهم : سالَت ، تهمُل وتهمِل .

ويروى « حتى تُبَلّ جباههم » ، أي يبلّ موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته . ومادُوا : تحرّكوا واضطربوا ، إما خوفا من العقاب كما يتحرّك الرجل ويضطرب ، أو رجاء للثواب كما يتحرّك النشوان من الطرب ، وكما يتحرك الجذِل المسرورُ من الفرَح .

(٩٧)

الأصلُ

ومن كلام له عليه السلام :

وَٱللهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّىٰ لَا يَدَعُو لِلهِ مُحَرَّمًا إِلَّا ٱسْتَحَلُّوهُ ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلُّوهُ ، وَحَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ[١]، وَحَتَّىٰ يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ : بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ ؛ وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ ٱلْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ ، وَإِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِٱللهِ ظَنًّا ، فَإِنْ أَتَاكُمُ ٱللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا ، وَإِنِ ٱبْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا ، فَإِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

* * *

الشَّرحُ

تقدير الكلام : لايزالون ظالمين ؛ فحذف الخبر وهو مراد ، وسدّت « حتى » وما بعدها مسدّ الخبر ؛ ولا يصحّ ماذهب إليه بعض المفسرين من أنّ « زال » بمعنى تحرك وانتقل ؛ فلا تكون محتاجة إلى خبر ، بل تكون تامة فى نفسها ، لأنّ تلك مستقبلها يزول بالواو ، وهاهنا بالألف لايزالون ؛ فهى الناقصة التى لم تأت تامّة قطّ ؛ ومثلها فى أنّها لاتزال ناقصة : ظلّ وما فتىء وليس .

والمحرّم : مالا يحلّ انتهاكه وكذلك المحرَمة بفتح الراء وضمها .

وبيوت المَدَر : هى البيوت المبنيّة فى القُرى ، وبيوت الوبر : مايتّخذ فى البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن ، وكالشعر للمعز .

---

(١) زاد فى مخطوطة النهج بعدها : « ونزل به غيهم » .　　(٢) مخطوطة النهج : « فإذا » .

وقد وَبِر البعيرُ بالكسر ، فهو وَبِر ، وأوبر ، إذا كثر وبرُه . ونبا به منزله : إذا ضرّه ولم يوافقه ، وكذلك نبا به فِراشُه ، فالفعل لازم ، فإذا أردت تعديته بالهمزة قلتَ : قد أنبى فلان على منزلى ، أى جعله نابياً ، وإنْ عدّيته بحرف الجر قلت : قد نبا بمنزلى فلان ، أى أنباه علىّ ، وهو فى هذا الموضع معدًّى بحرف الجرّ .

وسوء رِعتهم أى سوء ورعهم ، أى تقواهم . والورِع بكسر الراء : الرّجُل التقىّ ، ورع يرِع بالكسر فيهما ورعاً ورِعَةً ، ويروى : « سوء رَعْيِهم » ، أى سوء سياستهم وإمْرَتهم. ونصرة أحدكم من أحدهم ؛ أى انتصاره منه وانتقامه ، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ؛ وقد تقدم شرح هذا المعنى ؛ وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نُصرة العبد وتقدير الكلام : حتى يكون نصرُة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيّد العبد السيّئ الطريقة إياه ، « ومن » فى الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره مِنْ جانب أحدهم ومن جانب سيده ؛ وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله : « إذا شهد أطاعه » ؛ وهو الكلام الذى إذا استمرّ المعنى جعل حالا من العبد بقوله : « من سيده » . والضمير فى قوله : « فيها » يرجع إلى غير مذكور لفظا ؛ ولكنه كالمذكور ؛ يعنى الفتنة ، أى حتى يكون أعظمكم فى الفتنة غناء .

ويروى برفع : « أعظمكم » ونصب « أحسنكم » والأول أليق ؛ وهذا الكلام كلّه إشارة إلى بنى أمية .

(٩٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ .

أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَٰذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا ، وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ ؛ وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا ! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَعْدُوهُ ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ ، وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْماً !

فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا ، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَلَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا ، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ ، وَزِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ.

أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ ، وَفِي آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ ؛ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ !

أَوَ لَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لَا يَبْقَوْنَ ! أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى : فَمَيِّتٌ يُبْكَى ، وَآخَرُ يُعَزَّى ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلًى ، وَعَائِدٌ يَعُودُ ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا

وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ ؛ وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي !

أَلَا فَاذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ ، وَقَاطِعَ الْأُمْنِيَّاتِ ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَاسْتَعِينُوا اللَّهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

لما كان الماضى معلوماً جعل الحمد بإزائه ؛ لأنّ المجهول لا يحمَد عليه ؛ ولما كان المستقبل غيرَ معلوم جعل الاستعانة بإزائه ؛ لأنّ الماضىَ لا يُستعان عليه ، ولقد ظَرُف وأبدع عليه السلام فى قوله : « ونسألُه المعافاة فى الأديان ، كما نسألُه المعافاة فى الأبدان » ، وذلك أنّ للأديان سُقْما وطبًّا وشفاء ؛ كما أنّ للأبدان سُقْما وطبًّا وشفاء ، قال محمود الورّاق :

وإذا مرضتَ من الذُّنوبِ فداوِها   بالذِّكْر إنّ الذِّكْرَ خيرُ دواء
والسُّقْم فى الأبدان لَيْسَ بضائرٍ   والسُّقْم فى الأديان شرّ بَلاَء

وقيل لأعرابىّ : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى ، قيل : فما تشتهى ؟ قال : الجنّة ، قيل : أفلا ندعُو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضنى .

سمعتْ عفيرة بنت الوليد البَصْرِيّة العابدة رجلًا يقول : ما أشدّ العمَى على من كان بصيرا ! فقالت : عبدَ الله ! غَفَلْتَ عن مرض الذنوب ، واهتممت بمرض الأجساد ؛ عَمى القلوب عن الله أشدُّ من عمى العين عن الدنيا ، ودِدْت أن الله وهب لى كُنْه محبّته ، ولم يُبق منى جارحة إلا تبلَها (١) .

قيل لحسان بن أبى سنان فى مرضه : ما مرضُك ؟ قال : مرض لا يفهمه الأطباء ؛ قيل:

---

(١) تبلها : أسقمها .

وما هو ؟ قال: مرض الذنوب؛ فقيل : كيف تجدُك الآن ؟ قال: بخير إن نجوتُ من النار، قيل : فما تشتهى ؟ قال : ليلة طويلةٌ بعيدةُ ما بين الطرفين أُحْيِيها بذكر الله .

ابن شُبْرُمة : عجبتُ ممّن يحتمِى من الطّعام مخافة الداء ، كيف لا يحتمِى من الذنوب مخافة النار !

قوله عليه السلام : « الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبُّوا تركها » معنى حسن ؛ ومنه قول أبى الطّيب :

كلّ دَمْعٍ يسيلُ منها عليْهَا وبفكّ اليدينِ عنها تُخَلّى (١)

والرفض : التّرْك ؛ وإبل رَفْض : متروكة ترعى حيث شاءت ، وقوم سَفْر ، أى مسافرون . وأمُّوا : قصدوا ، والعَلَم : الجبل أو المنار فى الطريق يهتدى به .

وكأنّ فى هذه المواضع كهى فى قوله : « كأنّك بالدنيا لم تكُنْ ، وكأنّك بالآخرة لم تزل ، ماأقرب ذلك وأسرعه » ، وتقدير الكلام هاهنا: كأنّهم فى حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له ، وكأنهم فى حال كونهم غير بالغين له بالغون له، لأنه لماقرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شُبِّهُوا وهم فى الحال الأولى بهم أنفسهم وهم على الحال الثانية .

قوله عليه السلام : « وكم عسى المجرِى » أجْرَى فلان فرسه إلى الغاية، إذا أرسلها ؛ ثم نقل ذلك إلى كل مَنْ يقصِد بكلامه معنًى أو بفعله غرضاً ،فقيل : فلان يجرِى بقوله إلى كذا ، أو يجرِى بحركته الفلانية إلى كذا ، أى يقصدو ينتهى بإرادته وأغراضه ولا يعدوه ولا يتجاوزه .

والحثيث : السريع. ويحدوه : يسوقه. والمنافسة : المحاسدة، ونفست عليه بكذا ، أى ضَنِنت . والبُؤس : الشدّة . والنفاد : الفناء .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣١ .

وما فى قوله : « على أثر الماضى مايمضى الباقى » إمّا زائدة أو مصدرية ، وقد أخذ هذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مَسْلَمة بن عبد الملك ؛ قيل : لما مات مسلمة بن عبد الملك ، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جنازته ، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نَشْوان ثَمِل يجرّ مُطْرَف خزّ ؛ وهو يندب مسلمة ومواليه حوله ، فوقف على هشام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن عُقْبَى مَنْ بقى لحوق مَنْ مَضَى ؛ وقد أقفر بعد مسلمة الصّيدُ لمن رمى ، واختلّ الثغر فوهَى ، وارتجّ الطود فهوى ؛ وعلى أثرِ مَنْ سلف مايمضى من خَلَف ، فتزوّدُوا فإن خير الزاد التقوى .

قوله عليه السلام : « عند مساورة الأعمال القبيحة » العامل فى « عند » قوله : « اذكروا » أى ليكن ذكرُكم الموت وقت مساورتِكم ، والمساورة : المواثبة ، وسارَ إليه يَسُور سَوْراً : وثب ، قال الأخطل يصف خمراً له :

لما أتوها بمصباحٍ ومِبْزَلِهِمْ سارَتْ إليهم سُؤُورَ الأبجل الضارى (١)

أى كوثوب العِرْق الذى قد فُصِد أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه ؛ ويقال : إنّ لغَضَبِه لَسَوْرة ، وهو سَوّار ، أى وثّاب مُعَرْبِد .

---

(١) ديوانه ١١٨ . المبزل : الثقب فى جانب الخابية تجرى منه الخمر صافية . والأبجل : عرق يكون فى الدواب . وانظر اللسان (سور) .

(٩٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلنَّاشِرِ فِي ٱلْخَلْقِ فَضْلَهُ ، وَٱلْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ . نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً ، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً ، فَأَدَّىٰ أَمِيناً ، وَمَضَىٰ رَشِيداً ، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ ٱلْحَقِّ ؛ مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ . دَلِيلُهَا مَكِيثُ ٱلْكَلَامِ ، بَطِيءُ ٱلْقِيَامِ ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ ؛ جَاءَهُ ٱلْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ ؛ فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ ؛ حَتَّىٰ يُطْلِعَ ٱللّٰهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ ، فَإِنَّ ٱلْمُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَىٰ قَائِمَتَيْهِ ، وَتَثْبُتَ ٱلْأُخْرَىٰ فَتَرْجِعَا حَتَّىٰ تَثْبُتَا جَمِيعاً .

أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ ٱلسَّمَاءِ ؛ إِذَا خَوَىٰ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ ؛ فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ ٱللّٰهِ فِيكُمُ ٱلصَّنَائِعُ ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ .

* * *

الشَّرْحُ :

يده هاهنا : نعمته ؛ يقال : لفلان عندى يد ؛ أى نعمة وإحسان ، قال الشاعر :

فإنْ تَرْجِعِ الأيامُ بينى وبينَها فإنّ لها عنـدى يَداً لا أُضيعُها

وصادعا ، أى مظهرا ومجاهرا للمشركين ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (١) .

وراية الحقّ : الثَّقَلان الخلّفان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وهما الكتاب والعِتْرة .

ومَرَق : خرج ، أى فارق الحقّ ، ومُروق السهم عن الرميّة : خرج من جانبها الآخر ؛ وبه سُمِّيت الخوارق مارقة .

وزهَقَت نفسه ، بالفتح زُهوقا ، أى خرجت ، قال تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢) . وزهَقَت الناقة ؛ إذا سبقت وتقدّمت أمام الرّكاب ، وزهقَ الباطل : اضمحلّ ، يقول عليه السلام : مَنْ خالفها متقدّما لها أو متأخرا عنها فقد خرج عن الحق ، ومن لازمها فقد أصابَ الحق .

ثم قال : « دليلها مَكيث الكلام » ، يعنى نفسَه عليه السلام ، لأنه المشارُ إليه من العِتْرة ، وأعلمُ الناس بالكتاب . ومَكيث الكلام : بطيئه ، ورجل مَكيث ؛ أى رزين ، والمُكْث : اللُّبث والانتظار ، مَكَثَ ومكُث بالفتح والضم ، والاسم المُكْث والمِكْثة بالضم وكسرها ، يعنى أنه ذو أناة وتؤدة ، ثم أكّد ذلك بقوله : « بطىء القيام » .

ثم قال : « سريع إذا قام » ، أى هو متأنٍّ متثبّت فى أحواله ؛ فإذا نهض جَدّ وبالغ ؛ وهذا المعنى كثير جدا ؛ قال أبو الطيب :

وما قلتُ للبدرِ أنت اللُّجَيْنُ ولا قلتُ للشّمْس أنتِ الذهبْ (٣)
فيَقْلَقَ منهُ البعيد الأناةِ ويغضَبُ منه البطىء الغضبْ

يعنى سيف الدولة .

---

(١) سورة الحجر ٩٤ .
(٢) سورة التوبة ٨٥ .
(٣) ديوانه ١ : ٩٧ .

[أقوال مأثورة فى مدح الأناة وذمّ العجلة]

ومن أمثالهم : « يريك الهوينى والأمور تطير » ؛ يضرب لمن ظاهره الأناة وباطنه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون ؛ ويقولون لمن هو كذلك : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(١) .

ووقّع ذُو الرِّياستين إلى عامل له : إنّ أسرع النار التهاباً أسرعُها خمودا ، فتأنّ فى أمرك . ويقال : إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال : كلّ عملٍ تريدون أن تعملوه فتوقّفُوا فيه ساعة ، فإنّى لو توقّفت لم يصبنى ما أصابنى .

بعض الأعراب يوصى ولده : إياكم والعَجلة ، فإن أبى كان يكنيها : أمّ الندم .

وكان يقال : مَنْ ورد عَجِلا صدر خجِلا .

وقال ابن هانى المغربىّ :

وكلُّ أناة فى المواطن سؤدُدٌ ... ولا كأناةٍ من قديرٍ مُحكّمِ(٢)

ومنْ يتبيّنْ أنّ للصفح موضِعاً ... من السيف يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمِ

وما الرأىُ إلا بعد طول تثبُّتٍ ... ولا الحزمُ إلا بعد طول تَلَوُّمِ(٣)

وقوله عليه السلام : « بطىء القيام ، سريع إذا قام » فيه شَبَهٌ من قول الشَّنْفَرَى :

مسبل فى الحىّ أحْوَى رِفَلٌّ ... وإذا يغزو فسِمْعٌ أَزَلُّ

ومن أمثالهم فى مدح الأناة وذمّ العجلة : أخطأ مستعجل أو كاد ، وأصاب متثبّت أو كاد .

---

(١) سورة النمل ٨٨ .

(٢) ديوانه ٦٧٠ .

(٣) تلوّم فى الأمر : تمكث فيه وانتظر .

ومنها :

* وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ(١) *

ومنها : ربّ عجلة تهب ريثاً(٢) :

وقال البحتريّ :

حَلِيمٌ إذا القومُ استخفّتْ حُلُومُهُمْ وَقُورٌ إذا ما حادثُ الدهر أجْلَبا(٣)

قال الأحنف لرجل سبّه فأفرط : يا هذا، إنّك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال .

وقال الشّاعر :

أحلامُنا تزِنُ الجبال رَجاحَةً وتخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهَلُ

[فصل فى مدح قلة الكلام وذم كثرته]

فأمّا قوله عليه السلام : « مكيثُ الكلام » ، فإنّ قلة الكلام من صِفات المدح وكثرته من صفات الذمّ . قالت جارية ابن السّمّاك له : ما أحسنَ كلامَك لولا أنك تكثر ترداده ! فقال : أردِّدُه حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : فإلى أن يفهمه مَنْ لم يفهمه قد ملّه مَنْ فهمه .

بعث عبدُ العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابنِ أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفةً حمراء ، وكتب إليه : أما بعدُ ، فقد بعثتُ إليك بقطيفة حمراء ، حمراء ، حمراء ؛ فكتب إليه الوليد : أما بعد ، فقد وصلت القطيفة ، وأنت ياعمّ أحمق ، أحمق ، أحمق .

---

(١) للقطامى وصدره :

* قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّى بَعْضَ حَاجَتِهِ *

وبعده :

وَرُبَّمَا فاتَ قوماً جلّ أمرهمُ إذا توانَوْا وَكَانَ الرَّأْىُ لَوْ عَجِلُوا

وانظر جمهرة أشعار العرب ٣١٣ (المطبعة الرحمانية) .

(٢) أول من قاله مالك بن عوف الشيبانى . مجمع الأمثال ١ : ٢٩٤ .

(٣) ديوانه ١ : ٥٥ .

وقال المعتضد لأحمد بن الطيب السرخسيّ : طول لسانك دليلٌ على قِصَر عَقْلك .

قيل للعتّابيّ : ما البلاغة ؟ قال : كلّ مَنْ أفهمك حاجته من غير إعادة ولا خلسة ولا استعانة فهو بليغ . قيل له : ما الاستعانة ؟ قال : ألا ترى الرجل إذا حدّث قال : يا هناه ، واستمِعْ إليّ ، وافهم ، وألست تفهم ؟ . . هذا كلّه عيّ وفساد .

دخل على المأمون جماعة من بنى العبّاس ؛ فاستنطقهم فوجدهم لُكْناً، مع يسارٍ وهيئة، ومَنْ تكلّم منهم أكثر وَهذر ، فكانت حاله أفحش من حال الساكتين ، فقال : ما أبين الخلّة فى هؤلاء ! لا خَلّة الأيدى بل خَلّة الألسنة والأحلام .

وسئل عليّ عليه السلام عن اللّسان فقال : معيارٌ أطاشه الجهل ، وأرجحه العقل .

سمع خالد بن صفوان مكثاراً يتكلّم ، فقال له : ياهذا ، ليست البلاغة بخفّة اللّسان ، ولا بكثرة الهذَيان ، ولكنّها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة .

قال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزِّبَعرَى : ما لك لا تُسْهِب فى شعرك ؟ قال : حسبك من الشعر غرّة لائحة ، أو وصمة فاضحة .

وفى خطبة كتاب «البيان والتبيين »[(١)] ؛ لشيخنا أبى عثمان : « ونَعوذ بك من شرّ السّلاطة والهذَر ، كما نعوذ بك من العِيّ والحصر » ، قال أُحَيحة بن الجُلاَح :

والصمتُ أجمـلُ بالفتى ما لم يكن عِيٌّ يَشِينهْ
والقول ذو خَطَلٍ إذا مَا لَمْ يَكُنْ لُبٌّ يعينُهُ

وقال الشاعر يرثى رجلا :

لَقَدْ وارى المقابرُ من شُرَيْكٍ كثيرَ تَحَلُّمٍ وقليلَ عابِ[(٢)]

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٦ ، ونسبهما إلى محرز بن علقمة .

صموتا فى المجالس غير عىّ ... جديراً حين ينطق بالصوابِ

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكره التشادق والإطالة والهذر ، وقال : « إياك والتشادُق » ، وقال صلى الله عليه وآله : « أبغضُكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » .

روى عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى ، عن النبى صلى الله عليه وآله : « إنّا معاشر الأنبياء بكاءون قليلُو الكلام » ، رجل بَكِيء على « فعيل » .

قال : وكانوا يكرهُون أن يزيد منطق الرجل على عَقْله .

قيل للخليل ، وقد اجتمع بابن المقفّع : كيف رأيته ؟ فقال : لسانه أرجحُ من عقله ، وقيل لابن المقفّع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : عقله أرجحُ من لسانه . فكان عاقبتهما أن عاش الخليل مصوناً مكرّماً ، وقتِل ابن المقفع تلك القِتلة .

وسأل حفص بن سالم عمرو بن عُبيد عن البلاغة ؟ فقال : مابلّغك الجنّة ، وباعدك عن النار ، وبصّرك مواقع رشدك ، وعواقب غيّك . قال : ليس عن هذا أسأل ، فقال: كانوا يخافون من فتنة القول ، ومن سَقَطات الكلام ، ولا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت .

قال أبو عثمان الجاحظ : وكان عمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى : لا يكاد يتكلّم ، فإن تكلّم لم يكد يطيلُ ، وكان يقول : لا خير فى المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، وإذا أطال المتكلّم الكلام عرضت له أسبابُ التكلّف ، ولا خير فى شىء يأتيك بالتكلّف .

وقال بعض الشعراء :

وإذا خطبتَ على الرِّجال فلا تكُنْ ... خَطِلَ الكلام تقولُه مختالا

واعلمْ بأنّ من السكوت إبانةً ومن التكلّف مايكون خبالا(١)

وكان يقال : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفكّر ، فإن كان لهقال ، وإن كان عليه سكت ، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه ، فإن همّ بالكلام تكلّم به .

وقال سعد بن أبي وقّاص لعمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم ، وقد كان غضب عليه ، فكلّموه فى الرضا عنه : هذا الذى أغضبنى عليه ، سمعت رسول الله صلى عليه وآله يقول : « يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحسُ الأرضَ البقرُ بألسنتها » .

وقال معاوية لعمرو بن العاص فى أبى موسى : قد ضُمّ إليك رجلٌ طويل اللسان قصير الرأى فأجِد الحزّ ، وطبِّق المفصل ، ولا تلقَه برأيك كلّه .

وكان يقال : لو كان الكلامُ من فضّة لكان السكوت من ذهب .

وكان يقال : مقتل الرجل بين فكّيه ، وقيل : بين لحييه.

وكان يقال : ماشيء بأحقّ بسجنٍ من لسان .

وقالوا : اللسان سبع عَقُور .

وأخذ أبو بكر بطرف لسانه ، وقال : هذا الذى أوردنى الموارد .

لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة ، أوصاها حين أخرجها إليه فقال: أمسِكى عليك الْفَضْلَيْن ، قالت : وما هما ؟ قال : فضل الغُلْمة ، وفضل الكلام .

وسئل أعرابىّ كان يجالس الشعبىّ عن طول صمته ، فقال : أسمع فأعلم ، وأسكت فأسلم .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « وهل يُكبّ الناسَ فى النار على مناخِرهم إلّا حصائدُ ألسنتهم » (٢) .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٣٥ ، ونسبهما إلى بعض الكلبيين .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٣٣ ؛ قال فى شرحه : « أى ما يقتطعونه من الكلام الذى لا خير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبيهاً بما يحصد من الزرع ، وتشبيهاً باللسان وما يقتطعه بحد المنجل الذى يحصد به »

تكلّم رجل فى مجلس النّبى صلى الله عليه وآله فخطِل فى كلامه ، فقال عليه السلام : « ماأعطِىَ العبد شرّاً من ذلاقة لسان »

قال عمر بن عبد العزيز يوم بويع بالخلافة خالد بن عبدالله القَسْرىّ ، وقد أنشده متمثلا :

وإذا الدّرّ زانَ حُسْنَ نُحورٍ كان للدرّ حسن نحرك زينَا

إن صاحبكم أعطِىَ مَقُولًا ، وحُرِم معقولا .

وقيل لإياس بن عمر : ادعُ لنا ، فقال : اللّهم ارحمْنا وعافنا وارزقنا ، فقالوا : زدنا ياأبا الرحمن ، فقال : أعوذ بالله من الإسهاب .

وكان القُباع — وهو الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومىّ — مِسْهاباً ، سريع الحديث كثيره ، فقال فيه أبو الأسود الدؤلىّ :

أميرَ المؤمنين جُزِيتَ خيْراً أرِحْنا من قُبَاع بنى المغيرهْ (١)

بلوناهُ ولمناه فأعْيا علينا مايمرّ لنا مريرهْ

على أن الفتى نِكحٌ أكولٌ ومسهاب ، مذاهبُه كثيرهْ

وقال أبو العتاهية :

كلّ امرئٍ فى نفسه أعْلَى وأشرفُ مِنْ قرينهْ (٢)

والصَّمْتُ أجملُ بالفَتَى مِنْ منطقٍ فى غير حينهْ

وقال الشاعر :

وإيّاك إيّاك المراء فإنّه إلى الشرّ دَعّاء وللشرّ جالب

وكان يقال : العجلة قَيْد الكلام .

---

(١) ملحق ديوانه ٤٧ .

(٢) ديوانه ٢٨٢

أطال خطيب بين يدى الإسكندر فزبَرَه ، قال : ليس حُسْن الخطابة على حَسَب طاقة الخاطب ؛ ولـكن على حسب طاقة السامع .

محمد الباقر عليه السلام : إنى لأكره أن يكون مقدارُ لسان الرجل فاضلا على مقدار علمه ؛ كما أكره أن يكونَ مقدارُ علمه فاضلا على مقدار عقله .

أطال ربيعة الرأى الـكلام ، وعنده أعرابىّ ، فلما فرغ من كلامه ، قال للأعرابىّ : ماتعدُّون العىّ والفهاهة فيـكم ؟ قال : ما كـنتَ فيه أصلحك الله منذ اليوم !

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام : إذا تمّ العقلُ نقص الـكلام .

واصل بن عطاء : لأن يقولَ الله لى يوم القيامة : هَلّا قلت ؟ أحبُّ إلىّ من أن يقول لى : لِمَ قلت ؟ لأنى إذا قلتُ طالبنى بالبرهان ؛ وإذا سكتّ لم يطالبنى بشىء .

نزل النعمان بن المنذر برابية ، فقال له رجل من أصحابه : أبيت اللعن ! لو ذُبح رجلٌ على رأس هذه الرابية ، إلى أينَ كان يبلغ دمُه ؟ فقال النعمان : المذبوح والله أنت ، ولأنظرنّ إلى أين يبلغ دمُك ! فذبحه . فقال رجل : ربّ كلمة تقول : دَعْنى .

أعرابىّ : رب منطقٍ صَدَعَ جَمْعاً ، وربّ سكوتٍ شَعَب صدْعا .

قالت امرأة لبعلها : مالك إذا خرجت تطلقّت وتحدّثت ، وإذا دخلت قعدت وسكت ؟ قال : لأنى أدِقّ عن جليلك ، وتجلّين عن دقيقى .

النّخَعِىّ : كانوا يتعلمون السكوتَ كما يتعلّمون الـكلام .

علّى بن هشام :

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله ... وما الحلم إلا عادة وتحلُّمُ
إذا لم يكن صمت الفتى من بلادةٍ ... وعىٍّ ، فإن الصمت أهدى وأسلمُ

وهيب بن الورْد : إنّ الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت ، والعاشرة العزلة عن الناس .

مكث الربيع بنُ خثيم عشرين سنة لا يتكلّم إلى أن قُتل الحسين عليه السلام ،
فسمعتْ منه كلمة واحدة ، قال لما بلغه ذلك : أوقد فعلوها! ثم قال : « اللّهمّ فاطرَ السموات
والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . ثم عاد
إلى السكوت حتى مات .

الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

زعمَ ابنُ سلمَى أنّ حلمى ضَرّنِي ... ما ضَرّ قبلى أهلَهُ الحِلْمُ
إنّا أناس من سجيّتهمْ ... صِدْقُ الحديث ورأيهم حَتْمُ
لبِسُوا الحياء فإن نظرت حسبتهمْ ... سقموا ولم يَمْسَسْهمُ سُقْمُ
إنى وجدتُ العُدْمَ أكبرُه ... عُدْم العقول وذلك العُدْمُ
والمرء أكثرُ عيبه ضَرَراً ... خَطَلُ اللسانِ وصَمْتُه حُكْمُ

جاء فى الحديث المرفوع عن النبى صلى الله عليه وآله : «إذا رأيتم المؤمنَ صموتاً فادنوا
منه ، فإنه يلقّى الحكمة » .

سفيان بن عيينة : من حُرِم العلم فليصمت ، فإن حُرِمَهما فالموت خير له .

وكان يقال : إذا طلبتَ صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك .

* * *

واعلم أن هذه الخطبة خطبَ بها أمير المؤمنين عليه السلام فى الجمعة الثالثة من خلافته ،
وكنى فيها عن حال نفسه ، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه ،
وطاعتهم له ؛ وهكذا وقع الأمر ، فإنه نقِل أنّ أهل العراق لم يكونوا أشدّ اجتماعاً عليه
من الشهر الذى قُتل فيه عليه السلام .

وجاء فى الأخبار أنه عَقَد للحسن ابنه عليه السلام على عَشَرةِ آلاف ، ولأبى أيوب

الأنصاريّ على عشرة آلاف ، ولفلان وفلان ؛ حتى اجتمع له مائة ألف سَيْف ، وأخرج مقدّمته أمامه يريد الشام فضربه اللعينُ ابن ملجم ؛ وكان من أمره ما كان ، وانفضّت تلك الجموع ، وكانت كالغنم فقد راعيها .

ومعنى قوله : « ألقتم له رقابَكم » أطعتموه ؛ ومعنى « أشرتم إليه بأصابعكم » أعظمتموه وأجللتموه ، كالملك الذى يشار إليه بالإصبع ، ولا يخاطب باللسان . ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله ؛ ولم يحدّد ذلك بوقت معين ؛ ثم يطلع الله لهم مَنْ يجمعهم ويضمهم ، يعنى من أهل البيت عليه السلام ؛ وهذا إشارة إلى المهدى الذى يظهر فى آخر الوقت . وعند أصحابنا أنه غيرُ موجود الآن وسيوجد ، وعند الإمامية أنه موجود الآن .

قوله عليه السلام : « فلا تطمعوا فى غيرِ مقبل ، ولاتيأسوا من مدبر » ؛ ظاهر هذا الكلام متناقض ؛ وتأويله أنه نهاهم عن أن يطمعوا فى صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرياسة ؛ وهو معنى مقبل ، أى قادم ؛ تقول : سوف أفعل كذا فى الشهر المقبل ، وفى السنة المقبلة ، أى القادمة ؛ يقول : كلّ الرياسات التى تشاهدونها فلا تطمعوا فى صلاح أموركم بشىء منها ، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم ، مستأنف الرياسة خامل الذكر ، ليس أبوه بخليفة ، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برياسة ، بل يتبَع ويعلو أمرُه ؛ ولم يكن قبل معروفا هو ولا أهله الأدنوْن، وهذه صفة المهدىّ الموعود به .

ومعنى قوله : «ولاتيأسوا من مدبر» ، أى وإذا مات هذا المهدىّ وخلفه بنوه بعده ، فاضطرب أمر أحدهم فلا تيأسوا وتتشككوا وتقولوا : لعلنا أخطأنا فى اتباع هؤلاء ؛ فإنّ المضطرب الأمر منّا ستثبتُ دعائمه وتنتظمُ أموره ، وإذا زلّت إحدى رجليه ثبتت

لأخرى فثبتت الأولى أيضا . ويروى : « فلا تطعنوا فى عين مقبل » ، أى لا تحاربوا حداً منا ولا تيأسوا من إقبال مَنْ يدبر أمره منا .

ثم ذكر عليه السلام أنهم كنجوم السماء ، كلما خوى نجم طلع نجم . خوى : ال للمغيب .

ثم وعدهم بقرب الفرج ، فقال : إنّ تكامل صنائع الله عندكم ، ورؤية ما تأملونه ر قد قَرُب وقته ، وكأنكم به وقد حضر وكان ، وهذا على نمط المواعيد الإلهية بقيام ساعة ، فإنّ الكتب المنزلة كلّها صرحت بقربها ، وإن كانت بعيدة عندنا ، لأنّ البعيد معلوم الله قريب ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ، وهى من الخُطب التى تشتمل على ذكر الملاحم

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ ، وَالْآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ .

***

الشرح :

يقول : البارئ تعالى موجود قبل كلّ شىء ، يشير العقل إليه ويفرضه أول الموجودات ؛ وكذلك هو موجود بعد كلّ شىء ، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى من جميع الموجودات ؛ فإن البارئ سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولا قبل كلّ ما يفرض أولا ، وبالاعتبار الثانى يكون آخرا بعد كلّ ما يفرض آخرا .

فأما قوله : « بأوليّته وجب أن لا أولّ له . . . » ، إلى آخر الكلام ، فيمكن أن يفسّر على وجهين :

أحدُهما أنّه تعالى لما فرضناه أولا مطلقا ، تبع هذا الفرض أن يكون قديما أزليًّا ، وهو المعنىّ بقوله : «وجب أن لا أوّل» وإنما تبعه ذلك ، لأنّه لو لم يكن أزليا لكان محدَثا فكان له محدِث ؛ والمحدِث متقدّم على المحدَث ؛ لكنا فرضناه أولا مطلقا ، أى لا يتقدّم عليه شىء ، فيلزم المحال والخلف . وهكذا القول فى آخريّته ، لأنا إذا فرضناه آخرا مطلقا ؛ تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل العدم ، وهو المعنىّ بقوله : « وجب أن لا آخر له »

وإنما تبعــــه ذلك ؛ لأنه لو لم يستحلّ عدمه لصح عدمه ؛ لـكن كلّ صحيح وممكن فليفرض وقوعه ، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال ، مع فرضنا إياه صحيحا وممكنا ؛ لـكن فرضُ تحقّق عدمه محال ، لأنه لوعدم لما عدم بعد استمرار الوجوديّة إلا بضدّ ، لـكن الضد المعدم يبقى بعد تحقق عدم الضدّ المعدوم لاستحالة أن يعدمه ، ويعدم معه في وقت واحد ؛ لأنه لو كان وقت عدم الطارئ هو وقت عدم الضدّ المطروء عليه ، لامتنع عدم الضدّ المطروء عليه ؛ لأن حال عدمه الذى هو الأثر المتجدّد تكون العلة الموجبة للأثر معدومة ، والمعدوم يستحيل أن يكون مؤثرا البتّة ؛ فثبت أنّ الضدّ الطارئ لابدّ أن يبقى بعد عدم المطروء عليه ولو وقتا واحدا ، لـكن بقاءه بعده ولو وقتا واحداً يناقض فرضنا كون المطروء عليه آخرا مطلقا ، لأن الضد الطارئ قد بقيَ بعده ، فيلزم من الخلف والمحال ما لزم في المسألة الأولى .

والتفسير الثاني : ألّا تـكون الضمائر الأربعة راجعة إلى البارئ سبحانه ، بل يكون منها ضميران راجعين إلى غيره ، ويكون تقدير الـكلام بأوليّة الأول الذى فرضنا كون البارئ سابقا عليه ، علمنا أن البارئ لا أول له ، وبآخرية الآخر الذى فرضنا أنّ البارئ متأخر عنه ؛ علمنا أنّ البارئ لا آخر له ، وإنّما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولًا لأول الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل ، وإثبات محدِثين ومحدَثين إلى غير نهاية ، وهذا محال .

ولو كان سبحانه آخراً لآخر الموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل ، وإثبات أضداد تعدم ويعدمها غيرها إلى غير نهاية ، وهذا أيضا محال .

* * *

الأصْـلُ :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ ٱلْإِعْلَانَ ، وَٱلْقَلْبُ اللِّسَانَ .

أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي ، وَلَا تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي ؛ فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ[1] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ؛ وَاللهِ[2] مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ، وَلَا جَهِلَ السَّامِعُ .

لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا ، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا ، وَبَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا ، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا ، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ[3] ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ .

هَذَا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ ! وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ !

***

الشرح :

فى الكلام محذوف ، وتقديره : « لا يجرمنكم شقاقى على أن تكذبونى » ، والمفعول فضلة وحذفه كثير ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [4] ، فحذف العائد إلى الموصول ؛ ومنها قوله سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [5] ، أى مَنْ رحمه ، ولا بد من تقدير العائد إلى الموصول ؛ وقد قرئ قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، و ﴿ مَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [6] بحذف المفعول .

لا يجرمنكم : لا يحملنكم ، وقيل : لا يكسبنكم . وهو من الألفاظ القرآنية[7] .

---

(١) فى مخطوطة النهج بعد هذه الكلمة « القرشى » (٢) ساقطة من مخطوطة النهج .
(٣) مخطوطة النهج : « ساقه » (٤) سورة العنكبوت ٦٢ .
(٥) سورة هود ٤٣ . (٦) سورة يس ٣٥ .
(٧) من قوله تعالى فى سورة هود ٨٩ : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ... ﴾

ولا يستهوينّكم ، أى لا يستهيمنّكم يجعلكم هائمين .

ولا تترامَوْا بالأبصار ، أى لا يلحَظُ بعضكم بعضا ؛ فعلَ المنكِر المكذِّب .

ثم أقسم بالذى فَلَق الحبّة، وبرأ النسمة ، فَلَق الحبّة من البُرّ ، أى شقّها وأخرج منها الوَرَق الأخضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾[١] .

وبرأ النّسمة؛ أى خلق الإنسان، وهذا القَسَم لايزال أمير المؤمنين يُقسِم به، وهو من مبتكراته ومبتدعاته .

والمبلّغ والسامع هو نفسه عليه السلام ، يقول : ما كذبتُ على الرسول تعمّدا ، ولا جهلت ما قاله فأنقل عنه غلطا .

والضِّلّيل : الكثير الضلال ، كالشِّرّيب والفِسّيق ونحوهما .

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان ، لأنّ هذه الصفات والأمارات فيه أتمّ منها فى غيره ، لأنه قام بالشام حين دَعَا إلى نفسه ، وهو معنى نعيقه ، وفَحَصت راياته بالكوفة، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق ، وقَتل مُصعبا ، وتارةً لمّا استخلَف الأمراء على الكوفة كبِشْر بن مروان أخيه وغيره ، حتى انتهى الأمر إلى الحجّاج ،وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثِقَل وطأته ، وحينئذ صَعُب الأمر جِدًّا ، وتفاقمت الفتَن مع الخوارج وعبدالرحمن بن الأشعث، فلمّا كَمَل أمرُعبدالملك ــ وهو معنى « أينع زرعه » هلك ، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده ، كحروب أولاده مع بني المهلّب، وكحروبهم مع زيد بن علىّ عليه السلام ، وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسرىّ وعمر بن هُبيرة وغيرهم ، وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال ، وذهاب النفوس .

---

(١) سورة الأنعام ٩٥ .

وقد قيل : إنه كَنَى عن معاوية وما حدَث فى أيامه من الفتن ، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيدالله بن زياد ، وواقعة الحسين عليه السلام ، والأوّل أرجح ، لأنّ معاوية فى أيام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد نَعَق بالشام ، ودعاهم إلى نفسه ، والكلام يدلّ على إنسان ينعق فيما بعد ، ألا تراه يقولُ : لكأنّى أنظر إلى ضِلّيل قد نَعَق بالشام !

* * *

ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والغريب .

النعيق : صوت الراعى بغنمه . وفَحَص براياته . من قولهم : ماله مفحَص قطاة ،أى مجثمها ، كأنهم جعلوا ضواحىَ الكوفة مفحَصاً ومجثما لراياتهم .

وكوفان:اسم الكوفة،والكوفة فى الأصل اسم الرملة الحمراء؛وبها سميت الكوفة . وضواحيها : نواحيها القريبة منها البارزة عنها ؛ يريد رُسْتاقها .

وفغرت فاغرته: فتح فاه، وهذا من باب الاستعارة ، أى إذا فتك فتح فاه وقتل ؛ كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأنيف للفتنة .

والشكيمة فى الأصل : حديدة معترضة فى اللجام فى فم الدابة ، ثم قالوا : فلان شديدُ الشّكيمة ، إذا كان شديدَ المراس شديد النفس عَسِر الانقياد .

وثقلت وطأته : عظم جَوْره وظلمه . وكلوح الأيام : عبوسها ؛ والكدوح : الآثار من الجراحات .

والقروح ، الواحد الكَدْح ، أى الخدش .

والمرادمن قوله : «من الأيام» ، ثم قال: «ومن الليالى» أنّهذه الفتنة مستمرةالزمان كلّه ؛ لأن الزمان ليس إلا النهار والليل .

وأينع الزرع : أدرك ونضج ؛ وهو اليَنْع واليُنْع ، بالفتح والضم؛ مثل النَّضج والنُّضج؛

ويجوز ينع الزرع بغير همز ، ينَع ينوعا ، ولم تسقط الياء فى المضارع لأنها تقوّت بأختها ، وزرع يَنِيع ويانع ؛ مثل نضيج وناضج . وقد روى أيضا هذا الموضع بحذف الهمز .

وقوله عليه السلام : « وقام على ينعه » الأحسن أن يكون « ينع » هاهنا جمع يانع كصاحب وصَحْب ، ذكر ذلك ابن كيسان ؛ ويجوز أن يكون أراد المصدر ، أى وقام على صفةٍ وحالةٍ هى نضجه وإدراكه .

وهدرت شقاشِقه ، قد مرّ تفسيره فى الشِّقْشقية وبرقت بوارقه : سيوفه ورماحه .

والمعضلة : العسرة العلاج داء معضل .

ويخرق الكوفة : يقطعها . والقاصف : الريح القوية تكسر كلّ ما تمر عليه وتقصفه .

ثم وعد عليه السلام بظهور دولة أخرى ، فقال : « وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون » ؛ وهذا كناية عن الدولة العباسية التى ظهرت على دولة بنى أمية . والقُرون : الأجيال من الناس ، واحدها قَرْنٌ ، بالفتح .

ويحصد القائم ، ويَحْطِم المحصود : كناية عن قتل الأمراء من بنى أمية فى الحرب ، ثم قتل المأسورين منهم صَبْراً ، فحصْد القائم قتل المحاربة ، وحَطْم الحصيد : القتل صبرا ؛ وهكذا وقعت الحال مع عبد الله بن علىّ ، وأبى العباس السفاح .

(١٠١)

ومن خطبة له عليه السلام تجرى هذا المجرى :

الأصْل :

وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ ٱللهُ فِيهِ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لِنِقَاشِ ٱلْحِسَابِ وَجَزَاءِ ٱلْأَعْمَالِ، خُضُوعاً قِيَاماً قَدْ أَلْجَمَهُمُ ٱلْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالًا مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً ، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا شرح حال يوم القيامة ؛ والنّقاش : مصدر ناقش ؛ أى استقصى فى الحساب ؛ وفى الحديث : « من نوقش الحساب عذّب » .

وألجمهم العَرق : سـال منهم حتى بلغ إلى موضع اللجام من الدابة ؛ وهو الفم .

ورجفت بهم : تحرّكت واضطربت ، رجف يرجُفُ بالضم ؛ والرّجفة : الزلزلة والرجّاف من أسماء البحر ؛ سمّى بذلك لاضطرابه .

ثم وصف الزحام الشديد الذى يكون هناك ، فقال : أحسنُ الناس حالا هناك مَنْ وَجَد لقدميْه موضعا ، ومَنْ وجد مكانا يسعه .

* * *

الأصْل :

ومنها :

فِتَنٌ كَقِطَعِ ٱللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا؛ أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ، قَلِيلٌ

سَآئِهِمْ ، يُجَاهِدُهُمْ فِي اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ، فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذَلِكِ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ! لَا رَهَجَ لَهُ وَلَا حِسَّ، وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ ، وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ ا

* * *

الشَّرْحُ

قطع الليل : جمع قِطْع ؛ وهو الظلمة ، قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ [١] .

قوله : « لاتقوم لها قائمة » ، أى لا تنهض بحربها فئة ناهضة ، أو لاتقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل ؛ يعنى لاسبيل إلى قتال أهلها ، ولا يقوم لها قلمة قائمة أو بنيّة قائمة بل تنهدم .

قوله : « ولا يردّ لها راية » ؛ أى لاتنهزم ولا تفرّ ، لأنها إذا فرّت فقد رُدّت على أعقابها .

قوله : « مزمومة مرحولة » ، أى تامّة الأدوات كاملة الآلات ، كالناقة التى عليها رَحْلها وزمامها قد استعدّت لأن تُركب .

يحفزها : يدفعها . ويجهَدها : يحمل عليها فى السَّيْر فوق طاقتها ؛ جَهَدت دابّتى ؛ بالفتح ، ويجوز : أجهدت ؛ والمراد أنّ أرباب تلك الفتن يجتهدون ويجدّون فى إضرام نارها ، رجّالا وفرسانا ، فالرّجل كَنَى عنهم بالقائد ، والفرسان كَنَى عنهم بالراكب .

والكَلَب : الشدّة من البرد وغيره ، ومثله الكَلَبة ؛ وقد كَلِب الشتاء ، وكَلِب القحط ، وكَلِب العدوّ ، والكَلَب أيضا : الشرّ ، دفعت عنك كَلَبَ فلان ، أى شرّه وأذاه .

(١) سورة هود ٨١ .

وقوله : « قليل سَلَبُهم » ، أى همُّهم القتل لا السلب ، كما قال أبو تمام .

إنّ الأسودَ أسودَ الغاب هِمَّتُها يومَ الكريهة فى المسلُوب لا السَّلَب[١]

ثم ذكر عليه السلام أنّ هؤلاء أرباب الفتن يجاهدهم قوم أذلة ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٢] ، وذلك من صفات المؤمنين .

ثم قال : هم مجهولون عند أهل الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد ؛ ولكنهم معروفون عند أهل السماء ، وهذا إنذار بملحمة تجرى فى آخر الزمان ؛ وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله بنحو ذلك ، وقد فسّر هذا الفصل قومٌ وقالوا إنه أشار به إلى الملائكة لأنّهم مجهولون فى الأرض ، معروفون فى السماء ، واعتذروا عن لفظة «قوم» ، فقالوا : يجوز أن يقال فى الملائكة قوم كما قيل فى الجنّ قوم ؛ قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾[٣] ؛ إلا أنّ لفظ « أذلة عند المتكبّرين » يبعد هذا التفسير .

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نِقَم الله لا رَهَج له ولا حسّ ، الرَّهج : الغبار ، وكنّى بهذا الجيش عن جَدْب وطاعون يصيب أهلَها حتى يبيدَهم . والموت الأحمر ، كناية عن الوباء والجوع .

الأغبر: كناية عن المحْل ، وسمِّىَ الموت الأحمر لشدّته ؛ ومنه الحديث : «كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله » ووصف الجوع بأنه أغبر ، لأن الجائع يرى الآفاق كأنّ عليها غبرة وظلاما ؛ وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزّنج ؛ وهو بعيد ، لأنّ جيشه كان ذا حسّ ورهج ، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن ؛ ألا تراه قال : « فويل لكِ يا بصرة عند ذلك » ، ولم يكن قبل خروج صاحب الزّنج فِتَنٌ شديدة على الصفات التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

(١) ديوانه ١ : ٧١ .
(٢) سورة المائدة ٥٤ .
(٣) سورة الأحقاف ٢٩ .

(١٠٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

انْظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا ؛ الصَّادِفِينَ عَنْهَا ؛ فَإِنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ ؛ وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الْآمِنَ ؛ لَا يَرْجِعُ مَاتَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ ، وَلَا يُدْرَىٰ مَاهُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرُ .

سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ ،وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهَنِ؛فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَايُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَايَصْحَبُكُمْ مِنْهَا .

رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ ، فَكَأَنَّ مَاهُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ ؛ وَكَأَنَّ مَاهُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ .

* * *

الشرح :

الصادفين عنها ، أى المعرضين ، وامرأة صدوف : التى تعرض وجهها عليك ثم تصدف عنك .

وعَمّا قليل : عن قليل ، وما زائدة .

والثاوى : المقيم ، ثوى يثوى ثواء وثُويًّا ، مثل مضى يمضى مضاء ومُضيًّا ؛ويجوز: ثويتُ بالبصرة وثويت البصرة ، وجاء « أثويتُ بالمكان » ، لغة فى « ثويت » قال الأعشى :

أثوَى وَقصَّر ليــــله لـيزوَّدا فَمَضَتْ وأخلف من قُتَيلة مَوْعِدَا[1]

والمترَف : الذى قد أترفتْه النعمة ، أى أطغتْه ؛ يقول عليه السلام : لا يعود على الناس ماأدبر وتولّى عنهم من أحوالهم الماضية ، كالشباب والقوّة ، ولا يُعلم حال المستقبل من صحة أو مرض ، أو حياة أو موت لينتظر ، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر :

وأضْيَعَ العمرَ ، لا الماضى انتفعتُ بِهِ ولا حَصَلْتُ على علمٍ من الباقِى

ومشوب : مخلوط ، شبْته أشوبه فهو مشوب ، وجاء « مشيب » فى قول الشاعر :

* وماء قدورٍ فى القِصاع مشيب *

فبناه على « شِيب » لم يسمّ فاعله ، وفى المثل : « هو يشوب ويروب » ، يضرب لمن يخلط فى القول أو العمل .

والجلَد : الصلابة والقوة . والوهَن : الضعف نفسه ، وإنما عطف للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2]، وقوله : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[3].

ثم نهى عن الاغترار بكثرة المُعْجِب من الدنيا ، وعلّل حسنَ هَـذا النهى ، وقبّح الاغترار بما نشاهده عيانا من قِلّة مايصحب مفارِقيها منها . وقال الشاعر :

فما تَزَوّد مما كانَ يجمعُه إلا حَنُوطاً غداة البين فى خِرَقِ

وغـــير نفحة أعوادٍ شببن له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلقِ

ثم جعل التفكّر علة الاعتبار ، وجعل الاعتبار علّة الإبصار ؛ وهـذا حقّ ، لأنّ الفكر يوجب الاتّعاظ، والاتّعاظ يُوجب الكشف، والمشاهدة بالبصيرة التى نورها الاتّعاظ.

---

(١) ديوانه ١٥٠ ، وروايته : « ومضى » .
(٢) سورة المائدة ٤٨ .
(٣) سورة فاطر ٣٥ .

ثم ذكر أنّ ماهو كائن وموجود من الدنيا سيصير عن قليل ـ أى بعد زمان قصير ـ معدوما، والزمان القصير هاهنا : انقضاء الأجل وحضور الموت .

ثم قال : إنّ الذى هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل ـ أى بعد زمان قصير أيضا ـ كأنّه لم يزل ؛ والزمان القصير هاهنا هو حضور القيامة ؛ وهى وإن كانت تأتى بعد زمان طويل ، إلّا أنّ الميت لايحسّ بطوله ، ولا فرْقَ بين ألف ألف سنة عنده إذا عاد حيًّا ، وبين يوم واحد ، لأن الشعور بالبطء فى الزمان مشروط بالعلم بالحركة ، ويدلّ على ذلك حال النائم . ثم قال : كلّ معدود منقضٍ ، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظرى على أنّ الدنيا زائلة ومنصرفة ، وقد استدلّ المتكلّمون بهذا على أنّ حركات الفلك يستحيل ألّا يكون لها أول ، فقالوا لأنها داخلة تحت العدد ، وكلّ معدود يستحيل أن يكون غير متناهٍ ، والكلام فى هذا مذكور فى كتبنا العقلية .

ثم ذكر أن كلّ مايتوقع لابدّ أن يأتِيَ ، وكلّ ماسيأتى فهو قريب وكأنه قد أتى ، وهذا مثل قول قُسّ بن ساعدة الإيادىّ : مالِى أرى الناس يذهبون ثم لايرجعون ! أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا ! أقسم قُسٌّ قسما ، إنّ فى السماء لَخَبَراً، وإنّ فى الأرض لعِبراً؛ سقفٌ مرفوع ، ومِهاد موضوع ، ونجوم تمور ، وبحار لاتغور . اسمعوا أيّها الناس وعوا ! مَنْ عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آتٍ آت .

* * *

الأصْلُ :

ومنها :

ٱلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ ٱلرِّجَالِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى لَعَبْداً وَكَلَهُ ٱللهُ إِلَى نَفْسِهِ ،جَائِراً عَنْ قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ،سَائِراً بِغَيْرِ

دَلِيلٍ ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الْآخِرَةِ كَسِلَ ؛ كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ؛ وَكَأَنَّ مَاوَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ .

* * *

الشَّرْح

قوله عليه السلام : « العالم مَنْ عرف قدره » ، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام ، وقد قال الناس بعده في ذلك فأكثروا ، نحو قولهم : إذا جهلت قدر نفسك فأنت لقدر غيرك أجهل . ونحو قولهم : مَنْ لم يعرف قَدْرَ نفسه ، فالناس أعذرُ منه إذا لم يعرفوه ، ونحو قول الشاعر أبي الطيب :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ رَأَى غيرُه مِنْهُ مَالَا يَرَى(١)

ثم عَبّر عن هذا المعنى بعبارة أخرى ، فصارت مثلاً أيضا ، وهي قوله : « كفى بالمرء جهلا ألّا يعرف قدره » ، ومن الكلام المرويّ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام مرفوعا : « ماهلك امرؤ عرف قدره » ، رواه أبو العباس المبرد عنه في الكامل .

قال : ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : وما إخالُ رجلًا يرفع نفسه فوق قدرها إلا من خلل في عقله .

وروى صاحب " الكامل " أيضا عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال : لما حضرت الوفاةُ عليَّ بن الحسين عليه السلام أبي ضمّني إلى صدره ، ثم قال: يابنيّ أوصيك بما أوصاني به أبي يوم قُتِل ، وبما ذكر لي أنّ أباه عليا عليه السلام أوصاه به : يابنيّ عليك ببَذْلِ نفسك ، فإنه لا يسرّ أباك بِذُلٍّ نفسه حمر النعم .

وكان يقال : مَنْ عرف قدرَه استراح .

(١) ديوانه ١ : ٤٤

وفى الحديث المرفوع : « مارفع امرؤ نفسه فى الدنيا درجة إلا حطّه الله تعالى فى الآخرة درجات » .

وكان يقال : مَنْ رضِيَ عن نفسه كَثُر الساخطون عليه . ثم ذكر عليه السلام أنّ مِنْ أبغض البَشَر إلى الله عبداً وكَلَه الله إلى نفسه ، أى لم يمدّه بمعونته وألطافه ، لعلمه أنّه لاينجع ذلك فيه ، وأنّه لا ينجذب إلى الخير والطاعة ، ولا يؤثر شيء مافى تحريك دواعيه إليها ، فيكِلُه الله حينئذ إلى نفسه .

والجائر : العادل عن السَّمت ، ولما كان هـذا الشقىّ خابطا فيما يعتقده ويذهب إليه مستندا إلى الجهل وفساد النَّظر جعله كالسائر بغير دليل .

والحرث هاهنا : كلّ مايفعل ليثمر فائدة ، فحرث الدنيا كالتجارة والزراعة ، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المقبحات والمعاصى ، وسمى حرثا على جهة المجاز ، تشبيها بحرث الأرض ، وهو من الألفاظ القرآنية .

وكَسِل الرجل بكسر السين ، يكسَل ، أى يتثاقل عن الأمور ، فهو كسلان ، وقوم كَسالى وكُسالى بالفتح والضم .

قال عليه السلام : حتّى كأن ماعمله من أمور الدنيا هو الواجب عليه ، لحرصه وجدّه فيه ، وكأنّ ماونى عنه ـ أى فتر فيه من أمور الآخرة ـ ساقط عنه ، وغير واجب عليه لإهماله وتقصيره فيه .

***

الأصل :

ومنها :

وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ ، وَإِنْ غَابَ

لمْ يُفتقَدْ؛أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى وَأَعْلَامُ السُّرَى،لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ وَلَا الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ ؛ وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[1].

* * *

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

أَمَّا قوله عَلَيْهِ السَّلام : «كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ» فإنما أرادَ به الخامِلَ الذِّكْرِ القليل الشرِّ ، والمَسايِيحُ : جمعُ مِسْيَاحٍ ؛ وهو الذى يَسِيحُ بينَ الناسِ بالفسادِ وَالنَّمائِمِ ، والمَذَايِيعُ : جمعُ مِذْيَاعٍ ، وهو الذى إذا سَمِعَ لغيرِهِ بفاحِشَةٍ أذاعَها ، وَنَوَّهَ بها . وَالْبُذُرُ : جمع بَذُورٍ ، وهو الَّذِى يَكْثُرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقُهُ .

* * *

الشرح :

شهد : حضر ، وكفأت الإناء أى قلبته وكببته . وقال ابن الأعرابىّ : يجوز أكفأته أيضا ، والبُذُر : جمع بَذُور مثل صَبُور وصُبُر ؛ وهو الذى يذيع الأسرار ؛ وليس كما قال الرضىّ رحمه الله تعالى ، فقد يكون الإنسان بَذُورا وإن لم يكثُر سفهه ولم يَلْغُ منطقه؛ بأن يكون عُلَنة مذياعا من غير سفه ولا لغو . والضرّاء : الشدّة ، ومثلها البأساء؛ وهما اسمان مؤنثان من غير تذكير ، وأجاز الفرّاء أن يجمع على آضر وأبؤس ، كما يُجمع النعماء على أنعُم .

* * *

(١) سورة المؤمنين ٣٠

واعلم أنه قد جاء فى التواضع وهَضْم النفس شىء كثير ؛ ومن ذلك الحديث المرفوع: « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبّر على الله وضعه » .

ويقال : إنّ الله تعالى قال لموسى : إنما كلمتك لأنّ فى أخلاقك خُلُقًا أحبه الله ، وهو التواضع .

ورأى محمد بن واسع ابنه يمشى الخُيَلاء ، فناداه فقال : ويلَك ! أتمشى هذه المِشْيَة ، وأبوك أبوك ، وأمك أمك ! أما أمّك فأمَة ، ابتعتُها بمائتى درهم ؛ وأما أبوك فلا كثّر الله فى الناس مثله .

ومثل قوله عليه السلام : « كل مؤمن نُوَمة إنْ شهد لم يعرَف وإن غاب لم يفتقد » ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله : « رب أشعثَ أغبر ذى طِمْرين لا يُؤْبه له ، لو أقسم على الله لأبرّ قسمه » .

وقال عمر لابنه عبدالله: التمس الرِّفعة بالتواضع والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس ، وإياك والخُيَلاء فتضَع من نفسك ، ولا تحقرنّ أحداً فإنك لا تدرِى لعلّ مَنْ تزدريه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك .

وقال الأحنف : عجبت لمن جرى فى مَجْرى البول مرتين ، من فَرْجين، كيف يتكبّر!

وقد جاء فى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ما يناسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا : « إن الله يحبُّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ؛ يخرجون من كلّ غبراء مظلمة » .

* * *

وأما إفشاء السرّ وإذاعته، فقد ورد فيه أيضا ما يكثر، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (١) لكفى .

(١) سورة القلم ١٠ ، ١١

وفى الحديث المرفوع : « مَنْ أكل بأخيه أكلة أطعمه الله مثلها من نار جهنم »

قيل فى تفسيره : هو أن يسعى بأخيه ويجرّ نفعا بسعايته .

الجنيد : سَتْرما عاينتَ أحسنُ من إشاعة ما ظننت .

عبد الرحمن بن عوف : من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها .

قال رجل لعمرو بن عُبيد : إن عليا الأسوارى لم يزل منذ اليوم يذكرك بسوء ويقول : الضالّ . فقال عمرو : يا هذا ، ما رعيت حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه ، ولاوفّيتنى حق حين أبلغتنى عن أخى ماأكرهه ! اعلم أنّ الموت يعمّنا ، والبعث يحشرُنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا .

وكان يقال : مَنْ نمّ إليك نمّ عليك .

وقالوا فى السعاة : يكفيك أن الصدق محمود إلا منهم ، وإن أصدقهم أخبثهم .

وشى واشٍ برجل إلى الإسكندر ، فقال له : أتحبّ أن أقبل منك ما قلتَ فيه ، على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال : فكُفّ عن الشرّ يكفّ عنك .

قال رجل لفيلسوف : عابك فلان بكذا ، قال : لقيتَنى لِقِحتك بما لم يلقنى به لحيائه .

عاب مصعب بن الزبير الأحنف عن شىء بلغه عنه ، فأنكره ، فقال : أخْبَرَنى بذلك الثقة ، فقال : كلّا أيها الأمير ، إن الثقة لا يَنِمّ .

عرض بعضُ عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع فى طىّ كتاب كتبه إليه ، فوقّع الفضل : قبول السعاية شرٌّ من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دلّ على قبيح كمن أجازه وعمل به ، فاطرُد هذا الساعىَ عن عملك ، وأَقْصِه عن بابك ، فإنه لو لم يكن فى سعايته كاذبا لكان فى صدقه لئيما ، إذ لم يرْعَ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسلام .

صالح بن عبد القدوس :

مَنْ يخــبِّرك بشتمٍ عن أخٍ فهو الشــاتمُ ، لامَنْ شتَمَكْ
ذاكَ شيء لم يواجِهْـك به إنما اللوم عَلَى مَنْ أعْلَمَـكْ
كيف لم ينصرك إن كان أخــا ذا حفاظٍ عنــد مَنْ قد ظلمك !

طريح بن إسماعيل الثقفي[1] :

إن يعلمُوا الخــير يخفُوه وإن علموا شرًّا أذاعوا ، وإن لم يعلموا كَذَبُوا

ومعنى قوله عليه السلام: « وإن غاب لم يفتقَد » ، أى لا يقال : ماصنع فلان،ولاأين هو ؟ أى هو خامل لايعرف .

وقوله : « أولئك يفتح الله بهم أبواب الرحمة ، ويكشف بهم ضرّاء النقمة »؛وروى: « أولئك يفتح الله بهم أبواب رحمته، ويكشف بهم ضرّاء نقمته » ، أى ببركاتهم يكون الخير ويندفع الشر .

ثم ذكر عليــه السلام أنه سيأتى على الناس زمانٌ تنقلب فيــه الأمور الدينية إلى أضدادها ونقائضها ، وقد شهدنا ذلك عيانا .

ثم أخبر عليه السلام أنّ الله لايجور على العباد ، لأنه تعالى عادل[2] ولا يظلم ولـكنه يبتلى عبــاده أى يختــبرهم ، ثم تلا قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾[3]، والمراد أنه تعالى ، إذا فسد الناس لايلجئهم إلى الصلاح ؛ لـكن يتركهم واختيارهم امتحانا لهم ، فمن أحسن أثيب ، ومن أساء عوقب .

---

(١) ساقطة من ب
(٢) ب : « عال » .
(٣) سورة « المؤمنون » ٣٠

(١٠٣)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً ، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلَا وَحْياً ؛ فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ ؛ يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ ؛ وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ ؛ يَحْسِرُ الْحَسِيرُ ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ ؛ فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ ؛ إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ . حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ . وَايْمُ اللهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا ، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَلَا خُنْتُ وَلَا وَهَنْتُ . وَايْمُ اللهِ لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ .

***

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

وقد تقدّم مختارهذه الخطبة ؛ إلاّ أنني وجدتها فى هذه الرواية على خلاف ماسبق من زيادة ونقصان ؛ فأوجبت الحال إثباتها ثانية .

***

الشَّرْحُ :

لقائل أن يقول : ألم يكن فى العرب نبىٌّ قبل محمد ؛ وهو خالد بن[1] سنان العبسىّ ؟ وأيضا فقد كان فيها هود وصالح وشعيب .

(١) هو خالد بن سنان بن غيث العبسى ، ذكره الرسول عليه السلام ؛ وقال : « ذلك نبى أضاعه قومه » . وانظر أخباره فى مروج الذهب ١ : ١٣١ (طبع أوربا) .

ونجيب هذا القائل بأنّ مراده عليه السلام أنّه لم يكن فى زمان محمد صلى الله عليه وآله وما قاربه مَن ادّعى النبوّة ، فأما هود وصالح وشعيب ، فكانوا فى دَهْرٍ قديم جدا ، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتابا ، ولا يدّعى شريعة وإنما كانت نبوّة مشابهة لنبوّة جماعة من أنبياء بنى إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع ، وإنما ينهوْن عن الشرك ، ويأمرون (١) بالتوحيد .

ومنجاتهم : نجاتهم ، نجوت من كذا نجاء ، ممدود ، ونجًا مقصور . ومنجاة على « مَفْعَلة » ، ومنه قولهم : « الصدق مَنْجاة » .

قوله عليه السلام : « ويبادر بهم الساعة » ، كأنه كان يخاف أن تسبقه القيامة ، فهو يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم ، وهم على ضلالهم .

والحسير : المعيا ، حَسَر البعير بالفتح ، يحسِر بالكسر حُسورا ، واستحسر مثله ، وحسرته أنا ، يتعدّى ولا يتعدّى ، حَسْرا فهو حسير ، ويجوز أحسرته ، بالهمزة ، والجمع حَسْرَى ، مثل قتيل وقَتْلَى ، ومنه حَسَر البصر ، أى كَلّ ، يحسِر ، قال تعالى : ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٢) . وهذا الكلامُ من باب الاستعارة والمجاز ، يقول عليه السلام : كان النبىّ صلى الله عليه وآله لحِرْصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ، ورأفته بهم ، يلاحظ حالَ من تزلزل اعتقاده ، أو عرضتْ له شبهة ، أو حدَث عنده ريب ، ولا يزال يوضّح له ويرشده حتى يزيل ماخامر سرّه من وساوس الشيطان ، ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين ، ولم يكن ليقصِّر فى مراعاة أحد من المكلّفين فى هذا المعنى إلا مَنْ كان يعلم أنّه لاخير فيه أصلا ، لعناده وإصراره على الباطل ، ومكابرته للحقّ .

ومعنى قوله : « حتى يلحقه غايته » ، حتى يوصّله إلى الغاية التى هى الغرض بالتكليف ، يعنى اعتقاد الحقّ وسكون النفس إلى الإسلام ، وهو أيضا معنى قوله : « وبوّأهم محلّتهم » .

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) سورة الملك ٤ .

ومعنى قوله : « فاستدارت رحاهم » ، انتظم أمرُهم ، لأن الرّحا إنّما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها ، وهو أيضا معنى قوله : « واستقامت قناتُهم » ، وكلُّ هـذا من باب الاستعارة .

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من ساقتها ، الساقة : جمع سائق ، كقادة جمع قائد ، وحاكة جمع حائك ، وهذا الضمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظا ، والمراد الجاهلية ، كأنه جعلها مثلَ كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام ، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه ، حتى فرّت وأدبرت ، واتبعها يسوقها سوقا وهى مولّية بين يديه .

حتى أدبرت بحذافيرها ، أى كلها عن آخرها .

ثم أتى بضمير آخر إلى غير مذكور لفظا ، وهو قوله : « واستوسقت فى قيادها » ، يعنى الملّة الإسلامية أو الدعوة ، أو ما يجرى هذا المجرى . واستوسقت : اجتمعت ، يقول : لما ولّت تلك الدعوة الجاهلية استوسقت هذه فى قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها . ويجوز أن يعودَ هذا الضمير الثانى إلى المذكور الأول وهو الجاهلية ، أى ولّت بحذافيرها واجتمعت كلُّها تحت ذلّ المقادة .

ثم أقسم أنّه ماضعف يومئذ ولا وَهَن ولا جَبُن ولا خان ، وليبقرنّ الباطل الآن حتى يخرج الحقّ من خاصرته ، كأنّه جعل الباطل كالشىء المشتمل على الحق غالبا عليه ، ومحيطا به ، فإذا بُقِر ظهر الحق الكامن [1] فيه ، وقد تقدم منّا شرح ذلك .

(١) ب : « الكائن » .

(١٠٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

حَتَّىٰ بَعَثَ ٱللهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ شَهِيداً وَبَشِيراً وَنَذِيراً ، خَيْرَ ٱلْبَرِيَّةِ طِفْلاً ، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً ، وَأَطْهَرَ ٱلْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً ، وَأَجْوَدَ ٱلْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً ، فَمَا ٱحْلَوْلَتْ لَكُمُ ٱلدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا[1] ، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلَافِهَا ، إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ . صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا ، قَلِقاً وَضِينُهَا ؛ قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ ٱلسِّدْرِ ٱلْمَخْضُودِ ، وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَصَادَفْتُمُوهَا وَٱللهِ ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ .

فَٱلْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ ؛ وَأَيْدِي ٱلْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً ، وَإِنَّ ٱلثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَٱلْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ ٱللهُ ٱلَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ ؛ وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَأُقْسِمُ بِٱللهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ ، وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ .

* * *

الشرح :

معنى كون النبيّ صلى الله عليه وآله شهيدا ، أنه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان .

أنجبها : أكرمها ، ورجل نجيب ؛ أي كريم بيّن النَّجابة ، والنُّجَبة مثل الهُمَزة ؛

---

(١) مخطوطة النهج : « لذاتها » .

ويقال: هو نُجْبَة القوم؛ أى النجيب منهم ،وأنجب الرجل، أى ولد ولدا نجيبا ،وامرأة منجبة ومِنْجاب ، تلد النُّجباء ، ونسوة مناجيب .

والشيمة : الخُلق . والديمة : مطر يدوم . والمستمطرون : المستَجْدُوْنَ والمسّاحون.

واحلولت : حلَت ، وقد عدّاهُ حميد بن ثور فى قوله[١] :

فَلَمّا أتَى عَامَانِ بَعْدَ انفِصَالِه عن الضَّرْعِ ، واحْلَوْلَى دِماثا يَرُودها[٢]

ولم يجئ « افعوعل »متعدّيا إلا هذا الحرف وحرف آخر ، وهو اعروريت الفرس.

وهو الرَّضاع ، بفتح الراء : رضِع الصبىّ أمّه، بكسر الضاد يرضعها رضاعا، مثل سمع يسمع سماعا ؛ وأهل نجد يقولون : رَضَع بالفتح يرضِع بالكسر ، مثل ضرَب يضرِب ضربا .

وقال الأصمعىّ : أخبرنى عيسى بن عمر أنه سمع العرب تُنْشِد هذا البيت :

وَذَمّوا لَنَا الدُّنْيـا وَهُمْ يرضِعُونها أفاويقَ حتى مايدِرّ لهـا ثُعْلُ[٣]

بكسر الضاد . والأخْلَاف للناقة بمنزلة الأطْباء للكلبة ، واحدها خِلْف بالكسر ، وهو حَلَمَة الضَّرْع . والخِطام : زمام الناقة ، خطمتُ البعير : زممته ، وناقة مخطومـة ، ونوق مخطّمة .

والوَضِين للهودج ؛ بمنزلة البِطَان للقتب ، والتّصدير للرحْل ، والحِزام للسرْج؛ وهو سُيور تنسج مضاعفة بعضها على بعض ،يشدّ بها الهوْدج منه إلى بطن البعير، والجمع وُضُن.

والمخضود : الذى خُضِد شوكه ، أى قطع .

وشاغرة : خالية ، شَغَر المكان ، أى خلا ، وبلدة[٤] شاغرة . إذا لم تمتنع من غارة أحد . والثائر : طالب الثأر ، لايبقى على شىء حتى يدرك ثأره .

---

(١) ديوانه ٣٠٧ .

(٢) احلولى : استحلى واستمرأ ، والدماث : جمع دمث ؛ وهو السهل اللين الكثير النبات من الأرض، ويرودها : يأتيها للرعى .

(٣) اللسان ٩ : ٤٨٤ ، ونسبه إلى ابن همام السلولى .

(٤) ساقطة من ب .

يقول عليه السلام مخاطبا لمن فى عصره من بقايا الصحابة ولغيرهم من التابعين ، الذين لم يدركوا عَصْر رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله بعثَ محمدا ، وهو أكرم الناس شيمة ، وأنداهم يدا ، وخيرهم طفلا ، وأنجبهم كَهْلًا ، فصانه الله تعالى فى أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا ، وأكرمه عن ذلك فلم تُفْتَح عليكم البلاد ، ولا دَرّت عليكم الأموال ، ولا أقبلت الدنيا نحوكم ، وما دالت الدولة لكم إلا بعده ، فتمكّنتم من أكلها والتمتع بها ، كما يتمكّن الحالب من احتلاب الناقة فيحلبها ، وحلت لذّاتها لكم ، واستطبتم العيشة ، ووجدتموها حُلْوة خضرة .

ثم ذكر أنّهم صادفوها — يعنى الدنيا — وقد صَعُبت على مَنْ يليها ولاية حق ، كما تستصعبُ الناقة على راكبها إذا كانت جائلة الخِطام ، ليس زمامها بممكّن راكبها من نفسه ، قلقَة الوضين ، لا يثبت هودجُها تحت الراكب ، حرامها سهل التناول على من يريده ، كالسِّدْر الذى خُضِد عنه شوكه ، فصار ناعما أملس ، وحلالها غير موجود لغلبة الحرام عليه ، وكونه صار مغمورا مستهلكاً بالنسبة إليه ، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائما من استبداد الخلفاء قبله دونه بالأمر ، وأنه كان الأولى والأحقّ .

* * *

فإن قلت : إذا كانت الدنيا قَلِقة الوضين ، جائلة الخِطام ، فهى صَعْبة الركوب ، وهذا ضدّ قوله : « حرامها بمنزلة السدر المخضود » ، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة !

قلت : فحوى كلامه أنّ الدنيا جمحت به عليه السلام ، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكباً لها أو كالراكب لها لاستحقاقه ركوبَها ، وأنها صارت بعده كالناقة التى خَلَعَتْ زمامها ، أو أجالته فلا يتمكّن راكبُها من قبضه ، واسترخى وَضِينُها لشدّة ما كان صدر عنها من النفار والتقحّم ، حتى أذرَتْ راكبها ، فصارت على حالٍ لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعى ، لأنه ركب مالا ينبغى أن يركب ، فالذين وُلّوا أمرها وُلُّوه

على غير الوجه ، كما أن راكب هذه الناقة يركبها على غير الوجه ، ولهذا لم يقل : «فصار حرامها بمنزلة السدر المخضود » بل قال « عند أقوام » ، فخصّص .

وهذا الكلام كلّه محمول عند أصحابنا على التألّم من كون المتقدمين تركوا الأفضل، كما قدمناه فى أول الكتاب .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الدنيا فانية ، وأنها ظِلٌّ ممدود إلى أجل معدود . ثم ذكر أنّ الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية من معنى ، كما قال الشاعر :

مَا أكْثَرَ النَّاسَ ، لا بل مَا أقَلَّهُمُ ... اللهُ يَعْلَمُ أنّى لم أقُلْ فَنَدَا (١)

إنّى لَأَفْتَحُ عَيْنى ثم أُغمِضُها ... عَلَى كثير ، ولكنْ لا أرى أحدَا

* * *

ثم أعاد الشكوى والتألم فقال : أيديكم فى الدنيا مبسوطة ، وأيدى مستحقّى الرّياسة ومستوجبى الأمر مكفوفة ، وسيوفكم مسلّطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء ، وسيوفهم مقبوضة عنكم ، وكأنّه كان يرمز إلى ماسيقع من قتْل الحسين عليه السلام وأهله ، وكأنّه يشاهد ذلك عيانا ، ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذى سَنَح له ، والأمر الذى كان أخبر به ، ثم قال : إنّ لكل دمٍ ثائرا يطلب القَوَدَ ، والثائر بدمائنا ليس إلا الله وحدَه ، الذى لا يُعجزه مطلوب ، ولا يفوته هارب .

ومعنى قوله عليه السلام : « كالحاكم فى حقّ نفسه » ، أنّه تعالى لا يقصّر فى طلب دمائنا كالحاكم الذى يحكم لنفسه ، فيكون هو القاضى وهو الخصم ، فإنه إذا كان كذلك يكون مبالغاً جدا فى استيفاء حقوقه .

ثم أقسم وخاطب بنى أمية ، وصرّح بذكرهم أنّهم ليعرفنّ الدنيا عن قليل فى أيدى غيرهم وفى دورهم ، وأنّ الملك سينتزعه منهم أعداؤهم ، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه

---

(١) البيتان لدعبل ، ديوانه ٥٧ ، وهما أيضاً فى العقد لابن عبد ربه ٢ : ٢٩٥ .

السلام ، فإنّ الأمر بقىَ فى أيدى بنى أميـة قريبا من تسعين سنة ؛ ثم عاد إلى البيت الهاشمىّ ، وانتقم الله تعالى منهم على أيدى أشدّ الناس عداوة لهم .

* * *

[هزيمة مراون بن محمد فى موقعة الزاب ، ثم مقتله بعد ذلك]

سار عبد الله بن علىّ بن عبـد الله بن العباس فى جَمْع عظيم للقـاء مرْوان بن محمد ابن مروان ، وهو آخر خلفاء الأمويين ، فالتقيا بالزّاب[1] من أرض الموصل ، ومرْوان فى جموع عظيمة وأعداد كثيرة ، فهزِم مرْوان ، واستولى عبد الله بن علىّ على عسكره ، وقتل من أصحابه خَلْقا عظيما ، وفرّ مرْوان هاربا حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه ، فصـار إلى مصر ، فاتّبعه عبدُ الله بجنوده ، فقتله ببوصير الأشمونين من صعيد مصر ، وقتل خواصّه وبطانته كلّها ، وقد كان عبـــد الله قتل من بنى أمية على نهر أبى فُطْرُس[2] من بلاد فلسطين قريبا من ثمانين رجـــلا ، قتلهم مُثْلَة[3] واحتذَى أخوه داود بن علىّ بالحجاز فعلَه ، فقتل منهم قريبا من هذه العدّة بأنواع المُثُل .

وكان مع مروان حين قُتِل ابناه عبد الله وعبيد الله ــ وكانا وليّى عهده ــ فهرَبا فى خواصّهما إلى أُسْوان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جَهْدٌ شـديد وضُرٌّ عظيم ، فهلك عبد الله بن مروان فى جماعة ممّن كان معه قتلا وعطشا وضُرًّا ، وشاهد من بقىَ منهم أنواع الشدائد وضروب المـكاره ، ووقع عبيد الله فى عدّة ممّن نجا معه فى أرض البُجَه[4] وقطعوا البحر إلى ساحل جُدّة ، وتنقّل فيمن نجـا معه من أهله ومواليه فى البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سُوقة بعد أن كانوا ملوكا ، فظُفِر بعبد الله أيام السفاح ، فحبس

(١) هو الزاب الأعلى ، بين الموصل وإربل .

(٢) فطرس ، ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة ؛ وقال: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

(٣) يقال : مثل فلان بالقتيل مثلة ومثلا ، أى جدعه وظهرت آثار فعله عليه .

(٤) انظر تاريخ الطبرى ٣ : ١٤٢٨ (طبع أوربا) .

فلم يزل فى السجن بقية أيام السّفّاح ، وأيام المنصور ، وأيام المهدىّ ، وأيام الهادى وبعض أيام الرشيد ، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير ، فسأله عَنْ خبره ،فقال : ياأميرَ المؤمنين، حُبِست غلاما بصيرا ، وأخرِجْت شيخاً ضريرا ! فقيل: إنّه هلك فى أيام الرشيد ، وقيل : عاش إلى أن أدرك خلافة الأمين .

* * *

شهد يوم الزّاب مع مَرْوان فى إحـدى الرّوايتين إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع ، الذى خُطِب له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتل فيمنْ قُتِل . وفى الرواية الثانية إنّ إبراهيم قتله مَرْوان الحمار قبل ذلك .

* * *

لمـا انهزمَ مَرْوان يوم الزّاب مضى نحو الموصـل ، فمنعه أهلُها من الدخول ؛ فأتى حَرّان ، وكانت داره ومقامه ، وكان أهل حَرّان حين أزيل لعْن أمير المؤمنين عن المنابر فى أيام الجمع امتنعوا من إزالته ، وقالوا : لا صلَاة إلّا بلعن أبى تراب ، فاتبعه عبد الله بن علىّ بجنوده ، فلما شارفه خرج مروان عن حَرّان هاربا بين يديه وعبر الفرات ، ونزل عبد الله ابن علىّ على حَرّان ، فهدم قصْر مروان بها ، وكان قد أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم ، واحتوى على خزائن مَرْوان وأمواله ، فسار مَرْوانُ بأهله وعِتْرته من بنى أميـة وخواصّه ، حتى نزل بنهر أبى فُطْرُس ، وسار عبدالله بن علىّ حتى نزل دمشق ، فحاصرها وعليها مِنْ قِبَل مَرْوان الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مَرْوان فى خمسين ألف مقاتل ، فألقى الله تعالى بينهم العصبية فى فَضْل نزار على اليمن ، وفَضْل اليمن على نزار ، فقتِل الوليد — وقيـل بل قُتِل فى حرب عبـد الله بن على — وملَك عبـدُ الله دمشق ، فأتى يزيد ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فحملهما مأسورين إلى أبى العباس السفاح ،فقتلهما وصلبهما بالحيرة ،وقَتَل عبد الله بن علىّ بدمشق خلقا كثيرا من أصحاب مَرْوان وموالى بنى أمية وأتباعهم ، ونزل عبد الله على نهر

أبى فُطرس ، فقتل من بنى أمية هناك بضعا وثمانين رجلا ، وذلك فى ذى القعدة من سنة ثنتين وثلاثين ومائة .

* * *

[شعر عبد الله بن عمرو العبلىّ فى رثاء قومه]

وفى قتلى نهر أبى فُطْرس وقتلى الزاب يقول أبو عدىّ عبد الله بن عمرو العبلىّ ، وكان أموىّ الرأى :

تقول أمامةُ لمّا رأتْ نشوزى عن المضجع الأملسِ (١)
وقلّة نومى على مضجعى لدَى هَجْعَة الأعين النُّعَّسِ :
أبى ، ماعراك ؟ فقلت : الهمومُ عَرَيْنَ أباكِ فلا تُبْلِسى (٢)
عَرَيْنَ أباكِ فحبَّسْنَهُ مِنَ الذلِّ فى شرِّ ماَمحبس
لفَقْدِ الأحبّةِ إذْ نالَها سهامٌ من الحدَث الْمُبْئِسِ (٣)
رمتْهَا المنون بلا نُكّلٍ ولا طائشاتٍ ولا نُكَّسِ
بأسْهُمِها المتلفاتِ النفو س مَتَى ماتصب مهجة تُخْلَسِ
فَصَرَّعنهُمْ بنواحى البلا د فلقًى بأرض ولم يُرْمَسِ (٤)
نَقِىّ أصيب وأثوابهُ مِنَ الْعَيْبَ والعار لم تَدْنَسِ (٥)
وآخرُ قد رُسَّ فى حفرةٍ وآخرُ طار فَلم يُحْسَسِ (٦)
أفاض المدامع قتلى كُدَى وَقَتْلَى بِكُثْوةَ لم تُرْمَسِ (٧)
وَقَتْلَى بِوَجٍّ وباللّابَتَيْ نِ من يثربٍ خَيرُ ما أنفُسِ (٨)

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٠ (طبعة الدار) ؛ وروايته : « المضجع الأنفس » .
(٢) لا تبلسى : لا تحزنى .
(٣) فى الأصل « المبلس » وأثبت رواية الأغانى
(٤) الأغانى : « ولم يرسس » ، والرس والرمس : الدفن .
(٥) الأغانى : « تقى » .
(٦) الأغانى : « قد دس » .
(٧) كدى : موضع بالطائف ، وكثوة : موضع بعينه .
(٨) وج : اسم واد بالطائف .

وبالزابِيَيْنِ نفوسٌ ثَوَتْ وَقَتْلَى بنهرِ أبى فُطْرُسِ (١)
أولئك قومى أناخَتْ بهمْ نوائبُ من زمن مُتْعِسِ
إذا ركبوا زيّنوا الموكِبَيْنِ وإنْ جلسوا زينةُ المجلسِ (٢)
وإن عنّ ذِكْرُهُمُ لم ينمْ أبوكِ ، وأوْحش فى المأنسِ
فذاكِ الذى غالنى فاعْلَمِى ولا تسألى بامرئ متعَسِ
هُمُ أضرعونى لريب الزمان وهم ألصقوا الخدّ بالمعْطِسِ (٣)

* * *

[أنفة ابن مسلمة بن عبد الملك]

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب الأغانى ، قال : نظر عبدالله بن علىّ فى الحرب إلى فتى عليه أبّهة الشّرف ، وهو يحارب مستقتلاً (٤) ، فناداه : يافتى ، لك الأمان ، ولو كنتَ مَرْوان بن محمد ! قال : إلّا أكنه فلست بدونه ! فقال : ولك الأمان ، ولو كنتَ من كنت ، فأطرق ، ثم أنشد :

لَذُلُّ الحياة وكُرْهُ المما (٥) تِ وكُلّاً أراهُ طعاماً وبيلا (٦)
وإنْ لم يكنْ غيْرَ إحداهما فَسيْراً إلى الموت سَيْراً جميلا

ثم قاتل حتى قتل ، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك (٧) .

---

(١) الزابيان : تثنية زاب ، وهو الزاب الأعلى والزاب الأسفل ؛ ويريد به الأعلى ؛ وبه كانت الموقعة
(٢) الأغانى : « الزين فى المجلس » .   (٣) رواية الأغانى :

هُمُ أضرعونى لريْبِ الزمَا نِ وهُمُ ألصقوا الرَّغْمَ بالمعطسِ

(٤) الأغانى : « مستنقلا » ؛ وهو الخارج من الصف المتقدم على أصحابه .
(٥) الأغانى : « أذل الحياة » .   (٦) إحدى روايتى الأغانى :

* وكلّا أرَى لكَ شرّاً وبيلا *

(٧) الأغانى ٤ : ٣٤٣ ، ٣٤٤ (طبعة الدار) .

[مما قيل من الشعر فى التحريض على قيل بنى أمية]

وروى أبو الفرج أيضا ، عن محمد بن خلَف وكيع ، قال : دخل سَدِيف مولى آل أبى [1] لهب على أبى العباس بالحيرة ، وأبو العباس جالس على سريره ، وبنو هاشم دونه على الكراسىّ وبنو أمية حوله على وسائد قد ثُنِيت لهم ، وكانوا فى أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة [2] منهم على الأسِرّة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسىّ ، فدخل الحاجبُ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بالباب رجل حجازىّ أسود راكب على نجيب متلثّم ، يستأذِن ولا يخبر باسمه ، ويحلف لا يحسِر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين ! فقال : هذا سَدِيف مولانا ، أدخله ؛ فدخل فلما نظر إلى أبى العباس وبنو أمية حوله حَسَر اللثام عن وجهه ، ثم أنشد :

أصبح الملك ثابت الأساسِ   بالبهاليل من بنى العباس [3]
بالصّدور المقدّمين قديماً   والبحورِ القماقِمِ الرّؤّاسِ
ياإمامَ المَطَهّرينَ من الذمّ   ويارأس منتهى كلّ راسِ
أنت مهدىُّ هاشمٍ وفتاها [4]   كم أناس رجوك بعد أناس [5]
لا تُقِيلَنّ عبد شمسٍ عِثاراً   واقْطَعَنْ كل رَقْلةٍ وغِرَاس

---

(١) الأغانى : « وهو مولى لآل أبى لهب » .
(٢) الأغانى : « والخلفاء » .
(٣) قال فى الكامل : الآساس : جمع أس ؛ وتقديرها « فعل » (بضم العين وسكون اللام) ، و « إفعال » ؛ وقد يقال للواحد أساس ، وجمعه أسس . والبهلول : الضحاك . وقال المرصفى : الأجود تفسيره بالعزيز الجامع لكل خير .
(٤) الأغانى : « وهداها » .
(٥) الأغانى : « بعد إياس » .

أنزلوها بحيثُ أنزلهـــا اللـــهُ بدار الهوانِ والإتعاس
خَوْفُها أظهرَ التودّد منهـــا وبهـــا منكمُ كحزّ المواسى (١)
أقصِهِمْ أيّهـا الخليفةُ واحْسِمْ عنكَ بالسَّيف شأفة الأرجاسِ
واذكُرَنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ وقتيـــــلاً بجانب المِهْرَاسِ (٢)
والقتيـــلَ الذى بحرّان أمسى ثاوياً بين غُرْبةٍ وتَنَاسِ (٣)
فَلَقَدْ ساءنى وساء سوائى قُرْبُهُمْ من نمارقٍ وكَراسِى (٤)
نِعْمَ كلبُ الهِراش مولاك شِبْلٌ لو نجا من حبائل الإفلاس

قال : فتغيّر لونُ أبى العباس ، وأخذه زَمَعٌ (٥) ورعدة ، فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى آخرفيهم كان إلى جانبه،فقال : قتَلَنَا والله العبد ! فأقبل أبو العباس عليهم، فقال : يابنى الزَّوانى (٦) ؛ لا أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون فى الدنيا ، خذوهم؛فأخذتهم الخراسانية بالكافركوبات فأُهمِدوا، إلا ما كان من عبدالعزيز ابن عمر بن عبد العزيز ، فإنه استجار بداود بن علىّ ، وقال : إن أبى لم يكن كآبائهم ،

---

(١) رواية الأغانى :

خوفهم أظهرَ التودّد منهم وبهمْ منكُمُ كحزّ المواسى

(٢) ذكر المبرد فى شرح هذا البيت قوله : « مصرع الحسين وزيد » ، يعنى زيد بن على بن الحسين ؛ كان خرج على هشام بن عبد الملك ، وقتله يوسف بن عمر الثقفى ؛ وصلبه بالكناسة هو وجماعة من أصحابه . . . وإنما نسب قتل حمزة إلى بنى أمية ؛ لأن أباسفيان بن حرب كان قائدالناس يوم أحد».

(٣) القتيل الذى بحران هو إبراهيم بن محمد بن على ؛ وهو الذى يقال له الإمام ، وفى رواية الأغانى : « والإمام الذى » .

(٤) سوائى سواى ، والنمارق : واحدتها نمرقة ؛ وهى الوسائد .

(٥) الزمع : شدة الرعدة .

(٦) الأغانى : « يا بنى الفواعل » .

وقد علمت صنيعته إليكم فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له : قد علمت صنيع أبيه إلينا؛ فوهبه له ، وقال : لا يريني وجهه ، وليكن بحيث نأمنه ، وكتب إلى عماله فى الآفاق بقتل بنى أمية (١) .

* * *

فأما أبو العباس المبّرد ، فإنه روى فى الكامل (٢) هذا الشعر على غير هذا الوجه ؛ ولم ينسبه إلى سدَيف ، بل إلى شِبْل مولى بنى هاشم .

قال أبو العباس : دخل شِبْل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على ، وقد أجلس ثمانين من بنى أميّة على سِمْط الطعام ، فأنشده :

أَصْبَحَ المُلْكُ ثابتَ الآساسِ ... بالْبها ليلِ من بنى الْعَبَّاسِ
طَلَبُوا وترَ هاشمٍ وَشَفَوْها ... بَعْدَ مَيْلٍ من الزّمان وياسِ (٣)
لاتُقِيلَنّ عَبْدَ شمسٍ عِثاراً ... واقْطَعَنْ كلّ رَقْلَةٍ وأواسِى (٤)
ذلّها أظهرَ التَّوَدُّدَ مِنْها ... وبها منكم كحزّ المواسى (٥)
وَلَقَدْ غاظَنِى وَغاظَ سوائى ... قُرْبُها من نمارقٍ وكَراسى
أنزِلُوها بحيثُ أنزَلَها اللـه بدارِ الهوانِ والإتعاسِ
واذكرُا مَصْرَعَ الحسين وزيدٍ ... وَقَتِيلًا بجانبِ المِهْراسِ
والقتيلَ الّذى بحَرّانَ أضْحَى ... ثاوِيًا بين غُرْبةٍ وتناسِ
نعم شِبْلُ الهراش مولاكَ شِبْلٌ ... لَوْ نجا من حبائل الإفلاسِ

فأمر بهم عبد الله فشُدِخوا بالعَمَد ، وبسطت البُسُط عليهم ، وجلس عليها ، ودعا

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٤ ـ ٣٤٦
(٢) الكامل ٨ : ١٣٤ ، ١٣٥ بشرح المرصفى .
(٣) قال أبو العباس : يقال : « فى فيك ميل علينا (بسكون الياء) ، وفى الحائط ميل بفتحها » .
(٤) قال أبو العباس : الأواسى : ياؤه مشددة فى الأصل ، وتخفيفها يجوز ، ولو لم يجز فى الكلام لجاز فى الشعر » .
(٥) مروج الذهب ٣ : ٢٦١ وما بعدها ، مع تصرف فى الرواية .

بالطّعام ، وإنه ليسمعُ أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا . وقال لِشِبْل : لولا أنك خلطت شعرك بالمسألة لأغنمتُك أموالهم ، ولعقدتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .

قال أبو العباس : الرّقلة : النخلة الطويلة ، والأواسى : جمع آسية ؛ وهى أصل البناء كالأساس . وقتيل المِهْراس : حمزة عليه السلام ، والمِهْراس : ماء بأُحُد . وقتيل حرّان : إبراهيم الإمام .

قال أبو العباس : فأما سَديف ، فإنه لم يقمْ هذا المقام ، وإنّما قام مقاما آخر ، دخل على أبى العباس السّفاح ؛ وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ؛ وقد أعطاهُ يدَه فقبّلها وأدناه ، فأقبل على السفاح ، وقال له :

لَا يَغُرّنْكَ مَاتَرى مِنْ رجالٍ   إنّ تحتَ الضُّلوعِ داءً دويّا
فضعِ السّيفَ وارفعِ السوطَ حتّى   لا ترى فَوْقَ ظهرِها أمويّا

فقال سليمان : مالى ولك أيها الشيخ! قتلتَنِى قتلكَ الله ! فقام أبو العباس ، فدخل وإذا المنديل قد أُلقِى فى عُنق سليمان ، ثم جرّ فقتل .

فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مرْوان فقتِل بالبلقاء، وحمل رأسه إلى عبدالله ابن علىّ .

* * *

[أخبار متفرقة فى انتقال الملك من بنى أمية إلى بنى العباس]

وذكر صاحب مروج الذهب أنّه أرسَلَ عبد الله أخاه صالح بن علىّ ومعه عامر بن إسماعيل أحدُ الشيعة الُخراسانية إلى مصر ، فلحقوا مروان ببُوصير ، فقتلوه وقتلوا كلّ مَنْ كان معه من أهله وبطانته ، وهجموا على الكَنِيسة التى فيها بناته ونساؤه ، فوجدُوا خادما بيده سيف مشهور يسابقهم على الدخول ، فأخذُوه وسألوه عن أمره ، فقال : إنّ

أمير المؤمنين أمرني إنْ هو قُتِل أن أقتل بناتِه ونساءه كلّهن، قبل أن تصلوا إليهنّ، فأرادوا قتله، فقال: لا تقتلوني، فإنّكم إن قتلتموني فقدتُم ميراثَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا: وماهو؟ فأخرجهم من القرية إلى كُثبان من الرمل، فقال: اكشفوا هاهنا، فإذا البردة والقضيب وقَعْب[1] مخضّب قد دفنها مروان ضَنًّا بها أنْ تصيرَ إلى بني هاشم. فوجّه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن عليّ، فوجّه به صالح إلى أخيه عبد الله، فوجّه به عبد الله إلى أبي العباس، وتداوله خلفاء بني العباس من بعد.

وأدخِل بنات مروان وحرمه ونساؤه على صالح بن عليّ، فتكلّمت ابنة مروان الكبرى، فقالت: ياعمّ أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ماتحبّ حفظه، وأسعدك في أحوالك كلِّها، وعمّك بخواصّ نعمه، وشملَك بالعافية في الدنيا والآخرة. نحن بناتُك وبنات أخيك وابن عمّك، فليسعنا من عَدْلكم ماوسعنا من جوْركم. قال: إذاً لانستبقي منكم أحدا، لأنكم قد قتلتم إبراهيمَ الإمام، وزيد بن عليّ، ويحيى بن زيد، ومُسلم بن عقيل؛ وقتلتم خيرَ أهل الأرض: حسيناً وإخوته وبنيه وأهل بيته، وسقتم نساءه سبايا ـ كما يُساق ذراريّ الروم ـ على الأقتاب إلى الشام. فقالت: ياعمّ أمير المؤمنين، فليسعْنا عفوُكم إذاً. قال: أمّا هذا فنعم؛ وإن أحببت زوجتكِ من ابني الفضل بن صالح، قالت: ياعمّ أمير المؤمنين، وأيّ ساعة عرْس ترى! بل تُلحِقنا بحرّان، فحملهنّ إلى حرّان[2].

* * *

كان عبد الرحمن بن حبيب بن مَسْلمة الفِهريّ، عاملَ إفريقيّة لمروان، فلمّا حدثت الحادثة، هرب عبدُ الله والعاص ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه، فاعتصما به نخاف

(١) مروج الذهب: « ومخصر ».

(٢) الخبر في مروج الذهب ٣: ٢٦١ ـ ٢٦٣ مع اختصار وتصرف، وفي آخره: « فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان، وشققن جيوبهن، وأعولن بالصياح والنحيب؛ حتى ارتجّ العسكر بالبكاء منهن على مروان ».

على نفسه منهما ، ورأى مَيْل الناس إليهما فقتلهما ؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك يريد أن يقصده ويلتجىء إليه ،فلما علِم ماجرى لابني الوليد بن يزيد ،خاف منه ، فقطع المجاز بين إفريقيَة والأندلس، وركب البحرَ حتى حصل بالأندلس ؛فالأمراء الَّذين وُلُوها كانوا من ولده .

ثم زال أمرُهم ودولتهم على أيدِي بني هاشم أيضا ، وهم بنو حَمُّود الحسنِيُّون ، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام .

***

لما قتلَ عامرُ بن إسماعيل مَرْوانَ ببُوصِير ، واحتوى على عسكره، دخل إلى الكنيسة التي كان فيها ، فقعد على فِراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى — وتعرف بأمّ مَرْوان — : ياعامر ، إنّ دهرا أنزل مَرْوان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها،تأكل من طعامِه ليلة قَتْله ، محتويا على أمرِه ، حاكماً في مُلكه وحُرَمه وأهله ، لقادرٌ أن يغيّر ذلك . فأُنهِيَ هذا الكلامُ إلى أبي العباس السفّاح ، فاستهجَن مافعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه : أماكان لك في أدب الله مايزجرك أنْ تقعد في مثل تلك الساعة على مهادِ مروان ، وتأكل من طعامه ! أما والله لولا أنّ أمير المؤمنين أنزل مافعلته على غير اعتقاد منك [لذلك][1] ولانَهَمٍ[2] على طعامٍ ، لمسّك من غضبه وأليم أدبه ، مايكون لك زاجرا ، ولغيرك واعظا. فإذا أتاك كتابُ أمير المؤمنين : فتقرّب إلى الله بصدَقة تطفئُ بها غضبَه ، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة له ، وصُمْ ثلاثة أيام، وتُبْ إلى الله من جميع مايسخطه ويغضبه ، ومرْ جميعَ أصحابك أن يصوموا مثل صيامك .

ولماأُتىَ أبو العباس برأس مَرْوان ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه ،وقال : الحمد لله الذي

(١) من مروج الذهب

(٢) في مروج الذهب : ولا شهوة .

لم يبق ثأرنا قِبَلك وقِبَل رهطك ، الحمد لله الذى أظفرنا بك ، وأظهرنا عليك . ما أبالى متى طرقنى الموت ، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بنى أمية ، وأحرقت شِلْوَ هشام بابن عمى زيد بن علىّ ، كما أحرقوا شِلْوه ، وتمثل[1] :

لَوْ يَشْرَبُونَ دَمِى لم يَرْوَ شارِبُهم ولا دماؤهمُ جَمْعاً تروِّينى

ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس ، فتمثل :

أبى قومُنا أن يُنْصِفُونا فأنصفت قواطعُ فى أَيْمانِنا تَقْطُرُ الدَّمَا[2]
إذا خالطت هامَ الرجال تركتُها كبيض نَعامٍ فى الثرى قد تحطّما

ثم قال : أمّا مَرْوان فقتلناه بأخى إبراهيم ، وقتلنا سائر بنى أمية بحسين ، ومن قتل معه وبعده من بنى عمنا أبى طالب[3] .

* * *

وروى المسعودىّ فى كتاب ‹‹ مروج الذهب ›› عن الهيثم بن عدىّ ، قال : حدّثنى عمرو بن هانىء الطائىّ ، قال : خرجتُ مع عبد الله بن علىّ لنبش قبور بنى أميّة فى أيام أبى العباس السّفاح ، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك ، فاستخرجناه صحيحا ، ما فقدنا منه إلا عِرْنينَ أنفه ؛ فضربه عبدُ الله بن علىّ ثمانين سوطا ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئا إلا صُلْبه ورأسه وأضلاعه فأحرقناه ، وفعلنا مثل ذلك بغيرهما من بنى أميّة ، وكانت قبورهم بقنّسرين ، ثم انتهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فما وجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شئون[4] رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منه إلا عظما واحدا ، ووجدنا

---

(١) فى مروج الذهب : « فتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له . . .

(٢) بعده فى مروج الذهب :

تُوُرِّثْنَ من أشياخ صدقٍ تَقَرَّبوا بهنّ إلى يوم الوَغَى فتقــــدّما

(٣) مروج الذهب ٣ : ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٤) الشئون : موصل قبائل الرأس ، مفرده شأن .

من مَوْضع نحره إلى قدمه خطًّا واحدا أسود ، كأنّما خُطّ بالرماد فى طول جَلده ، وتتبّعنا قبورَهم فى جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

قلت : قرأت هذا الخبر على النقيب أبى جعفر يحيى بن أبى زيد العلوىّ بن عبد الله فى سنة خمس وستمائة ، وقلتُ له : أما إحراقُ هشام بإحراق زيد فمفهوم ، فما معنى جَلْده ثمانين سوطا ؟ فقال رحمه الله تعالى : أظُنّ عبد الله بن علىّ ذهب فى ذلك إلى حدّ القَذْف ، لأنه يقال : إنّه قال لزيد : يابن الزانية ، لما سبّ أخاه محمدا الباقر عليه السلام ، فسبّه زيد ، وقال له : سمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسمّيه أنت البقرة ! لشدّ ما اختلفتما ! ولتخالفنّه فى الآخرة كما خالفتَه فى الدنيا فيرد الجنة وترد النار .

وهذا استنباط لطيف .

* * *

قال مرْوان لكاتبه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت إلى أن تصير مع عدوّى وتظهر الغَدْر بى ! فإنّ إعجابهم ببلاغتك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى اصطناعك وتقريبك ، فإن استطعت أن تسعى لتنفعنى فى حياتى ، وإلا فلن تعجز عن حفظ حُرَمى بعد وفاتى . فقال عبد الحميد : إنّ الذى أشرتَ به هو أنفع الأمرين لى ، وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر معك حتى يفتح الله لك أو أقتل بين يديك ، ثم أنشد :

أسِرّ وفاء ثم أظهِرُ غَـــدْرَةً فمنْ لى بعُذْرٍ يوسِــعُ الناس ظاهرُهْ !

فثبَت على حاله ، ولم يَصِرْ إلى بنى هاشم حتى قتِل مروان ، ثم قتِل هو بعده صبرا[1] .

* * *

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٣

وقال إسماعيلُ بن عبد الله القسرىّ : دعانى مَرْوان ، وقد انتهت به الهزيمة إلى حَرّان ، فقال : ياأبا هاشم ــ وما كان يكنّينى قبلها : قد ترى ما جاء من الأمر ، وأنت الموثوق به ، ولا عِطْرَ بعد عروس ؛ ما الرأىُ عندك ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين ، علامَ أجمعت ؟ قال : أرتحل بموالىّ ومَنْ تبعنى حتى آتى الدرب(١) ، وأميل إلى بعض مدن الروم فأنزلها ، وأكاتب ملكَ الروم وأستوثق منه ، فقد فَعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم ، وليس هذا عاراً على الملوك ، فلا يزال يأتينى من الأصحاب الخائفُ والهارب والطامع فيَكثر مَنْ معى ، ولا أزال على ذلك حتى يكشفَ اللهُ أمرى ، وينصرنى على عدوّى ، فلما رأيتُ ما أجمعَ عليه من ذلك ، وكان الرأى ، ورأيت آثارَه فى قومه من نِزَار وعصبيّته على قومى من قَحْطان ، غششتهُ ، فقلت : أعيذك بالله ياأميرَ المؤمنين من هذا الرأى ؛ أن تحكِّمَ أهل الشِّرْك فى بناتك وحرمك ، وهم الرّوم لا وفاء لهم ، ولا يُدْرَى ما تأتى به الأيام ، وإن حَدَث عليك حَدَثٌ من أرض النصرانيّة ــ ولا يحدثنّ الله عليك إلا خيراً ــ ضاع مَنْ بعدك ؛ ولكن اقطع الفرات ، واستنفِر الشام جندا جندا ، فإنّك فى كَنَف وعدّة ، ولك فى كلّ جند صنائع وأصحاب ، إلى أن تأتىَ مصر ، فهى أكثرُ أرض الله مالا وخيلا ورجالا ، والشام أمامك ، وإفريقيَة خَلْفك ، فإن رأيتَ ما تحبّ انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية ، فقال : صدقت وأستخير الله . فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن حديد السّلمىّ ــ وكان أخاه من الرضاعة ــ والكوثر بن الأسود الغنوىّ ، وغدر به سائرُ النِّزارية مع تعصبه لهم ؛ فلما اجتاز ببلاد قِنّسرين وخُناصرة ، أوقعوا بساقته ، ووثب به أهلُ حِمْص ، وصار إلى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشىّ ثم العقيلىّ ، ثم أتى الأردنّ فوثب به هاشم بن عمرو التميمىّ ، ثم مَرّ بفلَسْطين ، فوثب به أهلُها ، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشّه فى الرأى ، ولم يَمْحَضْه النصيحة ، وأنّه فرّط فى مشورته إياه

(١) يطلق الدرب على ما بين طرطوس وبلاد الروم .

إذ شاور رجلا من قحطان موتورا شانئاً له ، وإنّ الرأىَ كان أول الذى همّ به من قطع الدَّرْب والنزول ببعض مدن الروم ومكاتبته ملكها . ولله أمر هو بالغه (١) !

***

لما نزل مروان بالزّاب ، جَرّد من رجاله ممّن اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس ، على مائة ألف قارح ، ثم نظر إليهم ، وقال : إنّها لعدّة ولا تنفع العدّة، إذا انقضت المدة (٢) .

***

لما أشرف عبدالله بن على يوم الزّاب فى المسوّدة ، وفى أوائلهم البنود السُّود ، تحملها الرجال على الجمال البُخْت (٣) ، وقد جعل لها بدلا من القَنا خشب الصَّفصاف والغَرْب (٤) قال مَرْوان لمن قرب منه : أما ترَوْنَ رماحهم كأنها النخلُ غلظا ! أما ترَوْن أعلامهم فوق هذه الإبل كأنّها قطع الغمام السُّود ! فبينما هو ينظرها ويعجب ، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السود ، فنزلت على أوّل عسكر عبدالله بن علىّ ، واتّصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومرْوان ينظر ، فازداد تعجّبه ، وقال : أما ترَوْن إلى السواد قد اتّصل بالسواد ؛ حتى صار الكلّ كالسحب السُّود المتكاثفة ! ثم أقبل على رجل إلى جنبه فقال : ألا تعرّفنى مَنْ صاحب جيشهم؟ فقال : عبد الله بن علىّ بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب . قال: ويحك أمِنْ ولد العباس هو ؟ قال : نعم، قال: والله لوددْتُ أنّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام مكانه فى هذا الصّف ، قال : ياأمير المؤمنين ، أتقول هذا لعلىّ مع شجاعته التى ملأ الدنيا ذكرُها ! قال : ويحك ! إنّ عليا مع شجاعته صاحبُ دين ، وإنّ الدين غير الملك، وإنّا نروى عن قديمنا أنّه لا شىء لعلىّ ولا لولده فى هذا. ثم قال : مَنْ هو من ولد العباس،

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ (٢) مروج الذهب ٣ : ٢٦٥ مع اختصار وتصرف .
(٣) البخت : الإبل الخراسانية (٤) الغرب : شجرة حجازية ضخمة شاكة .

فإني لا أثبت شخصه ؟ قال : هو الرجل الذي كان يخاصمُ بين يديك؛ عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر . فقال أذكرني صورته وحليته ، قال : هو الرجل الأقنى الحديد العضل ، المعروق الوجه ، الخفيف اللحية ، الفصيح اللسان ، الذى قلت لما سمعت كلامه يومئذ : يرزق الله البيان مَنْ يشاء ، فقال : وإنه لهو ! قال : نعم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أتعلم لم صيّرتُ الأمرَ بعدى لولدى عبد الله ، وابنى محمد أكبر سنا منه ؟ قال : لا ، قال : إن آباءنا أخبرُونا أنَّ الأمر صائر بعدى إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه.

ثم بعث مروان بعد أن حدّث صاحبه بهذا الحديث إلى عبدالله بن عليّ سرًّا ، فقال: يا ابن عمّ ، إنّ هذا الأمر صائر إليك ، فاتق الله واحفظنى فى حُرَمى ، فبعث إليه عبدالله: إنّ الحقّ لنا فى دمك ، وإنّ الحق علينا فى حُرَمك (١) .

قلت : إن مروان ظنّ أن الخلافة تكون لعبد الله بن عليّ ، لأنّ اسمه عبدالله ،ولم يعلم أنّها تكون لآخر اسمه عبد الله ، وهو أبو العباس السفاح .

* * *

كان العَلاء بن رافع سِبْط ذى الكَلاع الحِميرىّ مؤنسًا لسليمان بن هشام بن عبدالملك لا يكاد يفارقه ، وكان أمر المسوّدة بخُراسان قد ظهر ودنوْا من العراق ، واشتدّ إرجافُ الناس ، ونطق العدو بما أحبّ فى بنى أمية وأوليائهم .

قال العلاء : فإنّى لمع سليمان وهو يشرب تجاه رُصافة أبيه، وذلك فى آخر أيام يزيد الناقص ، وعنده الحَكَم الوادى (٢) ، وهو يغنّيه بشعر العرْجىّ (٣) :

إنّ الحبيبَ تَروّحَتْ أجمالُهُ ... أُصُلاً ، فدمعك دائم إسبالُهُ (٤)
فاقْنِ الحياء فقد بكيتَ بعوْلَةٍ ... لو كان ينفع باكيا إعوالُهُ ! (٥)

---

(١) مروج الذهب : ٣ : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
(٢) فى الأصول : « الأودى » تصحيف ، وصوابه فى مروج الذهب .
(٣) فى الأصول : « البرجى » تصحيف (٤) ديوانه ٦٩
(٥) اقن الحياء : احفظه .

ياحَبّذا تلك الحمول وحَبّــذا   شخصٌ هناك ، وحَبّذا أمثالُه !

فأجاد ماشاء ، وشرب سليمان بن هشام بالرّطْل ، وشربنا معه حتى توسّدْنا أيدينا ، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياى ، فقمت مسرعاً ، وقلت : ماشأن الأمير ؟ فقال : على رِسْلك ، رأيت كأنّى فى مسجد دمشق ، وكأنّ رجلا على يده حَجَر ، وعلى رأسه تاج ، أرى بصيصَ مافيه من الجوهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

أبنى أميّة قد دنا تشتيتكُمْ   وَذَهابُ ملككمُ وليس براجع

وينال صفوته عــدوٌّ ظالمٌ   كأسا لكم بسمام موت ناقع

فقلت : أعيذ الأمير بالله وساوس الشيطان الرجيم ! هـذا من أضغاث الأحلام ، ومما يقتضيه ويجلبه الفكر ، وسماع الأراجيف . فقال : الأمر كما قلتُ لك ، ثم وَجَم ساعة ، وقال : ياحميرىّ ، بعيدُ مايأتى به الزمان قريب !

قال العلاء : فوالله ما اجتمعنا على شراب بعد ذلك اليوم (١) .

* * *

سُئل بعضُ شيوخ بنى أمية عَقِيب زوال الملك عنهم : ما كان سببُ زوال ملككم ؟ فقال : جار عُمّالنا على رعيّتنا ، فتمنّوا الراحة منّا ، وتُحومل على أهل خراجنا فجلَوْا عنا ، وخرِبَت ضياعنا فخلَتْ بيوت أموالنا ، ووثقْنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضَوْا أموراً دوننا ، أخفَوْا علمها عنّا ، وتأخّر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدوُّنا ؛ فظافروه على حَرْبنا ، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلّة أنصارنا ، وكان استتارُ الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال مُلْكنا .

* * *

كان سعيد بن عمر بن جَعْدة بن هبيرة المخزومىّ ، أحد وزراء مروان وسمّاره ، فلمّا ظهر

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٣٩ ، ٢٤٠

أمر أبى العباس السفاح ، انحاز إلى بنى هاشم ، ومتّ إليهم بأمّ هانئ بنت أبى طالب ، وكانت تحت هُبيرة بن أبى وهب ، فأتت منه بجعْدة ، فصار من خواصّ السفاح وبطانته ، فجلس السفّاح يوما ، وأمر بإحضار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ ؛ ثم قال للحاضرين : أيّكم يعرف هذا ؟ فقال سعيد : أنا أعرفه ، هذا رأس أبى عبد الملك مروان بن محمد بن مروان خليفتنا بالأمس ، رحمه الله تعالى ! قال سعيد : فحدّقت إلىّ الشيعة ، ورمقتنى بأبصارها ، فقال لى أبو العباس : فى أىّ سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تغيّر لونه غضبا علىّ ، وتفرّق الناس من المجلس ، وتحدّثوا به ، فقلت : زلّة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبدا ! فأتيتُ منزلى ، فلم أزل باقى يومى أعْهدُ وأوصى ، فلما كان الليل اغتسلْتُ وتهيّأت للصلاة — وكان أبو العباس إذا همّ بأمر بعث فيه ليلا — فلم أزلْ ساهرا حتى أصبحتُ وركبت بغلتى ، وأفكرت فيمن أقصِد فى أمرى ، فلم أجد أحداً أوْلى من سليمان بن مجالد مولى بنى زهرة ، وكانت له من أبى العباس منزلة عظيمة ، وكان من شيعة القوم ، فأتيتهُ ، فقلت له : أذكرنى أمير المؤمنين البارحة ؟ قال : نعم ، جرى ذكرك ، فقال : هو ابن أختنا ، وفىّ لصاحبه ، ونحن لو أوليْناه خيرا لكان لنا أشكر . فشكرت لسليمان بن مجالد ماأخبرنى به ، وجزيتهُ خيرا ، وانصرفت . فلم أزل من أبى العباس على ما كنت عليه ، لا أرى منه إلا خيرا .

ونما ذلك المجلس إلى عبد الله بن علىّ وإلى أبى جعفر المنصور ، فأمّا عبد الله بن علىّ فكتب إلى أبى العباس يُغريه بى ، ويعاتبه على الإمساك عَنى ، ويقول له : إنه ليس مثل هذا ممّا يحتمل ، وكتب إليه أبو جعفر يُعذِر لى ، وضرب الدهر ضَرْبَهُ ، فأتى ذات يوم عند أبى العباس ، فنهض ونهضت ، فقال لى : عَلَى رِسْلك يابن هبيرة ! فجلست ، فرفع السِّتْر ، ودخل وثبتَ فى مجلسه قليلا ، ثم خرج فى ثوبىْ وَشْى ورداء وجُبّة ، فما رأيت والله أحسنَ منه ولا ممّا عليه قطّ ، فقال لى : يابن هبيرة ، إنى ذاكرٌ لك أمراً ، فلا

يخرُجنّ من رأسك إلى أحد من الناس . قلت : نعم ، قال : قد علمتَ ماجعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتل مروان ، وإنما قتله عمّى عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتدبيره ، وأنا شديد الفكر فى أمر أخى أبى جعفر ، فى فَضْله وعلمه وسنّه وإيثاره لهذا الأمر ، كيف أخرِجُه عنه ! فقلت : أصلح الله أمير المؤمنين ! إنّى أحدّثك حديثاً تعتبر به ، وتستغنى بسماعه عن مشاورتى ، قال : هاته ، فقلت : كنّا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية ، إذ ورَدَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز ينعَى سليمان ، ومصيرَ الأمر إليه ، فدخلت إليه ، فرمى الكتاب إلىّ فقرأته ، واسترجعت ، واندفع يبكى وأطال ، فقلت : أصلح الله الأمير وأطال بقاءه ! إنّ البكاء على الأمر الفائت عجز ، والموت منهلٌ لا بدّ من وِرْده ، فقال : ويحك ! إنى لستُ أبكى على أخى ، لكنّى أبكى لخروج الأمر عن ولد أبى إلى ولد عمّى ! فقال أبو العباس : حسبُك ، فقد فهمت عنك ، ثم قال: إذا شئت فانْهَضْ ، فلما نهضت لم أمض بعيدا حتى قال لى : يابن هبيرة ! فالتفتّ إليه ، فقال : أما إنّك قد كافأت أحدهما ، وأخذت بثأرك من الآخر ، قال سعيد : فوالله ماأدرى من أىّ الأمرين أعجب ! من فطنته أم من ذكره[1] .

* * *

لما سايرَ عبدُ الله بن علىّ فى آخر أيام بنى أمية عبدَ الله بن حسن بن حسن ؛ ومعهما داود بن علىّ ، فقال داود لعبد الله بن الحسن : لم لا تأمرُ ابنيك بالظّهور ؟ فقال عبد الله بن حسن : لم يأنِ لهما بعد ؛ فالتفتَ إليه عبد الله بن علىّ ، فقال : أظنّك ترى أنّ ابنيك قاتلا مروان ! فقال عبد الله بن حسن : إنه ذلك ، قال : هيهات ! ثم تمثّل :

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٢ ــ ٢٧٤

سيــكفيك الجعالة مستميتٌ ... خفيف الحاذِ من فتيان جَرْمِ

أنا والله أقتل مروان ، وأسلبه ملكه ؛ لا أنت ولا ولداك[١] !

***

وقد روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى رواية أخرى فى سبب قتل السفاح لمن كان أمّنه من بنى أمية ، قال : حدّث الزبير بن بكّار ، عن عمّه ، أنّ السفاح أنشِد يوما قصيدة مُدِح بها ، وعنده قوم من بنى أمية كان آمنَهم على أنفسهم ، فأقبل على بعضهم ، فقال : أين هذامما مُدِحتم به ! فقال : هيهات ! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيّات فينا :

ما نقَموا من بنى أميّة إلّا ... أنهُمْ يحلُمون إن غَضِبُوا[٢]

وأنّهم معدِن المــلوك فما ... تصلُح إلا عليهم العرب

فقال له : يا ماصّ كذا من أمّه ! وإن الخلافة لفى نفسك بعد ! خذوهم . فأخِذوا وقتِلوا[٣] .

***

وروى أبو الفرج أيضاً أنّ أبا العباس دعا بالغدَاء حين قُتِلوا ، وأمر ببساط فبُسِط عليهم ، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ ، قال : ما أعلم أنى أكلتُ أكلة قطّ كانت أطيبَ ولا أهنأ فى نفسى من هذه[٤] . فلما فرغ من الأكل قال : جُرُّوهم بأرجلهم ، وألقوهم فى الطريق ؛ ليلعنَهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء .

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٤

(٢) ديوانه ٤

(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٦ (طبعة الدار) .

(٤) الأغانى : « منها » .

قال : فلقد رأينا الكلاب تجرّهم بأرجلهم ، وعليهم سراويلات الوشى حتى أنْتَنوا ، ثم حفرتْ لهم بئر فأُلقُوا فيها[١] .

* * *

قال أبو الفرج : وروى عمر بن شبّه ، قال : حدّثنى محمد بن معن الغِفَارىّ ، عن معبد الأنبارىّ ، عن أبيه ، قال : لما أقبل داود بن علىّ من مكة ، أقبل معه بنو حُسنٍ جميعاً ، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن ، وأخوه حسن بن الحسن ، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان — وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمّه — فعمل داود مجلساً ببعض الطريق ، جلس فيه هو والهاشميُّون كلّهم ، وجلس الأمويّون تحتهم ، فجاء ابن هرْمة فأنشده قصيدة يقول فيها :

فَلا عَفَا اللهُ عن مَرْوان مظلمةً ... ولا أميّة ، بئس المجلس النادى !
كانوا كعادٍ فأمسى الله أهلكهمْ ... بمثل ما أهلك الغاوين مِنْ عادِ
فلن يكذّبَنى من هاشمٍ أحدٌ ... فيما أقول ، ولو أكثرتُ تعدادِى

قال : فنبذ داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضَحْكةً كالكِشْرة ، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن : أما رأيت ضحك[٢] داود إلى ابن عنبسة ! الحمد لله الذى صَرَفَها عن أخى — يعنى العثمانىّ — قال : فما هو إلا أن قدم المدينة ، حتى قتل ابن عنبسة[٣] .

* * *

قال أبو الفرج : وحدّثنى محمد بن معن ، قال : حدّثنى محمد بن عبد الله بن عمرو

---

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٧ (طبعة الدار) .
(٢) الأغانى : « ضحكته إلى ابن عنبسة » .
(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .

ابن عثمان ، قال : استحلف أخى عبد الله بن الحسن داودَ بن على ـ وقد حجّ معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة ـ بطلاق امرأته مُلَيكة بنت داود بن الحسن ، ألّا يقتل أخويه محمدا والقاسم ابنىْ عبد الله بن عمرو بن عثمان ، قال : فكنت أختلف إليه آمنا ، وهو يقتل بنى أمية ، وكان يكره أنْ يرانى أهل خراسان ، ولا يستطيع إلىّ سبيلا ليمينه ، فاستدنانى يوما ، فدنوت منه ، فقال : ما أكثر الغَفَلة ، وأقلّ الحَزَمة ! فأخبرت بها أخى عبدَ الله بن الحسن ، فقال : يابن أمّ ، تغيَّبْ عن الرجل ، وأقِلّ عنه ، فتغيب حتى مات[1] .

قلت : إلّا أنّ ذلك الدَّيْن الذى لم يقضه داود ، قضاه أبو جعفر المنصور .

***

وروى أبو الفرج فى الكتاب المذكور أن سُدَيفا أنشد أبا العباس ، وعنده رجال من بنى أمية ، فقال :

يابنَ عَمّ النبى أنت ضِياءٌ ... استبنّا بك اليقينَ الجليّا

[فلمّا بلغ قوله][2] :

جرِّد السيفَ وارفع العفو حتّى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا[3]

قَطَنَ البغضُ فى القديم وأضحى[4] ... ثابتًا فى قلوبهم مطويّا

وهى طويلة ، فقال أبو العباس : يا سُدَيف ، خُلِقَ الإنسان من عجل ! ثم أنشد أبو العباس متمثّلا :

أحيا الضغائنَ آباء لنا سَلَفُوا ... فلن تبيد وللآباء أبناء

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .
(٢) من الأغانى .
(٣) ذكر بعده فى الأغانى :

لا يغرّنْكَ ما ترى من رجالٍ ... إنّ تحتَ الضلوع داءً دويّا

(٤) فى الأغانى : « بطن البغض » .

ثم أمر بمن عنده فقتلوا[١] .

* * *

وروى أبو الفرج أيضاً ، عن علىّ بن محمد بن سليمان النوفلى ، عن أبيه ، عن عمومته ، أنهم حضروا سليمان بن علىّ بالبصرة ، وقد حضر جماعة من بنى أمية عنده ، عليهم الثياب الموشّاة[٢] المرتفعة ـ قال أحد الرواة المذكورين : فكأنى أنظر إلى أحدهم وقد اسودّ شيب فى عارضيه من الغالية[٣] ـ فأمر بهم فقتلوا وجُرّوا بأرجلهم ، فألقُوا على الطريق ، وإنّ عليهم لسراويلات الوَشْى والكلاب تجرّهم بأرجلهم[٤] .

* * *

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك ، عن أبيه ، قال : جاءنى رسولُ عمرو ابن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان ، قال : يقول لك [عمرو][٥] : قد جاءت هذه الدولة ، وأنا حديث السنّ ، كثير العيال ، منتشِر الأموال ؛ فما أكون فى قبيلة إلا شُهِر أمرى وعرِفت . وقد عزمت على أن أخرج من الاستتار ، وأَفْدِىَ حُرَمى بنفسى ، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن علىّ ، فصرْ إلىّ . فوافيتُه فإذا عليه طيلسانٌ أبيض مطبِق ، وسراويل وَشْيٍ مسدول ، فقلت : ياسبحان الله ! ماتصنع الحداثة بأهلها ! أبهذا اللباس تَلْقَى هؤلاء القوم لِمَا تريد لقاءهم [فيه][٤] ! فقال : لا والله ، ولكن ليس عندى ثوب إلا أشهر ممّا تَرَى . فأعطيته طَيْلسانى وأخذت طيلسانه ، ولويتُ سراويله إلى ركبتيه . فدخل إلىّ سليمان ، ثم خرج مسرورا فقلت له : حدّثنى ما جرى بينك وبين الأمير ، قال : دخلت عليه ولم يرنى[٦] قطّ ، فقلت : أصلح الله الأمير ! لفظتْنى البلاد إليك ودلّنى فضلُك

---

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٨ ، ٣٤٩ (طبعة الدار) .
(٢) الأغانى : « الموشية » .
(٣) الغالية : ضرب من الطيب .
(٤) الأغانى ٤ : ٣٤٩
(٥) من الأغانى .
(٦) الأغانى : « ولم نتراه » .

عليك ؛ إمّا قتلتَنى [غانمًا][1] وإمّا أمّنتنى [سالمًا][2]، فقال : ومَنْ أنت حتى أعرفك ؟ فانتسبت له ، فقال: مرحبا بك ! اقعد فتكلّم سالمًا آمنا ، ثم أقبلَ علىّ فقال : حاجتك يا بن أخى ؟ فقلت: إن الُحرَم اللواتى أنت أقربُ الناس إليهنّ معنا، وأولى الناس بهنّ بعدنا، قد خفْن لخوفنا ، ومَنْ خاف خِيف عليه . فوالله ما أجابنى إلا بدموعه على خدّيه ، ثم قال: يا بن أخى ، يحقِنُ الله دمك ، ويحفظك فى حُرَمك ، ويوفّر عليك مالك ؛ فوالله لو أمكننى ذلك فى جميع قومك لفعلت، فكن متواريًا كظاهر ، وآمنا كخائف، ولتأتنى رقاعُك . قال : فوالله لقد كنتُ أكتب إليه كما يكتبُ الرجل إلى أبيه وعمه . قال : فلما فرغ من الحديث ، رددت عليه طيلسانه ، فقال : مهلا ، فإن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا [3] .

* * *

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ، قال : أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ ، عن عمر بن شبّة ، قال : قال سُديف لأبى العباس يحضّه على بنى أمية ، ويذكر من قتل مَرْوان وبنو أمية من أهله :

كيف بالعفـــو عنهمُ وقديمًا ... قتّـلوكم وهتّـكوا الحرماتِ

أين زيدٌ وأين يحيى بن زيد ! ... يالهـا من مصيبة وترَاتِ !

والإمام الذى أصيب بحرّا ... ن إمام الهـدى ورأس الثقاتِ

قتلوا آل أحمـد لا عفا الذّنْبَ ... لمروان غافرُ السّيّئـاتِ

* * *

قال أبو الفرج : وأخبرنى علىّ بن سليمان الأخفش، قال : أنشدنى محمد بن يزيد المبرّد لرجل من شيعة بنى العباس ، يحضّهم على بنى أمية :

(١) من الأغانى .

(٢) من الأغانى ، وروايته : « وإما رددتنى سالما » .

(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٩ ، ٣٥٠ (طبعة الدار) .

إياكُمُ أن تلينوا لاعتــذارهُمُ فليس ذلك إلّا الخوف والطمعُ
لو أنّهم أمِنُوا أبدَوْا عداوتهمْ لــكنّهم قُمِعوا بالذلّ فانقمعوا
أليس فى ألف شهر قد مضت لهمُ سقيتمُ جُرَعاً من بعــدها جُرَعُ
حتى إذا ماانقضت أيام مدّتهمْ متُّوا إليــكم بالأرحام التى قطعوا
هيهات لابدّ أن يسقوا بكأسهمْ رَيًّا وأن يَحْصُدُوا الزرع الذى زرعُوا
إنّا وإخوانَنا الأنصارَ شيعتُــكم إذا تفرقت الأهــــواء والشّيَعُ (١)

* * *

قال أبو الفرج : وروى ابن المعتز فى قصة سُدَيف مثل ماذكرناه من قبل ؛ إلا أنّه قال فيها : فلما أنشده ذلك التفت إليه أبو الغَمْر سليمان بن هشام ، فقال : ياماصّ بَظْر أمه، أتجبَهُنَا بمثل هذا ونحن سَرَوات الناس ! فغضب أبو العباس — وكان سليمان بن هشام صديقه قديما وحديثا، يقضى حوائجه فى أيامهم ويَبَرُّهُ — فلم يلتفت إلى ذلك، وصاح بالخراسانية: [خذوهم](٢) ! فقتلوهم جميعا إلا سليمان بن هشام ، فأقبل عليه أبو العباس ، فقال : ياأبا الغَمْر : ماأرى لك فى الحياة بعد هؤلاء خيرا . قال : لا والله، قال : فاقتلوه ، وكان إلى جنبه فقتل وصلبوا فى بستانه ؛ حتى تأذّى جلساؤه بريحهم ، فكلّموه فى ذلك ، فقال : والله إن ريحهم عندى لألذّ وأطيب من ريح المسك والعنبر غيظا عليهم [وحنقا](٢) .

* * *

قال أبو الفرج : وكان أبو سعيد مولى فائد من مواليهم يعدّ فى موالى عثمان بن عفان واسم أبى سعيد إبراهيم ؛ وهو من شعرائهم الذين رثوْهم ، وبكوا على دولتهم وأيامهم ؛ فمن شعره بعد زوال أمرهم :

---

(١) بعده فى الأغانى ٤ : ٣٥١ :

إيّاكم أن يقولَ الناسُ إنهمُ قد مُلّــكوا ثم ّماضرّوا ولانفعوا

(٢) من الأغانى ٤ : ٣٥١ وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩ ، ٤٠

بكيتُ وماذا يرد البكا ءُ وقلّ البُكاء لقتلى كَداء
أصيبوا معاً فتولّوا معاً كذلك كانوا معاً فى رَخاء
بكت لهمُ الأرضُ من بعدهِمْ وناحت عليهم نجومُ السماء
وكانوا ضياءً فلما انقضى الزّمانُ بقومى تولى الضياء

ومن شعره فيهم :

أثّر الدّهرُ فى رجالى فقلّوا بعد جَمْعٍ فراح عظمِى مَهِيضاَ
ماتذَكرْتُهمْ فتملك عينى فيضَ دمعٍ، وحقّ لى أن تفيضاَ

ومن شعره فيهم :

أولئك قومى بعد عزٍّ وثروةٍ تداعوْا فإلا تذرف العين أكْمَد
كأنهمُ لا ناس للموت غيرهُمْ وإن كان فيهم منصفاً غير مُعْتَدِ[1]

* * *

وقال أبو الفرج : ركبَ المأمون بدمشق يتصيّد ؛ حتى بلغ جبل الثلْج ، فوقف فى بعض الطريق على بِرْكة عظيمة ، فى جوانبها أربع سرَوات[2] ، لم يُرَ أحسن منها ، فنزل هناك ؛ وجعل ينظر إلى آثار بنى أميّة وَيَعْجَب منها ، ويذكرهم . ثم دعا بطبقٍ عليه طعام ، فأكل ، وأمر علّويه فغنى :

أولئك قومى بعد عزٍّ ومنعة تَفَانَوْا فإلّا تذرف العين أكمَدِ

وكان علّويه من موالى بنى أمية ، فغضب المأمون . وقال : يابن الفاعلة ، ألم يكن لك وقت تبكى فيه على قومك إلا هذا الوقت ! قال : كيف لاأبكى عليهم ومولاكم زرياب ، كان فى أيام دولتهم يركب معهم فى مائة غلام ، وأنا مولاهم معكم أموت جوعا! فقام المأمون

(١) الأغانى ٤ : ٣٥٣ (طبعة الدار) .
(٢) السرو : شجر حسن الهيئة قويم الساق ، واحده سروة .

فركب وانصرف الناس ، وغضب على علّويه عشرين يوما ، وكُلِّم فيه فرضى عنه ، ووصله بعشرين ألف درهم[1].

* * *

لما ضرب عبد الله بن علىّ أعناق بنى أميّة ،قال له قائل من أصحابه : هذا والله جهد البلاء ، فقال عبدالله : كلّا ، ماهذا وشَرْطة[2] حجّام إلّا سواء، إنما جهدالبلاء فَقْر مدقع ، بعد غنًى موسع[3].

* * *

خطب سليمان بن علىّ لما قَتَل بنى أمية بالبصرة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ ﴾[4] قضاء فصل ، وقول مبرم ، فالحمد لله الذى صدق عبده ، وأنجز وعده ؛ وبعداً للقوم الظالمين ؛ الذين اتخذوا الكعبة غرَضاً ،والدين هزواً ،والفىء إرثا ، والقرآن عِضِين؛ لقدحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكأيّن ترى لهم من بئر معطّلة وقصر مشيد ، ذلك بما قدّمت أيديهم ، وماربّك بظلام للعبيد ؛ أمهلهم حتى اضطهدوا العِتْرَة ، ونبذوا السنّة ؛ واستفتحوا وخاب كلّ جبار عنيد، ثم أخذهم فهل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا !

* * *

ضرب الوليد بن عبد الملك عَلىّ بن عبد الله بن العباس بالسِّياط ، وشَهّره بين الناس يُدار به على بعير ، ووجهه مما يَلِي ذَنَب البعير ، وصائح يصيح أمامه : هذا علىّ بن عبد الله الكذّاب ، فقال له قائل ، وهو على تلك الحال : ما الذى نسبوك إليه من الكذب يا أبا محمد ؟ قال : بلغهم قولى : إن هذا الأمر سيكون فى ولَدِى ؛ والله ليكونَنّ فيهم

---

(١) الأغانى ١٤ : ٣٥٣ ، ٣٥٤ (٢) الشرط : بزغ الحجام بالمشرط .
(٣) الخبر فى اللسان (٩ : ٢٥) ، مع اختلاف فى الرواية (٤) سورة الأنبياء : ٥

حتى يَمْلِكَهُ عبيدهم الصغار العيون ، العراض الوجوه ، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرّقة .

***

وروى أنّ علىّ بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنه : الخليفتان أبو العباس وأبو جعفر ، فكلّمه فيما أراد ، ثم ولّى فقال هشام : إنّ هذا الشيخ قد خرِف وأهْتَر ؛ يقول : إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده ! فسمع علىّ بن عبد الله كلامه ، فالتفت إليه ، وقال : إى والله ليكونَنّ ذلك ، وليملكَنّ هذان .

وقد روى أبو العباس المبرّد فى كتاب "الكامل" هذا الحديث ، فقال : دخل علىّ بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شجاع البلخىّ ، ومعه ابنا ابنه الخليفتان بعد : أبو العباس وأبو جعفر ، فأوسع له على سريره وبرّه ، وسأله عن حاجته ، فقال : ثلاثون ألف درهم علىّ دين ، فأمر بقضائها ، قال : واستوص بابنىّ هذين خيرا ، ففعل ، فشكره علىّ بن عبد الله ، وقال : وصلتْك رَحِم ، فلما ولّى قال سليمان لأصحابه : إنّ هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخلّط ، وصار يقول : إنّ هذا الأمر سينتقل إلى ولده . فسمع ذلك علىّ بن عبد الله ، فالتفت إليه ، وقال : إى والله ليكونَنّ ذلك ، وليملكَنّ هذان[١] .

قال أبو العباس المبرّد : وفى هذه الرواية غلط ، لأنّ الخليفة فى ذلك الوقت لم يكن سليمان ، وإنما ينبغى أن يكون دخل على هشام ؛ لأنّ محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس كان يحاول التزويج فى بنى الحارث بن كعب ، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له ، فلمّا قام عمر بن عبد العزيز جاء فقال : إنّى أردت أنْ أتزوّج ابنة خالى من بنى الحارث

(١) الكامل ٢ : ٢١٨ مع اختلاف فى الرواية .

ابن كعب ، فتأذن لى ! فقال عمر بن عبد العزيز : تزوجْ يرحمك الله مَنْ أحببت . فتزوّجها فأولدها أبا العباس السّفاح ، وعمر بن عبدالعزيز بعد سليمان ، وأبو العباس ينبغى ألّا يكون تهيأ لمثله أن يدخل على خليفة حتى يترعرع ، ولا يتمّ مثل هذا إلا فى أيام هشام ابن عبد الملك .

* * *

قال أبو العباس المبِّرد : وقد جاءت الرواية أنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام لما وُلِد لعبد الله بن العباس مولود فقده وقت صلاة الظهر ، فقال : مابالُ ابن العبّاس لم يحضُر ! قالوا : وُلِد له ولدذ كر ، ياأميرالمؤمنين . قال : فامضُوا بنا إليه ، فأتاه فقال له : شكرتَ الواهب ، وبُورك لك فى الموهوب ! ماسمّيْتَه ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، أو يجوز لى أن أسمِّيَه حتى تسمّيَه ! فقال : أخرجه إلىّ ، فأخرجه ، فأخذه فحنّكه ودعا له ثم رده إليه ؛ وقال : خذ إليك أبا الأملاك ، قد سميتُه عليا ، وكنيته أبا الحسن . قال : فلما قدم معاوية خليفة ، قال لعبد الله بن العبّاس : لاأجمع لك بين الاسم والكنية ، قد كنيته أبا محمد ، فجرَتْ عليه[1] .

قلت : سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد رحمه الله تعالى ، فقلت له : مِنْ أىّ طريق عرف بنو أمية أنّ الأمر سينتقل عنهم ، وأنّه سيليه بنو هاشم ، وأوّل من يلى منهم يكون اسمه عبد الله ؟ ولم منعوهم عن مناكحة بنى الحارث بن كعب لعلمهم أنّ أول من يلى الأمر من بنى هاشم تكون أمّه حارثيّة ؟ وبأىّ طريق عرف بنو هاشم أنّ الأمر سيصير إليهم ، ويملكه عبيدُ أولادهم ؛ حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه ، كما قد جاء فى هذا الخبر !

---

(١) الكامل ٣٦٠ (طبع أوروبا) .

فقال : أصلُ هذا كلّه محمد بن الحنفيّة ، ثم ابنه عبد الله المكنّى أبا هاشم .

قلت له : أفكان محمد بن الحنفيّة مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام ؟ قال : لا ، ولكنهما كتما وأذاع .

ثم قال : قد صحّت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث ، أنّ عليا عليه السلام لما قبض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسينا عليهما السلام ، فقال لهما : أعطياني ميراثي من أبي ، فقالا له : قد علمت أنّ أباك لم يترك صَفْراء ولا بيضاء، فقال : قد علمت ذلك ؛ وليس ميراث المال أطلب ؛ إنما أطلب ميراث العلم .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: فروى أبان بن عثمان عمّن يُروى له ذلك، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : فدفعا إليه صحيفة ، لو أطلعاه على أكثر منها لهلك ، فيها ذكر دولة بني العباس .

قال أبو جعفر : وقد رَوَى أبو الحسن عليّ بن محمد النوفليّ ، قال : حدثني عيسى ابن عليّ بن عبد الله بن العباس ، قال : لما أردنا الهرَب من مروان بن محمد ، لما قبض على إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التي دفعها أبو هاشم بن محمد بن الحنفيّة إلى محمد بن على ابن عبد الله بن العباس ، وهي التي كان آباؤنا يسمّونها صحيفة الدولة ، في صندوق من نحاس صغير ، ثم دفناه تحت زيتونات بالشّراة[1] لم يكن بالشّراة من الزيتون غيرهنّ، فلما أفضى السلطان إلينا ، وملكنا الأمر، أرسلنا إلى ذلك الموضع فبحث وحُفر، فلم يوجد فيه شيء ، فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع ؛ حتى بلغ الحفر الماء ولم نجد شيئا .

قال أبو جعفر : وقد كان محمد بن الحنفيّة صرّح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرّفه تفصيله، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصّل لعبد الله بن العباس الأمر، وإنما أخبره به

(١) الشراة : صقع بالشام بين المدينة ودمشق ، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة ، كان يسكنها ولد على بن عبد الله بن عباس في أيام بني مروان . ياقوت .

مجملا ، كقوله فى هذا الخبر : « خذ إليك أبا الأملاك »، ونحو ذلك مما كال يعرّض له به؛ ولكن الذى كشف القناع ، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفيّة .

وكذلك أيضا ماوصل إلى بنى أمية من علم هـذا الأمر ، فإنه وصل من جهة محمد ابن الحنفيّة ، وأطلعهم على السرّ الذى علمه ، ولكن لم يكشف لهم كشفه لبنى العباس ، فإنّ كشفهُ الأمر لبنى العباس كان أكمل .

قال أبو جعفر : فأما أبو هاشم، فإنه قد كان أفضى بالأمر إلى محمد بن علىّ بن عبدالله ابن العباس وأطلعه عليه ، وأوضحه له ، فلما حضرته الوفاة عَقيب انصرافه من عند الوليد ابن عبد الملك مَرّ بالشراة ؛ وهو مريض ومحمد بن على بها ، فدفع إليه كتبه ، وجعله وصيّه ، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه .

قال أبو جعفر : وحضر وفاة أبى هاشم ثلاثة نفر من بنى هاشم : محمد بن علىّ هذا ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ابن الحارث بن عبدالمطلب؛ فلما مات خرج محمد بن معاوية بن عبدالله بن جعفر من عنده، وكلّ واحد منهما يدّعى وصايتَه ، فأمّا عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئا .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: وصدق محمد بن علىّ ، أنّه إليه أوصى أبو هاشم، وإليه دفع كتاب الدولة ، وكَذَب معاوية بن عبدالله بن جعفر، لكنّه قرأ الكتاب ، فوجدلهم فيه ذِكْراً يسيرا، فادّعى الوصية بذلك ، فمات وخرج ابنُه عبدالله بن معاوية يدّعى وصاية أبيه ، ويدّعى لأبيه وصاية أبى هاشم ، ويظهر الإنكار على بنى أمية ، وكان له فى ذلك شيعة يقولون بإمامته سرًّا حتى قتل .

* * *

دخلتْ إحدى نساء بنى أميّة على سليمان بن على ؛ وهو يقتل بنى أمية بالبصرة،

فقالت : أيها الأمير ، إنّ العدل لَيُمَلّ من الإكثار منه ، والإسراف فيه، فكيف لا تملّ أنت من الجوْر وقطيعة الرحم ! فأطرق ثم قال لها :

سَنَنْتُمْ علينا القتــل لا تنكِرُونه   فذوقوا كما ذقْنا على سالِفِ الدَّهرِ

ثم قال : يا أمَة الله

* وأول راضٍ سنّة مَنْ يَسِيرُها (١) *

ألم تحاربوا عليا وتدفعوا حقه ؟ ألم تسمُّوا حسنا وتنقضوا شرطه ؟ ألم تقتلُوا حسينا وتسيّروا رأسه؟ ألم تقتلوا زيدا وتصلبوا جسده ؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به ؟ ألم تلعنوا عليا على منابركم ؟ ألم تضربوا أبانا عليّ بن عبدالله بسياطكم ؟ ألم تخنقوا الإمام بجراب النّورة فى حبسكم ؟ ثم قال : ألكِ حاجة ؟ قالت : قَبَض عُمّالك أموالى ، فأمر بردّ أموالها عليها .

* * *

لما سار مَرْوان إلى الزّاب، حفر خندقا، فسار إليه أبو عون عبدالله بن يزيد الأزدىّ، وكان قَحْطبة بن شبيب قد وجّهه وأمدّ أبو سلمة الخلاّل بأمداد كثيرة ، فكان بإزاء مرْوان . ثم إن أبا العباس السفاح قال لأهله وهو بالكوفة حينئذ : مَنْ يسير إلى مَرْوان من أهل بيتى وله ولاية العهد إن قتله ؟ فقال عبدالله عمّه : أنا ، قال : سرْ على بركة الله ، فسار فقدم على أبى عَوْن ، فتحول له أبو عون عن سُرادقه وخلّاه له بما فيه . ثم سأل عبدالله عن مخاضةٍ فى الزّاب ، فدلّ عليها ، فأمر قائدامن قوّاده فعبَرها فى خمسة آلاف ، فانتهى إلى عسكر مَرْوان فقاتلهم ؛ حتى أمسوْا وتحاجزوا ، ورجع القائد بأصحابه ، فعبرَ المخاضة إلى عسكر عبدالله بن علىّ ، وأصبح مروان ، فعقد جسرا ، وعَبَر بالجيش كلّه إلى

(١) من بيت لأبى ذؤيب الهذلى ؛ ديوان الهذليين ١ : ١٥٦ والبيت بتمامه :

فَلَا تجز عَنْ من سُنّةٍ أنتَ سِرْتَهَا   وأوّل راضٍ سُنّةً مَنْ يَسِيرُها

عبدالله بن عليّ ، فكان ابنه عبد الله بن مروان في مقدمته ، وعلى الميمنة الوليد ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان ، وعلى الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، وعبّأ عبدالله بن على جيشه ، وتراءى الجمعان ، فقال مروان لعبد العزيز ابن عمر : انظر ، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم ؛ وإن قاتلونا قبل الزوال ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم أرسل إلى عبد الله ابن على يسأله الكفّ عن القتال نهار ذلك اليوم ، فقال عبدالله : كذب ابن زربى إنما يريد المدافعة إلى الزوال ؛ لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله . ثم حرك أصحابه للقتال ، فنادى مروان في أهل الشام : لاتبدءوهم بالحرب ، فلم يسمع الوليد ابن معاوية منه ، وحمل على ميسرة عبد الله بن عليّ ، فغضب مروان وشتمه ، فلم يسمع له واضطرمت الحرب ، فأمر عبدالله الرماة أن ينزلوا ، ونادى : الأرض الأرض ! فنزل الناس ، ورمت الرماة ، وأشرعت الرماح وجثوا على الركب ، فاشتدّ القتال ، فقال مروان لقضاعة : انزلوا ، قالوا : حتى تنزل كِنْدة ، فقال لكندة : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل السَّكاسك ، فقال لبنى سليم : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل عامر ، فقال لتميم : احملوا ، فقالوا : حتى تحمِلَ بنو أسد ، فقال لهوازن : احملوا ، قالوا : حتّى تحمل غَطَفان ، فقال لصاحب شرْطته : احْمل ويلك ! قال : ما كنتُ لأجعل نفسى غَرَضاً ، قال : أما والله لأسوأنّك ، قال : وددت أنّ أميرَ المؤمنين يقدر على ذلك ! فانهزم عسكرُ مروان وانهزم مروان معهم ، وقطع الجسر ، فكان مَنْ هلك غرقا أكثرَ ممّن هلك تحت السيف ، واحتوى عبدالله بن عليّ على عسكر مروان بما فيه ، وكتب إلى أبى العباس يخبره الواقعة .

* * *

كان مَرْوان سديدَ الرأى ، ميمون النقيبة ، حازما ، فلما ظهرت المسوّدة ، ولقيهم كان

مايدبّر أمرا إلا كان فيه خلل ، ولقد وقف يوم الزّاب ، وأمر بالأموال فأخرجت ، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا ، وهذه الأموال لكم، فجعل ناسٌ يصيبون من ذلك المال ويشتغلون به عن الحرب ، فقال لابنه عبد الله : سِرْ فى أصحابك فامنع مَنْ يتعرّض لأخذ المال ، فمال عبدالله برايته ، ومعه أصحابه ، فتنادَى الناسُ :الهزيمة ! الهزيمة ! فانهزموا ، وركب أصحابُ عبد الله بن علىّ أكتافهم .

* * *

لما قتل مروان ببوصير ، قال الحسن بن قحطبة : أخرجوا إلىّ إحدى بنات مَرْوان، فأخرجوها إليه وهى ترْعد ، قال : لا بأسَ عليك ! قالت : وأىّ بأس أعظمُ من إخراجك إياى حاسرة ،ولم أر رجلا قبلك قطّ !فأجلسها، ووضع رأس مروان فى حِجْرها، فصرخت واضطربت فقيل له : ما أردت بهذا ؟ قال : فعلتُ بهم فعلهم بزيد بن على لمّا قتلوه ، جعلوا رأسه فى حجر زينب بنت علىّ بن الحسين عليه السلام .

* * *

دخلتْ زوجةُ مَرْوان بن محمد ، وهى عجوز كبيرة ، على الخيزُران فى خلافة المهدىّ ، وعندها زينبُ بنت سليمان بن علىّ ، فقالت لها زينب : الحمد لله الّذى أزال نعمتَك ، وصيّرك عِبْرة ! أتذكرين ياعدوة الله ، حين أتاك نساؤنا يَسْأَلْنكِ أن تكلّمى صاحبَك فى أمر إبراهيم بن محمد ،فلقيتِهنّ ذلك اللقاء ، وأخرجتِهنّ ذلك الإخراج! فضحكت ، وقالت : أىْ بنتَ عَمّى ! وأىّ شىء أعجبَك من حُسْن صنيع الله بى عقيب ذلك ؛ حتى أردتِ أن تتأسّىْ بى فيه ! ثم ولّت خارجة .

* * *

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خَلَوْن من شهر ربيع

الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فصعد المنبر بالكوفة نخطب ، فقال : الحمدُ لله الّذى اصْطَفى الإسلام لنفسه ، وكرّمه وشرّفه وعَظّمه ، واخْتارَهُ لنا ، وأيدّه بنا ، وجعلنا أهله وكهفَه ،وحصْنهوالقوّام به ،والذابّين عنه ،والناصرين له ؛ وخَصَّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنبتَنا من شَجَرتِه ، واشتقّنا من نَبْعتِه ، وأنزل بذلك كتاباً يتلى ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (١)، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قام بالأمر أصحابُه ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) فعدلوا ، وخرجوا خِمَاصاً(٣)، ثم وثب بنوحَرْب وبنو مروان فابتزّوها وتداولوها ، واستأثروا بها، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينا ؛ فلمّا آسفوه (٤) انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حَقّنا ، فأنا السَّفّاحُ المبيحُ ، والثائر المبير (٥) .

***

وكان موعوكا فاشتدت عليه الوعكة ، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام عمه داود بن عليّ وكان بين يديه ، فقال :

ياأهلَ العراق ، إنا والله ماخَرَجْنا لنحفِر نَهْراً ، ولا لنكنز لُجَيْناً ولا عِقْيانا ؛ وإنما أخرجتْنا الأنَفة من ابتزازالظالمين حقّنا ؛ ولقد كانتأموركم تتصل بنا فتُرْمِضُنا ونحن على فُرُشنا ، لكم ذمّةالله وذمّة رسوله ، وذمةالعباس ؛ أنْ نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فيكم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله . واعلموا أنّ هذا الأمر ليس بخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم .

---

(١) سورة الشورى ٢٣
(٢) سورة الشورى ٣٨.
(٣) خماصاً : جياعاً .
(٤) آسفوه : أغضبوه .
(٥) المبير : المهلك .

يا أهل الكوفة ؛ إنه لم يخطب على مِنْبركم هذا خليفة حقّ إلا عليّ بن أبى طالب وأمير المؤمنين هذا ، فاحمَدُ الله الذى رَدّ إليكم أمورَكم . ثم نزل .

وقد روى حديث خطبة داود بن عليّ برواية أخرى ؛ وهى الأشهر ، قالوا : لما صعد أبو العباس مِنْبر الكوفة ، حُصِر فلم يتكلم ، فقام داود بن عليّ ، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بِمرْقاة ، فاستقبل الناس ، وقال :

أيها النّاس ، إن أمير المؤمنين يكرَه أن يتقدّم قولُه فعلَه ، ولأَثرُ الفعال أجْدَى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله تمثّلاً فيكم ، وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله خليفةً عليكم ؛ أقسم بالله قَسَماً بَرًّا ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أحقُّ به من عليّ بن أبى طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمسْ هامِسُكم ، ولينطق ناطقكم . ثم نزل .

* * *

ومن خطب داود التى خطب بها بعد قتل مَرْوان :

شُكراً شُكراً ! أظَنّ عدوّ الله أن لن يُظْفَر به ، أرخى له فى زمامه ، حتى عثر فى فضل خِطامه ؛ فالآن عاد الحقّ إلى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ؛ وأخذَ القوسَ باريها ؛ وصار الأمر إلى النُزَعة (١) ، ورجع الحقّ إلى مستقرّه ؛ أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة .

* * *

وخطب عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس لما قُتِل مَرْوان ، فقال : الحمد لله الذى لا يفوته مَنْ طلب ، ولا يُعجزُه مَنْ هرب ، خدعتْ والله الأشقرَ نفسُه ، إذ ظنّ أن الله ممهله ، ويأبى الله إلّا أن يُتمّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون ؛ فحتى مَتَى ؟ وإلى متى !

(١) النزعة : جمع نازع ؛ وهو الرامى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم ؛ يريد : رجع الحق إلى أهله .

أما والله لقد كرهتهم العيدان[1] التى افترعوها ، وأمسكت السماء درّها[2] ، والأرض ريعها[3] وقحل[4] الضرع ، وجفز الفنيق[5] ، وأسمل[6] جلباب الدين ، وأبطلت الحدود ، وأهدرت الدماء ؛ وكان ربك بالمرصاد ، فدمدم[7] عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، ولا يخاف عقباها ؛ وملّكنا الله أمركم ؛ عبادَ الله لينظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ؛ فإنّه من دواعى المزيد ؛ أعاذنا الله وإياكم من مُضِلّات الأهواء ، وبغتات الفتن فإنما نحن به وله .

***

لما أمعن داود بن علىّ فى قتل بنى أمية بالحجاز قال له عبدالله بن الحسن عليه السلام: يا بن عمى ، إذا أفرطت فى قتل أكفائك فمَنْ تُباهى بسلطانك ! وما يكفيك منهم أن يروك غاديا ورائحا فيما يسرّك ويسوءهم !

***

كان داود بن علىّ يمثل ببنى أمية ؛ يسمُل العيون ، ويبقُرُ البطون ، ويجدَعُ الأنوف ويصطلم الآذان . وكان عبد الله بن على بنهر أبى فُطْرُس يصلُبهم منكّسين ، ويسقيهم النّوْرة والصّبِر ، والرّماد والخلّ ، ويقطع الأيدى والأرجل . وكان سليمان بن علىّ بالبصرة يضرب الأعناق .

***

خطب السفاح فى الجمعة الثانية بالكوفة فقال :

(١) العيدان ، يريد أعواد المنابر ، وافترعوها : اعتلوها .
(٢) درها ، أى مطرها .
(٣) الريع : النماء .
(٤) قحل : يبس جلده على لحمه .
(٥) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته ، والجفز : السرعة فى المشى .
(٦) أسمل : خلق وبلى .
(٧) دمدم عليهم ، طحنهم فأهلكهم .

يأيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ؛ والله لا أعدِكم شيئًا ولا أتوعّدكم إلا وفّيت بالوعْد والوعيد ، ولأعمَلنّ اللين حتى لا تنفع إلا الشدّة ، ولأغمِدَنّ السيف إلا فى إقامة حَدّ ، أو بلوغ حَقّ ، ولأعطينّكم حتى أرى العطية ضياعا . إنّ أهل بيت اللعنة والشّجَرة الملعونة فى القرآن ، كانوا لكم أعداء لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ماهو أشدّ منها ، ولا يلى عليكم منهم والٍ إلا تمنيتم مَنْ كان قبله ، وإن كان لا خير فى جميعهم ؛ منعوكم الصّلاة فى أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها فى غير وقتها ، وأخذوا المدبر بالمقبل ، والجار بالجار ، وسلّطوا شراركم على خياركم ، فقد محق الله جَوْرَهم ، وأزهق باطلَهم بأهل بيت نبيكم ؛ فما نؤخر لكم عطاء ، ولا نضيع لأحد منكم حقا ، ولا نجهّزكم فى بعث ، ولا نخاطر بكم فى قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ؛ والله على مانقول وكيل بالوفاء والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة .

ثم نزل .

* * *

كان يقال : لو ذهبتْ دولة بنى أميّة على يد غير مروان بن محمد ، لقيل : لو كان لها مَرْوان لما ذهبت .

كان يقال : إنّ دولة بنى أميّة آخرها خليفة أمّه أَمَة ، فلذلك كانوا لا يعهدون إلى بنى الإماء منهم ، ولو عَهِدُوا إلى ابن أَمَة لكان مسلمة بن عبد الملك أولاهم بها ؛ وكان انقراضُ أمرِهم على يد مروان وأمّه أَمَة ، كانت لمصعب بن الزبير ، وُهِبَها من إبراهيم بن الأشتر ، فأصابها محمد بن مروان يوم قَتَل ابنَ الأشتر ، فأخذها من ثَقَله ، فقيل : إنها كانت حاملاً بمرْوان ، فولدته على فراش محمد بن مروان ؛ ولذلك كان أهل خراسان ينادونه فى الحرب : يابن الأشتر .

قيل أيضا : إنها كانتْ حاملًا به من مصعب بن الزبير ، وإنّه لم تطُلْ مدّتُها عند

إبراهيم بن الأشتر ؛ حتى قتِل فوضعت حَمْلها على فراش محمد بن مرْوان ، ولذلك كانت المسوّدة تصيح به في الحرب : يابن مصعب ! ثم يقولون : يابن الأشتر ! فيقول: ماأبالى أىّ الفحْلين غَلَب علىّ !

* * *

لما بُويع أبو العباس جاءه ابنُ عياش المنتوف ، فقبّل يده وبايعه ، وقال : الحمدُ لله الذى أبدلنا بحِمار الجزيرة ، وابن أمَة النَّخَع ، ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وابن عبد المطلب .

* * *

لما صعِد السّفاح مِنْبر الكوفة يوم بيعته ، وخطب الناس ، قام إليه السيّد الحميرى ، فأنشده :

دونَكُموها يابنى هاشمٍ ... فجدِّدوا من آيِها الطّامِسا[(١)]
دونكُموها لاعلا كعبُ مَنْ ... أمسى عليكمْ مُلكَها نافِسا
دُونكُموها فالبسُوا تاجَها ... لا تعدمُوا منكمْ لهُ لابِسا
خلافةُ اللهِ وسلطانهُ ... وعُنْصرٌ كان لكم دَارِسا
قدْ ساسَها مِن قبلكم ساسَةٌ ... لم يتركوا رَطْباً ولا يابسا
لو خُيِّر المنبرُ فرسانه ... ما اختارَ إلا منكمُ فارسا
والمُلْك لو شُووِر فى سائسٍ ... لما ارتضَى غيرَكم سائِسا
لم يُبْقِ عبدُ الله بالشام مِنْ ... آل أبى العاص امْرَأً عاطِسا
فلستُ من أنْ تملكوها إلى ... هُبوط عيسى منكمُ آيسا

* * *

قال داود بن علىّ لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قَتْله مَنْ قَتلَ من بنى

(١) الابيات فى الأغانى ٧ : ٢٤٠ (طبع الدار) مع اختلاف فى الرواية .

أمية : هل علمتَ ما فعلتُ بأصحابك ؟ قال : نعم ، كانوا يداً فقطعتها ، وعَضداً ففتتَ[1] فيها ، ومِرّةً[2] فنقضتها ، وجناحاً فحصصتها[3] ؛ قال : إنى لخليق أن ألحقك فيهم ، قال : إنى إذاً لسعيد !

* * *

لما استوثق الأمر لأبى العباس السفاح ، وفد إليه عشرة من أمراء الشام ، فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم ، وبأيمان البَيْعة بأنهم لايعلمون — إلى أن قُتل مروان — أنّ لرسول صلى الله عليه وآله أهلا ولا قرابة إلا بنى أمية .

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : حدّثنى رجلٌ قال : كنت بالشام ، فجعلت لا أسمع أحداً يسمِّى أحداً أو يناديه : يا علىّ أو ياحسن ، أو ياحسين ؛ وإنما أسمع : معاوية ، والوليد ، ويزيد ، حتى مررْت برجل ، فاستسقيته ماء ، فجعل ينادى : ياعلىّ ، ياحسن ، ياحسين ، فقلت : ياهذا ، إنّ أهلَ الشام لا يسمُّوْن بهذه الأسماء ! قال : صدقت ، إنهم يسمُّون أبناءهم بأسماء الخلفاء ، فإذا لعن أحدُهم ولده أو شتمه فقد لعن اسمَ بعد الخلفاء ، وأنا سمّيت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمتُ أحدَهم أو لعنته ، فإنما ألعن أعداء الله .

* * *

كانت أمّ إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس أمويّة من ولد عثمان بن عفان .

قال إبراهيم : فدخلت على جَدّى عيسى بن موسى مع أبى موسى ، فقال لى جَدّى : أتحبّ بنى أمية ؟ فقال له موسى أبى : نعم ، إنهم أخواله ، فقال : والله لو رأيت جدّك

(١) فت فى عضده ؛ أى كسر قوته وفرق عنه أعوانه .
(٢) المرة فى الأصل : طاقة الحبل .   (٣) يقال : حص الجناح ؛ أى قطعه .

عليّ بن عبد الله بن العباس يُضرب بالسياط ما أحببتهم ؛ ولو رأيت إبراهيم بن محمد يُكْرَه على إدخال رأسه فى جراب النُّورة[1] لما أحببتهم ، وسأحدّثك حديثا إن شاء الله أن ينفعك به نفعك : لما وجّه سليمان بن عبد الملك ابنه أيوب بن سليمان إلى الطائف وجّه معه جماعة ، فكنت أنا ومحمد بن عليّ بن عبد الله جدّى معهم ، وأنا حينئذ حديث السِّنّ ، وكان مع أيوب مؤدّب له يؤدّبه ، فدخلنا عليه يوما أنا وجدّى ، وذلك المؤدّب يضربه ، فلما رآنا الغلام أقبل على مؤدّبه فضربه فنظر بعضُنا إلى بعض وقلنا : ماله قاتله الله ! حين رآنا كره أن نَشْمَت به ، ثم التفت أيوب إلينا ، فقال : ألا أخبركم يابنى هاشم بأعقلكم وأعقلنا ، أعقلنا مَنْ نشأ منّا يَبغضُكم ، وأعقلكم من نشأ منكم يبغضنا ؛ وعلامة ذلك أنكم لم تسمّوا بمروان ، ولا الوليد ، ولا عبد الملك ، ولم نسمّ نحن بعليّ ولا بحسن ولا بحسين .

***

لما انتهى عامر بن إسماعيل — وكان صالح بن على قد أنفذه لطلب مَرْوان — إلى بوصير مِصْر ، هرب مَرْوان بين يديه فى نفر يسير من أهله وأصحابه ؛ ولم يكن قد تخلف معه كثير عدد ، فانتهوْا فى غَبش الصُّبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق ، ليس للخيل عُبور إلا على تلك القنطرة ، وعامر بن إسماعيل من ورائهم ، فصادف مروانُ على تلك القنطرة بغالاً قد استقبلته تعبرُ القنطرة ، وعليها زُقَاق عسل ، فحبسته عن العُبور حتى أدركه عامر بن إسماعيل ورهقه ، فلوى مَرْوان دابّته إليهم ؛ وحارب فقُتل ، فلما بلغ صالح بن عليّ ذلك ، قال : إن لله جنوداً من عسل .

***

لما نقف رأس مروان ونفض مخه ، قطع لسانه وألقى مع لحم عنقه ، فجاء كلب فأخذ اللسان ، فقال قائل :

إنّ مِن عبَر الدنيا أن رأينا لسان مروان فى فم كلب .

* * *

خطب أبو مسلم بالمدينة فى السّنة التى حَجّ فيها فى خلافة السفّاح ، فقال : الحمد لله الذى حَمِد نفسَه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمّد رسول الله صلى الله عليه من ذلك ماأوحى ، واختارهُ من خلقه ، نفسُه من أنفسهم ، وبيتُه من بيوتهم ؛ ثم أنزل عليه فى كتابه النّاطق الذى حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على حقه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(١) ، ثم جعل الحقّ بعد محمد عليه السلام فى أهلِ بيته ، فصبرَ مَنْ صَبَر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه على اللأواء والشّدّة ، وأغضى على الاستبداد والأَثَرة . ثم إنّ قوماً من أهل بيتِ الرسول صلى الله عليه ، جاهدوا على ملّة نبيّه وسنّته بعد عصرٍ من الزمان من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، بين ظهرانىْ قومْ آثروا العاجلَ على الآجل ، والفانىَ على الباقى ؛ إن رُتق جورٌ فتقوه ، أو فُتق حقّ رَتقوه ؛ أهل خمور وماخور ، وطنابير(٢) ومزامير ، إن ذُكّروا لم يذكروا ، أو قُدّموا إلى الحق أدبروا ، وجعلوا الصدقات فى الشّبُهات ، والمغانمَ فى المحارم ؛ والفىء فى الغىّ ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم . وزعموا أنّ غير آل محمد أوْلَى بالأمر منهم ، فلِمَ وَبِمَ أيها الناس ؟ ألكم الفضلُ بالصحابة دون ذوى القرابة ، الشركاء فى النسب ، والورثة فى السّلَب(٣) مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم فى الجدب جائعكم ! والله مااخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قطّ ؛ ومازلتم بعد نبيّه تختارون تيميّاً مرّة ، وعَدَوِيّاً مرة ، وأمويّاً مرة ، وأسدِيا مرة ، وسُفيانياً مرّة ، ومَرْوانياً مرّة

(١) سورة الأحزاب ٣٣

(٢) الماخور : بيت الريبة . والطنابير : جمع طنبور ، وهو آلة من آلات الطرب : ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس

(٣) السلب : ما يسلب .

حتى جاءكم مَنْ لا تعرفون اسمَه ولا بيته ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنْوة وأنتم صاغرون . ألا إنّ آل محمد أئمة الهدى ، ومنارُ سبيل التّقى ، القادة الذادة السادة ؛ بنو عمّ رسول الله ، ومنزل جبريل بالتنزيل ؛ كَمْ قَصم الله بهم(١) من جبّار طاغ ، وفاسق باغٍ ، شيّد الله بهم الهدى ، وجلا بهم العَمى ؛ لم يُسمَعْ بمثل العباس ! وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حقّ الحرمة ! أبو رسول الله بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجلْدة بين عينيه . أمينُه يوم العَقَبة وناصره بمكّة ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يوم حُنين ، عند ملتقى الفئتين ؛ لا يخالف له رسما ، ولا يعصى له حكما ؛ الشافع يوم نِيق(٢) العُقاب ، إلى رسول الله في الأحزاب . ها إنّ في هذا أيّها الناس لعبرةً لأولى الأبصار(٣) !

قلت : الأسديّ عبد الله بن الزّبير . ومَنْ لا يعرفون اسمه ولا بيته ، يعنى نفسه ، لأنه لم يكن معلوم النّسب ؛ وقد اختلف فيه هل هو مولًى أم عربيّ .

ويوم العقبة : يوم مبايعة الأنصار السبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله بمكة . ويوم نيق العُقاب يوم فتح مكة ، شفع العباس ذلك اليوم في أبي سفيان وفي أهل مكة ، فعفا النبيّ صلى الله عليه وآله عنهم .

* * *

اجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه ، منهم عيسى بن موسى والعباس ابن محمد وغيرهما ؛ فتذاكروا خُلفاء بني أميّة ، والسبب الذى به سلبوا عزّهم ، فقال المنصور : كان عبد الملك جبّاراً لا يبالي ما صنع ؛ وكان الوليد لحّانا مجنونا ، وكان سليمان همّته بطنه وفرجه ، وكان عمر أعورَ بين عميان ، وكان هشام رجلَ القوم ، ولم يزل بنو أميّة ضابطين لما مهّد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه ، ويحرسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسنّمهم معاليَ الأمور ، ورفضِهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مترَفين من أبنائهم ، فغمطُوا النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية ، فابتدأت النّقمة منهم ،

(١) ساقطة من ب
(٢) نيق العقاب : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة .
(٣) د : الألباب .

باستدراج الله إياهم آمنين مكره . مطّرحين صيانة الخلافة ، مستخفّين بحقّ الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزّة ، وألبسهم الذلّة ، وأزال عنهم النعمة .

* * *

سأل المنصورُ ليلةً عن عبد الله بن مروان بن محمد ، فقال له الربيع : إنّه فى سجن أمير المؤمنين حيًّا ، فقال المنصور : قد كان بلغنى كلامٌ خاطبه به ملكُ النّوبة ؛ لما قدم دياره ، وأنا أحبّ أن أسمعه مِنْ فيه ، فليؤمَرْ بإحضاره . فأحضر ، فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة ، فأمره المنصور ، بالجلوس ، فجلس والقيد فى رجليه خشخشة .قال:أحبّ أن تسمعنى كلاما قاله لك ملك النّوبة حيث غشيت بلاده ، قال : نعم ، قدمت إلى بلد النّوبة ، فأقمت أياما ، فاتّصل خبرنا بالملك ، فأرسل إلينا فرشا وبسطا وطعاما كثيرا ،وأفرد لنا منازل واسعة ، ثم جاءنى ومعه خمسون من أصحابه ، بأيديهم الحراب ، فقمت إليه فاستقبلته ، وتنحّيت له عن صدر المجلس ، فلم يجلس فيه ، وقعد على الأرض ، فقلت له : مامنعك من القعود على الفرش ؟ قال : إنى ملك ، وحقّ الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعَمه متجدّدة عنده ، ولمّا رأيت تجدّد نعمة الله عندى بقصدكم بلادى ، واستجارتكم بى ، بعد عزّكم وملككم ،قابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع. ثم سكت وسكتّ ، فلبثنا ماشاء الله ؛ لايتكلّم ولاأتكلّم ، وأصحابه قيامٌ بالحراب على رأسه . ثم قال لى : لماذا شربتم الخمر وهى محرّمة عليكم فى كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدُنا بجهلهم ، قال : فلم وَطِئتم الزّروع بدوابّكم والفساد محرّم عليكم فى كتابكم ودينكم[1]؟ قلت : فَعَلَ ذلك أتباعُنا وعُمّالنا جهلاً منهم ، قال : فلِمَ لبستم الحرير والدّيباج والذهب ، وهو محرّم عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ قلت : استعنّا فى أعمالنا بقوم من

(١) ساقطة من ب

أبناء العجم كتّاب ، دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك اتباعا لسنّة سلفهم ، على كُرْه منّا . فأطرق مليًّا إلى الأرض يقلّب يده ، وينكت الأرض . ثم قال : عبيدنا وأتباعنا وعُمّالُنا وكتّابنا ! ما الأمر كما ذكرت ، ولكنكم قوم استحللتم ماحرّم الله عليكم ، وركبتم ما عنه نُهيتم ، وظلمتم فيما ملّكتم ، فسلبكم الله العزّ ، وألبسكم الذلّ ؛ وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد ، وأنا خائف أنْ يحُلّ بكم العذاب وأنتم بأرضى فينالنى معكم ؛ والضيافة ثلاث ، فاطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتحلوا عن أرضى .

فأخذنا منه ما تزودنا به ، وارتحلنا عن بلده . فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته إلى الحبس .

* * *

وقد جاءنا فى بعض الروايات أنّ السفاح لما أراد أن يقتل القوم الذين انضمّوا إليه من بنى أميّة جلس يوما على سرير بهاشميّة الكوفة (١) وجاء بنوأمية وغيرهم من بنى هاشم ، والقواد والكتاب ، فأجلسهم فى دار تتصل بداره ، وبينه وبينهم سِتْرمسدول ، ثم أخرج إليهم أبا الجهم بن عطية ، وبيده كتابٌ ملصَق ، فنادى بحيث يسمعون : أين رسول الحسين ابن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؟ فلم يتكلّم أحد ، فدخل ثم خرج ثانية ، فنادى : أين رسول زيد بن علىّ بن الحسين ؟ فلم يجبه أحد ، فدخل ثم خرج ثالثة ، فنادى : أين رسول يحيى بن زيد بن على ؟ فلم يردّ أحد عليه ، فدخل ثم خرج رابعة ، فنادى : أين رسولُ إبراهيم بن محمد الإمام ؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض ، وقد أيقنوا بالشرّ ، ثم دخل وخرج ، فقال لهم : إنّ أمير المؤمنين يقول لكم : هؤلاء أهلى ولحمى ، فماذا صنعتم بهم ؟ ردّوهم إلىّ أو فأقيدونى من أنفسكم . فلم ينطقوا بحرف ، وخرجت الخراسانية بالأعمدة فشدَخوهم عن آخرهم .

* * *

(١) هاشمية الكوفة ، مدينة بناها السفاح .

قلت : وهذا المعنى مأخوذ من قول الفَضْل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن علىّ عليه السلام فى سنة اثنتين وعشرين ومائة فى خلافة هشام بن عبد الملك ؛ وذلك أنّ هشاما كتب إلى عامله بالبصرة — وهو القاسم ابن محمد الثقفىّ — أن يشخص كلّ مَنْ بالعراق من بنى هاشم إلى المدينة خوفا من خروجهم؛ وكتب إلى عامل المدينة أن يحبس قوما منهم ، وأن يعرضهم فى كلّ أسبوع مرة ، ويقيم لهم الكفلاء ؛ على ألا يخرجوا منها ، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة له طويلة :

كلّما حُدِّثوا بأرضٍ نقيقاً ... ضمّنونا السجون أو سيّرونا

أشخصونا إلى المدينة أَسْرَى ... لا كفاهمْ رَبِّى الذى يحذرونا

خلفوا أحمدَ المطهَّر فينا ... بالذى لا يحبّ ، واستضعفونا

قتّلونا بغير ذنبٍ إليهم ... قاتل الله أمّــــةً قتلونا !

ما رعَوْا حقّنا ولا حفظوا فيـ ... ـنا وَصاة الإله بالأقربينا

جعلونا أدنى عدوٍّ إليهمْ ... فهمُ فى دمائنا يَسْبَحُونا

أنكرُوا حقَّنا وجارُوا علينا ... وعَلَى غيرِ إِحْنَةٍ أبغضُونا

غيرَ أنّ النبىّ منّا وأنّا ... لم نزل فى صلاتهم راغبينا

إن دَعَوْنا إلى الهُدَى لم يجيبو ... نا ، وكانوا عن الهُدَى ناكبينا

أو أمرنا بالعُرْف لم يسمعوا منـ ... ـنّا وردّوا نصيحةَ النّاصحينا

ولقدْ مَا مارَدّ نُصحَ ذَوى الرأ ... ىِ فلم يتّبعهمُ الجاهلونا

فعسى الله أن يُديل أناسا ... مِنْ أناس فيصبحُوا ظاهرينا

فتقرّ العيون من قوم سوءٍ ... قد أخافوا وقتّلوا المؤمنينا

ليت شعرى هل تُوجِفَنّ بى الخيـلُ عليها الكماةُ مستلئمينـا(١)
من بنى هاشمٍ ومنْ كلّ حَىٍّ ينصرون الإسلام مستنصرينا
فى أناسٍ آباؤهم نصروا الدّيـنَ ، وكانوا لربّهم ناصرينا
تحكم المرهَفاتُ فى الهامِ منهم بأكفّ المعاشر الثائرينا(٢)
أين قَتْلَى منّا بَغيتمْ عليهم ثمّ قتلتموهُم ظالمينا
ارجعوا هاشماً ورُدُّوا أبا اليَقْـظان وابنَ البديل فى آخرينا
وارجعوا ذا الشهادتين وقَتْلَى أنتمُ فى قتالهمْ فاجرونا
ثم رُدُّوا حُجْراً وأصحاب حُجْرٍ يومَ أنتمْ فى قتلهمْ معتدُونا
ثم رُدُّوا أبا عُميرٍ ورُدُّوا لى رشيدا وميثماً والّذينا :
قُتِّلوا بالطّفوف يوم حُسَيْنٍ من بنى هاشم ، ورُدُّوا حسينَا
أين عمرو ؟ وأين بِشرٌ وقَتْلى معهمُ بالعراء مايدفنونا !
ارجعوا عامرا وردُّوا زُهَيْراً ثم عثمانَ ، فارجعوا عازمينا
وارجعوا الحرّ وابن قَيْنٍ وقوماً قُتِّلوا حين جاوزوا صِفّينا
وارجعوا هانئاً وردّوا إلينا مُسلماً والرواع فى آخرينا
ثم ردّوا زيداً إلينا وردّوا كلّ من قد قتلتمُ أجمعينا
لن تردّوهُم إلينا ولسنا منكمُ غيرَ ذلكمْ قابلينا

* * *

---

(١) الكماة : الشجعان : والمستلئم : لابس اللأمة ، وهى الدرع فى الحرب .
(٢) المرهفات : السيوف والهام ، الرءوس .

الأصْـلُ :

أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ ٱلْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي ٱلْخَيْرِ طَرْفُهُ ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ ٱلْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ !

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ ٱلْكَدَرِ .

عِبَادَ اللهِ ، لَا تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ ، وَلَا تَنْقَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ ؛ فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ ؛ يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ !

فَاللهَ اللهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ .

إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى ٱلْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ : ٱلْإِبْلَاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَالِاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ ، وَٱلْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ ، وَإِقَامَةُ ٱلْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا .

فَبَادِرُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ ٱلْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، وَٱنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي !

* * *

الشَّـرْحُ :

هَارَ الجرْف يهورُ هَوْراً وهئوراً فهو هائر ؛ وقالوا : « هارٍ » ، خفضوه فى موضع الرفع ، كقاضٍ ، وأرادوا « هائر » ؛ وهو مقلوب من الثلاثىّ إلى الرباعى ؛ كما قلبوا « شائك السلاح » إلى « شاكِى السلاح » . وهَوّرته ، فتهوّر وانهار ؛ أى انهدم .

وأشكيت زيدا : أزلت شكايته . والشجو : الهمّ والحزن .

وصوّح النبت ، أى جفّ أعلاه ، قال :

ولكنّ البلاد إذا اقشعرت   وصوّح نبتها رُعِىَ الْهَشِيمُ (١)

يقول عليه السلام : أشدّ العيون إدراكاً ما نفذ طرفُها فى الخير ، وأشدّ الأسماع إدراكاً ما حفظ الموعظة وقبلها .

ثم أمر الناس أن يستصبحوا ، أى يُسرجوا مصابيحهم من شعلة سراج . متّعظٍ فى نفسه واعظ لغيره ؛ وروى بالإضافة من « شعلة مصباحِ واعظ » بإضافة «مصباح» إلى « واعظ » ؛ وإنما جعله متّعظا واعظا ، لأن مَنْ لم يتّعظ فى نفسه فبعيد أن يتعظ به غيرُه ؛ وذلك لأن القبول لا يحصل منه ، والأنفس تكون نافرةً عنه ، ويكون داخلا فى حيّز قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾(٢) ، وفى قول الشاعر :

* لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ (٣) *

وعَنَى بهذا المصباح نفسَه عليه السلام .

ثم أمرهم أن يمتاحوا من عين صافية قد انتفَى عنها الكدر ، كما يروّق الشراب بالراووق فيزول عنه كدره ؛ والامتياح : نزول البئر وملء الدلاء منها ، ويكنِى بهذا أيضا عن نفسه عليه السلام .

---

(١) لأبى على البصير ، وقبله :

لَعَمْرُ أبيكَ مَا نُسِبَ المعلَّى   إلى كرمٍ وفى الدُّنيا كَرِيمُ

أمالى القالى ٢ : ٢٨٧

(٢) سورة البقرة ٤٤

(٣) لأبى الأسود الدؤلى ، وبقيته :

* عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ *

والبيت من شواهد المغنى ، وانظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٦٤ .

ثم نهاهم عن الانقياد لأهوائهم والميل إلى جهالتهم ، وقال : إنّ من يكون كذلك، فإنه على جانب جُرُفٍ متهدّم ؛ ولفظة « هارٍ » من الألفاظ القرآنية[١].

ثم قال : ومَنْ يـكون كذلك ، فهو أيضا ينقل الهلاك على ظهره من موضع إلى موضع ؛ ليُحدِث رأيا فاسدا بعد رأيٍ فاسد ، أى هو ساعٍ فى ضلال يروم أن يحتجّ لما لاسبيل إلى إثباته ، وينصر مذهبا لا انتصار له .

ثم نهاهم وحذّرهم أن يشكُوا إلى مَنْ لايزيل شِكايتهم ومَنْ لارأى له فى الدين ولا بصيرة . لينقض ماقد أبرمه الشيطان فى صدورهم لإغوائهم . ويروى : « إلى من لايشكى شجوَكم ، ومَنْ ينقض برأيه ماقد أبرم لكم » ؛ وهذه الرواية أليق ، أى لاتشكُوا إلى مَنْ لايدفع عنكم ماتشكون منه ؛ وإنما ينقض برأيه الفاسد ماقد أبرمه الحقّ والشرع لكم .

ثم ذكر أنه ليس على الإمام إلا ماقد أوضحه من الأمور الخمسة .

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله — يعنى نفسه عليه السلام — قبل أن يموت ، فيذهب العلم . وتصويح النَّبْت ، كناية عن ذلك .

ثم قال : وقبل أن تشغَلُوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استثارة العلم من معدنه واستنباطه من قرارته .

ثم أمرهم بالنّهى عن المنكر ، وأن يتناهوْا عنه قبل يَنْهَوْا عنه ؛ وقال : إنما النهىُ بعد التناهى .

---

(١) من قوله تعالى فى سورة التوبة ١٠٩ ﴿ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

وفى هذا الموضع إشكال ، وذلك أنّ لقائل أن يقول : النهى عن المنكر واجب على العدل والفاسق ، فكيف قال : « إنما أمرتم بالنهى بعد التناهى » ؛ وقد روى أنّ الحسنَ البصرىّ قال للشّعبىّ : هلّا نهيتَ عن كذا ؟ فقال : ياأبا سعيد ، إنى أكره أن أقولَ مالا أفعل . قال الحسن : غفر الله لك ! وأيّنا يقول مايفعل ! ودّ الشيطان لو ظفِر منكم بهذه فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم ينهَ عن منكر !

والجواب أنه عليه السلام لم يردْ أن وجود النهى عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهى عن المنكر ؛ وإنما أراد : أنّى لم آمركم بالنهى عن المنكر إلا بعد أن أمرتُكم بالانتهاء عن المنكر ؛ فالترتيب إنّما هو فى أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين ؛ لا فى نهيهم وتناهيهم .

فإن قلت : فلماذا قدم أمرَهم بالانتهاء على أمرهم بالنهى ؟

قلت : لأنّ إصلاح المرء نفسه أهمّ من الاعتناء بإصلاحه لغيره .

(١٠٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِى شَرَعَ ٱلْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ. وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ ؛ فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ ، وَنُوراً لِمَنِ ٱسْتَضَاءَ بِهِ ،وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ،وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبْرَةً لِمَنِ ٱتَّعَظَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ،وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ .

فَهُوَ أَبْلَجُ ٱلْمَنَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ ٱلْوَلَائِجِ ؛ مُشْرِفُ ٱلْمَنَارِ ، مُشْرِقُ ٱلْجَوَادِّ ، مُضِئُ ٱلْمَصَابِيحِ ، كَرِيمُ ٱلْمِضْمَارِ ، رَفِيعُ ٱلْغَايَةِ ، جَامِعُ ٱلْحَلْبَةِ ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ ، شَرِيفُ ٱلْفُرْسَانِ .

التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ ، وَٱلْمَوْتُ غَايَتُهُ ،وَٱلدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، وَٱلْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ ، وَٱلْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ .

* * *

الشرح :

هـذا باب من الخطابة شريف ؛ وذلك لأنه ناط بكلّ واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها لو نيطَتْ بغيرها لما انطبقت عليها،ولا استقرّت فى قرارها ؛ ألا تراه قال: « أمنا لمنْ عَلِقه » ! فالأمنُ مرتّب على الاعتلاق ؛ وكذلك فى سائر الفقر كالسلْم المرتّب على الدخول،والبرهان المرتّب على الـكلام؛والشاهد المرتّب على الخصام،والنّور المرتّب

على الاستضاءة . . . إلى آخرها ؛ ألا ترى أنه لو قال : « وبرهانا لمن دخله ، ونورا لمن خاصم عنه ، وشاهدا لمن استضاء به » ، لـكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها ، فـكان قد خرج عن قانون الخطابة ، ودخل فى عَيْب ظاهر !

وتوسّم : تفرّس . والولائج : جمع وليجة ، وهو المدخل إلى الوادى وغيره .

والجُنّة : التّرس . وأبلج المناهج : معروف الطريق .

والحَلْبة : الخيل المجموعة للمسابقة .

والمِضْمار : موضع تضمير الخيل ، وزمان تضميرها . والغاية : الراية المنصوبة ، وهو هاهنا خِرْقة تجعل على قَصَبة وتنصب فى آخر المدَى الذى تنتهى إليه المسابقة ؛ كأنه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التى مضمارها كريم ، وغايتها رفيعة عالية ؛ وحَلْبتها جامعة حاوية ، وَسُبقتها متنافس فيها ، وَفُرسانها أشراف .

ثم وصفه بصفات أخرى ، فقال : التصديق طريقه ، والصالحات أعلامه ، والموت غايتــه ؛ أى أنّ الدنيــا سِجْن المؤمن ، وبالموت يخلُص من ذلك السجن ؛ ويحظى بالسعادة الأبدية .

قال : والدنيا مضماره ، كأن الإنسان يجرى إلى غاية هى الموت ؛ وإنما جعلها مِضْمار الإسلام ، لأنّ المسلم يقْطَع دنياه لا لدنياه بل لآخرته ، فالدّنيا له كالمِضْمار للفرس إلى الغاية المعيّنة .

قال : والقيامة حلْبته ، أى ذات حلبته فحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ﴾ أى ذوو درجات .

ثم قال : والجنّة سُبقته ، أى جزاء سُبقته ، فحذف أيضاً .

***

الأصلُ :

منها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله :

حَتَّى أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً .

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ ، وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ ؛ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَادِمِينَ ، وَلَا نَاكِبِينَ ، وَلَا نَاكِثِينَ ، وَلَا ضَالِّينَ ، وَلَا مُضِلِّينَ ، وَلَا مَفْتُونِينَ !

* * *

قال الرضىّ رحمه الله تعالى :

وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، إِلَّا أَنَّنَا كَرَّرْنَاهُ هاهنا لِمَا فِي الرِّوَايَتَيْنِ مِنَ الاخْتِلَافِ .

* * *

الشرح :

قبسا ، منصوب بالمفعولية ، أى أَوْرَى رسول الله صلى الله عليه وآله قَبَساً ،والقَبَس : شعلة من النار ، والقابس : طالب الاستصباح منها . والكلام مجاز ، والمراد الهداية فى الدين .

وعلَما ، منصوب أيضا بالمفعولية ، أى وأنا رسول الله صلى الله عليه وآله علما .

لحابس ، أى نصب لمن قد حَبَس ناقته ــ ضلالا ، فهو يخبط لا يدرى كيف يهتدى إلى المنهج ــ علما يهتدى به .

فإن قلت : فهل يجوز أن ينصب « قبسا » و « علما » على أن يكون كلّ واحد منهما حالا ، أى حتى أورى رسول الله فى حال كونه قبساً وأنار فى حال كونه علما ؟

قلت : لم أسمع « أوْرَى الزند » وإنما المسموع « وَرَى » و « ورّى » ولم يجىء « أوْرى » إلا متعديا ، أورى زيد زنده ، فإن حمل هاهنا على المتعدّى احتيج إلى حذف المفعول ، ويصير تقديره : حتى أورى رسول الله الزند حال كونه قبساً ، فيكون فيه نوع تكلّف واستهجان .

والبعيث : المبعوث . ومقسما : نصيبا ، وإن جعلتَه مصدراً جاز .

والنُّزُول : طعام الضيف . والوسيلة : مايتقرّب به ، وقد فسر قولهم فى دعاء الأذان : « اللّهم آته الوسيلة » ، بأنها درجة رفيعة فى الجنّة . والسّناء بالمد : الشرف . وزمرته : جماعته .

وخزايا : جمع خزيان ، وهو الخَجِل المستحيِي ، مثل سكران وسكارى ، وحيران وحيارى ، وغَيْران وغَيَارَى .

وناكبين ، أى عادلين عن الطريق . وناكثين ، أى ناقضين للعهد .

***

قلت : سألتُ النقيب أباجعفر رحمه الله ــ وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضع ــ فقلت له : قد وقفت على كلام الصحابة وخُطَبهم فلم أر فيها من يعظّم رسولَ الله صلى الله عليه وآله تعظيمَ هذا الرجل ، ولا يدعو كدعائه ؛ فإنا قد وقفنا من ''نهج البلاغة'' ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل ، تدلّ على إجلال عظيم ، وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله . فقال : ومن أينَ لغيره من الصحابة كلام مدوّن يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبى صلى عليه وآله ؟ وهل وُجِد لهم إلا كلماتٌ مبتدرة ، لا طائل تحتها ! ثم قال : إن عليا عليه السلام كان قوىّ الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له ، ثابت اليقين ؛ قاطعا بالأمر ، متحقّقا له ، وكان

مع ذلك يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه ، وتربيته له ، واختصاصه به من دون أصحابه . وبعد ؛ فشرفُه له ، لأنهما نفسٌ واحدة فى جسمين : الأب واحد ، والدار واحدة ، والأخلاق متناسبة ؛ فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه ، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه ، ولقد كان يودّ أنْ تطبّق دعوةُ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ؛ لأن جمال ذلك لاحقٌ به ، وعائد عليه ، فكيف لا يعظّمه ويبجّله ويجتهد فى إعلاء كلمته !

فقلت له : قد كنتُ اليوم أنا وجعفر بن مكّى الشاعر نتجاذب هذا الحديث ، فقال جعفر : لم ينصر رسولَ الله صلى الله عليه وآله أحدٌ نُصرة أبى طالب وبنيه له ، أما أبو طالب فكفّله وربّاه ، ثم حَمَاه من قريش عند إظهار الدّعوة ، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله ، وأما ابنه جعفر فهاجَر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فنشَرَ دعوته بها ، وأما علىّ فإنه أقام عماد الملّة بالمدينة ؛ ثم لم يُمْنَ أحدٌ من القتل والهوان والتشريد بما مُنِىَ به بنو أبى طالب ؛ أما جعفر فقتل يوم مؤتة ، وأما علىّ فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل ، وتمنّى الموت ، ولو تأخر قتلُ ابن ملجم له لمات أسفا وكمدا ، ثم قُتِل ابناه بالسمّ والسيف ، وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطفّ ، وحُمِلت نساؤهم على الأقتاب سَبَايَا إلى الشام ، ولقيت ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصلْب والتشريد فى البلاد والهوان والحبس والضرب مالا يحيط الوصف بكنهه ، فأىّ خير أصاب هذا البيت من نصرته ، ومحبته وتعظيمه بالقول والفعل !

فقال رحمه الله — وأصاب فيما قال — : فهلّا قلت : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) . ثم قال : وهلّا قلت له : فقد نصرتْه الأنصار ، وبذلت مُهَجَها دونه ، وقتلَتْ بين يديه فى

(١) سورة آل عمران ١٦٣

فى مواطن كثيرة ، وخصوصا يوم أُحُد ثم اهتضِمُوا بعده ، واستُؤثر عليهم ، ولقوا من المشاقّ والشدائد مايطول شرحه ؛ ولو لم يكن إلا يوم الحرّة ، فإنه اليوم الذى لم يكن فى العرب مثله ، ولا أصيب قوم قطّ بمثل ماأصيب به الأنصار ذلك اليوم !

ثم قال : إن الله تعالى زَوَى الدنيا عن صالحى عباده وأهل الإخلاص له ؛ لأنه لم يرها ثمنا لعبادتهم ، ولا كفؤا لإخلاصهم ، وأرجأ جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار ؛ فى مثلها يتنافس المتنافسون !

* * *

الأصْل :

منها فى خطاب أصحابه :

وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ، وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ .

وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَغْضَبُونَ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ، وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ. وَايْمُ اللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ !

* * *

الشَّرْح :

هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية ؛ التى كان

يُغير بها على أطراف أعمال علىّ عليه السلام كالأنبار وغيرها ؛ مما تقدّم ذكرنا له ؛ قال لهم : إنّ الله أكرمكم بالإسلام بعد أن كنتم مجوسا أو عبّاد أصنام ، وبلغتم من كرامته إياكم بالإسلام منزلة عظيمة ؛ أكرِم بها إماؤكم وعبيدكم ؛ ومن كان مَظِنّة المِهْنة والمذلّة .

ووصل بها جيرانكم ، أى مَنْ التجأ إليكم من مُعاهَدٍ أو ذِمىّ ؛ فإنّ الله تعالى حفظ لهم ذمام المجاورة لكم ؛ حتى عصمَ دماءهم وأموالهم ، وصرتم إلى حال يعظّمكم بها مَنْ لافضل لكم عليه ، ولا نعمة لكم عنده ؛ كالروم والحبشة ، فإنهم عَظّموا مسلمى العرب لتقمّصهم لباس الإسلام والدين ، ولزومهم ناموسه ، وإظهارهم شعاره .

ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ، ولا لكم عليه إمرة ؛ كالملوك الذين فى أقاصى البلاد ؛ نحو الهند والصين وأمثالها ؛ وذلك لأنهم هابوا دولة الإسلام ؛ وإن لم يخافوا سطوة سيفها ؛ لأنه شاع وذاع أنهم قوم صالحون ؛ إذا دعوا الله استجاب لهم ؛ وأنهم يقهرون الأمم بالنصر السماوىّ وبالملائكة ؛ لا بسيوفهم ولا بأيديهم . قيل : إنّ العرب لما عبرت دِجْلة إلى القصر الأبيض الشرقىّ بالمدائن عبرتها فى أيام مَدّها ، وهى كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها ، ولا دروع عليها ولا بَيْض ؛ فهربت الفرس بعد رَمْى شديد منها للعرب بالسهام ؛ وهم يقدمون ويحملون ؛ ولا تهولهم السهام ؛ فقال فلاح نَبَطىّ ، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لأُسْوارٍ من الأساورة معروف بالبأس وجَوْدة الرماية : ويلكم ! أمثلُكم فى سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين ! ولذعه باللّوم والتعنيف . فقال له : أقم مِسْحاتك ، فأقامها فرماها ، فخرق الحديد حتى عبر النّصل إلى جانبها الآخر ، ثم قال : انظر الآن ، ثم رمى بعضَ العرب المارّين عليه عشرين سهما لم يُصِبْه ولا فرسه منها بسهم واحد ؛ وإنه لقريب منه غير بعيد . ولقد كان بعضُ السهام يسقط بين يدى الأُسوار ، فقال له بالفارسية : أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم ! قال : نعم .

ثم قال عليه السلام : مالكم لاتغضبون ، وأنتم ترون عهود الله منقوضة ! وإنّ من العجب أن يغضب الإنسان ويأنف من نقض عهد أبيه ، ولا يغضب ولا يأنف لنقض عهود إلهه وخالقه!

ثم قال لهم : كانت الأحكام الشرعية إليكم تردُ منّي ومن تعليمي إياكم ، وتثقيفي لكم ، ثم تصدُر عنكم إلى مَنْ تعلّمونه إياها من أتْباعكم وتلامذتكم ، ثم يرجع إليكم بأنْ يتعلّمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الأتباع والتلامذة ؛ففررتم من الزّحف لما أغارت جيوش الشام عليكم ، وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم ، ومكّنتم الظلَمة من منزلتكم ؛ حتى حكّموا فى دين الله بأهوائهم ، وعَمِلوا بالشُّبْهة لا بالحجّة ، واتسعوا فى شهواتهم ومآرب أنفسهم .

ثم أقسم بالله : إنّ أهل الشام لو فرّقوكم تحت كل كوكب ليجمعنّكم الله ليوم ، وهو شرّ يوم لهم ؛ وكني بذلك عن ظهور المسوّدة وانتقامها من أهل الشام وبنى أمية ، وكانت المسوّدة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية .

(١٠٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى بعض أيام صفين :

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ .

وَلَقَدْ شَفَا وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ ، تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ ؛ حَسًّا بِالنِّصَالِ ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ ؛ تَرْكَبُ أُولَاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ ؛ تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا ؛ وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا !

* * *

الشرح :

جولتكم : هزيمتكم . فأجمل فى اللفظ ، وكنّى عن اللفظ المنفّر ، عادلًا عنه إلى لفظ لاتنفير فيه ، كما قال تعالى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾(١) ، قالوا : هو كناية عن إتيان الغائط ، وإجمال فى اللفظ .

وكذلك قوله : « وانحيازكم عن صفوفكم » كناية عن الهرب أيضا ؛ وهو من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾(٢) .

---

(١) سورة الفرقان ٧

(٢) سورة الأنفال ١٦

وهذا باب من أبواب البيان لطيف ؛ وهو حُسْن التوصّل بإيراد كلام غير مزعج ؛ عوضا عن لفظ يتضمّن جَبْهاً وتقريعا .

وتحوزكم : تعدل بكم عن مراكزكم . والجفاة : جمع جافٍ ؛ وهو الفَدْم الغايظ . والطّغام : الأوغاد . واللهاميم : جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل ، قال الشاعر :

لا تحسبنَّ بياضاً فىَّ منقصــــةً إنّ اللهاميم فى أقرابها بَلَقُ[(١)]

واليآفيخ : جمع يافُوخ وهو معظم الشيء، تقول : قد ذهب يافوخ الليل ، أى أكثره، ويجوز أن يريد به اليافوخ، وهو أعلى الرأس ، وجمعه يآفيخ أيضا . وأفخْتُ الرجُلَ: ضربت يافوخَه ، وهـذا ألْيَق ، لأنه ذكر بعـده الأنف والسنام ، فحَمْل اليـافوخ على العضو إذاً أشبه .

والوحاوح : الحرق والحزازات ولقيته بأخَرة على « فَعَلة » أى أخيرا .

والحَسّ القتل ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾[(٢)] .

وشجرت زيدا بالرمح : طعنته ، والتأنيث فى « أولاهم » و« وأخراهم » للكتائب .

والهيم : العطاش . وتذاد تصدّ وتمنع ، وقد روى : « الطغاة » عوض « الطغام » .

وروى « حشأ » بالهمز من حشأت الرجل أى أصبت حشاه .

وروى « بالنضال » بالضاد المعجمة ، وهو المناضلة والمراماة .

وقد ذكرنا نحن هـذا الكلام فيما اقتصصناه من أخبار صِفِّين فيما تقـدم من هذا الكتاب .

---

(١) اللسان ١٦ : ٢٩ ، من غير نسبة .
(٢) سورة آل عمران ١٥٢

(١٠٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام ، وهى من خطب الملاحم :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الْمُتَجَلِّى لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ؛ إِذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِذَوِى الضَّمَائِرِ ؛ وَلَيْسَ بِذِى ضَمِيرٍ فِى نَفْسِهِ . خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ .

* * *

الشَّرْحُ :

الملاحم : جمع ملحمة ؛ وهى الوقعة العظيمة فى الحرب ؛ ولما كانت دلائل إثبات الصانع ظاهرة ظهور الشمس ؛ وصفه عليه السلام بكونه ظهر وتجلى لخلقه ، ودلّهم عليه بخلقه إياهم وإيجاده لهم .

ثم أكد ذلك بقوله : « والظاهر لقلوبهم بحجته » ولم يقل « لعيونهم » لأنه غير مرئىّ ؛ ولكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الحجج الدالة عليه .

ثم نفى عنه الرويّة والفكر والتمثيل بين خاطرين ؛ ليعمل على أحدها ، لأن ذلك إنما يكون لأرباب الضمائر والقلوب أولى النوازع المختلفة والبواعث المتضادّة .

ثم وصفه بأنّ علمه محيط بالظاهر والباطن والماضى والمستقبل ، فقال : إنّ علمه خرق باطن الغيوب المستورة ، وأحاط بالغامض من عقائد السرائر .

* * *

منها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَمِشْكَاةِ ٱلضِّيَاءِ ، وَذُؤَابَةِ ٱلْعَلْيَاءِ ، وَسُرَّةِ ٱلْبَطْحَاءِ ، وَمَصَابِيحِ ٱلظُّلْمَةِ ، وَيَنَابِيعِ ٱلْحِكْمَةِ .

* * *

الشّرح

شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام ، لأنّ أكثر الأنبياء منهم : والمشكاة : كوّة غير نافذة ؛ يجعل فيها المصباح . والذؤابة . طائفة من شعر الرأس ، وسرّة البطحاء : وسطها ، وبنو كعب بن لؤىّ يفخرون على بنى عامر بن لؤىّ بأنهم سكنوا البطاح ، وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكّة ، وسكن معها بنو فهر بن مالك ، رهط أبى عبيدة ابن الجرّاح وغيره ، قال الشاعر :

فَحَلَلْتَ منها بالبطـــا ح وحَلّ غـــيرُكَ بالظواهِرْ

وقال طريح بن إسماعيل :

أنت ابنُ مُسْلَنطِحِ البطاحِ ولم تُطْرَقْ عليك الْحِنِىّ والوُلُجُ[1]

وقال بعض الطالبيّين :

وأنا ابن مُعتلِج البطاح إذا غدا غيرى ، وراح على متون ظواهِرِ

---

(١) قيل فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان من أخواله. الحنىّ : ما انخفض من الأرض ، والولج : ما اتسع من الأودية ؛ أى لم تسكن بينهما فيختفى حسبك ، والبيت فى معجم البلدان ٢ : ٢١٤ .

يفترّ عنىّ ركنها وحطيمها كالجَفْن يُفتح عن سواد الناظِر
كجبالِها شَرَفِي، ومثل سهولها خُلُقِي، ومثل ظبائهنّ مجاورِي

* * *

الأصْلُ :

ومنها :

طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ ؛ يَضَعُ ذٰلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ؛ مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

إنّما قال : « دَوّار بطبّة » ، لأنّ الطبيب الدّوار أكثر تجربة ، أو يكون عَنَى به أنّه يدور عَلَى مَنْ يعالجه ؛ لأنّ الصالحين يدورون على مرضى القلوب ، فيعالجونهم ويقال : إن المسيح رُئِيَ خارجا من بيت مومسة ، فقيل له : ياسيدنا ، أمثلك يكون هاهنا ! فقال : إنما يأتي الطبيبُ المرضى .

والمراهم : الأدوية المركّبة للجراحات والقروح . والمواسم : حدائِدُ يُوسَم بها الخيل وغيرها .

ثم ذكر أنّه إنما يعالج بذلك مَنْ يحتاج إليه ؛ وهم أولو القلوب العُمْى ، والآذان الصمّ ، والألسنة البكم ، أى الخرس . وهذا تقسيم صحيح حاصر ، لأن الضلال ومخالفة

الحقّ يكون بثلاثة أمور : إما بجهل القلب ، أو بعدم سماع المواعظ والحجج ، أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر ، فهذه أصول الضلال ؛ وأما أفعال المعاصي ففروع عليها .

[فصل فى التقسيم وما ورد فيه من الكلام]

وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾(١). وهذه قسمةٌ صحيحة ، لأن المكلّفين : إما كافر ، أو مؤمن ، أو ذو المنزلة بين المنزلتين ، هكذا قسم أصحابنا الآيةَ على مذهبهم فى الوعيد .

وغيرهم يقول : العباد إمّا عاص ظالم لنفسه ، أو مطيعٌ مبادرٌ إلى الخير ، أو مقتصد بينهما .

ومن التقسيم أيضا قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۞ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾(٢) ومثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾(٣)، لأنّ الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع .

ووقف سائل على مجلس الحسن البصريّ ، فقال : رحم الله عبدا أعطى من سَعَة ، أو واسَى من كفاف ، أو آثرَ مِنْ قِلّةٍ ! فقال الحسن : لم تترك لأحدٍ عذراً .

---

(١) سورة فاطر ٣٢
(٢) سورة الواقعة ٧ — ١٠
(٣) سورة الرعد ١٢

ومن التقسيمات الفاسدة فى الشعر قول البحترى :

ذَاكَ وَادى الأَرَاكِ فَاحْبِسْ قَلِيلًا   مُقْصِراً فى مَلَامَةٍ أَوْ مُطِيلَا (١)

قِفْ مَشُوقاً، أومُسْعِداً ، أوحزينا   أو معينا ، أو عاذراً ، أو عذولا

فالتقسيم فى البيت الأول صحيح ، وفى الثانى غير صحيح، لأنَّ المشوق يكون حزينا ، والمسعد يكون معينا ؛ فكذلك يكون عاذرا ، ويكون مشوقا ، ويكون حزينا .

وقد وقع المتنبى فى مثل ذلك ، فقال :

فافخر ، فإنّ الناس فيك ثلاثة   مستعظِمٌ أو حاسدٌ أو جاهلُ (٢)

فإن المستعظم يكون حاسدا ، والحاسد يكون مستعظما .

ومن الأبيات التى ليس تقسيمها بصحيح ، ما ورد فى شعر الحماسة :

وأنتَ امرؤ إمّا ائتمنتُك خالياً   فخنتَ ، وإما قلت قولا بلا عِلْمِ (٣)

فأنتَ من الأمر الذى قد أتيته   بمنزلةٍ بين الخيانة والإثم

وذلك لأنّ الخيانة أخصّ من الإثم، والإثم شامل لها، لأنه أعمّ منها، فقد دخل أحد القسمين فى الآخر . ويمكن أنْ يعتذر له ، فيقال : عَنَى بالإثم الكذبَ نفسه ، وكذلك هو المعنىّ أيضا بقوله : « قولا بلا علم »، كأنه قال له : إما أن أكون أفشيت سرى إليك فخنتنى ، أو لم أفش فكذبت عَلى ، فأنت فيما أتيتَ بين أن تكونَ خائنا أو كاذبا .

ومما جاء من ذلك فى النثر قول بعضهم : « من جريحٍ مضرّجٍ بدمائه، أو هارب لا يلتفت إلى ورائه » ، وذلك أنّ الجريح قد يكون هاربا ، والهارب قد يكون جريحا .

وقد أجاد البحترى لما قسّم هذا المعنى ، وقال :

---

(١) ديوانه ٢ : ٢١٠

(٢) ديوانه ٣ : ٢٥٩

(٣) لعبد الله بن همام السلولى ، حماسة أبى تمام بشرح المرزوقى ٣ : ١١٣٩

غادرتهمْ أيدى المنيّة صُبْحاً ... للقَنا بين رُكَّعٍ وسجودِ

فهمُ فرقتانِ : بين قتيـــل ... قبضت نفسُه بحـدّ الحديدِ

أو أسيرٍ غـــدا له السجن لَحْداً ... فهو حىٌّ فى حالة الملحودِ

فرقة للسيوف ينفـذ فيهـــا الـ ... ـحُكْمُ قَسْراً وفرقةٌ للقيود

ومن ذلك قول بعض الأعراب: النِّعم ثلاث: نعمة فى حال كونها، ونعمة ترجَى مستقبَلة، ونعمة تأتى غير محتَسبة ، فأبقى اللهُ عليك ماأنتَ فيه ، وحقّق ظنّك فيما ترتجيه ، وتفضّل عليك بما لم تحتسبه. وذلك أنه أغفل النعمة الماضية . وأيضافإنّ النعمةَ التى تأتى غَير محتَسبة داخلة فى قِسْم النعمة المستقبَلة .

وقد صحح القسمة أبو تمام ، فقال :

جُمعتْ لنا فِرَقُ الأمانى منكمُ ... بأبرَّ من رُوح الحياة وأوصلِ[(1)]

كالمُزن من ماضى الرّباب ومقبِلٍ ... متنظَّرٍ ومخيِّمٍ متهلل

فصنيعةٌ فى يومها وصنيعةٌ ... قد أحولَتْ ، وصنيعةٌ لم تحولِ

***

فإنْ قلت : فإن ما عِبتَ به فساد التقسيم على البحترىّ والمتنبى يَلزمك مثله فيما شرحته ، لأنّ الأعمى القلب قد يكون أبكم اللسان ، أصمّ السمع .

قلت : إن الشاعرين ذكرا التقسيم بـ «أوْ» ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام قسّم بالواو والواو للجمع ، فغيرُ منكَرٍ أنْ تجتمع الأقسام الوحد ، أو أن تعطى معنى الانفرادفقط ، فافترق الموضعان .

***

(١) ديوانه ٣ : ٥١ ، وهناك البيت الثالث قبل الثانى .

الأصل :

لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ ؛ فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ ؛ قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ؛ وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا ، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا .

مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلَا أَرْوَاحٍ ، وَأَرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحٍ ، وَنُسَّاكاً بِلَا صَلَاحٍ ، وَتُجَّاراً بِلَا أَرْبَاحٍ ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً ، وَشُهُوداً غُيَّباً ، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ !

* * *

الشرح :

انجابت : انكشفت . والمحجّة : الطريق . والخابط : السائر على غير سبيل واضحة . وأسفرت الساعة : أضاءت وأشرقت ، وعن متعلقة بمحذوف ، وتقديره : كاشفة عن وجهها .

والمتوسّم : المتفرّس . أشباحا بلا أرواح ، أى أشخاصا لا أرواح لها ولا عقول ، وأرواحا بلا أشباح ؛ يمكن أن يريد به الخفة والطيش ، تشبيها بروح بلا جسد . ويمكن أن يعنى به نقصهم ، لأن الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الاعمال والتحريك اللذين كانا من فعلها حيث كانت تدبر الجسد .

ونسّاكا بلا صلاح : نسبهم إلى النفاق . وتجارا بلا أرباح : نسبهم إلى الرياء وإيقاع الأعمال على غير وجهها .

ثم وصفهم بالأمور المتضادة ظاهرا ، وهى مجتمعة فى الحقيقة ، فقال : أيقاظا نوّما ،

لأنهم أولو يقظة ؛ وهم غفول عن الحق كالنيام ، وكذلك باقيها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (١) .

* * *

الأصْلُ :

رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا ، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا ، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا ، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ ٱلْمِلَّةِ ، قَائِمٌ عَلَى ٱلضِّلَّةِ ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ ٱلْقِدْرِ ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ ٱلْعِكْمِ ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ ٱلْأَدِيمِ ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ ٱلْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ ٱلْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ ٱسْتِخْلَاصَ ٱلطَّيْرِ ٱلْحَبَّةَ ٱلْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ ٱلْحَبِّ .

* * *

الشرح

هذا كلام منقطع عمّا قبله ، لأن الشريف الرضيّ رحمه الله كان يلتقط الفصول التى فى الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرُها ، ويتخطّى ما قبلها وما بعدها ، وهو عليه السلام يذكر هاهنا مايحدُث فى آخر الزمان من الفتن ، كظهور السّفيانيّ وغيره .

والقطب فى قوله عليه السلام : « قامت على قطبها » : الرئيس الذى عليه يدور أمرُ الجيش . والشّعْب : القبيلة العظيمة ، وليس التفرّق للراية نفسها ، بل لنصّارها وأصحابها ، فحذف المضاف ، ومعنى تفرّقهم ، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة المخصوصة فى بلاد متفرقة ، أى تفرق ذلك الجمع العظيم فى الأقطار ، داعين إلى أمر واحد . ويروى « بشُعَبها » جمع شُعْبَة .

---

(١) سورة الحج ٤٦ .

وتقدير : « تكيلكم بصاعها » تكيل لكم ، فحذف اللام ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾(١) ، أى كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ؛ والمعنى تحملكم على دينها ودعوتها ، وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها . ويجوز أن يريد بقوله : « تكيلكم بصاعها » يقهركم أربابها على الدخول فى أمرهم ، ويتلاعبون بكم ، ويرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كيّال البُرّ به إذا كاله بصاعه .

وتخبطكم بباعها : تظلمكم وتعسفكم ، قائدها ليس على ملّة الإسلام بل مقيم على الضلالة ، يقال : ضلّةً لك ، وإنه ليلومنى ضَلَّةً ، إذا لم يوفّق الرشاد فى عَذَله .

والثفالة : ماثفل فى القِدْر من الطبيخ . والنُّفاضة : ماسقط من الشىء المنفوض .

والعِكْم : العِدْل ، والعِكْم أيضاً نمطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتها .

وعركت الشىء : دلكته بقوة . والحصيد : الزرع المحصود .

ومعنى استخلاص الفتنة المؤمن أنها تخصّه بنكايتها وأذاها ؛ كما قيل : المؤمن مُلَقّى والكافر موقّى ، وفى الخبر المرفوع : « آفات الدنيا أسرعُ إلى المؤمن من النار فى يَبيس العَرْفَج » .

* * *

الأَصْلُ :

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ ، وَتَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ ، وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ! فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ . فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ .

---

(١) سورة المطففين ٣

وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ ؛ فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ .

* * *

الشرح :

الغياهب : الظلمات ، الواحد غَيْهب . وتتيه بكم : تجعلكم تائهين ، عدّى الفعل اللازم بحرف الجرّ ، كما تقول فى ذهب : ذهبت به . والتائه : المتحير .

والكواذب هاهنا : الأمانىّ ، فحذف الموصوف وأبقى الصفة كقوله :

* إلاّ بكّفَىْ كان منْ أرْمَى البشر *

أى بكّفَىْ غلام هذه صفته .

وقوله : « ولكل أجل كتاب » أظنه منقطعا أيضاً عن الأول مثل الفصل الذى تقدم ؛ وقد كان قبله ما ينطبق عليه ويلتئم معه لا محالة . ويمكن على بعد أن يكون متصلا بما هو مذكور هاهنا .

وقوله « ولكل غيبة إياب » قد قاله عَبِيد بن الأبرص ، واستثنى من العموم الموت ، فقال :

وكلُّ ذى غَيْبَةٍ يئوبُ وغائب الموت لا يئوبُ (١)

وهو رأى زنادقة العرب ؛ فأمّا أمير المؤمنين ، وهو ثانى صاحب الشريعة التى جاءت بعوْد الموتى ، فإنه لا يستثنى ، ويحقّق عبيدا فى استثنائه .

والربانىّ : الذى أمرهم بالاستماع منه ؛ إنما يعنى به نفسه عليه السلام ، ويقال : رجل

---

(١) ديوانه ١٣

ربانىّ أى متألّه عارف بالربّ سبحانه . وفى وصف الحسَن لأمير المؤمنين عليه السلام : «كان والله ربانىّ هذه الأمة وذا فضلها ، وذا قرابتها ، وذا سابقتها » .

ثم قال : وأحضروه قلوبكم ، أى اجعلوا قلوبكم حاضرةً عنده ، أى لا تقنعوا لأنفسكم بحضور الأجساد وغيبة القلوب ، فإنكم لا تنتفعون بذلك : وهتف بكم : صاح ، والرائد : الذى يتقدّم المنتجعين لينظر لهم الماء والكلأ . وفى المثل : الرائد لا يكذب أهله .

وقوله : « وليجمع شمله » أى وليجمع عزائمه وأفكاره لينظر ؛ فقد فلَق هذا الربانىّ لكم الأمر ، أى شقّ ما كان مبهماً ، وفتح ما كان مغلقا ، كما تفلق الخرزة فيعرف باطنها .

وقرَفه ، أى قشره ، كما تقشر الصمغة عن عود الشجرة ، وتقلع .

* * *

الأصلُ :

فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ ٱلْبَاطِلُ مَآخِذَهُ ، وَرَكِبَ ٱلْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ ؛ وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ ٱلسَّبُعِ ٱلْعَقُورِ ، وَهَدَرَ فَنِيقُ ٱلْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى ٱلْفُجُورِ ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى ٱلْكَذِبِ ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ ٱلْوَلَدُ غَيْظاً ؛ وَالْمَطَرُ قَيْظاً ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً ، وَتَغِيضُ ٱلْكِرَامُ غَيْضاً ، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً ، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً ، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً ، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً ، وَغَارَ ٱلصِّدْقُ ، وَفَاضَ ٱلْكَذِبُ ، وَٱسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِٱلْقُلُوبِ ، وَصَارَ ٱلْفُسُوقُ نَسَباً ، وَٱلْعَفَافُ عَجَباً ، وَلُبِسَ الإِسْلَامُ لُبْسَ ٱلْفَرْوِ مَقْلُوباً .

* * *

الشرح :

تقول : أخذ الباطل مأخذه ، كما تقول عمل عمله ؛ أى قوى سلطانه وقهر ؛ ومثله « ركب الجهل مراكبه » .

وعظمت الطاغية ، أى الطغيان ، فاعلة بمعنى المصدر ، كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾[1] ، أى تكذيب، ويجوز أن تكون الطاغية هاهنا صفة فاعل محذوف ، أى عظمت الفئة الطاغية . وقلت الداعية مثله ، أى الفرقة الداعية .

وصال : حمل ووثب ، صَوْلا وصَوْلَةً ، يقال : ربّ قول أشدُّ من صَوْل، والصِّيال والمصاولة هى المواثبة ، صايله صِيالا وصيالةً ، والفحلان يتصاولان ، أى يتواثبان .

والفنيق : فحل الإبل . وهدَرَ : ردّد صوته فى حَنْجَرته ، وإبل هوادر ؛ وكذلك هدّر بالتشديد تهديرا ، وفى المثل : « هو كالمهدر فى العُنّة » يضرب للرجل يصيح ويجلب وليس وراء ذلك شيء كالبعير الذى يُحبَس فى العنّة ؛ وهى الحظيرة ، ويمنع من الضِّراب ، وهو يهدر ، وقال الوليد بن عقبة لمعاوية :

قَطَمْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِمِ المعنّى تهـدّر فى دمشقَ ولا تَرِيمُ[2]

والكظوم : الإمساك والسكوت ، كَظَم البعير يكظِم كظوما ، إذا أمسك الجِرّة ؛ وهو كاظم ، وإبل كُظُوم لا تجترّ ، وقوم كُظَّم ساكتون .

وتواخى الناس : صاروا إخوة ، والأصل تآخى الناس ، فأبدلت الهمزة واوا ، كآزرته أى أعنته ، ووازرته .

يقول : اصطلحوا على الفجور ، وتهاجروا على الدين ، أى تعادَوْا وتقاطعوا .

فإن قلت : فإنّ من شعار الصالحين أن يهجُروا فى الدين ويعادوا فيه !

(١) سورة الواقعة ٢

(٢) اللسان ١٥ : ١٧٦ ، وقال : « السدم الذى يرغب عن فحلته ، فيحال بينه وبين ألافه ، ويقيد إذا هاج ، فيرعى حوالى الدار » .

قلت : لم يذهب أميرُ المؤمنين حيث ظنَنْت ، وإنما أراد أنّ صاحب الدين مهجور عندهم ، لأنّ صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جارٍ عندهم مجرى الأخ فى الحنوّ عليه؛ والحبّ له ، لأنه صاحب فجور .

ثم قال : « كان الولد غيظاً » ، أى لكثرة عقوق الأبناء للآباء ، « وصار المطر قيظا » يقال إنه من علامات الساعة وأشراطها .

وأوساطُه أَكَالًا ؛ أى طعاماً ، يقال: ماذقتُ أَكالا ؛ وفى هذا الموضع إشكال ؛ لأنه لم يُنقل هذا الحرف إلا فى الجَحْد خاصة ، كقولهم: مابها صافر ، فالأجود الرواية الأخرى؛ وهى « آكالا » بمد الهمزة على «أفعال» جمع أُكْل؛ وهو ما أُكِل ، كقُفْل وأقفال . وقد روى « أُكالاً » بضم الهمزة على « فُعال» ؛ وقالوا : إنه جمع « أُكل » المأكول كعِرْق وعُراق ، وظِئْر وظُؤار ، إلا أنه شاذّ عن القياس، ووزن واحدها مخالف لوزن واحد « أُكال » لو كان جمعا ، يقول: صار أوساط الناس طُعْمة للولاة وأصحاب السلاطين، وكالفريسة للأسد .

وغار الماء : سفل لنقصه ، وفاض : سال .

وتشاجر الناس : تنازَعُوا وهى المشاجرة ، وشَجَر بين القوم ؛ إذا اختلف الأمر بينهم ، واشتجروا ؛ مثل تشاجروا .

وصار الفسوق نسبا يصير الفاسق صديق الفاسق ؛ حتى يكون ذلك كالنسب بينهم؛ وحتى يعجب الناس من العفاف ؛ لقلّته وعدمه .

ولَبِس الإسلام لبس الفرو ؛ وللعرب عادة بذلك ؛ وهى أن تجعل الخَمْل إلى الجسد؛ وتظهر الجلد ؛ والمراد انعكاس الأحكام الإسلامية فى ذلك الزمان .

(١٠٨)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ ؛ غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ .

مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ .

لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ ؛ بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ .

لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ* ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ .

كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ .

أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ .

بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ .

سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ ! وَمَا أَصْغَرَ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ ! وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ !

* * *

الشرح :

قال : كلّ شيء خاضع لعظمة الله سبحانه ، وكلّ شيء قائم به ، وهذه هي صفته الخاصة ، أعني كونَه غنيا عن كلّ شيء ، ولا شيء من الأشياء يغنى عنه أصلا .

ثم قال : «غنى كلّ فقير ، وعز كلّ ذليل ، وقوة كلّ ضعيف ، ومفزع كلّ ملهوف».
جاء في الأثر : من اعتزّ بغير الله ذَلّ ، ومن تكثَّر بغير الله قَلّ ؛ وكان يقال : ليس فقيرا من استغنى بالله . وقال الحسن : واعجباً للوط نبيّ الله ! قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) ، أتراه أراد ركنا أشدّ وأقوى من الله !

واستدلّ العلماء على ثبوت الصانع سبحانه بما دلّ عليه فحوى قوله عليه السلام : « ومفزع كلّ ملهوف » ، وذلك أنّ النفوس ببدائهها تفزع عند الشدائد والخطوب الطارقة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها ، ألا ترى راكبي السفينة عند تلاطم الأمواج، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطرارا لا اختيارا ، فدلّ ذلك على أنّ العلم به مركوز في النفس ؛ قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٢) .

ثم قال عليه السلام : « من تكلّم سَمِعَ نطقه ، ومَنْ سكت علم سرّه » ، يعنى أنه يعلم ما ظهر وما بطن .

ثم قال : « ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبُه » ، أى هو مدّبر الدنيا والآخرة ، والحاكم فيهما .

ثم انتقل عن الغيبة إلى الخطاب ، فقال « لم ترك العيون » .

---

(١) سورة هود ٨٠
(٢) سورة الإسراء ٦٧

[فصل فى الكلام على الالتفات]

واعلم أنّ باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبيرٌ من أبواب علم البيان، وأكثر مايقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلّم بذلك المعنى المنتقل إليه، كقوله سبحانه: ﴿ الحمد لله ربّ العالمين * الرّحمن الرحيم * مالك يَوْم الدّين ﴾ فأخبر عن غائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال: ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قالوا: لأنّ منزلة الحمد دون منزلة العبادة، فإنك تحمد نظيرَك ولا تعبده، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضر يخاطب بالكاف؛ لأنّ كاف الخطاب أشدّ تصريحا به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة. قالوا: ولما انتهى إلى آخر السورة، قال: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر، وقال فى الغضب: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، فأسنده إلى فاعل غير مسمّى ولا معيّن، وهو أحسن من أن يكون قال: « لم تغضب عليهم »، وفى النعمة: « الذين أنعم عليهم ».

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ فأخبر بـ « قالوا » عن غائبين، ثم قال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ (١)، فأتى بلفظ الخطاب استعظاما للأمر كالمنكر على قوم حاضرين عنده.

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. ﴾ (٢) الآية.

* * *

(١) سورة مريم ٨٨، ٨٩

(٢) سورة يونس ٢٢

وفائدة ذلك أنّه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنّه يعدّد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بغيهم وعنادهم الحق، ويقبّح عندهم ما فعلوه، ويقول : ألا تعجبون من حالهم كيف دعونا، فلمّا رحمناهم، واستجبنا دعاءهم، عادوا إلى بغيهم! وهذه الفائدة لو كانت الآية كلّها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة.

* * *

قال عليه السلام : ما رأتك العيون فتخبر عنك، كما يخبر الإنسان عما شاهده ؛ بل أنت أزلىّ قديم موجود قبل الواصفين لك.

فإن قلت : فأىّ منافاة بين هذين الأمرين، أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه، ثم يصفونه رأى عين!

قلت : بل هاهنا منافاة ظاهرة، وذلك لأنه إذا كان قديما لم يكن جسمًا ولا عرَضا، وما ليس بجسم ولا عرَض تستحيل رؤيته، فيستحيل أن يخبرَ عنه على سبيل المشاهدة.

ثم ذكر عليه السلام أنّه لم يخلق الخلْق لاستيحاشه وتفرّده ~~ت~~ ولا استعملهم بالعبادة لنفعه ؛ وقد تقدم شرح هذا.

ثم قال : لا تطلب أحداً فيسبقك، أى يفوتك، ولا يفلتك من أخذته.

فإن قلت : أىّ فائدة فى قوله : « ولا يفلتك من أخذته »، لأن عدم الإفلات هو الأخذ، فكأنّه قال : لا يفلتك من لم يفلتك!

قلت : المراد أنّ مَنْ أخذت لا يستطيع أن يُفْلِت، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلِتُوا بحيلة من الحِيَل.

فإن قلت : أفلتَ فعل لازم، فما باله عدّاه ؟

قلت : تقدير الكلام : « لا يفلت منك » فحذف حرف الجر، كما قالوا: « استجبتك » أى استجبت لك، قال :

* فلم يستجبْه عند ذاك مجيب(١) *

وقالوا : استغفرت الله الذنوب ، أى من الذنوب ، وقال الشاعر :

أستغفرُ الله ذنبـاً لست محصيَه   ربُّ العبـاد إليه الوجهُ والعملُ

قوله عليه السلام : « ولا يردّ أمرَك مَنْ سَخِط قضاءك ، ولا يستغنى عنك مَنْ تولّى عن أمرك » ، تحتـه سر عظيم ، وهو قول أصحـابنا فى جواب قول المجْبِرة : لو وقع منّا مالا يريده لاقتضى ذلك نقصه : إنه لانقص فى ذلك ، لأنه لا يريد الطاعات منّا إرادة قَهْر وإلجاء ، ولو أرادَها إرادة قهر لوقعتْ وغلبت إرادته إرادتنا ، ولـكنّه تعالى أراد منّا أن نفعل نحن الطاعة اختيارا ، فلا يدلّ عدم وقوعها منّا على نقصه وضعفه ، كما لا يدلّ بالاتفاق بيننا وبينكم عدمُ وقوع ماأمر به على ضعفه ونقصه .

ثم قال عليه السلام : « كلّ سرّ عنـدك علانية » ، أى لا يختلف الحال عليـه فى الإحاطة بالجهر والسرّ ، لأنّه عالم لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الأمور واحدة .

ثم قال : « أنت الأبد فلا أمدَ لك » ، هـذا كلام عُلْوىّ شريف ، لا يفهمه إلا الراسخون فى العلم ، وفيه سِمَة من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لاتسبّوا الدهر ، فإن الدهر هو الله » ؛ وفى مناجاة الحـكماء لمحة منه أيضا ، وهوقولهم : « أنت الأزل السَّرْمد ، وأنت الأبد الّذى لا ينفد » ، بل قولهم : « أنت الأبد الذى لا ينفد » ، هو قوله : « أنت الأبد فلا أَمَدلك » ، بعينه ، ونحن نشرحه هاهنا على موضوع هذا الـكتاب ، فإنه كتاب أدب لا كتاب نظر ، فنقول : إن له فى العربية محملَيْن : أحدهما أنّ المراد به : أنت ذو الأبد ، كما قالوا : رجل خالٍ ، أى ذو خالٍ ؛ والخال الْخُيَلاء ، ورجل داء ، أى به داء ، ورجل

---

(١) صدره :

* وَدَاعٍ دَعَا يَامَنْ يُجِيبُ إلَى النَّدَى *

أمالى القالى ٢ : ١٥١ ، من قصيدة لـكعب بن سعد الغنوى يرثى بها أبا المغوار .

مال ، أى ذو مال . والمحمل الثانى ، أنه لما كان الأزل والأبد لا ينفكَّان عن وجوده سبحانه جعله عليه السلام ، كأنه أحدهما بعينه ، كقولهم : أنتِ الطلاق ؛ لما أراد المبالغة فى البينونة جعلها كأنها الطلاق نفسه ، ومثله قول الشاعر :

* فإن المندّى رِحْلَةٌ فَرُكوب (١) *

وقال أبو الفتح فى '' الدمشقيات '' استدلّ أبو علىّ على صرف « مِنًى » للموضع المخصوص ، بأنه مصدر « منى يمنى » ، قال : فقلت له : أتستدلّ بهذا على أنه مذكر ، لأن المصدر إلى التذكير ! فقال : نعم ، فقلت : فما تنكر ألّا يكون فيه دلالة عليه ، لأنه لا ينكر أن يكون مذكرا سمى به البقعة المؤنثة ، فلا ينصرف ، كامرأةٍ سميتها بحجر وجَبَل وشبع ومعى ، فقال : إنما ذهبت إلى ذلك ، لأنه جُعِل كأنه المصدر بعينه ، لكثرة ما يعانى فيه ذلك . فقلت : الآن نعم .

ومن هذا الباب قوله :

* فإنّما هِىَ إقْبَالٌ وإدبار (٢) *

وقوله :

* وهنّ من الإخلاف قبلك والمطلِ *

وقوله : « فلا منجى منك إلا إليك » قد أخذه الفرزدق فقال لمعاوية :

إليك فررتُ منك ومن زيادٍ ولم أحسب دَمِى لَكُماَ حلالَا (٣)

ثم استعظم واستهول خلقه الذى يراه ، وملكوته الذى يشاهده ، واستصغر واستحقر

(١) لعلقمة وصدره :

* تُرَادُ عَلَى دِمنِ الحياضِ فَإنْ تَعَفْ *

(٢) للخنساء ، ديوانها ٧٨ ، وصدره :

* تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إذَا ادَّكَرتْ *

(٣) ديوانه ٢ : ٦٠٨ .

ذلك ، بالإضافة إلى قدرته تعالى ، وإلى ماغاب عنّا من سلطانه . ثم تعجّب من سُبوغ نعمه تعالى فى الدنيا ، واستصغر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة ، وهذا حقّ لأنه لا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى .

* * *

الأصْلُ :

منها :

مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ ؛ لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلاَبَ ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الْأَرْحَامَ ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ رَيْبُ الْمَنُونِ ؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ ؛ وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ ؛ وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ؛ لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَاخَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ؛لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ؛وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ .

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً ! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً ، مَشْرَباً وَمَطْعَماً وَأَزْوَاجاً ، وَخَدَماً وقُصُوراً ، وَأَنْهَاراً وَزُرُوعاً وَثِمَاراً .

ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا ، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا ؛ وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا ، وَلاَ إِلَى مَاشَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا.أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا ، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا ؛ وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ ؛ فَهُوَ[(١)] يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ ؛قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ،وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ،فَهُوَعَبْدٌ لَهَا،وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا،حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا،وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ ،وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ؛وَهُوَيَرَى الْمَأْخُوذِينَ

(١) ساقطة من ب

عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ؛ كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ؛ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ؛ حَتَّى خَالَطَ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ؛ وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ؛ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقَبَضَ بَصَرَهُ كَمَا قَبَضَ سَمْعَهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أُوحِشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لَا يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلَا يُجِيبُ دَاعِياً، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ

مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلَا تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ، وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلَا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا، لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى.

* * *

الشَّرْحُ :

هذا موضع المثل . « فى كلّ شجرة نار، واستمجد المرْخ والعفار »، الخطب الوعظية الحسان كثيرة ؛ ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث :

محاسن أصناف المغنين جمّةٌ وماقصباتُ السَّبْق إلا لمعبد

من أراد أن يتعلّم الفصاحة والبلاغة ، ويعرف فضلَ الكلام بعضه على بعض ؛ فليتأمل هذه الخطبة ؛ فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام — عدا كلام الله ورسوله — نسبة الكواكب المنيرة الفلكيّة إلى الحجارة المظلمة الأرضية ؛ ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء ، والجلالة والرّواء ، والديباجة، وماتحدثه من الروعة والرهبة ، والمخافة والخشية؛ حتى لو تليتْ على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث والنّشور لهدّت قواه ، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده ؛ فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل

ما جزى به وليا من أوليائه ! فما أبلغ نصرته له ! تارةً بيده وسيفه ، وتارة بلسانه ونطقه ، وتارة بقلبه وفكره ! إن قيل : جهاد وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين ، وإن قيل : وعظٌ وتذكير ؛ فهو أبلغُ الواعظين والمذكّرين ، وإن قيل : فقهٌ وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين ، وإن قيل : عدل وتوحيد ، فهو إمام أهل العدل والموحّدين :

ليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالم في وَاحدِ (١)

ثم نعود إلى الشرح ، فنقول : قوله عليه السلام : « أسكنتهم سمٰواتك » ، لا يقتضي أنّ جميع الملائكة في السمٰوات ، فإنه قد ثبت أنّ الكرام الكاتبين في الأرض ؛ وإنما لم يقتض ذلك ؛ لأنّ قوله : « من ملائكة » ليس من صيغ العموم ؛ فإنه نكرة في سياق الإثبات : وقد قيل أيضا : إنّ ملائكة الأرض تعرُج إلى السماء ومسكنها بها ، ويتناوبون على أهل الأرض .

قوله : « هم أعلمُ خَلْقك بك » ، ليسَ يعني به أنّهم يعلمون من ماهيته تعالى ما لا يعلمه البشر ؛ أمّا على قول المتكلّمين فلأنّ ذاته تعالى معلومة للبشر ، والعلم لا يقبل الأشدّ والأضعف ، وأمّا على قول الحكماء ، فلأنّ ذاته تعالى غيرُ معلومة للبشر ولا الملائكة ؛ ويستحيل أن تكون معلومة لأحدٍ منهم ؛ فلم يبق وجهٌ يحمَل عليه قوله عليه السلام : « هم أعلم خلقك بك » إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته وتدبيراته ما لا يعلمه غيرهم ؛ كما يقال : وزير الملك أعلمُ بالملِك من الرعية ، ليس المراد أنه أعلم بذاته وماهيّته ، بل بأفعاله وتدبيره ومراده وغرضه .

قوله : « وأخوفهم لك » ؛ لأنّ قوّتَي الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم ، وهما منبع

---

(١) لأبي نواس ، التمثيل والمحاضرة ٨٠

الشرّ ، وبهما يقع الطمع والإقدام على المعاصى . وأيضا فإنّ منهم مَنْ يشاهد الجنّة والنار عيانا ، فيكون أخوفَ لأنّه ليس الخبر كالعيان .

قوله : « وأقربهم منك » لا يريد القربَ المكانىّ لأنه تعالى منزّه عن المكان والجهة ؛ بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل ؛ وهذا يدلّ على صحة مذهب أصحابنا فى أنّ الملائكة أفضلُ من الأنبياء .

ثم نبّه على مزيّة لهم تقتضى أفضليةَ جنسهم على جنْس البشر ؛ بمعنى الأشرفيّة ، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله « لم يسكنُوا الأصلاب ، ولم يضمَّنوا الأرحام ، ولم يخلقوا من ماء مَهِين ، ولم يتشعّبهم ريبُ المنون » ؛ وهذه خصائص أربع :

فالأولى أنّهم لم يسكنوا الأصلاب ، والبَشر سكنوا الأصلاب ، ولا شبهة أنّ ما ارتفع عن مخالطة الصورة اللحميّة والدمويّة أشرف مما خالطها ومازجها .

والثانية أنّهم لم يضمَّنُوا الأرحام ؛ ولا شبهة أنّ من لم يخرج من ذلك الموضع المستقذَر أشرفُ ممن خرج منه ؛ وكان أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن كامكاو بن يزدَجِرْد بن شهريار ؛ يفخر على أبناء الملوك بأنّه لم يخرج من بُضْع امرأة ، لأن أمّه ماتت وهى حامل به ، فشقّ بطنها عنه وأخرج ؛ قال أبو الريحان البيرونىّ فى كتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية " عن هذا الرجل : إنه كان يتيه على الناس ، وإذا شتَم أحدا ، قال : ابن البُضْع ؛ قال أبو الريحان : وأوّل مَن اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم ، وهو أول من سمّى فيهم قيصر ، لأن تفسير « قيصر » بلغتهم ، شقّ عنه ، وأيامه تاريخ ، كما أنّ أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندهم .

والثالثة أنهم لم يخلقوا من ماء مهين ، وقد نصّ القرآن العزيز على أنّه مهين ؛ وكفى ذلك فى تحقيره وضَعته ؛ فهم لا محاله أشرف ممنّ خلق منه ؛ لاسيما وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته .

والرابعة أنّهم لايتشعّبهم المنيّة ، ولا ريب أنّ من لاتتطرّق إليه الأسقام والأمراض ولا يموت ، أشرف ممن هو فى كلّ ساعة ولحظة بعرض سقام ، وبصدد موت وحمام .

* * *

واعلم أن مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء لها صورتان : إحداهما أنّ « أفضل » بمعنى كونهم أكثر ثوابا ، والأخرى كونهم أفضل بمعنى أشرف ؛ كما تقول : إنّ الفلك أفضلُ من الأرض ، أى أنّ الجوهر الذى منه جسيمة الفلك أشرفُ من الجوهر الذى منه جسميّة الأرض .

وهذه المزايا الأربع دالة على تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار الثانى .

قوله عليه السلام : « يتشعّبهم ريب المنون » ، أى يتقسّمهم ، والشَّعْب : التفريق ، ومنه قيل للمنيّة : شَعوب ، لأنها تفرّق الجماعات ، وريْب المنون : حوادث الدهر ، وأصل الرّيْب ماراب الإنسان ، أى جاءه بما يكره ، والمنون الدهر نفسه ، والمنون أيضا المنيّة ، لأنها تمنّ المدّة أى تقطعها ، والمنّ : القطع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (١) .

وقال لَبيد :

* غُبْسٌ كواسبُ لايمنّ طعامُها (٢) *

ثم ذكر أنّهم كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو عاينوا كُنْه ماخفى عليهم من البارئ تعالى لحقروا أعمالهم . وزرَوْا على أنفسهم ، أى عابوها : تقول زريت على فلان ، أى عبته وأزريت بفلان أى قصرت به .

---

(١) سورة فصلت ٨

(٢) صدره :

* لمعفّر قَهْدٍ تنازعَ شِلْوَهُ *

المعفر : الذى سحب فى العفر ؛ وهو التراب . والقهد : الأبيض . والغبس : الذئاب ، والغبسة لون فيه شبيه بالغبرة ، وكواسب : تكسب الصيد . وقوله : « مايمن طعامها » ، أى ماينقص . (المعلقات بشرح التبريزى ١٤٥) .

فإن قلت : ماهذا الكنهُ الذى خَفِىَ عن الملائكة ؛ حتى قال : « لو عاينوه لَحَقَرُوا عبادتَهم ، ولعلموا أنهم قد قصروا فيها » ؟

قلت : إنّ علوم الملائكة بالبارئ تعالى نظريّة كعلوم البشر ، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية فى الجلاء والوضوح ، فأميرُ المؤمنين عليه السلام يقول : لو كانتْ علومهم بك وبصفاتك اثباتية والسلبية والإضافية ضرورية ، عِوَض علومهم هذه المتحقّقة الآن ؛ التى هى نظرية ولانكشف لهم ماليس الآن على حدّ ذلك الكشف والوضوح . ولاشبهةَ أنّ العبادة والخدمة على قَدْر المعرفة بالمعبود ، فكلّما كان العابد به أعرفَ ، كانت عبادته له أعظَم ، ولا شبهة أنّ العظيم عند الأعظم حقير .

فإن قلت : فما معنى قوله : « واستجماع أهوائهم فيك » ، وهل الملائكة هَوًى ؟ وهل تستعمل الأهواء إلا فى الباطل ؟

قلت : الهوى : الحبُّ وميْل النفس ، وقد يكون فى باطل وحقّ ، وإنما يحمل على أحدها بالقرينة ، والأهواء تستعمل فيهما ، ومعنى استجماع أهوائهم فيه : أنّ دواعيهم إلى طاعته وخدمته لاتنازعُها الصوارف ، وكانت مجتمعة مائلة إلى شقّ واحد .

فإن قلت : الباء فى قوله : « بحسن بلائك » بماذا تتعلق ؟

قلت : الباء هاهنا للتعليل بمعنى اللام ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ ﴾[1] ، أى لأنهم ، فتكون متعلقة بما فى «سبحانك» من معنى الفعل ، أى أسبحك لحسن بلائك . ويجوز أن تتعلقّ بمعبود ، أى يعبد لذلك .

ثم قال : «خلقت دارا» يعنى الجنة . والمأدَبة والمأدُبة ، بفتح الدال وضمها : الطعام الذى يُدعَى الإنسان إليه ، أدبَ زيدٌ القومَ ، يأدِبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدب الداعى إلى طعامه ، قال طَرَفة :

---

(١) سورة غافر ٢٢ .

نَحْنُ فى فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى   لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ[١]

وفى هذا الكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة ، وهو مذهب أكثر أصحابنا .

ومعنى قوله : « وزروعا » أى وغروساً من الشجر، يقال : زرعت الشجر، كما يقال : زرعت البرّ والشعير، ويجوز أن يقال : الزروع: جمع زَرْعٍ وهو الإنبات، يقال :زرعه الله أى أنبته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[٢] . ولو قال قائل : إن فى الجنة زروعا من البرّ والقُطْنِيَّة[٣] لم يبعد .

قوله: ثم أرسلت داعيا يعنى الأنبياء. وأقبلوا على جيفة ،يعنى الدنيا، ومن كلام الحسن رضى الله عنه : إنّما يتهارشون على جيفةٍ .

وإلى قوله : « ومن عشق شيئا أعشى بصره » نظر الشاعر فقال :

وَعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ   كما أنّ عين السخط تبدى المساويا[٤]

وقيل لحكيم : مابال الناس لايرون عيب أنفسهم ، كما يرون عَيْب غيرهم ؟قال: إنّ الإنسان عاشق لنفسه ، والعاشق لا يرَى عيوب المعشوق .

قد خرقت الشهواتُ عقله ، أى أفسدته كما تخرِق الثوب فيفسد .

وإلى قوله : « فهو عبد لها ولمن فى يديه شيء منها » نظر ابن دريد ، فقال :

عَبِيدُ ذِى المالِ وإنْ لم يَطمعُوا   مِنْ ما لِهِ فى نُغْبَةٍ تَشْفِى الصَّدَا

وهم لمن أملَق أعداءٌ وإن   شاركهم فيما أفاد وحَوَى

---

(١) ديوانه ٦٨ . المشتاة : يريد الشتاء والبرد ، والجفلى : أن يعم بدعوته إلى طعام ولايخص أحدا والانتقار ، أن يدعو النقرى ، وهى أن يخصهم ولا يعمهم .

(٢) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤

(٣) القطنية : ما سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر . القاموس .

(٤) لعبد الله بن معاوية ، زهر الآداب ٨٥

وإلى قوله : « حيثما زالت زال إليها ، وحيثما أقبلت أقبل عليها » نظر الشاعر ، فقال :

ما الناس إلَّا مع الدنيا وصاحِبِها ... فكيفما انقلبتْ يوما به انقلبُوا
يعظِّمُون أخا الدنيا فإن وثبتْ ... يوما عليه بما لا يشتهى وَثَبُوا

والغِرّة: الاغترار والغَفْلة ، والغارّ : الغافل، وقد اغتررتُ بالرجل، واغترّه زيد،أى أتاه على غِرّة منه، ويجوز أن يعنى بقوله : « المأخوذين على الغرّة »الحداثة والشبيبة، يقول: كان ذلك فى غَرارتى وغرتى ، أى فى حداثتى وصِباىَ .

قوله : « سكْرة الموتِ وحسرة الفَوْت »، أى الحسرة على مافاتهم من الدنيا ولذّتها ، والحسرة على ما فاتهم من التوبة والندم واستدراك فارط المعاصى .

والولوج : الدخول ، وَلَج يلِج .

قوله . « وبقاء من لبِّه » أى لُبُّه باق لم يعدم ، ويروى« ونقاء » بالنون ، والنّقاء: النظافة ، أى لبّه غير مغمور .

أغمض فى مطالبها ، أى تساهل فى دينه فى اكتسابه إياها ، أى كان يفتى نفسَه بتأويلات ضعيفة فى استحلال تلك المطالب والمكاسب، فذاك هو الإغماض ،قال تعالى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ (١)، ويمكن أن يُحمَل على وجه آخر ، وهو أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة فى تلك المطالب حتى حصلها واكتسبها .

قوله عليه السلام : « وأخذها من مصَرّحاتها ومشتبهاتها » ، أى من وجوه مباحة وذوات شبهة ، وهذا يؤكد المحمل الأول فى « أغمض » .

والتبعات : الآثام ، الواحدة تبعة ومثلها التّباعة ، قال :

---

(١) سورة البقرة ٢٦٧ .

لم يحذَرُوا مِنْ رَبِّهِم سُوءَ العواقب والتِّباعه (١)

والمهنأ : المصدر من هَنِئ الطعام وهَنُؤ بالكسر والضم ، مثل فَقِه وفَقُه ، فإن كسرت قلت : « يهنَأ » ، وإن ضممت قلت : « يهنُؤ » ، والمصدر « هناءة » و « مهنأ » ، أى صار هنيئا ، وهنَأنى الطعام يَهْنَؤُنى » ويهنئنى — ولا نظير له فى المهموز — هَنْأً وهَنَاء ، وهنئت الطعام ، أى تهنأت به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوه هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ (٢).

والعبء : الحمل ، والجمع أعباء .

وغَلِق الرّهن ، أى استحقّه المرتهِن ، وذلك إذا لم يفْتَكَّكْ فى الوقت المشروط ، قال زهير :

وَفارَقَتْكَ برهنٍ لا فكاكَ لَهُ يوم الوَداعِ فأمْسَى الرّهْنُ قد غَلِقا (٣)

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « قد غَلِقتْ رهونُه بها » فى هذا الموضع ؟ قلت : لمّا كان قد شارفَ الرحيلَ وأشفى على الفراق ، وصارت تلك الأموال التى جمعها مستحقة لغيره ، ولم يبقَ له فيها تصرّف ، أشبهت الرّهن الذى غَلِق على صاحبه، فخرج عن كونه مستحقًّا له ، وصار مستَحقًّا لغيره وهو المرتهِن .

وأصحر : انكشف ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء والبروزُ من المكمن .

رجْع كلامهم : مايتراجعونه بينهم (٤) من الكلام . ازدادالموت التياطا به؛أى التصاقا.

قد أُوحِشُوا ، أى جعلوا مستوحشين ، والمستوحِش : المهموم الفزِع ؛ ويروى «أوْحشوا من جانبه» ، أى خلوْا منه وأقفروا ،تقول :قد أوحش المنزل من أهله،أى أقفر .

وخلا إلى مخطّ فى الأرض ، أى إلى خَطّ ، سماه مخطًا أو خطًّا لدِقّته ؛ يعنى اللّحد؛

---

(١) اللسان ٩ : ٢٨٥ ، وقبله :

أَكَلَتْ حَنِيفَةُ رَبَّهَا زَمَنَ التَّقَحُّمِ والمَجَاعَه

(٢) سورة النساء ٤ (٣) ديوانه ٣٣ (٤) ساقطة من ب .

؛ ويروى : « إلى محطّ » بالحاء المهملة ؛ وهو المنزل ، وحطّ القوم ، أى نزلوا .

وألحق آخرُ الخلق بأوله ؛ أى تساوى الكلّ فى شمول الموت والفناء لهم ، فالتحق الآخِر بالأوّل .

أماد السماء : حرّكها ، ويروى : « أمار » ؛ والمَوَرَان : الحركة . وفَطَرها : شقّها . وأرجّ الأرض : زلزلها ، تقول : رجّت الأرضُ ، وأرجّها الله ، ويجوز «رجّها» ، وقد روى «رجّ الأرضَ» بغير همزة ؛ وهو الأصحّ ، وعليه ورد القرآن : ﴿ كَلَّا إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ [1] .

أرجفها : جعلها راجفة أى مرتعدة متزلزلة ، رجفت الأرضُ ، ترجُف ، والرَّجَفان : الاضطراب الشديد ؛ وسمّى البحر رَجّافا لاضطرابه ، قال الشاعر :

* حتى تغيبَ الشَّمْسُ فى الرَّجّاف [2] *

ونسفها : قلعها من أصولها . ودكّ بعضَها بعضا : صدمه ودقّه حتى يكسره ويسوّيه بالأرض ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [3] .

ميزهم ، أى فَصَل بينهم ، فجعلهم فريقين : سعداء وأشقياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [4] ، أى انفصلوا من أهل الطاعة .

يظعَن : يرحل . تنوبُهم الأفزاع : تعاودُهم ، وتعرض لهم الأخطار : جمع خَطَر ، وهو مايشرف به على الهَلَكة .

---

(١) سورة الواقعة ٤

(٢) لمطرود بن كعب الخزاعى ، من أبيات يرثى فيها عبد المطلب ؛ أوردها صاحب اللسان ١١ : ٢٠١ وابن هشام ١ : ١١٧ (على هامش الروض الأنف) وصدره :

* الْمُطْعِمُونَ اللَّحْمَ كلَّ عَشِيَّةٍ *

(٣) سورة الحاقة ١٤

(٤) سورة يس ٥٩ .

وتُشخصهم الأسفار : تخرجهم من منزل إلى منزل ، شخص الرجلُ وأشخصه غيرُه. وغلّ الأيدى : جعلها فى الأغلال ، جمع غُلّ بالضم ؛ وهو القَيْد . والقَطِران : الهِناء ، قطرتُ البعير أى طَليته بالقَطِران ، قال :

* كَمَا قَطَرَ المهنوءَةَ الرَّجُلُ الطالى [1] *

وبعير مقطور ؛ وهذا من الألفاظ القرآنية ، قال تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [2] ؛ والمعنى أنّ النار إلى القَطِران سريعة جدا .

ومقطّعات النِّيران ، أى ثياب من النيران ، قدقطعت وفصّلت لهم ؛ وقيل :المقطّعات: قصار الثياب . والكَلَب : الشدّة . والجَلَب واللَّجَب : الصوت . والقصيف : الصوت الشديد .

لا يُقْصم كُبولها : لا يكسر قيودها ، الواحد كَبْل .

ثم ذكر أن عذابهم سرمدىّ ، وأنه لا نهاية له، نعوذ بالله من عذاب ساعة واحدة، فكيف من العذاب الأبدىّ !

[موازنة بين كلام الامام علىّ وخطب ابن نباتة]

ونحن نذكر فى هذا الموضع فصولا من خُطب الخطيب الفاضل عبد الرحيم بن نُباتة رحمه الله ؛ وهو الفائز بقَصَبات السبق من الخطباء ؛ وللناس غرام عظيم بخطبه وكلامه ؛ ليتأمّل الناظر كلامَ أميرالمؤمنين عليه السلام فى خطبه ومواعظه؛ وكلام هذا الخطيب المتأخر

---

(١) لامرىء القيس ، ديوانه ٣٣ ، وصدره :

* أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فؤادَها *

(٢) سورة إبراهيم ٥٠

الذى قد وقع الإجماع على خطابته وحسنها ، وأنّ مواعظه هى الغاية التى ليس بعدها غاية. فمن ذلك قوله :

« أيها الناس؛ تجهّزوا فقد ضُرِب فيكم بُوق الرحيل ، وابرُزوا فقد قربت لكم نوق التحويل ، ودَعُوا التمسّك بخُدَع الأباطيل ، والركون إلى التسويف والتعليل ؛ فقد سمعتم ما كرّر الله عليكم من قِصص أبناء القُرى ، وما وعظكم به من مصارع مَنْ سَلَف من الورى ؛ مما لا يعترض لذوى البصائر فيه شكّ ولا مِرَا ؛ وأنتم معرضون عنه إعراضكم عمّا يُختَلق ويفترى ؛ حتى كأنّ ماتعلمون منه أضغاثُ أحلام الكرى ، وأيدى المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العرَا ، وهجمت بكم على هول مطلعٍ كريه القِرى؛ فالقهقرى رحمكم الله عن حبائل العطب القهقرى ! واقطعوا مفاوِزَ الهلكات بمواصلة السُّرى ، وقفوا على أحداث المنزلين من شَناخيب الذُّرَا ، المنجلين بوازع أمّ حَبَوْكَرى ، المشغولين بما عليهم من الموت جرى ، واكشفوا عن الوجوه المنعمة أطباق الثرى ، تجدوا ما بقى منها عِبْرَة لمن يرى . فرحم الله امرأً رحم نفسه فبكاها ، وجعل منها إليها مشتكاها ! قبل أن تعلق به خطاطيف المنون ، وتصدق فيه أراجيف الظنون ، وتَشْرَقَ عليه بمائها مُقَل العيون ؛ ويلحق بمن دَثَر من القرون ، قبل أن يبدوَ على المناكب محمولا ، ويغدوَ إلى محلّ المصائب منقولا ، ويكونَ عن الواجب مسئولا ، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولا . هناك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، وتقطع الأسباب ، وتذهب الأحساب ، ويمنع الإعتاب ، ويجمع من حَقّ عليه العقاب ، ومَنْ وجب له الثواب ، فيضرب بينهم بسُورٍ له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب » .

فلينظر المنصف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد؛ أوّلا بالنسبة إلى ذلك الكلام العربىّ المحض ، ثم لينظُرْ فيما عليه من الكسل والرخاوة ، والفتور والبلادة ، حتى كأنّ ذلك

الـكلام لعامر بن الطفيل[١] مستلئما شِكّته[٢] ، راكبا جواده ، وهذا الـكلام للدّلال المدينى[٣] المخنّث ، آخذا زمّارته ، متأبطا دفّه .

والمحْ ما فى « بوق الرحيل » من السفسفة واللفظ العامىّ الغثّ . واعلم أنهم كلهم عابوا على أبى الطيب قوله :

فإن كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ ... ففى النّاس بُوقاتٌ لها وطُبُولُ[٤]

وقالوا : لا تدخل لفظة « بوق » فى كلام يفلح أبدا .

والمحْ ما على قوله : « القهقرى القهقرى » متكرّرة من الهجْنة ، وأهجَنُ منها « أمّ حَبَوْكَرى »[٥] . وأين هـذا اللفظ الحوشىّ الذى تفوح منه روائح الشِّيح والقَيْصوم؛ وكأنه من أعرابىّ قح قد قدِم من نجد لا يفهم محاورة أهل الحضر ، ولا أهل الحضر يفهمون حواره ؛ من هذه الخطبة الليّنة الألفاظ التى تـكاد أن تنثنى من لينها ، وتتساقط من ضَعْفِها !

ثم المحْ هذه الفِقَر والسَّجَعات ، التى أولها « القرى » ثم « المرا » ثم « يفترى » ثم « الـكرى » إلى قوله : « عبرة لمن يَرى » ، هَلْ تَرَى تحت هذا الـكلام معنى لطيفا ، أو مقصدا رشيقا ! أو هل تجد اللفظ نفسه لفظا جَزْلا فصيحا ، أو عذبا معسولا ! وإنما هى ألفاظ قد ضُمّ بعضُها إلى بعض ، والطائل تحتها قليل جدا . وتأمل لفظة « مِرا » فإنها ممدودة فى اللغة ، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة ، وإن أراد جمع « مِرْية » فقد خرج

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى ، ابن عم لبيد ؛ أحد فرسان العرب وفتاكهم . وانظر أخباره فى خزانة الأدب ١ : ٤٧٣ .

(٢) الشكة بالـكسر : السلاح .

(٣) الدلال المدينى ، واسمه ناقد ، وكنيته أبو زيد ، كان من أهل المدينة ، وأحد ظرفاء ثلاثة كانوا بها : طويس ، والدلال ، وهنب ، كان هنب أقدمهم ، والدلال أصغرهم ؛ وانظر أخباره فى الأغانى ٤ : ٢٦٩ — ٣٠١ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٠٨ .

(٥) أم حبوكرى : من أسماء الداهية عندهم .

عن الصناعة ، لأنه يكون قد عطَف الجمع المفرد ، فيصير مثل قول القائل : « ما أخذت منه دينارا ولا دراهم » ، فى أنه ليس بالمستحسن فى فن البيان .

ومن ذلك قوله :

« أيها الناس ، حصحصَ الحقّ ، فما من الحقّ مناص ، وأشخِص الخلق ؛ فما لأحد من الخلق خَلَاص ، وأنتم على ما يباعدكم من الله حِرّاص ، ولكم على موارد الهَلَكة اغتصاص ؛ وفيكم عن مقاصد البركة انتكاص ؛ كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص ، ولجوارح الموت فى وَحْش نفوسكم اقتناص ؛ ليس بها عليها تأبٍّ ولا اعتياص » .

فليتأمّلْ أهلُ المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلامَ بعين الإنصاف ، يعلموا أن سطراً واحدا من كلام « نهج البلاغة » يساوى ألف سطر منه ، بل يزيد ويُربِى على ذلك ؛ فإنّ هذا الكلام ملزقٌ عليه آثار كُلفة وهُجْنة ظاهرة ، يعرفها العامىّ فضلا عن العالم .

ومن هذه الخطبة :

« فاهجروا رحمكم الله وثيرَ المراقد ، وادّخروا طيّب المكتسب تخلصوا من انتقاد الناقد ، واغتنموا فسحة المَهَل قبل انسداد المقاصد ، واقتحموا سُبُل الآخرة على قِلّة المرافق والمساعد » .

فهل يجد متصفّح الكلام لهذا الفصل عُذوبة ، أو معنى يُمدح الكلامُ لأجله ؟ وهلْ هُوَ إلا ألفاظ مضموم بعضها إلى بعض ، ليس لها حاصل ؛ كما قيل فى شعر ذى الرُّمة : « بعرظِباء ونقط عروس »(١) !

ومن ذلك قوله :

« فياله من واقع فى كُرَب الحشارِج ، مصارع لسكرات الموت معالج ! حتى دَرَج على تلك المدارج ، وقدم بصحيفته على ذى المعارِج » .

(١) من كلام جرير فى وصف شعر ذى الرمة ، وانظر الموشح للمرزبانى ١٧١ .

وغير خاف ما فى هذا الكلام من التكلّف .

ومن ذلك قوله :

« فكأنّكم بمنادى الرحيل قد نادى فى أهل الإقامة ، فاقتحموا بالصّغار محجّة القيامة ، يتلو الأوائل منهم الأواخر ، ويتبع الأكابرُ منهم الأصاغر ، ويلتحق الغوامر من ديارهم بالغوامر ، حتى تبتلع جميعهم الحفر والمقابر » .

فإن هذا الكلام ركيك جدا ، لو قاله خطيب من خُطباء قُرَى السواد لم يستحسَن منه ؛ بل ترك واسترذل .

ولعل عائباً يعيب علينا فيقول : شرعتم فى المقايسة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وبين كلام ابن نُباتة ؛ وهل هذا إلا بمنزلة قول مَنْ يقول : السيف أمضى من العصا ؛ وفى هذه غضاضة على السيف !

فنقول : إنه قد اشتملت كتبُ المتكلّمين على المقايسة بين كلام الله تعالى وبين كلام البَشَر ، ليبيّنوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب ؛ نحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾(١) وبين قول القائل : « القتل أنفى للقتل » ونحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾(٢) وبين قول الشاعر :

فإن عرضوا بالشرّ فاصفْح تكرّما وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلْ

* * *

ونحو إيرادهم كلام مُسَيلمة ، وأحمد بن سليمان المعرّى ، وعبد الله بن المقفع ، فصلاً فصلا ، والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد ، وإيضاح أنّه لا يبلغ ذلك إلى درجة

(١) سورة البقرة ١٧٩
(٢) سورة الأعراف ١٩٩

القرآن العزيز ، ولا يقاربها ، فليس بمستنكَر منّا أن نذكر كلام ابن نُباتة فى معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهرَ فضيلة كلامه عليه السلام ، بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل ، الذى قد اتفق الناس على أنه أوْحدُ عصره فى فنّه .

واعلم أنّا لا ننكر فضل ابن نُباتة وحُسنَ أكثر خطبه ، ولكنّ قوماً من أهل العصبيّة والعناد ، يزعمون أنّ كلامه يساوى كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام ويماثله ، وقد ناظر بعضُهم فى ذلك ، فأحببت أن أبيّن للناس فى هذا الكتاب أنّه لا نسبة لكلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنه بمنزلة شعر الأبله وابن المعلّم بالإضافة إلى زُهير والنابغة .

* * *

واعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيق والأرشق والحلو والأحلى ، والعالى والأعلى من الكلام أمر لا يُدرك إلا بالذوق ؛ ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه ؛ وهو بمنزلة جاريتين : إحداهما بيضاء مشرَبة حمرة دقيقة الشفتين ، نقية الثّغر ، كحلاء العينين ، أسيلة الخد ، دقيقة الأنف ، معتدلة القامة ، والأخرى دونها فى هذه الصفات والمحاسن ؛ لكنها أحلَى فى العيون والقلوب منها ، وأليق وأصلح ، ولا يدرَى لأىّ سبب كان ذلك ، ولكنه بالذوق والمشاهدة يُعرف ، ولا يمكن تعليله ، وهكذا الكلام ؛ نعم يبقى الفرق بين الموضعين . أنّ حُسْن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كلّ من له عين صحيحة ، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق ، وليس كلّ من اشتغل بالنحو واللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق وممّن يصلح لانتقاد الكلام ؛ وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم

بذلك دُرْبة وملكة تامة ، فإلى أولئك ينبغى أن ترجع فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض ، إن كنت عادما لذلك من نفسك .

* * *

الأصْلُ :

منها فى ذكر النبىّ صلى الله عليه وآله :

قَدْ حَقَّرَ الدُّنيَا وَصَغَّرَهَا، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ اخْتِيَاراً ، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنيَا بِقَلْبِهِ ،وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ؛ لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً ، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً ، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً ، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً .

* * *

الشّرْحُ :

فَعّل ، مشدّد ، للتكثير ، « قتّلت » أكثر من « قَتَلْت » ؛ فيقتضى قوله عليه السلام : « قد حقّر الدنيا » زيادة تحقير النبى صلى الله عليه وآله لها ، وذلك أبلغ فى الثناء عليه وتقريظه .

قوله : «وَصَغّرها» ، أى وصغّرها عند غيره ، ليكون قوله : « وأَهْوَنَ بها وهوّنها» مطابقا له ، أى أهون هو بها وهَوّنها عند غيره .

وزواها : قبضها ، قال عليه الصلاة والسلام : « زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها » .

وقوله : «اختيارا» ، أى قبض الدّنيا عنه باختيار ورضًا من النبى صلى الله عليه وآله بذلك ، وعلمٍ بما فيه من رفعة قدره ، ومنزلته فى الآخرة .

والرياش والريش بمعنى ، وهو اللباس الفاخر كالحِرْم والحرام واللِّبس واللباس ، وقرئ : ﴿ وَرِيَاشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [1] ويقال : الريش والرياش : المال والخِصْب والمعاش ، وارتاش فلان : حسنت حاله . ومعذرا ، أى مبالغا ، أعذر فلان فى الأمر ، أى بالغ فيه .

* * *

الأَصْلُ :

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلاَئِكَةِ ،وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ ،وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ ؛ نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الكلام غير ملتصق بالأول كلّ الالتصاق ، وهو من النمط الذى ذكرناه مراراً؛ لأنّ الرضىّ رحمه الله يقتضب فصولا من خطبة طويلة ، فيوردها إيراداً واحدا ، وبعضها منقطع عن البعض .

قوله عليه السلام : « نحن شجرة النبوّة » ، كأنه جعل النبوّة كثمرة أخرجتها شجرة بنى هاشم . ومحطّ الرسالة : منزلها . ومختلف الملائكة : موضع اختلافها فى صعودها ونزولها ، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبيّين فقال : يفتخر على بنى عمّ له ليسوا بفاطميين :

هل كان يقتعد البُرَاقَ أبوكُمُ   أمْ كانَ جبريلٌ عليه يُنزِّلُ
أم هَلْ يقولُ له الإلٰه مُشافِهاً   بالوَحْىِ : قم يأيّها المزمِّل

(١) سورة الأعراف ٢٦ وهى قراءة عاصم ، وانظر تفسير القرطبى ٧ : ١٨٤ .

وقال آخر يمدح قوما فاطميين :

ويطرقه الوَحْىُ وهنًا وأنتمْ ضَجيعانِ بين يدى جَبْرِئيلَا

يعنى حسنا عليه السلام وحسينا عليه السلام .

واعلم أنه إن أراد بقوله : « نحن مختلف الملائكة » جماعة من جملتها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلا ريب فى صحة القضية وصدْقها ، وإن أراد بها نفسَه وابنيْه فهى أيضا صحيحة؛ ولكن مدلوله مستَنبَط ، فقد جاء فى الأخبار الصحيحة ، أنه قال . « ياجبريل ، إنه منّى وأنا منه » ، فقال جبريل : وأنا منكما . وروى أبو أيوب الأنصارىّ مرفوعا: « لقد صلّت الملائكة علىّ وعلى علىّ سبع سنين لم تصلّ على ثالث لنا » ؛ وذلك قبل أن يظهر أمرُ الإسلام ويتسامع الناس به .

وفى خطبة الحسن بن علىّ عليه السلام لما قبض أبوه : « لقد فارقكم فى هذه الليلة رجلٌ لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون، كان يبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله للحرب وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره » .

وجاء فى الحديث أنه سُمِع يوم أحد صوتٌ من الهواء من جهة السماء ، يقول : « لاسيف إلا ذو الفقار ، ولافتى إلا علىّ » ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « هذا صوت جبريل » .

فأما قوله : « ومعادن العلم ، وينابيع الحُكْم » يعنى الحكمة أو الحكم الشرعىّ ، فإنه وإن عَنَى بها نفسه وذرّيته ، فإن الأمر فيها ظاهر جدًّا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « أنا مدينة العلم وعلىّ بابها ، فمن أراد المدينة فليأت الباب » ، وقال : « أقضاكم علىّ » والقضاء أمر يستلزم علوما كثيرة .

وجاء فى الخبر أنّه بعثه إلى اليمن قاضيا، فقال : يارسول الله ، إنهم كهول وذوو أسنان

وأنا وفتى ، وربما لم أصبْ فيما أحكم به بينهم، فقال له : « اذهب فإنّ الله سيثبّت قلبك ويهدى لسانك » .

وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (١): سألت الله أن يجعلها أذنك ففعل. وجاء فى تفسير قوله تعالى :﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾(٢) أنها أنزلت فى علىّ عليه السلام وما خُصّ به من العلم . وجاء فى تفسير قوله تعالى :﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾(٣) : أن الشاهد علىّ عليه السلام .

وروى المحدّثون أنه قال لفاطمة :« زَوّجتُكِ أقدمَهم سِلْما ،وأعظمهم حِلْماً ،وأعلمهم علما » . وروى المحدّثون أيضا عنه عليه السلام أنه قال : « مَنْ أراد أن ينظُر إلى نوح فى عَزْمه ، وموسى فى عِلْمِه ، وعيسى فى وَرَعه ، فلينظر إلى علىّ بن أبى طالب » .

وبالجملة فحاله فى العلم حال رفيعة جدا لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه . وحقّ له أن يصف نفسَه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم ، فلا أحدَ أحقُّ بها منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

فإن قلت : كيف قال : « عدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة » ، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه ، لا ينتظرونها !

قلت : لما كانت منتظرةً لهم ومعلوما بيقين حلولها بهم ، صاروا كالمنتظرين لها. وأيضا فإنهم ينتظرون الموت لامحالة الذى كلّ إنسان ينتظره ؛ ولما كان الموت مقدّمة العقاب وطريقا إليه جعل انتظاره انتظار مايكون بعده .

---

(١) سورة الحاقة ١٢
(٢) سورة النساء ٥٤
(٣) سورة هود ١٧

(١٠٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ ؛ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجَلِ ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ ، وَصَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ .

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ ؛ وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ ، وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ ، وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ . وَإِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ ؛ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ ؛ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ .

* * *

الشرح :

ذكر عليه السلام ثمانية أشياء ، كلٌّ منها واجب .

أولها : الإيمان بالله وبرسوله ، ويعنى بالإيمان هاهنا مجرد التصديق بالقلب ، مع قَطْع النظر عما عدَا ذلك من التلفّظ بالشهادة ، ومن الأعمال الواجبة ، وترك القبائح . وقد ذهب إلى أن ماهيّة الإيمان هو مجرد التصديق القلْبيّ جماعة من المتكلمين ؛ وهو وإن لم يكن مذهبَ أصحابنا، فإنّ لهم أن يقولوا : إن أمير المؤمنين عليه السلام جاء بهذا اللفظ على أصل الوضع اللّغوىّ ؛ لأن الإيمان فى أصل اللغة هو التصديق ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾(١) ، أى لست بمصدّق لنا ؛ لا إن كنّا صادقين ، ولا إنْ كنا كاذبين . ومجيئه عليه السلام به على أصل الوضع اللغوى لا يبطل مذهبناً فى مسمّى الإيمان ؛ لأنا نذهب إلى أن الشرع استجدّ لهذه اللفظة مسمًّى ثانيا ، كما نذهب إليه فى الصلاة والزكاة وغيرهما ، فلا مُنَافاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه عليه السلام .

وثانيها : الجهاد فى سبيل الله ، وإنما قدّمه على التلفّظ بكلمتَي الشهادة ؛ لأنه من باب دفع الضّرر عن النفس ، ودفع الضرر عن النفس مقدّم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح ، والتلفّظ بكلمَتي الشهادة من أعمال الجوارح ؛ وإنما أخّره عن الإيمان ، لأنّ الإيمان من أفعال القلوب ؛ فهو خارج عمّا يتقدم عليه ، ودفع الضّرر من الأفعال المختصّة بالجوارح ، وأيضا فإنّ الإيمان أصلُ الجهاد ، لأنّه مالم يعلم الإنسان على ماذا يُجاهد لا يجاهد ، وإنما جعله ذِرْوة الإسلام ، أى أعلاه ، لأنه مالم تتحصّن دار الإسلام بالجهاد لا يتمكّن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام ؛ فكان إذاً من الإسلام بمنزلة الرأس من البدن .

وثالثها : كلمة الإخلاص ؛ يعنى شهادة أنْ لا إله إلا الله وشهادة أنّ محمداً رسول الله ، قال : فإنها الفطرة ؛ يعنى هى التى فطر الناس عليها ؛ والأصل الكلمة الأولى لأنها التوحيد ، وعليها فُطِر البشرُ كلّهم ، والكلمة الثانية تَبَعٌ لها فأجريت مجراها ، وإنما أخّرت

---

(١) سورة يوسف ١٧

هذه الخصلة عن الجهاد ، لأنّ الجهاد كان هو السببَ فى إظهار الناس لها و نطقهم بها ؛ فصار كالأصل بالنسبة إليها .

ورابعها إقام الصلاة أى إدامتها ، والأصل « أقام إقواما » ، فحذفوا عين الفعل ، وتارة يعوّضون عن العين المفتوحة هاء ، فيقولون : « إقامة » . قال : فإنها الملة ، وهذا مثل قول النبى صلى الله عليه وآله : « الصّلاة عماد الدين ، فمن تركها فقد هَدَم الدين » .

وخامسها إيتاء الزكاة ، وإنما أخرها عن الصلاة لأنّ الصلاة آكد افتراضا منها ؛ وإنما قال فى الزكاة « فإنها فريضة واجبة » ، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المعيّن المقدر فى السائمة ، باعتبار غير الاعتبار الذى يطلق به على صلاة الظهر لفظ الفريضة ؛ والاعتبار الأوّل من القطع ، والثانى من الوجوب ، وقال : فإنها فريضة واجبة ؛ مثل أن يقول : فإنها شى مقتطع من المال موصوف بالوجوب .

وسادسها صوم شهر رمضان ؛ وهو أضعف وجوباً من الزكاة ، وجعله جُنّة من العقاب ، أى سترة .

وسابعها الحجّ والعمرة ، وهما دون فريضة الصّوْم ، وقال : إنهما ينفيان الفقر ، ويرْحضان الذنب ، أى يغسلانه ؛ رَحَضت الثوب ، وثوب رَحيض . وهذا الكلام يدلّ على وجوب العُمْرة ؛ وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء .

وثامنها صِلَة الرّحم وهى واجبة ، وقطيعة الرحم محرّمة ، قال : فإنها مثراة فى المال ، أى تثْريه وتكثره .

ومَنْسأة فى الأجل ، أى تنسَؤه وتؤخره ، ويقال : نسأ الله فى أجلك . ويجوز أنسأه بالهمزة .

فإن قلت : فما الحجة على تقديم وجوب الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ؟

قلت : أما الصّلاة ، فلأن تاركها يقتل ، وإن لم يجحد وجوبها ، وغيرها ليس كذلك ؛ وإنما قدمت الزّكاة على الصوم لأنّ الله تعالى قرَنها بالصلاة فى كثير من الكتاب العزيز ، ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا فى موضع واحد ، وكثرة تأكيد الشيء وذكره دليلٌ على أنّه أهمّ ، وإنما قدّم الصوم على الحجّ ، لأنه يتكرر وجوبه ، والحجّ لا يجب فى العمر إلا مرّة واحدة ، فدلّ على أنه أهمّ عند الشارع من الحج .

ثم قال عليه السلام : « وصدقة السرّ » ، فخرج من الواجبات إلى النوافل . قال : « فإنّها تكفر الخطيئة » ، والتكفير هو إسقاط عقاب مستحقّ بثواب أزيد منه أو توبة وأصله فى اللغة السَّتْر والتغطية ، ومنه الكافر ؛ لأنّه يغطّى الحق ، وسمّى البحر كافرا لتغطيته ما تحته ، وسمى الفلّاح كافرا لأنّه يغطّى الحبّ فى الأرض المحروثة .

ثم قال : « وصدقة العلانية » ، فإنها تدفع ميتة السوء كالغرق والهدم وغيرها .

قال : « وصنائع المعروف ، فإنها تقى مصارع الهوان » كأسْر الروم للمسلم ، أو كأخذ الظَّلَمَة لغير المستحقّ للأخذ .

ثم شرع فى وصايا أُخَرَ عدّدها . والهَدْى : السيرة ، وفى الحديث : « واهدوا هَدْى عمّار » ، يقال : هَدِىَ فلان هَدْىَ فلان ، أى سار سيرته .

وسمّى القرآن حديثا اتباعا لقول الله تعالى : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾[1] ؛ واستدلّ أصحابنا بالآية على أنه محدَث ، لأنه لا فَرْق بين حديث ومحدث فى اللغة . فإن قالوا : إنما أراد أحسن الكلام ، قلنا : لعمرى إنه كذلك ، ولكنه لا يطلق على الكلام القديم لفظة حديث ؛ لأنه إنما سمّى الكلام والمحاورة والمخاطبة حديثا ؛ لأنه أمر يتجدّد حالا فحالا ، والقديم ليس كذلك .

(١) سورة الزمر ٢٣ .

ثم قال : « تفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب » ؛ من هذا أخذ ابن عباس قوله : « إذا قرأت آلم حم ، وقعت فى روضات دمثات » .

ثم قال : « فإنه شفاء الصدور » ، وهذا من الألفاظ القرآنية(١) .

ثم سمّاه قصصا ، اتباعا لما ورد فى القرآن من قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾(٢) .

ثم ذكر أن العالم الذى لا يعمل بعلمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله .

ثم قال : « بل الحجّة عليه أعظم » ، لأنه يعلم الحقّ ولا يعمل به ، فالحجّة عليه أعظم من الحجّة على الجاهل ، وإن كانا جميعاً محجوجَيْن ، أما أحدُهما فبعلمه ، وأما الآخر فبتمكّنه من أن يعلم .

ثم قال : « والحسرة له ألزم » ، لأنه عند الموت يتأسّف ألاّ يكون عمِل بما علم ، والجاهل لا يأسّف ذلك الأسف .

ثم قال : « وهو عند الله ألوم » ، أى أحقّ أن يلام ، لأن المتمكّن عالم بالقوة ، وهذا عالم بالفعل ، فاستحقاقه اللوم والعقاب أشدّ .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة يونس ٥٧ : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ .

(٢) سورة يوسف ٣

(١١٠)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصـل:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ ، وَتَحَلَّتْ بِالآمَالِ ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ . لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا ؛ وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا . غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ ، لَا تَعْدُو ـ إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا ـ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾[1] .

لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً ، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْناً ، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً ؛ وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ .

وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى ، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى !

لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً ، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً ، وَلَا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ؛ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ .

غَرَّارَةٌ ؛ غُرُورٌ مَا فِيهَا ، فَانِيَةٌ ؛ فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى .

---

(١) سورة الكهف ٤٥ .

مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤَمِّنُهُ ، وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ .

كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً ؛ وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً !

سُلْطَانُهَا دُوَلٌ ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ . حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ . مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ .

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً ، وَأَبْقَى آثَاراً ، وَأَبْعَدَ آمَالاً ، وَأَعَدَّ عَدِيداً ، وَأَكْثَفَ جُنُوداً ! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ ، وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ . فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً ! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْفَوَادِحِ ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ . فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا ، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ .

وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ !

أَفَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ ؟ أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ !

فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا !

فاعلموا ـ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ـ بِأَنَّكُمْ تارِكُوهَا ، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا . وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قالُوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [1] ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً ، وَأُنْزِلُوا

(١) سورة فصلت ١٥

الأجْداثَ فَلا يُدْعَونَ ضِيفاناً ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنانٌ ، وَمِنَ التُّرابِ أَكْفانٌ ، وَمِنَ الرُّفاتِ جِيرانٌ . فَهُمْ جِيرَةٌ لا يُجِيبُونَ داعِياً ؛ وَلا يَمْنَعُونَ ضَيْماً ، وَلا يُبالُونَ مَنْدَبَةً . إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا ، جَمِيعٌ وَهُمْ آحادٌ ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعادٌ ، مُتَدانُونَ لا يَتَزاوَرُونَ ، وَقَرِيبُونَ لا يَتَقارَبُونَ .

حُلَماءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغانُهُمْ ، وَجُهَلاءُ قَدْ ماتَتْ أَحْقادُهُمْ ؛ لا يُخْشَى فَجْعُهُمْ ؛ وَلا يُرْجَى دَفْعُهُمْ . اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناً ، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً ، وَبِالأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَجاءُوها كَما فارَقُوها ، حُفاةً عُراةً قَدْ ظَعَنُوا عَنْها بِأَعْمالِهِمْ ، إِلَى الْحَياةِ الدّائِمَةِ ، والدّارِ الْباقِيَةِ ، كما قال سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنّا كُنّا فاعِلِينَ ﴾ (١) .

* * *

الشَّرْحُ :

خَضِرة ، أى ناضرة ، وهذه اللفظة من الألفاظ النبوية ، قال النبي صلى الله عليه وآله : « إنّ الدنيا حُلْوة خَضِرة ، وإن الله مستَخلِفُكم فيها ، فناظر كيف تعملون ! » .

وحُفَّت بالشهوات ، كأن الشهوات مستديرة حولها ، كما يحفّ الهودجُ بالثياب ، وحَفّوا حوله يحفُّونَ حَفّاً : أطافوا به ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ (٢) .

قوله : « وتحبّبت بالعاجلة » ، أى تحبّبت إلى الناس بكونها لذّة عاجلة ، والنفوس مغرمة مولَعة بحبّ العاجل ، فحذف الجار والمجرور القائم مقام المفعول .

قوله : « وراقت بالقليل » ، أى أعجبت أهلها ؛ وإنما أعجبتهم بأمر قليل ليس بدائم .

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٤

(٢) سورة الزمر ٧٥

قوله : « وتحلّت بالآمال » من الحِلْية ، أى تزّينت عند أهلها بما يؤمّلون منها .

قوله : « وتزّينت بالغرور » ، أى تزّينت عند الناس بغرور لا حقيقة له .

والحَبْرة : السرور . وحائلة : متغيّرة . ونافدة : فانية . وبائدة : منقضية . وأكّالة : قتالة ، وغوّالة : مهلكة . والغَوْل : ماغال ، أى أهلك ؛ ومنه المثل : « الغضب غُول الحلم » .

ثم قال : إنها إذا تناهتْ إلى أمنيّة ذوى الرغبات فيها لاتتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللهُ عَلَى كُلِّ شىءٍ مُقْتَدِراً ﴾ .

فاختلط ، أى فالتفّ بنبات الأرض . وتكاثف به ، أى بسبب ذلك الماء وبنزوله عليه ؛ ويجوز أن يكون تقديره : فاختلط بنبات الأرض ، لأنه لمّا غَذاه وأنماه ، فقد صار مختلطا به ، ولمّا كان كلّ واحد من المختلطيْن مشاركاً لصاحبه فى مسمّى الاختلاط جاز « فاختلط به نبات الأرض » ، كما يجوز : فاختلط هو بنبات الأرض .

والهشيم : ماتهشّم وتحطّم ، الواحدة هشيمة . وتذرُوه الرياح : تطيّره . وكان الله على مايشاء ، من الإنشاء والإفناء ، مقتدرا .

قوله : « من يلق من سرّائها بطنا » إنما خصّ السرّاء بالبطن ، والضرّاء بالظهر ، لأن الملاقى لك بالبطن ملاقٍ بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهرَه مدبر عنك . وقيل : لأنّ التّرس بطنُه إليك وظهره إلى عدوّك ، وقيل : لأنّ المشىَ فى بطون الأودية أسهلُ من السير على الظِّرَاب والآكام .

وطلّه السحابُ يَطُلّه ، إذا أمطره مطرا قليلا ، يقول : إذا أعطت قليلا من الخير أعقبت ذلك بكثير من الشر ، لأنّ التّهتَان الكثير المطر ، هتن يهتِن بالكسر ، هَتْنا وهُتونا وتَهْتانا .

قوله : «وحرىّ » ،أى جدير وخليق ، يقال : بالحَرَى أن يكون هذا الأمر كذا ، وهذا الأمر مَحْرَاة لذلك ،أى مَقْمَنة ، مثل مَحْجاة ، وما أحراه مثل ماأحجاه ، وأحْرِ به، مثل أخْجِ به ، وتقول : هو حَرًى أن يفعل ذلك بالفتح ، أى جدير وقمين ، لا يثنى ولا يجمع ، قال الشاعر :

وَهُنّ حَرًى ألّا يُثِبْنَكَ نقْرَةً وَأنتَ حَرًى بالنارحين تُثيبُ[1]

فإذاقلت: هوحرٍ بكسر الراء وحرىّ بتشديدهاعلى «فعيل» ثنيت وجمعت ،فقلت : هما حَرِيَان وحَرِيّان ، وحَرُون مثل عَمُون ، وأحراء أيضا ، وفى المشدّد حَرِيّون وأحْرِياء، وهى حرِيَة وحَرِيّة ؛ وهنّ حَرِيّات وحَرِيات وحرايا .

فإن قلت : فهلا قال : « وحرّية إذا أصبحت » ، لأنه يخبر عن الدنيا ؟

قلت : أراد شأنها ، فذكّر ، أى وشأنها خليق أن يفعل كذا .

واعذوذب : صار عذبا . واحْلوْلَى : صار حُلْواً ، ومن هاهنا أخذ الشاعر قوله :

ألا إنّما الدّنيا غضارةُ أيْكَةٍ إذا اخْضَرّ منها جانبٌ جَفّ جانبُ

فلا تَكتحِلْ عيناك منها بعبْرةٍ على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهبُ

وارتفع « جانب » المذكور بعد « إن » لأنه فاعل فعل مقدّر يفسّره الظاهر ؛ أى وإن اعذوذب جانبٌ منها ، لأن « إنْ » تقتضى الفعل وتطلبه فهى : كـ « إذا » فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[2] .

وأمرّ الشيء ، أى صار مرًّا . وأوْبى : صار وبيًّا ، ولَيّن الهمز ، لأجل السجع .

والرّغَب : مصدر رغبت فى الأمر رغْبة ورَغَبا ، أى أردته .

يقول: لاينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقته تَعَبًا، يقال :أرهقه إثما،أى حمّله وكلّفه .

---

(١) البيت فى اللسان ١٨ : ١٨٨ ، من غير نسبة .

(٢) سورة الانشقاق ١

فإن قلت : لِمَ خَصَّ الأمن بالجناح والخوف بالقوادم ؟

قلت : لأنّ القوادم مقاديمُ الريش ، والراكب عليها بعرَض خطر عظيم وسقوط قريب ، والجناح يستروبق البرد والأذى ، قال أبو نُوَاس :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِى بظلِّ جناحه فصرت أرى دَهْرِى وَلَيْسَ يرَانى [1]
فلو تسأل الأيامَ ما اسمى لما دَرَتْ وأيْنَ مكانى ما عرفْنَ مكانِى

والهاء فى « جناحه » ترجع إلى الممدوح [2] بهذا الشعر .

وتُوبقه : تهلكه ، والأبّهة : الكِبْر . والرَّنق، بفتح النون ، مصدر رَنَق الماء، أى تكدّر وبالكسر الكدر ، وقد روى هاهنا بالفتح والكسر ، فالكسر ظاهر ، والفتح على تقدير حذف المضاف ، أى ذو رَنَق .

وماء أُجَاج : قد جمع المرارة والمُلوحة ، أجّ الماء يؤُج أجاجا . والصبِر ، بكسر الباء : هذا النبات المرّ نفسه ، ثم سُمِّىَ كلّ مرّ صبِراً . والسمام : جمع سَمّ لهذا القاتل ، يقال سَمّ وسُمّ ، بالفتح والضم ، والجمع سِمام وسُموم .

ورمام : بالية ، وأسبابها : حبالها . وموفورها : ذو الوفْر والثروة منها ، والمحروب : المسلوب ، أى لا تحمى جارا ولا تمنعه .

ثم أخذ قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [3] فقال : « ألستم فى مساكن مَنْ كان قبلكم أطول أعمارا » ، نصب « أطول » بأنه خبر كان ، وقد دلّنا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول

---

(١) ديوانه ٩٧

(٢) هو محمد بن الفضل بن الربيع .

(٣) سورة إبراهيم ٤٥ .

أعمارا بقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً﴾ (١) ، وثبت بالعيان أنّهم أبقى آثارا ؛ فإنّ من آثارهم الأهرام والإيوان ومنارة الإسكندرية وغير ذلك. وأمّا بُعدُ الآمال فمرتّب على طول الأعمار ، فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعد ، وإن عَنَى به علوّ الهمم ، فلا ريب أنهم كانوا أعلى همماً من أهل هذا الزمان ؛ وقد كان فيهم مَنْ ملَكَ معمورة الأرض كلّها ، وكذلك القول فى « أعدّ عديداً ، وأكثف جنوداً » ، والعديد : العدوّ الكثير ؛ وأعدّ منهم ، أى أكثر .

قوله : « ولا ظهر قاطع » ، أى قاطع لمسافة الطريق .

والفوادح: المثقلات، فَدَحه الدَّين أثقله؛ ويروى « بالقوادح » بالقاف؛ وهى آفة تظهر فى الشجر ، وصدوع تظهر فى الأسنان .

وأوهقتهم: جعلتهم فى الوهَق، بفتح الهاء ، وهو حبل كالطِّوَل (٢) ويجوز التّسكين، مثل نَهْر ونَهَر .

والقوارع : المحن والدواهى ؛ وسميت القيامة قارعة فى الكتاب العزيز من هذا المعنى وضَعْضَعتهم : أذلتهم ، قال أبو ذؤيب :

* أنى لرَيْب الدّهْرِ لا أتضعضع * (٣)

وضعضعت البناء : أهدمته .

وعفّرتهم للمناخر . ألصقت أنوفهم بالعَفَر، وهو التراب . والمناسم: جمع منسِم، بكسر السين وهو خُفّ البعير .

---

(١) سورة العنكبوت ١٤

(٢) الطولى ، أو الطيل : حبل طويل يشد به قائمة الدابة .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ٣ ؛ وصدره :

* وَتَجَلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ *

ودان لها : أطاعها ، ودان لها أيضا : ذَلّ .وأخلد إليها : مال، قال تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

والسّغب : الجوع : يقول : إنما زودتْهم الجوع ، وهذا مثَل ، كما قال :

* ومدحتُه فأجازَني الحرمانا *

ومعنى قوله :« أو نوّرت لهم إلاالظلمة »؛ أى بالظلمة ؛وهذا كقوله : « هل زوّدتْهم إلا السّغب » . وهو من باب إقامة الضدّ مقام الضدّ ، أى لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة. والضنك: الضيق.

ثم قال : فبئست الدار ، وحذف الضمير العائد إليها وتقديره « هى » كما قال تعالى: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾(٢)، وتقديره : «هو» .

ومن لم يتّهمها : من لم يسؤ ظنًّا بها. والصفيح : الحجارة. والأجنان : القبور ،الواحد جَنَن،والجنون :المقبور ،ومنهقول الأعرابية:« لله درّكمن مجنون فى جَنَن! ».والأكنان: جمع كِنّ : وهو السّتر، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾(٣).

والرّفات : العظام البالية . والمندبة :الندْب على الميت. لا يبالون بذلك : لا يكترثون به . وجِيدُوا: مُطِروا . وقُحِطوا : انقطع المطر عنهم فأصابهم القَحْط ، وهو الجدب وإلى معنى قوله عليه السلام : « فهم جيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما ، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد ، متدانون لا يتزاورون ، وقريبون لا يتقاربون » نظر البحترىّ ، فقال:

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦
(٢) سورة ص ٣٠
(٣) سورة النحل ٨١

بنا أنتِ من مجفوّة لم تؤنّبِ ومهجورة فى هَجْرها لم تعتَّبِ[(١)]
ونازحـةٍ والدار منها قريبةٌ وماقُرْب ثاوٍ فى التراب مغيّبِ !

وقد قال الشعراء والخطباء فى هذا المعنى كثيرا ، فمن ذلك قول الرضىّ أبى الحسن رحمه الله فى مرثيته لأبى إسحاق الصابى :

أعْزِزْ علىّ بأنْ نزلتَ بمنزلٍ متشابهِ الأمجادِ بالأوغادِ[(٢)]
فى عصبةٍ جُنِبوا إلى آجالِهمْ والدهرُ يُعْجِلُهمْ عن الإزْوادِ
ضرَبوا بمدْرَجة الفناء قبابَهمْ من غــيرِ أطْنَابٍ ولا أوتادِ
رَكْبٌ أناخُوا لايرجّى منهمُ قصدٌ لإتْهـــامٍ ولا إنجادِ
كرهوا النزولَ فأنزلتْهمْ وقعة للدهر نازلة بــكل مَقـادِ
فتهافتوا عن رَحْل كل مذلّلٍ وتطاوحوا عن سَرْج كلّ جواد
بادون فى صُوَرِ الجميع وإنهم متفردون تفرّدَ الآحـاد

فقوله : « بادون فى صور الجمع ... » البيت ، هو قوله عليه السلام : « جمع وهم آحاد » بعينه .

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى أيضا :

متوسِّدين على الخـدود كأنمـا كَرِعُوا على ظمإٍ من الصَّهْباء[(٣)]
صُوَرٌ ضننتُ على العيون بحسنها أمسيتُ أوقرُها من البَوْغاء[(٤)]
ونواظرٍ كَحَل التراب جفونَها قد كنت أحْرُسُهَا من الأقذاء
قَرُبت ضرائحهم على زُوّارها ونَأَوا عن الطّلاب أىّ تناء[(٥)]

(١) ديوانه ١ : ٤٩
(٢) ديوانه لوحة ١٢٩ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .
(٣) ديوانه لوحة ١١٦ من مرثيته لوالدته .
(٤) لحظها : ملاحظتها . والبوغاء : التربة الرخوة .
(٥) الضرائح : جمع ضريح ؛ وهو القبر .

قوله : « قربت ضرائحهم . . » البيت هو معنى قوله عليه السلام : « وجيرة ، وهم أبعاد » بعينه .

ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب : (١)

لِكلِّ أناس مقبرٌ في ديارهم (٢) فهمْ ينقصون ، والقبور تزيدُ
فكائن ترَى من دار حَيٍّ قد أُخربت وقبرٍ بأكناف التراب جديدٌ (٣)
همُ جيرة الأحياء ، أمّا مزارهم (٤) فدانٍ ، وأما الملتقَى فبعيدُ

ومن كلام ابن نُباته : « وحيدا على كثرة الجيران ، بعيدا على قرب المكان » .

ومنه قوله : « أسير وحشة الانفراد ، فقير إلى اليسير من الزاد ، جارُ من لا يجير ، وضيفُ من لا يمير ، حلُّوا ولا يرون ركبانا ، وأنزلوا ولا يُدْعَون ضيفانا ، واجتمعوا ولا يُسَمَّوْن جيرانا ، واحتشدوا ولا يعدّون أعوانا ، وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه المذكور في هذه الخطبة ، وقد أخذه مصالتةً .

ومنه قوله : « طحنتهم طحن الحصيد ، وغيَّبتهم تحت الصعيد ، فبطون الأرض لهم أوطان ، وهم في خرابها قُطّان ، عمروا فأخربوا ، واقتربوا فاغتربوا ، واصطحبوا وما اصطحبوا » .

ومنه قوله : « غُيّبا كأشهاد ، عصبا كآحاد ، همودا في ظُلَمَ الألحاد ، إلى يوم التناد » .

---

(١) لعبد الله بن ثعلبة الحنفي ؛ حماسة أبي تمام — بشرح المرزوقي ٨٩١
(٢) الحماسة :

* لِكُلِّ أُناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنَائِهِمْ *

(٣) رواية الحماسة :

وما إن يزَالُ رسمُ دارٍ قد اخلقَتْ وبيْتٌ لميْتٍ بالفَنَاء جَديدُ

(٤) الحماسة : « أما جوارهم » .

واعلم أنّ هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين[1] " ورواها لقَطَرِىّ بن الفجاءة ، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها فى كتاب " المونق " لأبى عبيد الله المرزبانىّ مروية لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهى بكلام أمير المؤمنين أشبه ؛ وليس يبعد عندى أن يكون قطرىّ قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ؛ وقد لقى قَطَرِىّ أكثرهم .

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٢٦ – ١٢٩ ؛ وهى أيضا بنسبتها إلى قطرى فى العقد ١ : ١٤١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، وعيون الأخبار ٢ : ٢٥٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠

(١١١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام : يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس :

هَلْ يُحَسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً ! بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا ، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا !

كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ !

* * *

الشرح :

أما مذهب جمهور أصحابنا؛ وهم النافون للنفس الناطقة ؛ فعندهم أنّ الروح جسم لطيف بخاريّ، يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية، ينفذ فى العروق الضوارب ، والحياة عرَض قائم بالروح وحالّ فيها ؛ فللدماغ روح دِماغية وحياة حالّة فيها ؛ وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد ؛ وعندهم أن لملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه ؛ لولا ذلك لتعذّر عليه وهو جسم أن يقبض روحيْن فى وقت واحد فى المشرق والمغرب ؛ لأنّ الجسم الواحد لا يكون فى مكانيْن فى وقت واحد . قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفَظة الكاتبون هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل ، قالوا : وكيفية القبض ولُوج الملك من الفَم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائىّ لا يتعذّر عليه النفوذ فى المخارق الضيّقة ، فيخالط الروح

التى هى كالشبيهة به ، لأنها جسم لطيف بخارىّ ، ثم يخرج من حيث دخل وهى معه ، وإنما يكون ذلك فى الوقت الّذى يأذَنُ الله تعالى له فيه ؛ وهو حضور الأجل، فألزموا على ذلك أن يغوصَ الملك فى الماء مع الغريق؛ ليقبض روحه تحت الماء ؛ فالتزموا ذلك، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلّل الملَك الماء فى مسامّ الماء ؛ فإنّ فيه مسامّ ومنافذ ، وفى كلّ جسم على قاعدتهم فى إثبات الماء فى الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنّه لا مسامّ فيه ، لم يبعد أن يلجه الملك فيوسّع لنفسه مكانا كما يلجُه الحجر والسمك وغيرهما ، وكالريح الشديدة التى تقرع ظاهر البحر فتقعره ، وتحفره، وقوة الملَك أشدّ من قوة الريح .

ثم نعود إلى الشرح فنقول :

الملَك أصله « مألَك » بالهمز ، ووزنه « مفعل » والميم زائدة ، لأنه من الألوكة والألُوك ؛ وهى الرسالة ، ثم قلبت الكلمة وقدمت اللام فقيل ملأك ، قال الشاعر :

فلستُ لإنسيٍّ ولكن لملأكٍ تنزّلَ من جوّ السماء يصوب [1]

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال ، فقيل: «مَلَك»، فلما جمع ردت الهمزة إليه، فقالوا: ملائكة وملائك ، قال أميّة بن أبى الصلت :

وَكَأَنّ بِرْقِعَ والملائك حولها سَدِرٌ تواكله القوائم أجردُ [2]

والتوفّى : الإماتة وقبض الأرواح ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [3] .

والتقسيم الذى قسّمه فى وفاة الجنين حاصر ؛ لأنه مع فرضنا إيّاه جسما يقبض الأرواح التى فى الأجسام ؛ إما أن يكون مع الجنين فى جوف أمّه فيقبض روحَه عند حضور أجله،

(١) اللسان ١٢ : ٢٧٤ من غير نسبة .
(٢) اللسان ٦ : ٣٠
(٣) سورة الزمر ٤٢

أو خارجا عنها . والقسم الثانى ينقسم قسمين : أحـدهما أن يَلِجَ جوف أمّه لقبْض روحه فيقبضها ،والثانى أن يقبضَهامن غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها؛ وذلك بأن تطيعه الرُّوح وتكون مسخّرة إذا أراد قبضها امتدّت إليه فقبضها . وهذه القسمة لا يمكن الزيادة عليها، ولو قسمها واضع المنطق لما زاد .

ثم خرج إلى أمر آخرَ أعظم وأشرف ممّا ابتدأ به ، فقال : « كيف يصف إلهه مَنْ يعجز عن وصف مخلوق مثله » ! وإلى هذا الغرض كان يترامَى ، وإياه كان يقصد ؛ وإنما مهّد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف ، والسرّ الدقيق .

[فصل فى التخلص وسياق كلام للشعراء فيه]

وهـذا الفنّ يسميه أرباب علم البيان التخلّص ، وأكثر مايقع فى الشعر ، كقول أبى نواس :

تقول التى من بيتها خَفّ مركبى ... عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ[1]
أما دونَ مصرٍ للغنى متطلّب ! ... بلى ، إن أسبابَ الغنى لكثيرُ
فقلت لها واستعجلتْها بوادرٌ ... جرَت ، فجرى فى جريهنّ عَبيرُ:
ذرِينى أكثّر حاسديك برحلةٍ ... إلى بلد فيه الخصيب أميرُ

ومن ذلك قول أبى تمام :

يَقُولُ فى قُومِسٍ صحبى وقد أخذَتْ ... منّا السُّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ[2]
أمَطْلِع الشمس تبغى أنْ تؤمّ بنا ... فقلت كَلاَّ ولكن مطلِع الجودِ

(١) ديوانه ٩٩ ، من قصيدة يمدح فيها الخصيب بن عبد الرحمن المرادى ، أمير مصر .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣٠ ، قومس : بلد بين العراق وخراسان .

ومنه قول البحتري:

هل الشباب ملمٌّ بي فراجعةٌ   أيامُه لِيَ في أعقاب أيامي[1]
لو أنه نائل غمرٌ يجادُ به   إذن تطلّبتُه عند ابن بسطام

ومنه قول المتنبي؛ وهو يتغزّل بأعرابية، ويصف بخلها وجبنها وقلة مطعمها؛ وهذه كلها من الصفات الممدوحة في النساء خاصة[2]:

في مُقْلَتيْ رشأ تديرُها   بدويّةٌ فُتِنتْ بها الحِلَلُ[3]
تشكو المطاعمُ طولَ هِجْرَتِها   وصدودَها، ومَنِ الذي تصلُ!
ماأسأرتْ في القَعْبِ من لبنٍ   تركَتْه، وهو المسك والعسل
قالت: ألا تصحو فقلت لها   أعلمْتِنِي أنّ الهوى ثَمِلُ
لَوْ أنّ فنّاخُسْرَ صبّحكمْ   وبرزتِ وحدكِ عاقه الغزَلُ[4]
وتفرّقتْ عنكم كتائبُه   إن الملاحَ خوادعٌ قُتُلُ
ما كنتِ فاعلةً وضيفُكمُ   ملكُ الملوك وشأنُكِ البَخَلُ
أتمنّعين قِرًى فتفتضحي   أم تبذُلين له الّذي يَسَلُ
بل لا يحلّ بحيث حَلّ به   بخلٌ ولا جَوْرٌ ولا وَجَلُ

وهذا من لطيف التخلّص ورشيقه، والتخلص مذهب الشعراء، والمتأخرون يستعملونه كثيرا، ويتفاخرون فيه ويتفاضلون، فأما التخلّص في الكلام المنثور فلا يكاد يظهر لمتصفح الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمّل شديد؛ وقد وردت منه مواضع في القرآن العزيز؛ فمن

---

(١) المثل السائر ٢ : ٢٦٥

(٢) ديوانه ٣ : ٣٠١ ؛ من قصيدة يمدح فيها ركن الدولة .

(٣) الرشأ : ولد الظبية الصغير . والحلل : جمع حلة ؛ وهي القوم المجتمعون في بيوت مجتمعة للنزول . والبدوية : الساكنة البدو .

(٤) فناخسر ؛ هو اسم عضد الدولة . وصبحكم : أتاكم صباحاً للغارة .

أبينها وأظهرها أنّه تعالى ذكر فى سورة الأعراف الأمم الخالية ؛ والأنبياء الماضين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن انتهى إلى قصة موسى ، فقال فى آخرها بعد أن شرحها وأوضحها : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * ﴾[1] .

وهذا من التخلّصات اللطيفة المستحسنة .

[فصل فى الاستطراد وإيراد شواهد للشعراء فيه]

واعلم أنّ من أنواع علم البيان نوعاً يسمّى الاستطراد ، وقد يسمّى الالتفات ، وهو من جنس التخلّص وشبيه به ، إلّا أنّ الاستطراد هو أن تخرج بعد أن تمهّد ما تريد أن تمهّده إلى الأمر الذى تروم ذكره فتذكره ، وكأنك غيرُ قاصد لذكره بالذّات ، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرَض عن غير قصد ، ثم تدعه وتتركه ، وتعود إلى الأمر الذى كنت فى تمهيده ، كالمقبل عليه ، وكالملغى عمّا استطردت بذكره ، فمن ذلك قول البحترىّ وهو يصف فرسا :

---

(١) سورة الأعراف ١٥٥ ـ ١٥٧

وأغرَّ فِي الزَّمن البهيم مُحَجَّلٍ ... قَدْ رَحْتُ مِنه عَلَى أغرَّ مُحَجَّلِ[1]
كالهيكل المبنيِّ إلّا أنه ... فى الحسن جاء كصورةٍ فى هيكلِ
وافِي الضلوع يشدّ عقد حزامه ... يومَ اللقاء على مُعِمّ مُخولِ
أخواله للرستَمين بفارسٍ ... وجدُودُه للتُّبَّعين بموكلِ
يهوِى كما هوت العُقابُ وقد رأتْ ... صيدا، وينتصب انتصابَ الأجدلِ
متوجّس برقيقتين كأنما ... تُرَيان من ورق عليه مكلَّلِ
ماإن يعاف قَذًى ولو أوردْته ... يوماً خلائق حَمْدَوَيْهِ الأحولِ
ذَنَبٌ كما سُحِبَ الرِّشاء يذبّ عن ... عُرْفٍ، وعرفٌ كالقناع المسبَلِ
جَذلانُ ينفض عُذْرةً فى غُرّةٍ ... يقَقٍ تسيل حجولها فى جَنْدَلِ
كالرائح النّشوان أكثر مشيه ... عرضاً على السّنن البعيد الأطولِ
ذهب الأعالى حيث تذهب مقلةٌ ... فيه بناظرها حديد الأسفلِ
هزج الصّهيل كأنّ فى نغماته ... نبراتُ معبد فى الثّقيل الأولِ
مَلَكَ القلوب، فإن بدا أعطينه ... نَظَر المحبّ إلى الحبيب المقبلِ

ألا تراه كيف استطرد بذكر حَمْدويه الأحول الكاتب، وكأنه لم يقصد ذلك؛ ولا أراده وإنما جرّته القافية، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس؛ ولو أقسم إنسان أنه مابنى القصيدة منذ افتتحها إلّا على ذكره، ولذلك أتى بها عَلَى روىّ اللام، لكان صادقا. فهذا هو الاستطراد.

ومن الفرق بينه وبين التخلّص أنك فى التخلّص متى شرعتَ فى ذكر الممدوح

---

(١) ديوانه ٢ : ٢١٧، ٢١٨ (طبع الجوائب).

أو المهجوّ تركت ما كنت فيه من قبل بالكلّية وأقبلت على ما تخلّصت إليه من المديح والهجاء بيتا بعد بيت ؛ حتى تنقضيَ القصيدة ، وفى الاستطراد تمرّ على ذكر الأمر الذى استطردت به مرورا كالبرق الخاطف ؛ ثم تتركه وتنساه ، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصد قَصْدَ ذاك ، وإنما عرض عروضا . وإذا فهمت الفرق فاعلم أنّ الآيات التى تلوْناها إذا حققتَ وأمعنت النظر ، من باب الاستطراد ، لا من باب التخلّص ، وذلك لأنه تعالى قال بعد قوله : ﴿ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَـآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنْبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١) . فعاد إلى ما كان فيه أولا ، ثم مرّ فى هذه القصّة ، وفى أحوال موسى وبنى إسرائيل حتى قارب الفراغ من السّورة .

ومن لطيف التخلّص الذى يكاد يكون استطرادا ، لولا أنّه أفسده بالخروج إلى المدح ، قولُ أبى تمّام فى قصيدته التى يمدح بها محمد بن الهيثم التى أوّلها :

أَسْقَى طُلولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ ... وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ ونعيمُ(٢)

ظلمتْكَ ظالمةُ البرىء ظَلومُ ... والظُّلْمُ من ذِى قُدْرَةٍ مذمُومُ

زَعَمَتْ هواكَ عفَا الغداةَ كما عفَتْ ... مِنْهَا طلولٌ باللِّوى ورسومُ

(١) سورة الأعراف ١٥٨ — ١٦٠ .
(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ .

لا والّذى هو عالِمٌ أنّ النّوى صَبِرٌ وأنّ أبا الحسين كريمُ
مَا حُلْتُ عمّا تعهدين ولا غدَتْ(١) نَفْسِى عَلَى إلفٍ سِـــواكِ تحُومُ

فلو أتمّ متغزلا لـكان مستطردا لامحالة ، ولـكنه نقض الاستطراد ، وغمس يده فى المدح ، فقال بعد هذا البيت :

لمحمد بن الهيثم بن شُبَانةٍ مجدٌ إلى جَنْب السِّماك مقيمُ
ملك إذا نسِبَ النّدى من مُلتقَى طَرَفَيْهِ فَهُوَ أخٌ لهُ وحَمِيمُ

ومضَى على ذلك إلى آخرها .

* * *

ومن الاستطراد أن يحتالَ الشاعر لذكر ما يروم ذكرَه ، بوصف أمر ليس من غرضه ، ويدمج الغرض الأصلىّ فى ضمْن ذلك وفى غضونه ؛ وأحسنُ مايكون ذلك إذا صرّح بأنه قد استطرد ونصّ فى شعره على ذلك ، كما قال أبو إسحاق الصابى فى أبيات كتبها إلى أبى القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة ، كتبها إليه إلى شيراز وأبو إسحاق فى بغداد ، وكانت أخبار فتوح عضد الدولة بفارس وكِرمان وما والاها متواصلةً مترادفة إلى العراق ، وكُتُب عبد العزيز واصلة بها إلى عزّ الدولة بختيار والصابى يجيب عنها :

ياراكبَ الجَسْرَةِ العَيْرانةِ الأُجُدِ يَطْوِى المَهامِهَ من سهْل إلى جَلَدِ
أبلغ أبا قاسمٍ ـ نفسى الفداء له ـ مقالةً من أخ للحقّ معتمِدِ
فى كلّ يوم لـكم فتحٌ يُشَادُ به بين الأنام بذكر السّيِّدِ العضُدِ
وما لنا مثـــله لـكنّنا أبدا نجيبكم بجواب الحاسِد الـكمِدِ
فأنت أكتب منّى فى الفتوح وما تجرى مجيبا إلى شأوى ولا أمَدِى

---

(١) الديوان :
* ما زلتُ عن سنن الودادِ ولا غدَتْ *

وما ذممتُ ابتــدائى فى مكاتبــةٍ ولا جوابــكمُ فى القرب والبُعُدِ
لــكنّنى رمت أن أثنى على مَلِكٍ مستطرد بمـــديح فيــه مطّردِ

ولقد ظرُف ومَلُح أبو إسحاق فى هذه الأبيات ، ومتى خلا أو عرَى عن الظرف والملاحة ، ولقد كان ظرفا ولباقة كلّه !

وليس من الاستطراد مازعم ابن الأثير الموصلّى فى كتابه المسمى " بالمثل(1) السائر" أنه استطراد ؛ وهو قول بعض شعراء الموصل يمدح قرواش بن المقلّد ، وقد أمره أن يعبث بهجاء وزيره سليمان بن فهد ، وحاجبه أبى جابر ومغنّيه المعروف بالبرقعيدىّ ، فى ليلة من ليالى الشتاء وأراد بذلك الدّعابة والولع بهم ، وهم فى مجلس فى شراب وأنس ، فقال وأحسن فيما قال :

وليــلٍ كوجهِ البرقعيدىّ ظلمــةً وبردِ أغانيــه وطــول قُرونِهِ
سَرَيْتُ ونومى فيه نومٌ مشرّدٌ كعقلِ سليمانَ بن فهــدٍ ودِينِهِ
على أَوْلَقٍ فيــه التفــاتٌ كأنه أبو جابر فى خَبْطه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصّباح كأنه سَنَا وَجْهِ قِرْواشٍ وَضَوْء جبينه

وذلك لأن الشاعر قصد إلى هجاء كلّ واحد منهم ، ووضع الأبيات لذلك ، وأمره قرواش رئيسهم وأميرهم بذلك ، فهجاهم ومدحه ولم يستطرد . وهذه الأبيات تشبيهات كلّها مقصود بها الهجاء ، لم يأت بالعرض فى الشعر كما يأتى الاستطراد .

وهذا غلط من مصنف الــكتاب .

(1) المثل السائر ٢ : ٢٧١

(١١٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ ؛ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا .دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا ، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا ،وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا . لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عن أَعْدائِهِ . خَيْرُهَا زَهِيدٌ ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ . فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ !

اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلِبَتِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ كَمَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ .

إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا ، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا .

قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ ؛ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ ؛ فَلَا تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ ، وَلَا تَبَاذَلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ .

مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ ، وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي

وُجُوهِكُمْ ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ .

وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ ؛ إِلاَّ مَخَافَةَ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ .

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْآجِلِ ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ ، صَنِيعَ مَنْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « فإنها منزلُ قُلْعة » بضم القاف وسكون اللام ، أي ليست بمستوطنة . ويقال : هذا مجلس قُلْعة ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة . ويقال : هم على قُلْعة ، أي على رحلة ، ومن هذا الباب . قولهم : فلان قُلْعة ، إذا كان ينقلع عن سرجه ، ولا يثبت في البطش والصراع ، والقلعة أيضا : المال العاريّة ، وفي الحديث : « بئس المال القلعة ».

والنّجْعة : طلب الكلأ في موضعه ، وفلان ينتجع الكلأ ، ومنه انتجعت فلانا ، إذا أتيته تطلب معروفه .

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى ، فقال : « من هوانها أنه خَلَط حلالها بحرامها... » الكلام ، مراده تفضيل الدار الآتية على هذه الحاضرة ، فإنّ تلك صفو كلّها وخير كلّها ؛ وهذه مشوبة ؛ والكدَر والشرّ فيها أغلب من الصَّفْو والخير . ومن كلام بعض الصالحين : من هوان الدّنيا على الله أنه لا يعصَى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها . ويروى : « ولم يضنّ بها على أعدائه » ، والرواية المشهورة « عن أعدائه » ، وكلاهما مستعمل .

والزهيد : القليل ، والعتيد : الحاضر . والسيْر : سير المسافر .

ثم أمرهم بأنْ يجعلوا الفرائض الواجبة عليهم من جُملة مطلوباتهم ، وأن يسألوا الله من الإعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألهم ، أي كما ألزمهم وافترض عليهم ، فسمّى ذلك سؤالا لأجل المقابلة بين اللفظين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[1] ، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله : « فإنّ الله لا يَمَلّ حتى تَمَلُّوا » وكما قال الشاعر :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أحـدٌ عَلَيْنَا ٠ فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[2]

ثم أمرهم أن يُسمعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت ، فيَحلّ بهم . ومثل قوله : « تبكي قلوبهم وإن ضحكوا » قول الشاعر ، وإن لم يكن هذا المقصد بعينه قَصَد :

كَمْ فَاقَةٍ مستورةٍ بمروءة ... وضرورةٍ قد غُطّيَتْ بتجمُّلِ

ومن ابتسامٍ تحته قلبٌ شجٍ ... قد خامرته لوعةٌ ما تنجَلِي

والمقت : البغض : واغتبطوا : فرحوا .

وقوله : « أملَكَ بكم » مثل « أولى بكم » . وقوله : « والعاجلة أذهب بكم من الآجلة » أي ذهبت العاجلةُ بكم واستولت عليكم أكثرَ مما ذهبت بكم الآخرة ، واستولت عليكم .

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فِطْرَة واحدة ، وهي دين الله وتوحيده ؛ وإنما اختلفوا وتفرّقوا باعتبار أمر خارجيّ عن ذلك ؛ وهو خبْث سرائرهم وسوء ضمائرهم ، فصاروا إلى حالٍ لا يتوازرون ، أي لا يتعاونون ، والأصل الهمز ، آزرته ، ثم تقلب الهمزة واوا ، وأصل قوله : « فلا توازرون » « فلا تتوازرون » فحذفت إحدى التاءين ، كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾[3] ، أي لا تتناصرون ، والتبادل : أن يجودَ بعضهم على بعض بماله ويبذله له .

---

(١) سورة الشورى ٤٠ . (٢) لعمرو بن كلثوم ، من المعلقات بشرح التبريزي ٢٣٨ .
(٣) سورة الصافات ٢٥

ومثل قوله عليه السلام « مابالكم تفرحون بكذا ، ولا تحزنون لكذا ، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم » من هذا قول الرضى رحمه الله :

نَقْصُ الجديدين من عمرى يزيدُ على ... ماينقصان على الأيام من مالِى [1]

دهرٌ تؤثّر فى جسمى نوائبه ... فما اهتمامىَ أنْ أودَى بسربالى

والضمير فى « يخاف » راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له ؛ أى مايخافه الأخ من مواجهته بعينه .

قوله :« وصار دينُ أحدكم لُعْقةً على لسانه » أخذه الفرزدق ، فقال للحسين بن علىّ عليه السلام ، وقد لقيَه قادما إلى العراق ، وسأله عن الناس : « أمّا قلوبهمُ فمعك ، وأمّا سيوفهم فعليك ، والدين لُعْقَةٌ على ألسنتهم ، فإذا امتحصوا قلّ الديّانون » ، واللفظة مجاز ، وأصل اللُّعقة شىء قليل يُؤخذ بالمِلْعقة من الإناء ، يصف دينهم بالنَّزَارة والقِلّة كتلك اللعقة ؛ ولم يقنع بأن جعله لُعقة حتى جعله على ألسنتهم فقط ، أى ليس فى قلوبهم .

(١) ديوانه ، لوحة ١٥٠ ؛ من قصيدة يرثى فيها صديقاً له .

(١١٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلْوَاصِلِ ٱلْحَمْدَ بِالنِّعَمِ ، وَٱلنِّعَمَ بِالشُّكْرِ ؛ نَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ ؛ كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلَائِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ ، ٱلسِّرَاعِ إِلَى مَانُهِيَتْ عَنْهُ . وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ ؛ عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ ؛ وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ . وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ ٱلْغُيُوبَ ، وَوَقَفَ عَلَى ٱلْمَوْعُودِ ؛ إِيمَاناً نَفَى إِخْلَاصُهُ ٱلشِّرْكَ ، وَيَقِينُهُ ٱلشَّكَّ . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ ٱلْقَوْلَ ، وَتَرْفَعَانِ ٱلْعَمَلَ ؛ لَا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ مِنْهُ .

* * *

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللّٰهِ بِتَقْوَى ٱللّٰهِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلزَّادُ وَبِهَا ٱلْمَعَاذُ ؛ زَادٌ مُبْلِغٌ ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ ؛ دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ ؛ فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا ، وَفَازَ وَاعِيهَا .

عِبَادَ ٱللّٰهِ ؛ إِنَّ تَقْوَى ٱللّٰهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ ٱللّٰهِ مَحَارِمَهُ ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ ؛ حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ ؛ وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ ، فَأَخَذُوا ٱلرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ ، وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ ، وَٱسْتَقْرَبُوا ٱلْأَجَلَ ، فَبَادَرُوا ٱلْعَمَلَ ، وَكَذَّبُوا ٱلْأَمَلَ ، فَلَاحَظُوا ٱلْأَجَلَ .

ثُمَّ إِنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ ؛ فَمِنَ ٱلْفَنَاءِ أَنَّ ٱلدَّهْرَ مُوتِرٌ [1] قَوْسَهُ ، لَا تُخْطِئُ سِهَامُهُ ، وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ ، يَرْمِي ٱلْحَيَّ بِالْمَوْتِ ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ ؛ آكِلٌ لَا يَشْبَعُ ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ . وَمِنَ ٱلْعَنَاءِ أَنَّ ٱلْمَرْءَ يَجْمَعُ

(١) مخطوطة النهج : « موتّر » بالتشديد .

مَالا يَأْكُلُ ، وَيَبْنِى مَالا يَسْكُنُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؛ لا مَالاً حَمَلَ ، وَلا بِنَاءً نَقَلَ .

وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً ، وَالمَغْبُوط مَرْحُوماً ؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ ، وَبُؤْساً نَزَلَ .

وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ ، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ ؛ فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ ، وَلا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ . فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا ، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا ، وَأَضْحَى فَيْئَهَا ! لا جَاءٍ يُرَدُّ ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ ؛ فَسُبْحَانَ اللهِ ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ !

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ ؛ فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ ، خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا ، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ !

إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ ، قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ ؛ فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ ، وَدَخَلَ الْيَقِينُ ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ ، وَكَأَنَّ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ . فَبَادِرُوا الْعَمَلَ ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ ، مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ . مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ

رَحْمَتَهُ . الرَّجَاءُ مَعَ الْجَانِي ، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي ، فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ !

* * *

الشرح

لقائل أن يقول : أمّا كونُه واصَل الحمدَ له من عباده بالنّعم منه عليهم فمعلوم ؛ فكيف قال : إنه يصلُ النِّعم المذكورة بالشكر ، والشكر من أفعال العباد ؛ وليس من أفعاله ليكون واصلًا للنّعم به !

وجواب هذا القائل ، هو أنّه لما وفّق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه فى عقولهم مقرّرا ، وبعد أن أقدرهم عليه ، صار كأنّه الفاعل له ، فأضافه إلى نفسه توسّعا ، كما يقال : أقام الأمير الحدّ ، وقتل الوالى اللصّ ؛ فأمّا حمدُه سبحانه على البلاء كحمدِه على الآلاء فقد تقدّم القول فيه . ومن الكلام المشهور : « سبحان من لا يُحمَد على المكروه سواه » ، والسرّ فيه أنه تعالى إنما يفعلُ المكروه بِنَا لمصالحنا ، فإذا حَمَدْناه عليه فإنما حمدناه على نعمة أنعم بها ، وإن كانَتْ فى الظاهر بليّة وألما .

فإن قلت : فقد كان الأحسن فى البيان أن يقول : « نحمده على بلائه ، كما نحمده على آلائه » .

قلت : إنما عكَس لأنه جاء باللفظين فى معرض ذِكْر النعم والشكر عليها ، فاستهجن أن يلقّبها بلفظة الحمد على البلاء المنافرة التى تكون بينهما ، فقال : نحمده على هذه الآلاء التى أشرنا إليها ؛ التى هى آلاء فى الحقيقة . وهذا ترتيب صحيح منتظم .

ثم سأل الله أن يعينَه على النفس البطيئة عن المأمور به ، السريعة إلى المنهىّ عنه . ومن دعاء بعض الصالحين : اللهمّ إنى أشكو إليك عدوًّا بين جنبىّ قد غلب علىّ .

وفسّر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا

ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾[1] قالوا : أراد مجاهدة النفوس. ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « أبت الأنفس إلا حبَّ المال والشرف ، وإنّ حبّهما لأذهبُ بدين أحدكم من ذئبين ضاريين باتا فى زريبة غنم إلى الصباح ، فماذا يبقيان منها !

ثم شرع فى استغفار الله سبحانه من كلّ ذنب ، وعبّر عن ذلك بقوله : « ممّا أحاط به علمُه ، وأحصاه كتابُه » ؛ لأنه تعالى عالم بكلّ شىء ، ومحيط بكلّ شىء ؛ وقد أوضح ذلك بقوله : « علمٍ غير قاصر ، وكتاب غير مغادر » ، أى غير مبق شيئا لا يحصيه ، قال تعالى: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[2].

ثم قال : « ونؤمن به إيمان مَنْ عاين وشاهد » ، لأنّ إيمان العيان أخلصُ وأوثق من إيمان الخبر ، فإنه ليس الخبر كالعيان ؛ وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو عليه السلام سيدُهم ورئيسهم ؛ ولذلك قال : « لو كشف الغطاء ماازددتُ يقينا » .

وقوله : « تُصعدان القول » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[3] وروى : « تسعدان القول » بالسين ، أى هما شهادتان بالقلب يعاضدان الشهادة باللسان ، ويُسعدانها .

ثم ذكر أنّهما شهادتان لا يخفّ ميزانٌ هما فيه ، ولا يثقلُ ميزان رفعا عنه . أمّا إنه لا يثقلُ ميزانٌ رُفعا عنه ؛ فهذا لا كلام فيه ؛ وإنما الشأن فى القضية الأولى ، لأنّ ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرجئة الخلّص ؛ وهم أصحاب مقاتل بن سليمان ، القائلون إنّه لا يضرّ مع الشهادتين معصية أصلاً ، وإنه لا يدْخُل النّارَ مَنْ فى قلبه ذرّة من الإيمان ،

---

(١) سورة التوبة ١٢٣
(٢) سورة الكهف ٤٩
(٣) سورة فاطر ١٠ .

ولهم على ذلك احتجاج قد ذكرناه في كتبنا الكلامية ، فنقول في تأويل ذلك إنّه لم يحكم بهذا على مجرّد الشهادتين ، وإنّما حَكَم بهذا على شهادتين مقيّدتين ، قد وصفهما بأنهما يصعدان القول ، ويرفعان العمل ، وتانك الشهادتان المقيّدتان بذلك القيْد ، إنما هما الشهادتان اللّتان يقارنهما فعلُ الواجب وتجنّب القبيح ، لأنه إن لم يقارنْهما ذلك لم يرْفعا العمل ، وإذا كان حكمه عليه السلام بعدخِفّة ميزان هما فيه ، إنما هو على شهادتيْن مقيّدتين لا مطلقتين ، فقد بطل قولُ مَنْ يجعل هذا الكلام حجة للمرجئة .

ثم أخذ في الوصاة بالتقوى ، وقال إنما الزاد في الدنيا الذى يزوّد منه لسفر الآخرة وبها المعاذ ، مصدر من عذْت بكذا ، أى لجأت إليه واعتصمت به .

ثم وصفهما — أعنى الزاد والمعاذ — فقال : « زاد مُبْلغ » ، أى يبلّغك المقصد والغاية التى تسافر إليها ، ومعاذ منجح ، أى يصادف عنده النجاح .

دعا إليها أسمع داع : يعنى البارئ سبحانه ؛ لأنه أشدّ الأحياء إسماعا لما يدعوهم إليه وبناء « أفعل » هاهنا من الرباعى ، كما جاء ما أعطاه للمال ؛ وما أولاه للمعروف ! وأنت أكرم لى من زيد ، أى أشدّ إكراما ؛ وهذا المكان أقفرُ من غيره ، أى أشدّ إقفارا ، وفي المثل « أفلَسُ من ابن المذلّق »[1] ، وروى : « دعا إليها أحسن داعٍ » ، أى أحسن داعٍ دعا ، ولا بدّ من تقدير هذا المميّز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن ، وإنما يوصف بالحسن أفعاله .

ووعاها خير واع ، أى من وعاها عنه تعالى وعَقَلها وأجاب تلك الدعوة ، فهو خير واع . وقيل : عنى بقوله : « أسمع داع » رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعنى بقوله : « خير واع » نفسَه ، لأنه أنزل فيه : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[2] والأول أظهر .

---

(١) فى القاموس : « وابن المذلق من عبد شمس لم يكن يجد بيت ليلة ، ولا أبوه ولا أجداده ، فقيل : « أفلس من ابن المذلق » .

(٢) سورة الحاقة ١٢

ثم قال : «فأسمع داعيها» أى لم يبق أحداً من المكلفين إلا وقد أسمعه تلك الدعوة وفازوا عليها ، أفلح مَنْ فَهِمها وأجاب إليها ، لابدمن تقديرهذا ؛ وإلافأى فوز يحصل لمن فهم ولم يجب ! والتقوى : خشية الله سبحانه ومراقبته فى السرّ والعلن ، والخشية أصلُ الطاعات ، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] وقولهسبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[2].

قوله : « حتى أسهرتْ لياليَهم ، وأظمأت هواجرَهم » من قول العرب « نهاره صائم، وليله قائم » ؛نقلوا الفعل إلى الظرف، وهومن باب الاتساع الذى يجرون فيه الظروف مجرى المفعول به ، فيقولون : الذى سرته يوم الجمعة ، أى سرت فيه ، وقال :

* ويوم شهدناه سليما وعامرا [3] *

أى شهدنا فيه سليما ، وقد اتسعوا فأضافوا إلى الظروف فقالوا :

* يا سارق الليلة أهل الدار [4] *

وقال تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [5] فأخرجوها بالإضافة عن الظرفية .

قوله عليه السلام : «فأخذوا الراحة النّصَب» يروى : «فاستبدلوا الراحة» والنَّصَب: التعب . واستقربوا الأجل : رأوه قريبا .

فإن قلت : لماذا كرّر لفظة « الأجل » ، وفى تكرارها مخالفة لفنّ البيان ؟

قلت : إنه استعملها فى الموضعين بمعنيين مختلفين ، فقوله : « استقربوا الأجل» يعنى المدة . وقوله : « فلا حظوا الأجل » يعنى الموت نفسه .

---

(١) سورة الحجرات ١٣ (٢) سورة الطلاق ٢

(٣) الكتاب ١ : ٩ ، ونسبه لبعض بنى عامر ، وبقيته :

* قليلٍ سوى طعنِ النهال نوافله *

(٤) الكتاب لسيبويه ١ : ٨٩ ، ونسبه إلى بعض الرجاز .

(٥) سورة سبأ ٣٣ .

ويروى : « موتِر » و « وموتّر » بالتشـديد . ولا تؤسّى جراحه : لاتطبّ ولاتصلح ، أسوت الجرح ، أى أصلحته . ولا ينقع : لا يروى ؛ شَرِب حتى نقع ، أى شفى غليله ، وماء ناقع ؛ وهو كالناجع ، وما رأيتُ شَرْبة أنقع منها .

وإلى قوله عليه السلام : « يجمع مالا يأكل ، ويبنى مالا يسكن » نظر الشاعر ، فقال:

أموالنـــا لذوى الميراث نجمعُها ودُورنا لخراب الدهر نبنيهـــا

وقال آخر :

أَلَمْ تر حَوْشَباً أمسى يبنّى بنـاء نفعُه لبنى بُقَيْـلَهْ
يؤمّل أن يعمّر عمر نوح وأمر الله يطرقُ كل لَيْـلَهْ

قوله: «ومن غِيَرها أنك ترى المرحوم مغبوطا والمغبوط مرحوما» ، أى يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، وقد فسره قوم فقالوا: أراد أنك ترى مَنْ هو فى باطن الأمر مرحوم ، مغبوطا ، وترى مَنْ هو فى باطن الأمر مغبوط ، مرحوما ، أى تحسب ذاك وتتخيّله ؛ وهذا التأويل غير صحيح ، لأن قوله بعده: « ليس ذلك إلا نعيما زلّ ، وبؤسا نَزَل » ، يكذّبه ويصدّق التفسير الأول .

وأضحى فيئها، من أضحى الرجل إذا برز للشمس . ثم قال : « لاجاءٍ يُرَدّ ولا ماضٍ يرتد » أى يسترد ويسترجع ، أخذه أبو العتاهية فقال :

فلا أنا راجعٌ ما قد مضى لِى وَلا أنا دافعٌ ما سوف يأتى

وإلى قوله : « ما أقرب الحىّ من الميت للحاقه به ، وما أبعـد الميت من الحى لانقطاعه عنه » نظر الشاعر ، فقال :

يا بعيدا عَنّى وليس بعيـداً من لحاقٍ به سميـع قريبُ

صِرْتُ بين الورى غريبا كما أنـــك تحت الثرى وحيد غريب

فإن قلت : ماوجه تقسيمه عليـه السلام الأمورَ التى عدّدها إلى الفناء والعناء ، والغِيَر والعبَر ؟

قلت : لقد أصاب الثّغرة وطبّق المفصِل ؛ ألا تراه ذكر فى الفناء رَمْىَ الدهر الإنسان عن قَوْس الردى ، وفى العناء جَمْع مالا يأكل ، وبناء مالا يسكن ، وفى الغِيَر الفقر بعد الغنى والغنى بعد الفقر ، وفى العِبَر انقطاع الأجل الأمل ؛ فقد ناط بكلّ لفظة ماينا سبها .

وقد نظر بعضُ الشعراء إلى قوله عليه السلام : « ليس شىء بشرّ من الشرّ إلا عقابُهُ ، وليس شىء بخير من الخير إلا ثوابه » فقال :

خـــير البضائع للإنسان مكرُمة تنْمِى وتزكو إذا بارت بضائعهُ

فالخير خيرٌ ، وخير منـــه فاعلُه والشرّ شرّ ، وشرّ منه صانعهُ

إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثواب ، والشاعر جعل مكانهما فاعل الخير والشرّ .

ثم ذكر أنّ كلّ شىء من أمور الدنيا المرغبة والمرهبة ، سماعه أعظم من عِيانه ، والآخرة بالعكس ؛ وهذا حقّ ؛ أما القضيّة الأولى فظاهرة ، وقد قال القائل :

أهتزّ عنـــد تمنّى وصْلِها طرباً ورُبّ أمنيّة أحْـــلَى من الظَّفَر

ولهذا يحرِص الواحد منّا على الأمر ، فإذا بلغه برَد وفتر ، ولم يجده كما كان يظنّ فى اللذة . ويوصف لنا البلد البعيد عَنّا بالخصب والأمن والعدل ، وسماح أهله ، وحسن نسائه ، وظَرْف رجاله ، فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وصَفَ ؛ بل ربما وجدنا القليل من ذلك ، ويُوصف لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم ، ويبالغ الواصفون فى ذلك . فإذا اختبرناه وجدناه دون ماوَصَف ؛ وكذلك قد يخاف الإنسان حبسا أو ضربا أو نحوهما فإذا

وقع فيهما هان ما كان يتخوّفه ، ووجد الأمر دون ذلك ، وكذلك القتل والموت ؛ فإنّ ما يستعظمُه النّاس منهما دون أمرهما فى الحقيقة ، وقد قال أبو الطيب — وهو حكيم الشعراء :

كلّ مالم يكنْ من الصَّعْبِ فى الأ نْفس سَهلٌ فيهـا إذا هو كانا (١)

ويقال فى المثل: لِـجِ الخوف تأمن. وأمّا أحوالُ الآخرة فلاريب أنّ الأمر فيها بالضدّ من ذلك؛ لأنّ الذى يتصوره الناس من الجنة، أنّها أشجار وأنهار ومأكول ومشروب، وجماع، وأمرها فى الحقيقة أعظمُ من هذا وأشرفُ ، لأنّ ملاذّها الروحانية المقارِنة لهـذه الملاذّ المضادّة لهـا أعظم من هذه الملاذّ بطبقات عظيمة ، وكذلك أكثر الناس يتوهّمون أنّ عذاب النار يكون أياماً وينقضى ؛ كما يذهب إليه المرجئة، أو أنه لاعذاب بالنار لمسلم أصلا؛ كما هو قول الخلّص من المرجئة، وأنّ أهل النار يألفون عذابها فلا يستضرّون به إذا تطاول الأمد عليهم؛ وأمر العذاب أصعب مما يظنّون؛ خصوصا على مذهبنا فى الوعيد؛ ولو لم يكن إلّا آلام النفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها ، فإنّ ذلك أعظمُ من ملاقاة جرْم النار لبدن الحىّ .

وفى هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة ، ليس هذا الكتاب موضوعا لها .

ثم أمرهم بأن يكتفوا من عِيان الآخرة وغيبها بالسماع والخبَر ، لأنه لاسبيل ونحن فى هذه الدار إلى أكثر من ذلك .

وإلى قوله : « ما نقص من الدنيا وزاد فى الآخرة؛ خيرٌ مما نقص من الآخرة وزاد فى الدنيا » نظر أبو الطيب ، فقال ، إلّا أنّه أخرجه فى مخرج آخر :

بلاد ما اشتهيتَ رأيتَ فيها فليس يفوتهـا إلا كِرَامُ (٢)

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٤١
(٢) ديوانه ٤ : ٧٣

فهلاّ كان نقصُ الأهل فيها وكان لأهلها منها التّمامُ!

ثم قال : « فكم من منقوص فى دنياه وهو رابح فى آخرته ، وكَمْ من مزيد فى دنياه وهو خاسر فى آخرته » . ثم قال : « إنّ الذى أمِرتم به أوسع من الذى نهيتم عنه ، وما أحِلّ لكم أكثر مما حُرّم عليكم » ؛ الجملة الأولى هى الجملة الثانية بعينها ، وإنما أتى بالثانية تأكيدا للأولى وإيضاحا لها ، ولأنّ فنّ الخطابة والكتابة هكذا هو ، وينتظم كلتا الجملتين معنى واحد ، وهو أنّ فيما أحلّ الله غنًى عمّا حرّم ، بل الحلالُ أوسع ؛ ألا ترى أنّ المباح من المآكل والمشارب أكثرُ عددا وأجناسا من المحرّمات ! فإن المحرّم ليس إلا الكلب والخنزير وأشياء قليلة غيرها ، والمحرّم من المشروب الخمر ونحوها من المسكر ؛ وما عدا ذلك حلال أكلُه وشربه ، وكذلك القول فى النكاح والتسرّى ، فإنّهما طريقان مَهْيعَان إلى قضاء الوطر ، والسّفاح طريق واحد والطريقان أكثر من الطريق الواحد .

فإن قلت : فكيف قال : « إنّ الذى أمِرتم به » فسمّى المباح مأمورا به ؟

قلت سمّى كثير من الأصوليين المباح مأمورا به ، وذلك لاشتراكه مع المأمور به فى أنّه لاحرج فى فعله ، فأطلق عليه اسمه . وأيضا فإنه لمّا كان كثير من الأمور التى عددناها مندوبا أطلق عليه لفظ الأمر ، لأن المندوب مأمور به ؛ وذلك كالنّكاح والتسرّى وأكل اللحوم ؛ التى هى سبب قوة البدن ، وشرب مايصلح المزاج من الأشربة التى لا حرَج فى استعمالها . وقال بعض العقلاء لبنيه : يابنىّ ؛ إنه ليس كل شىء من اللّذة ناله أهلُ الخسارة بخسارتهم إلاّ ناله أهلُ المروءة والصيانة بمروءتهم وصيانتهم ؛ فاستتروا بستر الله ودخل إنسان على علىّ بن موسى الرضا عليه السلام ، وعليه ثياب مرتفعة القيمة ؛ فقال : يا بن رسول الله ، أتلبس مثل هذا ؟ فقال له : مَنْ حَرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق !

ثم أمر بالعمل والعبادة ، ونهى عن الحِرْص على طلب الرزق ، فقال : إنكم أمِرْتم بالأوّل وضُمِن لكم الثانى ؛ فلا تجعلوا المضمون حصولُه لكم هو المخصوص بالحِرْص والاجتهاد ؛ بل ينبغى أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بعمله وهو العبادة . وقد يتوهّم قومأنه ارتفع «طلبه » بـ « المضمون» ؛ كقولك : المضروب أخوه ؛ وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبَه ، وإنما ضمن حصوله ؛ ولكنه ارتفع ؛ لأنه مبتدأ وخبره أولى ؛ وهذا المبتدأ والخبر فى موضع نصب ، لأنه خبر « يكونَنّ » أوارتفع لأنه بَدل من « المضمون » ؛ وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول ؛ وهو بدل الاشتمال .

ثم ذكر أنّ رجعة العمر غيرُ مرجوّة ، ورجعة الرزق مرجوّة ؛ أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستعيضه ؛ أى يكتسب عِوَضه فى الغدِ دينارا ، وأمّا « أمس » نفسه فمستحيل أن يعود ولا مثله ، لأن الغد وبَعْد الغد محسوب من عمره ؛ وليس عوضا من الأمس الذاهب . وهذا الكلام يقتضى أنّ العمرَ مقدور ، وأن المكاسب والأرزاق إنما هى بالاجتهاد ، وليست محصورة مقدّرة ، وهذا يناقض فى الظاهر ما تقدّم من قوله : « إنّ الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه » ، فاحتاج الكلام إلى تأويل ، وهو أنّ العمر هو الظرف الذى يوقع المكلّف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى ، المخلّصة له من الشقاوة العظمى ؛ وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصّة ، فكلّ جزء منه إذا فات من غير عمل لما بعد الموت ، فقد فات على الإنسان بفواتِهِ مالا سبيل له إلى استدراكه بعينه ولا اغترام مثله ، لأن المثل الذى له إنما هو زمان آخر ، وليس ذلك فى مقدور الإنسان ، والزمان المستقبل الذى يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه ، فيقال : إنّه حصله عوَضاً مما انقضى وذهب من عمره ؛ وإنما هو فعل غيره ؛ ومع ذلك فهو معدّ ومهيّأ لأفعال من العبادة توقع فيه ، كما كان الجزء الماضى معدًّا لأفعال

توقع فيه ، فليس أحدُهما عوضاً عن الآخر ولا قائما مقامه،وأمّا المنافع الدنيويّة كالمآكل والمشارب والأموال ، فإن الإنسان إذا فاته شيء منها قَدَر على ارتجاعه بعينه ، إن كانت عينه باقية ، ومالا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله ، والرزق وإن كان مضمونا من الله إلّا أنّ للحركة فيه نصيباً ، أمّا أن يكون شرْطا أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة الإنسان ، كحركته واعتماده وسائر أفعاله،ويكون الأمر بالتوكّل والنهى عن الاجتهاد فى طلب الرزق على هذا القول ، إنما هو نهى عن الحرص والجشع والتهالك فى الطلب ؛ فإنّ ذلك قبيح يدلّ على دناءة الهمة وسقوطها .

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذاهب ، لأنّ الأمر الذى يراد الذاهب له يمكن حصوله بهذا المكتسب؛وليس كذلك الزمان الذاهب من العمر،لأنّ العبادات والأعمال التى كان أمسِ متعينا لها ، لا يمكن حصولُها اليوم،على حدّ حصولها أمس ، فافترق البابان : باب الأعمال ، وباب الأرزاق .

وقوله : « الرجاء مع الجائى ، واليأس مع الماضى » ، كلام يجرى مجرى المثل ، وهو تأكيد للمعنى الأول ، وجعل الجائى مرجوّا لأنه لا يعلم غيبه ، قال الشاعر :

مَامَضَى فَاتَ والمقدَّر غَيْبٌ ولَكَ السَّاعــةُ التى أنت فيها

وقوله : « حق تقاته » ، أى حق تقيّته ، أى خوفه ، اتقى يتقى تقية وتقاة ، ووزنها « فُعَلة » وأصلها الياء ، ومثلها اُتخم تخمة : واتهم تهمة .

(١١٤)

ومن خطبة له عليه السلام فى الاستسقاء :

الأَصْلُ :

اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا !
اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الْآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ !
اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا !
اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجُودِ؛ فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ.

نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ؛ أَلَّا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا؛ وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا؛ وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ، سَحًّا وَابِلًا، تُحْيِي بِهِ مَاقَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَاقَدْ فَاتَ.

اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيئَةً مَرِيعَةً، زَاكِيًا نَبْتُهَا، ثَامِرًا فَرْعُهَا، نَاضِرًا وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِن بِلَادِكَ !

اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا، وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا؛ مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَارًا هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا

ٱلْقَطْرَ ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا ، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا ، وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا ، وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا ، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا ٱلْمُجْدِبُونَ ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا ٱلْمُسْنِتُونَ ؛ فَإِنَّكَ تُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطُوا ، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

***

قال الشريف الرضى رحمه الله تعالى :

قوله عَلَيْهِ السَّلَام: « ٱنْصَاحَتْ جِبَالُنَا »،أَيْ تَشَقَّقَتْ مِنَ ٱلْمحول، يُقَالُ:ٱنْصَاحَ الثَّوْبُ ، إِذَا ٱنْشَقَّ . وَيقَالُ أَيْضاً : ٱنْصَاحَ النَّبْتُ ، وَصَاحَ وَصَوَّحَ ؛ إِذَا جَفَّ وَيَبِسَ؛ كُلُّهُ بِمَعْنًى .

وَقَوْلُه : « وَهَامَتْ دَوَابُّنَا » أَيْ عَطِشَتْ ، وَٱلْهُيَامُ : الْعَطَشُ .

وَقَوْلُهُ : «حَدَابِيرُ السِّنِينَ» ، جَمْعُ حِدْبَارٍ؛وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي أَنْضَاهَا السَّيْرُ؛فَشَبَّهَ بِهَا السَّنَةَ الَّتِي فَشَا فِيهَا ٱلْجَدْبُ ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ :

حَدَابِيرُ مَاتَنْفَكُّ إِلَّا مُنَاخَـــةً ... عَلَى ٱلْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلَداً قَفْرَا[1]

وَقَوْلُهُ : « وَلَا قَزَعٌ رَبَابُهَا » ، ٱلْقَزَعُ : ٱلْقِطَعُ الصِّغَارُ ٱلْمُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ .

وَقَوْلُهُ : «وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا» فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ:«وَلَا ذَاتَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا»،وَالشَّفَّانُ الرِّيحُ ٱلْبَارِدَةُ ، وَالذِّهَابُ : ٱلْأَمْطَارُ اللَّيِّنَةُ ، فَحُذِفَ « ذَاتُ » لِعِلْمِ السَّامِعِ بِهِ .

***

---

(١) ديوانه ١٧٣ ، وروايته : « حراجيج ما تنفك » .

الشَّرْحُ :

يجوز أن يريد بقوله : « وهامت دوابُّنا » معنًى غير ما فسّره الشريف الرضيّ رحمه الله به ، وهو نُدودها وذهابُها على وجوهها لشدة المحْل ، يقول : هام على وجهه ، يهيم هَيْماً وهَيَمَاناً .

والمرابض : مبارك الغنم ، وهي لها كالمواطن للإبل ، واحدها مَرْبِض ، بكسر الباء مثل مجلِس . وعَجّت : صرخت . ويحتمل الضمير في « أولادها » أن يرجع إلى الثكالى ، أي كعجيج الثكالى على أولادهنّ ، ويحتمل أن يرجع إلى الدوابّ ، أي وعَجّت على أولادها كعجيج الثكالى ، وإنّما وصفها بالتّحيُّر في مَرَابضها ، لأنّها لشدّة المحْل تتحيّر في مباركها ، ولا تدري ماذا تصنع ؛ إن نهضت لترعَى لم تجد رعيا ، وإن أقامت كانت إلى انقطاع المادّة أقرب !

قوله : « وملّت التردد في مراتعها ، والحنين إلى مواردها » ، وذلك لأنّها أكثرتْ من التردّد في الأماكن التي كانت تعهد مراتعها فيها فلم تجد مرتعا ، فملّت التَّرداد إليها ، وكذلك ملّت الحنين إلى الغدران والموارد التي كانت تعتادها للشرب ، فإنّها حنّت إليها لما فقدتْها ، حتى ضجرت ويئست فملّت مما لا فائدة لها فيه .

والآنّة والحانّة : الشاة والناقة ، ويقال : ماله حانّة ولا آنّة . وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوَصَب ، يقال : أنّ يئنّ أنينا وأنانا وتأنانا .

والموالج : المداخل ؛ وإنما ابتدأ عليه السلام بذكر الأنعام وما أصابها من الجدْب اقتفاء بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولعادة العرب ، أما سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال : « لولا البهائم الرتَّع ، والصبيانُ الرّضع ، والشيوخُ الرّكع ، لصبّ

عليكم العذاب صَبًّا » ، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استحباب إخراج البهائم فى صلاة الاستسقاء . وتقدير دعائه عليه السلام : اللّهمّ إن كنتَ حرمتنا الغيث لسوء أعمالنا ، فارحم هذه الحيوانات التى لا ذنب لها ، ولا تؤاخذها بذنوبنا . وأمّا عادة العرب فإنّهم كانوا إذا أصابهم المحْل استسقوْا بالبهائم ، ودعوا الله بها واسترحموه لها ؛ ومنهم من كان يجعل فى أذناب البقر السّلع والعُشَر [1] ، ويصعد بها فى الجبال والتلاع العالية ، وكانوا يُسْقَوْن بذلك ؛ وقال الشاعر :

أجاعلٌ أنتَ بَيْقُوراً مسلَّعةً ذريعــــةً لك بين الله والمطر [2]

فاعتــكرت : رَدِف بعضُها بعضا ، وأصل عَــكَر عطف . والعــكْرة . الــكرّة ، وفى الحديث : قال له قوم : يارسول الله ، نحن الفرّارُون . فقال : « بل أنتم العــكّارون إن شاء الله » [3] .

والبيت الذى ذكره الرضىّ رحمه الله لذى الرّمة ، لا أعرفه إلا « حراجيج » ، وهكذا رأيتُه بخط ابن الخشّاب رحمه الله ، والحرجُوج : الناقة الضّامرة فى طول .

وفيه مسألة نحوية ، وهى أنه كيف نقَضَ النفى من « ماتنفكّ » وهو غير جائز ، كما لا يجوز مازال زيد إلا قائما ؟ وجوابها أنّ تنفكّ هاهنا تامّة ، أى ماتنفصل ، ومناخة منصوب على الحال .

قوله : « وأخْلفتنا مخايل الجوْد » ، أى كلّما شِمْنا برقًا ، واختلنا سحابا ، أخلَفَنا ولم يمطر . والجوْد : المطر الغزير . ويروى : « مخايل الُجود » بالضم .

---

(١) السلع : نبات ، وقيل : شجر مرّ . والعشر : شجر من العضاه ، وله صمغ حلو .

(٢) اللسان ١٠ : ٢٥ ، ونسبه إلى الورك الطائى .

(٣) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٢٠ ؛ قال فى شرحه : « أى الــكرارون إلى الحرب ، والعطافون نحوها ؛ يقال للرجل الذى يولى عن الحرب ثم يكر راجعاً إليها : عكر واعتكر » .

والمبتئس : ذو البؤس . والبلاغ للملتمس ، أى الكفاية للطالب .

وتقول : قنَط فلان ، بالفتح ، يقنُط ويقنِط ، بالكسر والضم ، فهو قانط . وفيه لغة أخرى قَنِط بالكسر ، يقنَط قنَطا ، مثل تعِب يتعَب تعباً ، وقناطةً أيضا ، فهو قنِط . وقرئ : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْقَنِطِينَ ﴾ (١) .

وإنما قال : « ومُنِـع الغمام »؛فبني الفعلَ للمفعول به؛لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله تعالى ، وهو منبَع النعم ، فاقتضى حسنُ الأدب أنّه لم يسمّ الفاعل . وروى «مَنَع الغمام»، أى ومَنَع الغمام القطر ، فحذف المفعول . والسوام : المال الراعى .

فإن قلت : ماالفرق بين « تؤاخذنا » وبين « تأخذنا » ؟

قلت : المؤاخذة دون الأخذ ؛ لأنّ الأخذ الاستئصال ، والمؤاخذة عقوبة وإن قلّت .

والسحاب المنبعِق : المتبعّج بالمطر ، ومثله المتبعّق ، ومثله البُعاق . والربيع المغدق : الكثير . والنبات المونق : المعجب .

وانتصب « سحّا » على المصدر . والوابل : المطر الشديد .

ثم قال : « تُحْـيِي بهماقد مات »،أى يكاد يتلف بها من الزرع.وتردّ به ماقد فات، أى يستدرك به الناس مافاتهم من الزرع والحرث .

والسقيا مؤنثة ؛ وهى الاسم من سَقَى . والمريعة : الخصيبة .

و « ثامراً فرعُها » : ذو ثمر ، كما قالوا : لابن وتامر ؛ ذو لبن وتمر .

وتنعش : ترفع . والنِّجاد : جمع نَجْد،وهو ماارتفع من الأرض . والوهاد:جمع وَهْد، وهو المطمئنّ منها ؛ وروى : « نجادَنا » بالنصب على أنه مفعول .

---

(١) سورة الحجر ٥٥

قوله : « وتندى بها أقاصينا » ، أى الأباعد منّا . ويندى بها : ينتفع ، نديت بكذا، أى انتفعت .

والضواحى: النواحى القريبة من المدينة العظمى . والمرملة : الفقيرة ، أرمل افتقر ونفد زاده . ووحشك المهملة : التى لا راعى لها ولا صاحب ولا مشفق .

وسماء مخضِلَة : تُخضِل النبت أى تبلّه ،وروى:« مخضَلّة » أى ذات نبات وزروع مخضَلّة ؛ يقال : اخضلّ النبت اخضلالا ، أى ابتلّ ؛ وإنما أنّث السماء وهو المطر وهو مذكر ، لأنه أراد الإمطار . والودْق : المطر . ويحفِز : يدفع بشدّة ؛ وإذا دفع القطر القطر ، كان أعظم وأغزر له .

وبرق خُلّب : لا مطر معه ، وسحاب جَهام : لا ماء فيه . والمجدِبون : أهل الجدْب. والمسنِتُون الذين أصابتهم السنَة وهى المحْل والقحط الشديد .

***

[صلاة الاستسقاء وآدابها]

واعلم أنّ صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سُنّة .

وقال أبو حنيفة : لا صلاة للاستسقاء . قال أصحابه : يعنى ليست سنّة فى جماعة،وإنّما يجوز أن يصلِّىَ الناس وُحدانا ، قالوا : وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستغفار .

وقال باقى الفقهاء كالشافعىّ وأبى يوسف ومحمد وغيرهم بخلاف ذلك . قالوا: وقد روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس جماعةً فى الاستسقاء ، فصلّى ركعتين ، جَهَر بالقراءة فيهما وحوّل رداءه ورفع يديْه واستسقى . قالوا : والسنّة أنْ يكون فى المصلّى ، وإذا أراد الإمام الخروج لذلك وَعَظ الناس ، وأمرهم بالخروج من المظالم والتوبة من المعاصى ، لأنّ ذلك يمنع القطر .

قالوا : وقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إذا بُخس المكيال حُبِس القطر .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾(١) ، قال : دوابّ الأرض تلعنهم، يقولون : مُنِعنا القَطْر بخطاياهم .

قالوا : ويأمر الإمام النّاس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج ، ثم يخرج فى اليوم الرابع وهم صيام ويأمرهم بالصّدَقة ، ويستسقى بالصالحين من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله كما فعل عمر ، ويحضر معه أهل الصلاح والخير ، ويستسقى بالشُّيوخ والصبيان .

واختلفوا فى إخراج البهائم ، فنهم من استحبّ ذلك ، ومنهم من كرِهَه . ويُكره إخراج أهل الذمّة ، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يمنعوا . والغُسْلُ والسواك فى صلاة الاستسقاء عندهم مسنونان ، ولا يستحبّ فيهما التطيُّب ، لأنّ الحال لا يقتضيه .

وينبغى أنْ يكونَ الخروج بتواضع وخشوع وإخبات ، كما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله للاستسقاء .

قالوا : ولا يؤذَّن لهذه الصلاة ولا يقام ، وإنما ينادَى لها : الصلاة جامعة ! وهى ركعتان كصلاة العيد ، يكبّر فى الأولى سبع تكبيرات ، وفى الثانية خمس تكبيرات .

قالوا : ويخطب بعد الصلاة خطبتين ، ويكون دعاء الاستسقاء فى الخطبة الأولى .

قالوا : فيقول : اللهمّ اسقنا غيثا مغيثا ، هنيئا مريئا مريعا ، غَدَقا مجللا طَبَقاً ، سَحًّا دائما . اللهمّ اسقِنا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهمّ إنّ بالعباد والبلاد من اللأْواء والضَّنْك والجهد مالا نشكوه إلاَّ إليك . اللهمّ أَنبت لنا الزّرع ، وأدرّ لنا الضَّرْع ، واسقنا من بركات السماء . اللهمّ اكشف عنّا الجهد والجوع والعُرْى ، واكشف عنّا مالا يكشفه غيرك . اللهمّ إنا نستغفرك ؛ إنك كنت غفارا ، فأرسِل السماء علينا مدرارا .

---

(١) سورة البقرة ١٥٩

قالوا : ويستحبّ أن يستقبل القبلة فى أثناء الخطبة الثانية ، ويحوّل رداءه فيجعل ما على الأيمن على الأيسر ، وما على الأيسر على الأيمن تفاؤلا بتحوّل الحال . وكذا رُوى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فعل ، ويستحبّ للناس أن يحوّلوا أرديتهم مثله، ويتركوها كما هى ، ولا يعيدوها إلى حالها الأولى إلّا إذا رجعوا إلى منازلهم .

ويستَحَبّ أن يدعُوَ فى الخطبة الثانية سرّا فيجمع بين الجهر والسرّ ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ [1] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ [2] ﴾. قالوا : ويستحبّ رفع اليد فى هذا الدعاء ، وأن يكثروا من الاستغفار لقوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا [3] ﴾ ، فإن صلّوا واستسقَوْا فلم يُسْقَوْا عادوا من الغد ، وصلّوا واستسقَوْا ، وإن سُقوا قبلَ الصّلاة صلوا شكرا وطلبا للزيادة .

قالوا : ويستحبُّ أن يقِفُوا تحت المطر حتى يصيبهم ، وأن يحسِرُوا له عن رءوسهم؛ وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله حَسَر عن رأسه حتى أصابه مطر الاستسقاء .

ويستحَبّ إذا سال الوادى أن يغتسلوا فيه ، ويتوضئوا منه .

وقد استحَبّ قوم من الفقهاء أن يخرُجَ النّاس للاستسقاء حُفاة حاسرين، والأكثرون على خلاف ذلك .

فأما مذهب الشيعة فى هذه المسألة فأن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين، فيكبّر الله مائة تكبيرة ، ويرفع بها صوته ويكبّر مَنْ حضر معه ، ثم يلتفت عن يمينه فيسبّح الله مائة تسبيحة ، يرفع بها صوته ، ويسبّح معه مَنْ حضر ، ثم يلتفت عن يساره فيهلّل الله

---

(١) سورة نوح ٩
(٢) سورة الأنعام ٦٣
(٣) سورة نوح ١٠ ، ١١

مائة مرة يرفع بهـا صوته ، ويقول من حضر مثل ذلك ، ثم يستقبل الناس بوجهه ، فيحمد الله مائة مرة ، يرفع بها صوته ويقول معه مَنْ حضر مثل ذلك ؛ ثم يخطب بهذه الخطبة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام فى الاستسقاء ، فإنْ لم يتمكّن منهـا اقتصر على الدعاء .

[أخبار وأحاديث فى الاستسقاء]

وجاء فى الأخبار الصحيحة رؤيا رُقيقة فى الجاهلية ؛ وهى رقيقة بنت أبى صيفىّ ابن هاشم بن عبد مناف[1] ، قالت رقيقة : تتابعتْ على قريش سنُون أقحلت[2] الضّرْع وأرقّت العظم ، فبينا أنا راقدة[3] ـ اللهمّ ـ أو مُهوّمة[4] [ومعى صِنْوى][5] ، إذا أنا بهـاتف صَيّت[6] يصرخ بصوت صَحِل[7] : يامعشر قريش ؛ إنّ هـذا النبىّ المبعوث فيـكم قد أظلّتـكم أيامه ، وهـذا إبّان نجومه[8] ؛ فحيّهلا[9] بالخصب والحيا[10] . ألا فانظروا رجلا منكم عُظاما جُسّاما[11] ، أبيض بَضّا ، أوطفَ الأهْداب[12]

---

(١) وكانت لدة عبد المطلب بن هاشم .

(٢) أقحلت ، من قحل قحولا ، وقحل قحلا إذا يبس .

(٣) الرقود : النوم بالليل المستحكم الممتد ؛ ومنه قولهم : طريق مرقد ؛ إذا كان بيناً ممتداً .

(٤) هوموا وتهوموا ؛ إذا هزوا هامهم من النعاس .

(٥) من الفائق .

(٦) الصيت : فيعـل ، من صات يصوت ويصات كالميت من مات ، ويقال فى معناه : صائت وصات ومصوات .

(٧) الصحل : الذى فى صوته ما يذهب بجدته ؛ وهو مستلذ فى السمع .

(٨) إبان نجومه : وقت ظهوره ، وهو فعلان ؛ من أب الشىء إذا تهيأ .

(٩) فحيهلا ، بألف مزيدة ، ويجوز التنوين والتنـكير ، أى عجل .

(١٠) الحيا : المطر ؛ لأنه حياة الأرض .

(١١) الفائق : « طوالا » .

(١٢) أوطف الأهداب : طويلها .

سَهْل الخدين ؛ أشمّ العِرْنين ، له سُنَّة[1] تَهدى إليه . ألا فلْيخلُص[2] هو وولده ، وليدلِفْ إليه من كلٍّ بطْن رجل . ألا فليشنُّوا[3] عليهم من الماء ، وليمسُّوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ؛ وليكن فيهم الطيّب الطّاهر [لداته][4] . فليستق الرجلُ ، وليؤمّن القوم . ألا فغِثتمُ[5] إذا ما شئتم .

قالت : فأصبحتُ — علم الله — مذعورة قَدْ[6] قفّ جِلدِى ، وَوَلِهَ عقلى ، فاقتصصت رؤياى على الناس ، فذهبت فى شِعَاب مكة ؛ فو الحرْمة والحرَم ؛ إن بقى أبطحىٌّ إلا وقال : هذا شيبة الحمد[7] .

فتتامّت[8] رجال قريش ، وانقضّ إليه من كلٍّ بطنٍ رجل ، فشنُّوا عليهم ماء ، ومسوّا طيبا ، واستلموا وأطَّوّفوا ، ثم ارتقوْا أبا قُبَيْس ، وطفِق القوم يَدِفون حول[9] عبد المطلب ، ما إن يُدْرِك سعيهم مَهْلهُ[10] ؛ حتى استقرّوا بذِرْوة الجبل ، واستَكَفُّوا[11] جانبيه .

فقام فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله عليه وآله ، فرفعه على عاتقه ؛ وهو يومئذ غلام

---

(١) الفائق : « له فخر » .

(٢) فليخلص : فليتميز هو وولده من الناس .

(٣) شن الماء : صبه على رأسه .

(٤) زيادة من الفائق ؛ قال فى شرحه : « يعنى أن مولده وموالد من مضى من آبائه كلها موصوف بالطهر والزكاة ، أو يراد أترابه ، وذكر الأتراب أسلوب من أساليبهم فى تثبيت الصفة وتمكينها » .

(٥) غثتم : مطرتم .

(٦) قف شعرى : تقبض .

(٧) قال الزمخشرى : اسم عبد المطلب عامر ؛ وإنما قيل له شيبة الحمد لشيبة كانت فى رأسه ؛ وعبد المطلب ، لأن هاشما تزوج سلمى بنت زيد النجارية ، فولدته ، فلما توفى هاشم وشب الغلام انتزعه المطلب عمه من أمه ، وأردفه على راحلته ، وقدم به مكة . فقال الناس : أردف المطلب عبده .

(٨) التتام : التوافر .

(٩) الدفيف : المر السريع .

(١٠) المهل ، بالإسكان : التؤدة ؛ أى لا يدرك إسراعهم إبطاءه .

(١١) استكفوا : أحدقوا ؛ من الكفة وهى ما استدار .

قد أيفع أو كَرَب[١]، ثم قال : اللهمّ سادّ الخلّة ، وكاشفَ الكُربة ، أنت عالم غير مُعَلَّم ، ومسئول غير مبخَّل ، وهذه عِبدّاؤك[٢] وإماؤك بعذارات[٣] حَرَمِك ، يشكون إليك سَنَتَهم التى أذهبت الخفّ والظلف ، فاسمعنّ اللهمّ ، وأمطرَنّ علينا غيثا مُغْدِقاً مريعا سَحًّا طَبَقا دراكا .

قالت : فوربّ الكعبة ماراموا حتى انفجرت السماء بمائها واكتظّ الوادى بثجيجه[٤] وانصرف الناس يقولون لعبد المطلب : هنيئا لك سيدَ البطحاء !

وفى رواية أبى عبيدة معمَر بن المثنَّى قال : فسمعنا شِيخانَ[٥] قريش وجِلّتها : عبد الله بن جُدعان وحرب بن أمية وهشام بن المغيرة ، يقولون لعبد المطلب : هنيئا لك ، أبا البطحاء[٦] !

وفى ذلك قال شاعر من قريش وقد روى هذا الشعر لرقيقة :

بشيبة الحمـــدِ أسْقَى الله بَلْدَتَنَا ... وقد فقدنا الحَيَا واجلوّذ المطرُ[٧]
فجاد بالمـــــاء وسمِىٌّ لَهُ سَبَلٌ ... سَحًّا ، فعاشت به الأنعام والشجر[٨]

* * *

وفى الحديث من رواية أنس بن مالك : أصاب أهلَ المدينة قَحْط على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقام إليه رجل وهو يخطب يوم جمعة ، فقال : يا رسول الله ، هَلَكَ الشاء ، هلك الزّرع[٩] ، ادعُ الله لنا أن يسقينا ، فمدّ عليه السلام يده ، ودعا واستسقى ،

(١) كرب ، أى قرب من الإيقاع .
(٢) العبداء والعبدى : العبيد .
(٣) العذرات : جمع العذرة ؛ وهى الفناء .
(٤) الثجيج : المثجوج ، أى المصبوب .
(٥) الشيخان : جمع شيخ ، كالضيفان فى جمع ضيف .
(٦) الخبر فى الفائق ٢ : ٣١٤ ـ ٣١٧
(٧) اجلوّذ المطر ، أى امتد وقت تأخره وانقطاعه .
(٨) سبل : أى مطر جود هاطل .
(٩) سنن أبى داود : « هلك الكراع ، هلك الشاء » .

وإن السماء كمثل الزّجاجة ، فهاجت ريح ثم أنشأت سحابا ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت عزَالِيَها[١] ، فخرجنا نخوض المـاء حتى أتينا منازلَنا ، ودام القَطْر ، فقام إليه الرجل فى اليوم الثالث . فقال : يا رسول الله ، تهدّمت البيوت ، ادع الله أن يحبسَه عنّا . فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم رفع يده : وقال : « اللّهم حَوَالينا ولا علينا » .

قال أنس : فو الذى بعث محمداً بالحقّ ، لقد نظرتُ إلى السحاب ، وإنه لقد انجابَ حول المدينة كالإكليل[٢] .

* * *

وفى حديث عائشة أنه عليه السلام استسقى حين بدأ قرنُ الشمس ، فقعد على المنبر ، وحمِد الله وكبّره ، ثم قال : إنـكم شكوتُم جَدْبَ دياركم ، وقد أمركم الله أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيبَ لـكم فادعوه . ثم رفع صوته فقال : « اللهمّ إنك أنت الغنىّ ، ونحن الفقراء ، فأنزِلْ علينا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهمّ اجعل ما تنزله علينا قوةً لنا ، وبلاغاً إلى حين ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين » . فأنشأ الله سحابا ، فرعَدَتْ وبرَقت ، ثم أمطرت ، فلم يأت عليه السلام منزله ، حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعَتَهم إلى الـكِنّ ضحك حتى بدت نواجذه ، وقال : أشهد أنّى عبد الله ورسوله ، وأن الله على كلّ شىء قدير[٣] .

* * *

ومن دعائه عليه السلام فى الاستسقاء وقد رواه الفقهاء وغيرهم : « اللهم اسقنا وأغثنا ، اللهم اسقِنا غيثا مُغيثا ، وحَيًا ربيعاً ، [وجَداً][٤] طَبَقاً ، غدَقاً مُغدِقا[٥] ، مونِقا[٦] عامًّا ،

(١) العزالى فى الأصل : جمع عزلاء ، وهو مصب الماء من الراوية ، ويريد شدة وقع المطر ، على التشبيه.
(٢) الحديث فى سنن أبى داود ١ : ٤١٦ ، مع اختلاف فى الرواية .
(٣) الحديث فى سنن أبى داود ١ : ٤١٦ ، مع اختلاف الرواية أيضاً .
(٤) من الفائق ، والجدا : والطبق مثله .
(٥) المغدق : الـكثير المطر .
(٦) مونقاً : معجباً .

هنيئا مريئا ، مَرِيعا مُرْبعا[1] مرتعا[2] ، وابلا سابلا[3] مسيلا ، مجلّلا[4] ، درًّا ، نافعا غير ضارّ ، عاجلا غير رائث[5] . غيثا – اللهمّ – تحيي به العباد ، وتغيث به البلاد ، وتجعله بلاغا للحاضر منّا والباد ؛ اللهم أنزل علينا فى أرضنا زينتها ، وأنزل علينا فى أرضنا سكَنها . اللهم أنزل علينا ماء طَهوراً ، فأحيِى به بلدةً ميتا ، واسقه مما خَلَقت لنا أنعاما وأناسىّ كثيرا »[6] .

* * *

وروى عبد الله بنُ مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستسقى بالعباس ، فقال : اللهمّ إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيك وقفيّة[7] آبائه[8] وكُبْرِ رجاله ، فإنك قلت ، وقولك الحق : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ... ﴾ الآية ، فحفظتَهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهمّ نبيك فى عمّه فقد دلَوْنا به إليك مستشفعين ومستغفرين . ثم أقبل على الناس ، فقال : استغفروا ربّكم إنّه كان غفارا .

قال ابن مسعود : رأيت العباس يومئذ وقد طال عُمَر ، وعيناه تنضَحان ، وسبائبُه تجول على صدره ؛ وهو يقول : اللهمّ أنت الراعى فلا تُهمل الضالّة ، ولا تدع الكسير بدار مَضيعة ، فقدضَرَع الصغير ، ورَقّ الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السرّ وأخفى . اللهمّ أغثْهمْ بغياثك من قبل أن يقنَطوا فيهلِكوا ، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون[9] .

---

(١) المريع : ذو المراعة ؛ وهى الخصب . والمربع : الذى يربعهم عن الارتياد ؛ من ربعت بالمكان وأربعنى .
(٢) المرتع : المنبت ما يرتع فيه .
(٣) السابل ، من قولهم : سبل سابل ؛ أى مطر ماطر .
(٤) المجلل : الذى يجلل الأرض بمائه أو بنباته .
(٥) الرائث : البطىء .
(٦) الفائق للزمخشرى ١ : ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٧) قفية آبائه : تلوهم وتابعهم .
(٨) كبر قومه : أقعدهم فى النسب .
(٩) الخبر فى الفائق ٢ : ٣٦٦ .

قال : فنشأت طُرَيرة[١] من سحاب ، وقال الناس : ترون ترون ! ثم تلاءمت واستتمّت ومشت فيها ريح ، ثم هَدّت[٢] ودرّت ، فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الأحذية ، وقلّصوا المـآزر ، وطفِق الناس يلوذون بالعباس ، يمسحون أركانه ويقولون : هنيئا لك ساقى الحرَمين[٣] .

(١) الطريرة : تصغير طرة ، وهى القطعة المستطيلة من السحاب ؛ شبهت بطرة الثوب .
(٢) هدت من الهدة ؛ وهى صوت ما يقع من السماء .
(٣) قال الزمخشرى : « سمى ساقى الحرمين بهذه السقيا » .

(١١٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى ٱلْحَقِّ ، وَشَاهِداً عَلَى ٱلْخَلْقِ ، فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ ، وَجَاهَدَ فِي ٱللهِ أَعْدَاءَهُ ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ ، إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَى ، وَبَصَرُ مَنِ ٱهْتَدَى .

* * *

الشرح :

قوله : « وشاهدا على الخلق » ، أى يشهد على القوم الذين بعث إليهم ، وشهد لهم ، فيشهد على العاصى بالعصيان والخلاف ، ويشهد للمطيع بالإطاعة والإسلام ، وهذا من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[1] ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ ﴾[2] .

فإن قلت : إذا كان الله تعالى عالماً بكلّ شىء ، ومالكاً لكلّ أحد ، فأىّ حاجة إلى الشهادة ؟

قلت : ليس بمنكَر أن يكون فى ذلك مصلحة للمكلّفين فى أديانهم ، من حيث إنّه قد تقرّر فى عقول الناس ، أنّ مَنْ يقوم عليه شاهد بأمرٍ منكرٍ قد فعله ، فإنه يخزى

---

(١) سورة النساء ٤١ .
(٢) سورة المائدة ١١٧ .

ويخجل وتنقطع حجته ، فإذا طرق أسماعهم أنّ الأنبياء تشهد عليهم ، والملائكة الحافظين تكتب أعمالهم ، كانوا عن مواقعة القبيح أبعد .

والوانى : الفاتر الكالّ . والواهن : الضعيف .

والمعذّر : الذى يعتذر عن تقصيره بغير عذر ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ (١) .

* * *

الأصل :

منها :

وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِىَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ ؛ إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ ؛ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا ، وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا ، وَلَهَمَّتْ كُلَّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ ؛ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا ؛ وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ .

وَلَوَدِدْتُ أَنَّ ٱللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ ؛ قَوْمٌ وَٱللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَاجِيحُ ٱلْحِلْمِ ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ ، مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَأَوْجَفُوا عَلَى ٱلْمَحَجَّةِ ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ ، وَالْكَرَامَةِ ٱلْبَارِدَةِ .

أَمَا وَٱللهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ ، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ . إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ !

---

(١) سورة التوبة ٩٠ .

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

الْوَذَحَة : الْخُنفساء ؛ وَهذا الْقول يُومئُ به إلى الحجّاج ، وَله مع الْوَذَحَةِ حَدِيثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

* * *

الشرح :

الصعيد : التراب ، ويقال : وجْه الأرض ، والجمع صُعُد وصُعُدات ، كطريق وطرُق وطرُقات . والالتدام : ضرب النساء صدورهنّ فى النّياحة . ولا خالف عليها : لا مستخلف .

قوله : « ولهمّت كلّ امرئ منكم نفسه » ، أى أذابته وأنحلته ، هممتُ الشحم ، أى أذبته . ويروى : « ولأهمّت كلّ امرئ » وهو أصحّ من الرواية الأولى ؛ أهمّنى الأمر ، أى أحزننى .

وتاه عن فلان رأيه ، أى عزَب وضلّ .

ثم ذكر أنه يودّ ويتمنّى أن يفرّق الله بينه وبينهم ، ويلحقه بالنبيّ صلى الله عليه وآله وبالصالحين من أصحابه ، كحمزة وجعفر عليهما السلام وأمثالهما ممّن كان أمير المؤمنين يُثْنى عليه . ويحمَد طريقته من الصحابة . فمضوا قُدُما ، أى متقدّمين غير معرّجين ولا معرّدين[1] .

وأوجفوا : أسرعوا . ويقال : غنيمة باردة وكرامة باردة ، أى لم تؤخذ بحرب ولا عسف وذلك لأن المكتسب بالحرب جارٍ فى المعنى لما يلاقى ويعانى فى حصوله من المشقّة .

وغلام ثقيف المشار إليه ، هو الحجّاج بن يوسف . والذيّال : التائه ، وأصله من « ذال » أى تبختر ، وجرّ ذيله على الأرض . والميال : الظالم .

ويأكل خَضِرَتكم : يستأصل أموالكم . ويذيب شحمتكم مثله ؛ وكلتا اللفظتين استعارة .

---

(١) يقال : عرد الرجل عن قرنه ؛ إذا أحجم ونكل .

ثم قال له كالمخاطب لإنسان حاضر بين يديه : « إيهٍ أباوَذَحة » ، إيهٍ كلمة يُستزاد بها من الفعل ، تقديره : زِدْوهات أيضا ماعندك ، وضدّها إيهاً ، أى كفّ وأمسك .

قال الرضىّ رحمه الله : والوَذَحَة الخنفساء ؛ ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب ، ولا وجدتُه فى كتاب من كتب اللغة ، ولا أدرى من أين نقل الرضىّ رحمه الله ذلك !

ثم إن المفسّرين بعد الرضىّ رحمه الله قالوا فى قصّة هذه الخنفساء وجوهاً :

منها أنّ الحجّاج رأى خنفساء تدبّ إلى مصلّاه ، فطردَها فعادت ، ثم طردها فعادت، فأخذها بيده ، وحذَف بها ، فقرصته قَرْصا ورمَتْ يده منها ورماكان فيه حتفه ، قالوا : وذلك لأنّ الله تعالى قتله بأهونِ مخلوقاته ؛ كما قتل نمرود بن كنعان بالبقّة التى دخلت فى أنفه ، فكان فيها هلاكه .

ومنها أنّ الحجّاج كان إذا رأى خُنفساء تدبّ قريبةً منه ، يأمر غلمانه بإبعادها ، ويقول : هذه وَذَحة من وَذَح الشيطان ، تشبيهاً لها بالبعرة ،قالوا : وكان مغرًى بهذا القول، والوذَح : مايتعلّق بأذناب الشاة من أبعارها فيجفّ .

ومنها أنّ الحجاج قال وقد رأى خنفساوات مجتمعات : واعجبا لمن يقول إن الله خالق هذه ! قيل : فمن خلقها أيها الأمير ؟ قال : الشيطان ، إنّ ربّكم لأعظم شأنا أن يخلق هذه الوذح ! قالوا : فجمعها على « فَعَلَ » كبَدَنة وبدَن ، فنقل قوله هذا إلى الفقهاء فى عصره ، فأكفروه .

ومنها أنّ الحجّاج كان مثفارا[1] ، وكان يمسك الخنفساء حيّة ليشفى بحركتها فى الموضع حكاكه . قالوا : ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شائنا مبغضا لأهل البيت. قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء ، وإنما قلنا : كلّ من فيه هذا الداء فهو مبغض .

قالوا: وقد روى أبو عمر الزاهد — ولم يكن من رجال الشيعة — فى أماليه وأحاديثه عن السيارىّ

(١) رجل مثفار : نعت سوء .

عن أبي خزيمة الكاتب ، قال : مافتّشنا أحدا فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصبيًّا .

قال أبو عمر : وأخبرني العطافي عن رجاله ، قالوا :

سئل جعفر بن محمد عليه السلام عن هذا الصِّنف من الناس ، فقال رحم منكوسة يُؤتَى ولا يأتِي ؛ وما كانت هذه الخصلة في وليّ لله تعالى قطّ ؛ ولا تكون أبدا ، وإنما تكون في الكفار والفساق والناصب للطاهرين .

وكان أبو جهل عمرو بن هشام المخزوميّ من القوم ؛ وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، قالوا : ولذلك قال له عتبة بن ربيعة يوم بدر : يامُصَفِّرَ استه[1] .

فهذا مجموع ماذكره المفسرون ، وما سمعته من أفواه الناس في هذا الموضع ، ويغلب على ظني أنه أراد معنًى آخر ؛ وذلك أنّ عادة العرب أن تكنى الإنسان إذا أرادتْ تعظيمه بما هو مظنّة التعظيم ، كقولهم : أبو الهول ، وأبو المقدام ، وأبو المغوار ، فإذا أرادتْ تحقيره والغضّ منه كنّتْهُ بما يستحقَر ويستهان به ، كقولهم في كُنية يزيد بن معاوية : أبو زنّة ، يعنون القرد ، وكقولهم في كنية سعيد بن حفص البخاريّ المحدث : أبو الفار ، وكقولهم للطفيليّ : أبو لقمة ، وكقولهم لعبد الملك : أبو الذّبان لبَخَره ، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء :

فأنتَ لعمرى أبو جعفرٍ ولكنّنا نحذف الفاء منهُ

وقال أيضا :

لئيم دَرِنُ الثوبِ نظيف القعب والقِدْرِ
أبو النتن ، أبو الدَّفْرِ ، أبو البعر ، أبو الجَعْرِ

فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلمُ مِن حال الحجاج نجاسته بالمعاصى والذنوب ؛

(١) انظر اللسان — صفر .

التى لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصق بشعر الشاء ، كنّاه « أبو وذَحَة » ويمكن أيضاً أن يكنّيه بذلك لدمامته فى نفسه ، وحقارة منظره ، وتشويه خلقته ، فإنه كان قصيرا دميما نحيفا ، أخفشَ العينين ممسوحَ الساقين ، قصير الساعدين ، مجدورَ الوجه ، أصلع الرأس ، فكنّاه بأحقر الأشياء ، وهو البعرة .

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى ، فقالوا : « إيه أباودجة » ؛ قالوا : واحدة الأوداج ، كنّاه بذلك لأنه كان قَتّالاً يقطع الأوداج بالسيف ، ورواه قوم « أبا وحرة » وهى دويبّة تشبه الحِرْباء قصيرة الظهر ؛ شبّهه بها .

وهذا وما قبله ضعيف ، وما ذكرناه نحن أقرب الصواب .

(١١٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا ، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا ، تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ !

فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ !

* * *

الشرح :

انتصاب « الأموال » بفعل مقدّر دلّ عليه « بذلتموها » وكذلك « أنفس » ، يقول : لم تبذلوا أموالكم فى رضاً من رزقكم إياها ، ولم تخاطروا بأنفسكم فى رضا الخالق لها ، والأولى بكم أن تبذلوا المال فى رضا رازقه ؛ والنفس فى رضا خالقها ، لأنه ليس أحدٌ أحقّ منه بالمال والنفس وبذلها فى رضاه .

ثم قال : من العجب أنكم تطلبون من عباد الله أن يكرموكم ويطيعوكم لأجل الله ، وانتمائكم إلى طاعته ، ثم إنكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه فى نفع عباده ، والإحسان إليهم .

ومحصول هذا القول : كيف تسيمون الناس أن يطيعوكم لأجل الله ؛ ثم إنكم أنتم لا تُطيعون الله ، الذى تكلّفون الناس أن يطيعوكم لأجله !

ثم أمرهم باعتبارهم بنزولهم منازل مَنْ كان قبلهم ، وهذا مأخوذ من قوله

تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

وروى عن « أصل إخوانكم » وذلك بموت الأب ، فإنه ينقطع أصل الأخ الواشج بينه وبين أخيه ، والرواية الأولى أظهر .

(١) سورة إبراهيم ٤٥ .

(١١٧)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

أَنتُمُ الأَنصارُ عَلَى الْحَقِّ ، وَالإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ ، وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ ؛ بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ ؛ فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ ؛ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ !

* * *

الشَّرْحُ :

الْجُنَن : جمع جُنَّة ، وهى ما يُستَتَر به . وبطانة الرجل : خواصه وخالصته الذين لا يطوى عنهم سرّه .

فإن قلت : أمّا ضربُه بهم المدبر فمعلوم ؛ يعنى الحرب ، فما معنى قوله عليه السلام : « وأرجو طاعة المقبل » ؟

قلت : لأن مَنْ ينضوى إليه من المخالفين إذا رأى ماعليه شيعتُه وبطانتُه من الأخلاق الحميدة ، والسيرة الحسنة ، أطاعه بقلبه باطنا ، بعد أن كان انضوى إليه ظاهرا .

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل ؛ وقد ذكره المدائنى والواقدىّ فى كتابيهما[1] .

(١) كتاب الجمل للمدائنى ، ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٠ ، وكتاب الجمل للواقدى ذكره أيضاً ابن النديم فى ص ٩٩ .

(١١٨)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد جمع الناس، وحضّهم على الجهاد ، فسكتوا مليّاً، فقال عليه السلام: ما بالُكم ! أمخرسون أنتم؟ فقالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إنْ سِرْتَ سِرْنا مَعَكَ.

فقال عليه السلام :

مَا بَالُكُمْ! لاَ سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هٰذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ! وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هٰذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شجعانكم، وَذَوِي بَأْسِكُمْ؛ وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى؛ أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ.

وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي؛ فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هٰذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ؛ وَاللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلاَ أَطْلُبُكُمْ، مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ.

إِنَّهُ لاَ غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ.

مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!

* * *

الشرح :

سكتوا مليا ، أى ساعة طويلة ، ومضى مَلِيٌّ من النار كذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[1] . وأقمت عند فلان مُلاوة ومَلاوة ومِلاوة من الدهر ، بالحركات الثلاث ، أى حينا وبرهة ، وكذلك أقمت مَلْوة ومُلْوة ومِلْوة ، بالحركات الثلاث .

وقوله : « أمخرَّسون أنتم ؟ » اسم المفعول من أخرسه الله ، وخرس الرجل ، والخرَس المصدر .

والكتيبة : قطعة من الجيش . والتقلقل : الحركة فى اضطراب . والقِدْح :السهم. والجَفِير : الكنانة ، وقيل وعاء للسهام أوسع من الكنانة .

واستحار مدارها : اضطرب ، والمدار هاهنا مصدر . والثِّفال بكسر الثاء:جلد يبسط وتُوضع الرحا فوقه ، فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق .

وحُمّ : أى قُدّر ، والركاب : الإبل ، وشخصت عنكم : خرجت :

ثم وصفهم بعيب الناس والطعن فيهم ، وأنّهم يحيدون عن الحقّ وعن الحرب ، أى ينحرفون ويروغون كما يروغ الثعلب .

ثم قال : إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرّق القلوب . والغَناء ، بالفتح والمدّ : النفع .

وانتصب « طعانين » على الحال من الضمير المنصوب فى « أطلبكم » .

* * *

(١) سورة مريم ٤٦ .

وهذا كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صِفّين والنهروان ، وقد ذكرنا سببه ووقعته فيما تقدم .

فإن قلت : كيف قال : الطريق الواضح ، فذكّره ، ثم قال : « لا يهلك فيها » فأنثه ؟

قلت : لأنّ الطريق يذكّر ويؤنث ، تقول : الطريق الأعظم والطريق العظمى ، فاستعمل اللغتين معا .

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ ؛ وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ الْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ الْحُكْمِ ، وَضِيَاءُ الْأَمْرِ .

أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ؛ وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ ؛ مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ ؛ وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ .

اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ؛ وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ .

وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ .

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ .

* * *

الشرح :

رواها قوم « لقد عَلِمْتُ » بالتخفيف وفتح العين ، والرواية الأولى أحسن ، فتبليغ الرسالات تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المكلّفين ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ ﴾[1] ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله فى قصة براءة : « لا يؤدّى عنّى إلا أنا ورجل منّى » .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٩ .

وإتمام العِدات : إنجازها ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾(١) ، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله فى حقه عليه السلام : « قاضى دِينى ومنجز مَوْعدى » .

وتمام الكلمات : تأويل القرآن ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾(٢) ، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله فى حقه عليه السلام : « اللهمّ اهد قلبَه ، وثبّت لسانه » .

وخلاصة هذا ، أنّه أقسم بالله أنه قد عَلِم ، أو عُلِّم ، ـ على اختلاف الروايتين ـ أداء الشرائع إلى المكلّفين ، والحكم بينهم بما أنزله الله ، وعلِم مواعيد رسول الله التى وعد بها ، فمنها ما هو وعدٌ لواحدٍ من الناس بأمرٍ ، نحو أن يقول له : سأعطيك كذا ، ومنها ما هو وعدٌ بأمرٍ يحدُث ، كأخبار الملاحم والأمور المتجدّدة . وعلِم تمام كلمات الله تعالى ، أى تأويلها وبيانها الذى يتمّ به ؛ لأنّ فى كلامه ـ تعالى ـ المجمَل الذى لا يستغنى عن متمّم ومبيّن يوضحه .

ثم كشف الغطاء وأوضح المراد فقال : « وعندنا ـ أهلَ البيت ـ أبواب الحُكم » ، يعنى الشرعيات والفتاوى . وضياء الأمر ، يعنى العقليات والعقائد ، وهذا مقام عظيم لا يجسُر أحدٌ من المخلوقين أن يدّعيه سواه عليه السلام ؛ ولو أقدم أحد على ادّعائه غيره لكذب وكذّبه الناس .

و « أهلَ البيت » منصوب على الاختصاص .

وسبُله قاصدة ، أى قريبة سهلة ، ويقال : بيننا وبين الماء ليلة قاصدة ورافهة ، أى هيّنة المسير لا تعَب فيها ولا بطء .

وتُبلَى فيه السرائر ، أى تختبر .

ثم قال : من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر

(١) سورة الأحزاب ٢٣
(٢) سورة الأنعام ١١٥ .

ولا موجود من العقل عنده أوْلَى وأحرى ؛ أى مَنْ لم يكن له من نفسه ومن ذاته وازع وزاجر عن القبيح ، فبعيد أن ينزَجر ، وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة غيره له كما قيل :

. . . . وزاجر من النّفْس خيرٌ من عتاب العواذِلِ

ثم ذكر النار لحذّر منها .

وقوله : « حليتها حديد » ؛ يعنى القيود والأغلال .

ثم ذكر أنّ الذكْر الطيّب ـ يخلّفه الإنسان بين الناس ـ خير له من مالٍ يجمعه ويورّثه من لا يحمده ؛ وجاء فى الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام جاءه مخبرٌ فأخبرَه أن مالاً له قد انفجرت فيه عين خرّارة ، يبشرّه بذلك ، فقال : بشّر الوارث ؛ بشّر الوارث ، يكررها ، ثم وقف ذلك المال على الفقراء ، وكتب به كتابا فى تلك الساعة .

(١٢٠)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام ، وَقد قامَ إليهِ رَجلٌ مِن أصحابه ، فقال : نَهَيْتَنَا عن الحُكومةِ ثمّ أمرتَنا بها، فما نَدْرِي أيّ الأَمْرَيْنِ أَرْشَدُ ؟ فَصَفَقَ عليه السلام إحْدَى يَدَيْهِ على الأُخرى ، ثم قال :

هٰذا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ ! أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً ، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى ، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ ! أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا !

اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ ، وَكَلَّتِ النَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ !

أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ ، وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَهِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً ؛ وَصَفّاً صَفّاً ، بَعْضٌ هَلَكَ ، وَبَعْضٌ نَجَا ، لَا يُبَشَّرُونَ بِالأَحْيَاءِ ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ ، صُفْرُ الأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الخَاشِعِينَ ، أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ ، وَنَعَضَّ الأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ !

إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ

بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

هذه شبهة من شبهات الخوارج ، ومعناها أنك نهيت عن الحكومة أولا ثم أمرت بها ثانيا ، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيباً ، وبأمرك بها مخطئا ، وإن كانت حسنة ، كنتَ بنهيك عنها مخطئا وبأمرك بها مصيبا ، فلا بدّ من خطئك على كلّ حال .

وجوابها أنّ للإمام أن يعمل بموجب مايغلب على ظنّه من المصلحة ، فهو عليه السلام لمّا نهاهم عنها كان نهيهُ عنها مصلحة حينئذ ، ولما أمرهم بها كانت المصلحة فى ظنّه قد تغيّرت ، فأمرهم على حسب ما تبدّل وتغيّر فى ظنه ، كالطبيب الذى ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمره بمثله غداً .

وقوله : « هذا جزاء من ترك العقدة » ، يعنى الرأى الوثيق ، وفى هذا الكلام اعتراف بأنه بان له وظهرَ فيما بعد أنّ الرأى الأصلح كان الإصرار والثبات على الحرب ، وأن ذلك وإن كان مكروهاً ، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه ، كما قال سبحانه : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١) .

ثم قال : كنت أحملكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمرو ؛ مِنْ رفْع المصاحف ، فإن استقمتم لى اهتديتم بى ، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين : أحدهما أن تعوجوا ، أى يقع منكم بعض الالتواء ، ويسيرٌ من العصيان ، كفتور الهمة وقلة الجدّ فى الحرب . والثانى التأبى والامتناع المطلق من الحرب ، فإن كان الأول قوّمتكم

---

(١) سورة النساء ١٩

بالتأديب والإرشاد وإرهاق الهمم والعزائم بالتبصير والوعظ والتحريض والتشجيع ، وإن كان الثانى تداركت الأمر معكم : إمّا بالاستنجاد بغيركم من قبائل العرب وأهل خُراسان والحجاز ، فكلّهم كانوا شيعته وقائلين بإمامته ، أو بما أراه فى ذلك الوقت من المصلحة التى تحكم بها الحال الحاضرة .

قال : لو فعلت ذلك لكانتْ هى العقدة الوثقى ؛ أى الرأى الأصوب الأحزم .

فإن قلت : أفتقولون إنه أخطأ فى العدول عن هذا الرأى ؟

قلت : لا نقول إنه أخطأ بمعنى الإثم ، لأنه إنما فعل ما تغلّب على ظنّه أنه المصلحة ، وليس الواجب عليه إلا ذلك ، ولكنه ترك الرأى الأصوب ، كما قال الحسن : « هلّا مضيت قُدُما لا أبا لك ! » ، ولا يلحق الإثم من غلب على ظنّه فى حكم السياسة أمر فاعتمده ، ثم بان له أنّ الأصوب كان خلافه ، وقد قيل إن قوله :

لَقَدْ عَثَرْتُ عَثْرَةً لا تنجَبِرْ سَوْفَ أكيس بَعْدَهاوأستمِرّْ

* وأجمع الرأى الشتيت المنتشرْ *

إشارة إلى هذا المعنى ؛ وقيل : فيه غير ذلك مما قدمنا ذكره قبل .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رضى الله عنه : مَنْ عرَفه عرف أنه غيرُ ملوم فى الانقياد معهم إلى التحكيم ، فإنّه ملّ من القتل وتجريد السيف ليلا ونهارا ، حتى ملّت الدماء من إراقته لها ، وملّت الخيل من تقحّمه الأهوال بها ، وضَجِر من دوام تلك الخطوب الجليلة ، والأرزاء العظيمة ، واستلاب الأنفس ، وتطاير الأيدى والأرجل بين يديه ، وأكلت الحربُ أصحابه وأعداءه ، وعُطّلت السواعد ، وخَدِرت الأيدى التى سلمت من وقائع السيوف بها ، ولو أنّ أهلَ الشام لم يستعفوا من الحرب ، ويستقيلوا من

المقارعة والمصادمة ، لأدّت الحال إلى قعود الفيلقيْن معا ، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح ، فإنّ الحال أفضت بعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه .

* * *

واعلم أنه عليه السلام قال هذا القول ، واستدرك بكلام آخر حذَراً أن يثبِتَ على نفسه الخطأ في الرأى ، فقال : لقد كان هذا رأيا لو كان لى من يطيعنى فيه ، ويعمل بموجبه ، وأستعين به على فعله ، ولكن بمَنْ كنت أعمل ذلك ، وإلى مَنْ أخلد فى فعله ! أمّا الحاضرون لنصرى فأنتم وحالكم معلومة فى الخلاف والشّقاق والعصيان ، وأمّا الغائبون من شيعتى كأهل البلاد النائية فإلى أن يصلوا يكون قد بلغ العدوّ غرضه منّى ، ولم يبقَ مَنْ أخلُد إليه فى إصلاح الأمر وإبرام هذا الرأى الذى كان صوابا لو اعتُمِد ؛ إلا أنْ أستعين ببعضكم على بعض ، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة ؛ وهذا مثل مشهور : « لا تنقش الشوكة بالشوكة » . فإن ضَلْعها لها ، والضلع الميل ؛ يقول : لا تستخرج الشوكة الناشبة فى رجلك بشوكة مثلها ، فإن إحداهما فى القوّة والضعف كالأخرى ، فكما أنّ الأولى انكسرت لَمّا وطئتَها فدخلتْ فى لحمك ، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر ، ، وتلج فى لحمك .

ثم قال : « اللّهمّ إن هذا الداء الدوىّ ، قد ملّت أطباؤه » ، والدوىّ : الشديد ، كما تقول : ليلٌ أليل .

وكلّت النَّزَعَة ، جمع نازع ، وهو الذى يستقى الماء ، والأشطان : جمع شَطَن ، وهو الحبل . والرّكىّ : الآبار ، جمع رَكيّة ، وتجمع أيضا على ركايا .

ثم قال : أين القوم ! هذا كلام متأسّفٍ على أولئك ، متحسّر على فقدهم .

والولَه : شدّة الحب حتى يذهب العقل ، وَلِهَ الرجل .

واللِّقاح ، بكسر اللام : الإبل ، والواحدة لقوح ؛ وهى الحلوب ، مثل قِلاص وقلوص .

قوله : « وأخذوا بأطراف الأرض » ، أى أخذوا على الناس بأطراف الأرض ، أى حصروهم ، يقال لمن استولى على غيره وضيّق عليه : قد أخذ عليه بأطراف الأرض ، قال الفرزدق :

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ [(١)]

وزحْفًا زحْفًا ، منصوب على المصدر المحذوف الفعل ، أى يزحفون زحفا ، والكلمة الثانية تأكيد للأولى . وكذلك قوله : « وصَفًّا صَفًّا » .

ثم ذكر أنّ بعض هؤلاء المتأسَّف عليهم هلك ، وبعض نجا ، وهذا ينحى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾[(٢)] .

ثم ذكر أنّ هؤلاء قوم وقَذَتْهم العبادة ، وانقطعوا عن الناس ، وتجرّدوا عن العلائق الدنيوية ، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشّر به ، وإذا مات له ميّت لم يعزّ عنه .

ومَرِهت عين فلان ، بكسر الراء ، إذا فسدت لترك الكُحْل ، لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام جعل مَرَهَ عيون هؤلاء من البكاء من خوف خالقهم سبحانه . وذكر أن بطونهم من خماص الصوم ، وشفاههم ذابلة من الدعاء ، ووجوههم مصفرّة من السّهر ، لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غَبَرة الخشوع .

ثم قال : « أولئك إخوانى الذاهبون » . فإن قلت : مَنْ هؤلاء الذين يشير ـ عليه السلام ـ إليهم ؟

قلت : هم قوم كانوا فى نَأْنأة الإسلام وفى زمان ضعفه وخموله أربابَ زهد وعبادة وجهاد شديد فى سبيل الله ، كمصعب بن عمير من بنى عبد الدّار ، وكسعد بن معاذ من الأوس ، وكجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهم ؛ ممن استشهد من الصالحين

(١) ديوانه ٥١٥

(٢) سورة الأحزاب ٢٣ .

أرباب الدين والعبادة والشجاعة فى يوم أُحُد ، وفى غيره من الأيام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكعمّار ، وأبى ذرّ ، والمقداد ، وسلمان ، وخبّاب ، وجماعة من أصحاب الصُّفّة وفقراء المسلمين أرباب العبادة ، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة . وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الجنة لتشتاقُ إلى أربعة : علىّ ، وعمار ، وأبى ذرّ ، والمقداد » ، وجاء فى الأخبار الصحيحة أيضا ، أنّ جماعة من أصحاب الصُّفّة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضُّوا أيديَهم عليه ، وقالوا : واأسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عُنق عدوّ الله ! وكان معه أبو بكر ، فقال لهم : أتقولون هذا لسيّد البطحاء ؟ فرفع قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأنكره ، وقال لأبى بكر : « انظر لا تكون أغضبتَهم ، فتكون قد أغضبت ربك » . فجاء أبو بكر إليهم وترضّاهم وسألهم أن يستغفروا له ، فقالوا : غفر الله لك .

قوله : « فحَقّ لنا » ، يقالُ : حَقّ له أن يفعل كذا ، وهو حقيق به ، وهو محقوق به ، أى خليقٌ له ، والجمع أحقّاء ومحقوقون .

ويسنِّى : يسهّل . وصدف عن الأمر ، يصدِف ، أى انصرف عنه . ونزغات الشيطان : ما ينزَغ به ، بالفتح ، أى يفسد ويغرى . ونفثاته : ماينفِث به وينفُث ، بالضم والكسر ؛ أى يخيّل ويسحر .

واعقلوها على أنفسكم ، أى اربطوها والزموها .

(١٢١)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج ، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة ، فقال عليه السلام : أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ ؟ فَقَالُوا : مِنَّا مَنْ شَهِدَ ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ . قَالَ : فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ ؛ فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً ؛ حَتَّى أُكَلِّمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ . وَنَادَى النَّاسَ ، فَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا . ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً ، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً : إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا ، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ، فَقُلْتُ لَكُمْ : هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ ؛ إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ[1] .

فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ

---

(١) بعدها في المخطوطة المصرية : « وقد كانت هذه الفعلة ، وقد رأيتكم أعطيتموها . والله لئن أبيتها ما وجبت عليّ فريضتها ، ولا حملني الله ذنبها ، ووالله إن جئتها إني المحق الذي يتبع ، وإن الكتاب لمعي ، ما فارقته مذ صحبته » .

وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَاناً وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ .

* * *

وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَادَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالْاعْوِجَاجِ ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا،وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا ، رَغِبْنَا فِيهَا ، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا !

* * *

الشرح :

هذا الكلام يتلو بعضه بعضا ؛ ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصق أحدها بالآخر ؛ وهذه عادة الرضىّ ، تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلماتٍ فصيحة ، يوردها على سبيل التتالى؛ وليست متتالية حين تكلّم بها صاحبها ، وسنقطع كلّ فصل منها عن صاحبه إذا مررنا على مَتْنها .

قوله : « إلى معسكَرهم » الكاف مفتوحة ، ولا يجوز كسرها ؛ وهو موضع العسكر ومحطّة .

وشَهِد صفين : حَضَرها ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ ﴾(١) .

قوله : « فامتازوا : أى انفردوا » ، قال تعالى :﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾(٢) .

قوله : « حتى أكلّم كلا منكم بكلامه » ، أى بالكلام الذى يليق به .

والغيلة : الخداع . والناعق : المصوّت .

قوله : « إن أجيب ضلّ ، وإن تُرِكَ ذلّ . . » هو آخر الفصل الأول. وقوله: « ضلّ »، أى ازداد ضلالا ، لأنه قد ضلّ قبل أن يجاب .

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ .
(٢) سورة يس ٥٩ .

فأما قوله : « فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه » ، فهو من كلام آخر ، وهو قائم بنفسه ، إلى قوله : « وصبرا على مضض الجراح » ، فهذا آخر الفصل الثانى .

فأما قوله : « لكنا إنما أصبحنا » ، فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملتصق بهما ؛ وهو فى الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول ؛ لأنّ الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم ؛ وهذا يتضمّن تصويبها ؛ وظاهر الحال أنّه بعد كلام طويل . وقد قال الرضىّ رحمه الله فى أول الفصل : إنه من جملة كلام طويل ، وإنه لمّا ذكر التحكيم ، قال ما كان يقوله دائما ، وهو أنّى إنما حكّمت على أن نعمل فى هذه الواقعة بحكم الكتاب ، وإن كنت أحارب قوما ما أدخلوا فى الإسلام زيغا وأحدثوا به اعوجاجا ، فلمّا دعونى إلى تحكيم الكتاب أمسكتُ عن قتلهم ، وأبقيْت عليهم لأنى طمعت فى أمر يلمُّ الله به شَعَث المسلمين ، ويتقاربون بطريقه إلى البقية ، وهى الإبقاء والكفّ .

فإن قلت: إنه قد قال : « نقاتل إخواننا من المسلمين » ، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة « المسلمين » ؟

قلت : إنّا وإن كنا نذهب إلى أنّ صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما ، فإنا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمّة وعابدى الأصنام ، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء والمدح ، فإن لفظة « مسلم » و « مؤمن » تستعمل فى أكثر الأحوال كذلك ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقصد بذلك إلا تمييزهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشِّرْك ، ولم يقصد مدحهم بذلك ، فلم ينكر مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم .

(١٢٢)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه فى ساعة الحرب:

وَأَىُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًا، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِى فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ.

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ.

إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ؛ وَالَّذِى نَفْسُ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ بِيَدِهِ؛ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَىَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِى غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ!

* * *

الشرح:

أحسّ: علم ووجد. ورِباطة جأش، أى شدة قَلْب: والماضى «رَبَط»، كأنه يربط نفسه عن الفرار. والمروىّ: «رِباطة» بالكسر، ولا أعرفه نقلا وإنما القياس لا يأباه، مثل عَمِر عِمارة، وخَلَب خِلابة.

والفشل: الجبن. وذبّ الرجل عن صاحبه، أى أكثر الذبّ، وهو الدفع والمنع. والنَّجْدة: الشجاعة. والحثيث: السريع؛ وفى بعض الروايات: «فليذبّ عن صاحبه» بالإدغام، وفى بعضها «فليذبُبْ» بفك الإدغام. والمِيتة، بالكسر: هيئة الميّت كالجِلْسة: والرِّكْبة هيئة الجالس والراكب، يقال: مات فلان مِيتة حسنةً، والمروىّ فى "نهج

البلاغة »، بالكسر فى أكثر الروايات، وقد روى : «من موتة» وهو الأليق، يعنى المرّة الواحدة ، ليقع فى مقابلة الألف .

* * *

واعلم أنّه عليه السلام أقسم أنّ القتل أهونُ من الموت حَتْفَ الأنف ؛ وذلك على مقتضى مامنحه الله تعالى من الشجاعة الخارقة لعادة البشر ؛ وهو عليه السلام يحاول أن يحضّ أصحابه ، ويحرّضهم ؛ ليجعل طباعهم مناسبة لطباعه ، وإقدامَهم على الحرب مماثلا لإقدامه ؛ على عادة الأمراء فى تحريض جندهم وعسكرهم ؛ وهيهات ! إنما هو كما قال أبو الطيب :

يكلّفُ سيفُ الدولة الجيشَ همَّـــهُ ... وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْه الجيوشُ الْخَضَارِمُ[1]

وَيَطْلُبُ عِنْدَ النّاسِ مَاعِنْـــدَ نفسِه ... وذلك ما لا تدّعيـــهِ الضراغم

ليست النفوس كلّها من جوهر واحدٍ ، ولا الطباع والأمزجة كلّها من نوع واحدٍ ، وهذه خاصيّة توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده ، فى الأوقات المتطاولة ، والدهور المتباعدة؛وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان؛فإن التواريخ من قبل الطوفان- مجهولة عندنا- أنّ أحداً أعطى من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها؛ من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم؛والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم، والموت على الحياة ، والموت الذى كان يطلبه ويؤثره ؛ إنما هو القتل بالسيف ، لا الموت على الفراش ، كما قال الشاعر :

لو لم يمتْ بين أطرافِ الرماح إذاً ... لمات - إذْ لم يمتْ - من شدّة الحَزَنِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٩ ، والخضارم : جمع خضرم ؛ وهو العظيم الكبير من كل شىء .

وكما قال الآخر :

يستعـــذبون مناياهم كأنّهمُ لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

فإن قلت : فما قولك فيما أقسم عليه : هل ألف ضربة بالسيف أهون ألمًا على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة،أم هذا قول قاله على سبيل المبالغة والتجوّز ؛ ترغيباً لأصحابه فى الجهاد ؟

قلت : الحالف يحلف على أحد أمرين : أحدهما أن يحلف على ظنّه واعتقاده ؛ نحو أن يحلف أنّ زيدا فى الدار ،أى أنا حالف ومقسم على أنى أظن أن زيدا فى الدار ، أو أنى أعتقد كون زيد فى الدار . والثانى أن يحلف ، لا على ظنّه، بل يحلف على نفس الأمر فى الخارج ؛ فإن حملنا قَسَم أمير المؤمنين عليه السلام على المحمل الأول فقد اندفع السؤال؛ لأنه عليه السلام قد كان يعتقد ذلك ؛ فحلف أنه يعتقد وأنّه يظن ذلك ؛ وهذا لا كلام فيه ، وإن حملناه على الثانى فالأمر فى الحقيقة يختلف ، لأنّ المقتول بسيف صارم معجّل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة مايجده الميت دون النزع من المدّ والكفّ ، نعم قد يجد المقتولُ قبل الضربة ألم التوقّع لها ، وليس كلامنا فى ذلك ، بل فى ألم الضَّرْبة نفسها،وألف سيف صارم مثل سيف واحد،إذا فرضنا سرعة الزُّهوق.وأما فى غيره هذه الصورة ، نحو أن يكون السيف كالًّا ، وتتكرر الضربات به،والحياة باقية بعد ؛ وقايسنا بينه وبين ميّت يموت حَتْف أنفه موتا سريعا ، إمّا بوقوف القوّة الغازية كما يموت الشيوخ ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة ، ويبقى العقل والذهن ، إلى وقت الموت،فإن الموت هاهنا أهون وأقل ألما ، فالواجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إمّا على جهة التحريض ؛ فيكون قد بالغ كعادة العرب والخطباء فى المبالغات المجازية ، وإما أن يكون أقسم على أنّه يعتقد ذلك ، وهو صادق فيما أقسم ؛ لأنه هكذا كان يعتقد بناء على

ماهو مركوز فى طبعه من محبّة القتال ، وكراهية الموت على الفراش . وقد روى أنه قيل لأبى مسلم الخُراسانى : إن فى بعض الكتب المنزلة : مَنْ قَتَل بالسيف فبالسيف يُقتَل ، فقال : القتل أحبّ إلىّ من اختلاف الأطباء ، والنظر فى الماء ، ومقاساة الدواء والداء ، فذُكِر ذلك المنصور بعد قتل أبى مسلم ، فقال : قد أبلغناه محبّته !

(١٢٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَكَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ ، لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا ، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً ، قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ .

* * *

الشرح :

الكشيش : الصوت يشوبه خَوَر ، مثل الخشخشة ، وكشيش الأفعى : صوتها من جلدها لا من فمها ، وقد كشَّت تكِشّ ، قال الراجز :

كَشِيش أفعَى أجمعت لعضٍّ   وهي تحكُّ بعضها ببعضِ (١)

يقرّع عليه السلام أصحابه بالجبن والفشل ، ويقول لهم : لكأنّى أنظر إليكم وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذى قد اعتراكم ؛ فهى أشبه شىء بأصوات الضِّباب المجتمعة .

ثم أكّد وصف جبنهم وخوفهم ، فقال : لا تأخذون حقًّا ، ولا تمنعون ضيما ، وهذه غاية ما يكون من الذلّ .

ثم ترك هذا الكلام وابتدأ فقال : قد خلِّيتم وطريق النجاة عند الحرب ، ودللتم عليها ،

---

(١) اللسان ٨ : ٢٣٣ ، من غير نسبة .

وهى أن تقتحموا وتلحجوا، ولا تهنوا ؛ فإنكم متى فعلتم ذلك نجوتم ؛ ومتى تلوّمتم وتثبطتم وأحجمتم هلكتم، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

تأخَّرتُ أستَبقي الحياةَ فلم أجِدْ ... لِنَفْسِي حَيَاةً مثل أن أتقدّما(١)

وقال قَطَرِيّ بن الفُجاءة :

لايركَنَنْ أحدٌ إلى الإحجامِ ... يومَ الوغى متخوّفاً لِحمامِ(٢)

فلقد أرانى للرماح دريئةً ... مِنْ عن يمينى تارةً وأمامى

حتّى خضبْتُ بما تحدّر من دمِى ... أكناف سَرْجى أو عِنان لجامى

ثم انصرفتُ وقد أصَبْتُ ولم أُصَبْ ... جَذَعَ البصيرةِ قارِحَ الإقدام(٣)

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أنّ عليك عيونا من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيتَ العدوّ، فاحرص على الموت تُوهب لك الحياة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم؛ فإن دم الشهيد نورٌ له يوم القيامة . وقال أبو الطيب :

يُقتَلُ العاجزُ الجبانُ وَقَدْ يَعْجَزُ عن قَطْعِ بُخْنُقِ المولودِ(٤)

ويوقّى الفتى المِخَشُّ وقد خوّضَ فى ماء لبّةِ الصِّنْديدِ(٥)

---

(١) للحصين بن الحمام المرى، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ١٩٢

(٢) ديوان الحماسة، بشرح التبريزى ١ : ١٣٠

(٣) قال التبريزى فى شرح البيت : « يقول : أنا جذع البصيرة، أى استبصارى ويقينى لا يحتاجان إلى تهذيب ولا تأديب ؛ كما لا يحتاج الجذع إلى الرياضة، وإقدامى قارح، أى قد بلغ النهاية، كما أن القروح نهاية سن الفرس ولا سن بعده » .

(٤) ديوانه ١ : ٣٢٢، البخنق : ما يجعل على رأس الصبى، وتلبسه المرأة عند إدهان رأسها .

(٥) المخش : الرجل الجرئ على الليل . والصنديد : السيد الكريم . وخوّض : أكثر الخوض .

ولهذا المعنى الذى أشار إليه عليه السلام سبب معقول ؛ وهو أن المقدّم على خصمه يرتاع له خصمه ، وتنخذل عنه نفسه ، فتكون النجاة والظفر للمقدّم ؛ وأما المتلوّم عن خصمه ، المحجم المتهيّب له ؛ فإن نفس خصمه تقوى عليه ، ويزداد طمعه فيه ، فيكون الظفر له ، ويكون العطب والهلاك للمتلوّم الهائب .

﴿ تم الجزء السابع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثامن ﴾

فهرس الخطب (*)

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

(١) أولها فى الجزء السادس ص ٣٩٨

فهرس الموضوعات (*)

(*) وهى الموضوعات الواردة فى كتاب شرح نهج البلاغة .



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الثامن

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(١٢٤)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى حث أصحابه على القتال :

فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ ؛ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ ، وَالْتَوُوا فِى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ ؛ فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ ، وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ ؛ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ ؛ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ . وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا ، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِى شُجْعَانِكُمْ ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ ؛ فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ ، وَيَكْتَنِفُونَهَا : حِفَافَيْهَا ، وَوَرَاءَهَا ، وَأَمَامَهَا ؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا ، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا .

***

الشّرْحُ :

الدارع : لابس الدِّرْع ، والحاسر : الذى لادِرْع عليه ولا مِغْفَر ؛ أمرهم عليه السلام بتقديم المستلئم على غير المستلئم ، لأنّ سوْرة الحرب وشدّتها تلقى وتصادف الأوّل فالأوّل ؛ فواجب أن يكون أوّلُ القوم مستلئما . وأن يعضّوا على الأضراس ؛ وقد تقدم شرح هذا ، وقلنا : إنه يجوز أن يبدءوهم بالحَنَق والجدّ ؛ ويجوز أن يريد أنّ العضّ على الأضراس يشدّ شؤون الدماغ ورباطاته ، فلا يبلغ السيف منه مبلغه لو صادفه رِخْواً . وأمرهم بأن يلتووا إذا طعنوا ؛

لأنهم إذا فعلوا ذلك، فبالحرَى أن يمورَ السِّنان ، أىْ يتحرّكُ عن موضع الطعنة ؛ فيخرج زالقا ، وإذا لم يلتووا لم يمرّ السِّنان ، ولم يتحرّك عن موضعه فيخرق وينفذ ، فيقتل .

وأمرهم بغضّ الأبصار فى الحرب ، فإنه أربَطُ للجأش ؛ أى أثبت للقلب ، لأن الغاضّ بصره فى الحرب أحْرَى ألّا يُدهش ولا يرتاع لهوْل ماينظر .

وأمرهم بإماتة الأصوات وإخفائها ، فإنه أطرد للفشل ؛ وهو الجبن والخوف ؛ وذلك لأن الجبان يرعدويبرُق ، والشجاع صامت .

وأمرهم بحفظ رايتهم ألّا يميلوها ، فإنّها إذا مالت انكسر العسكر ، لأنهم إنما ينظرون إليها وألّا يُخِلُّوها من محامٍ عنها ، وألّا يجعلوها بأيدى الجبناء وذوى الهلَع منهم كى لا يَخِيموا ويجبنوا عن إمساكها .

والذِّمار : ماوراء الرجل مما يحقّ عليه أن يحميَه ، وسمّى ذِمارا ؛ لأنه يجب على أهله التذمّر له ، أى الغضب .

والحقائق : جمع حاقّة ؛ وهى الأمر الصعب الشديد ؛ ومنه قول الله تعالى : ﴿ الحاقّةُ ماالحاقّة ﴾ ، يعنى الساعة .

ويكتنفونها : يحيطون بها . وحِفَافاها : جانباها ، ومنه قول طَرَفة :

كأنّ جناحَىْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفَا ... حِفَافَيْهِ شُكَّا فِى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ(١)

* * *

الأصل:

أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ ؛ وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ ؛ فَيَجْتَمِعَ

---

(١) المعلقات ـ بشرح التبريزى ٦٤ . المضرحى : العتيق من النسور ؛ يضرب إلى البياض . وحفافاه : جانباه . والعسيب : عظم الذنب . والمسرد : المخصف .

عَلَيْهِ قِرْنَهُ وَقِرْنَ أَخِيهِ . وَايْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ ، لَا تَسْلَمُونَ مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ .

إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ وَالذُّلَّ اللَّازِمَ ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ . وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ ، وَلَا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ .

مَنْ رَائِحٌ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ ! الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي .
الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ .

وَاللهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ . اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ .

***

الشَّرْحُ :

من الناس من يجعل هذه الصيغة وهى صيغة الإخبار بالفعل الماضى ، فى قوله : « أجزأ امرؤ قِرْنَه » فى معنى الأمر ؛ كأنه قال : ليُجْزِئْ كلّ امرئ قِرنَه ؛ لأنه إذا جاز الأمر بصيغة الإخبار فى المستقبل ، جاز الأمر بصيغة الماضى ، وقد جاز الأول ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾[1] ، فوجب أن يجوز الثانى . ومن النّاس من قال : معنى ذلك : هلاّ أجزأ امرؤ قرنه ! فيكون تحضيضا محذوف الصيغة للعلم بها . وأجزأ بالهمزة ، أى كفى . وقِرْنك : مقارنك فى القتال أو نحوه .

وآسى أخاه بنفسه مؤاساةً ، بالهمز ، أى جعله أسوة نفسه ، ويجوز : واسيتُ زيدا بالواو ، وهى لغة ضعيفة .

ولم يكلْ قِرنه إلى أخيه ، أى لم يدع قِرْنه ينضمّ إلى قِرْن أخيه ، فيصيرا معا فى

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣ .

مقاومة الأخ المذكور ، وذلك قبيحٌ محرّم ، مثاله : زيد وعمرو مسلمان، ولهما قِرْنان كافران في الحرْب ؛ لا يجوز لزيد أن ينكُلَ عن قِرْنه فيجتمع قِرْنُه وقِرْن عمرو على عمرو .

ثم أقسم عليه السلام أنّهم إن سلموا من الألم النازل بهم لو قُتِلوا بالسيف في الدنيا ؛ فإنهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الآخرة ؛ على فِرارهم وتخاذُلهم ، وسمّى ذلك سيفاً على وجه الاستعارة وصناعة الكلام ، لأنه قد ذكر سيف الدنيا ، فجعل ذلك في مقابلته .

واللهاميم : السادات الأجواد من الناس، والجياد من الخيل ، الواحد لُهموم . والسَّنام الأعظم ، يريد شَرَفهم وعلوّ أنسابهم ، لأن السَّنام أعلى أعضاء البعير .

وموجِدة الله : غضبه وسَخَطه .

ويروى : «والذلّ اللاذم » بالذال المعجمة ؛ وهو بمعنى اللازم أيضا ، لذِمْتُ المكان بالكسر ، أي لزمته .

ثم ذكر أنّ الفِرار لا يزيد في العُمْر ، وقال الراجز :

قَدْ عِلمتْ حَسْناءُ دَعْجَاءُ المُقَلْ ... أن الفِرار لا يزيدُ في الأجَلْ

ثم قال لهم : أيُّكم يروح إلى الله فيكون كالظمآن يرد الماء !

ثم قال : الجنّة تحت أطراف العوالي ؛ وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الجنّة تحت ظلال السيوف » . وسمع بعض الأنصار رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، يقول يوم أحُد : « الجنَّة تحت ظلال السيوف » ، وفي يده تُميرات يلوكها ، فقال : بَخٍ بَخٍ ! ليس بيني وبين الجنة إلّا هذه التميرات ! ثم قذفها من يده ؛ وكسر جَفْنَ سيفه ، وحمل على قريش فقاتل حتى قُتِل .

ثم قال : « اليوم تُبلَى الأخبار» ؛ هذا من قول الله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[1] ، أي نختبر أفعالكم .

---

(١) سورة محمد ٣١ .

ثم دعا على أهل الشام إن ردّوا الحق ، بأن يفضّ الله جماعتهم ، أى يهزمهم ويشتّت ، أى يفرّق كلمتهم . وأن يُبسلهم بخطاياهم ، أى يسلمهم لأجل خطاياهم التى اقترفوها ولا ينصرهم ، أبسلتَ فلانا ؛ إذا أسلمته إلى الهلكة ، فهو مبسَل ، قال تعالى : ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾(١) ، أى تُسلَم ، وقال : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾(٢) ، أى أُسلِموا للهلاك لأجل ما اكتسبوه من الإثم ؛ وهذه الألفاظ كلّها لا يتلو بعضها بعضا ، وإنما هى منتزَعة من كلام طويل ، انتزعها الرضىّ رحمه الله ، واطّرح ماعداها .

* * *

الأصل :

إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ . وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ . وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ . وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ .

* * *

قال الشريف الرضىّ رحمه الله تعالى :

الدَّعق : الدّقّ ، أىْ تدقّ الخيول بحَوَافرِهَا أَرْضَهُمْ . وَنَوَاحِرُ أَرْضِهِمْ : مُتَقَابِلاتُهَا ، وَيُقَالُ : مَنَازِلُ بَنِي فُلَانٍ تَتَنَاحَرُ ؛ أَىْ تَتَقَابَلُ .

* * *

الشرح :

طعن دِراك ، أى متتابع يتلو بعضُه بعضاً . ويخرج منه النسيم ، أى لسَعَتِه ؛ ومن هذا النحو قول الشاعر :

(١) سورة الأنعام ٧٠

(٢) سورة الأنعام ٧٠ .

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طعنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ ، لولا الشّعاع أضـاءها [١]

ملـكتُ بها كَفِّي فأنهرتُ فتقَها ... يَرَى قائمٌ من دونهـا ماوَرَاءها [٢]

فهذا وصف الطعنة ، بأنها لاتّساعها يرى الإنسان المقابل لها ببصره ماوراءها ، وأنه لولا شَعاع الدم ــ وهو ماتفرّق منه ــ لبان منها الضوء . وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد من أصحابه طعناتٍ يخرُج النسيم ــ وهو الريحُ اللينة ــ منهنّ .

وفلقت الشيء ، أفلقه ــ بكسر اللام ــ فَلْقا ، أي شققته . ويُطيح العظام : يسقطها ، طاح الشيء ، أي سقط أو هلك أو تاه في الأرض ، وأطاحه غيره ، وطوّحه .

ويُنْدِرُ السواعد : يسقطها أيضا ، ندرَ الشيء يندُر نَدْراً ، أي سقط ، ومنه النوادر ، وأندره غيرُه . والساعد : من الـكوع إلى المِرفق ، وهو الذراع .

والمناسر : جمع مَنْسِر ؛ وهو قطعة من الجيش تـكون أمامَ الجيش الأعظم ، بكسر السين وفتح الميم ، ويجوز مِنْسَر بكسر الميم وفتح السين ، وقيل إنها اللغة الفصحى .

ويُرْجَمُوا ، أي يُغزَوْا بالـكتائب ، جمع كتيبة وهي طائفة من الجيش .

تقفوها الحلائب ، أي تتبعها طوائف لنصرها والمحاماة عنها ، يقال : قد أحلبوا ، إذا جاءوا من كلّ أوب للنصرة ، ورجل مُحلِب ، أي ناصر ، وحالبت الرجل ، إذا نصرته وأعنته ؛ وقال الشاعر [٣] :

ألَهْفَا بِقُرَّى سَحْبَلٍ حين أحْلَبَتْ ... عَلَيْنَا الوَلاَيَا والعدوّ المباسِـلُ [٤]

---

(١) لقيس بن الحطيم ، ديوانه ٧ ، وديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ١٧٨ . الشعاع : المتفرق ، ومنه : تطاير القوم شعاعا ، والنفذ : الخرق ؛ يقول : لولا انتشار الشمس لأضاءها .

(٢) ملـكت ، من قولهم : ملـكت العجين وأملـكته ؛ إذا بالغت في عجنه ؛ أي شددت بهذه الطعنة كفي ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيء الذي وراءها .

(٣) هو جعفر بن علبة الحارثى ؛ ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٤٤ .

(٤) قرى : اسم موضع ، وسحبل : واد بعينـه . وأحلبت : أعانت : والولايا : جمع وليـة ؛ وهي البردعة ؛ يكنى بها عن النساء أو الضعفاء ؛ والمباسل ، من البسالة ؛ وهي الشجاعة .

أى أعانتْ ونصرتْ . والخميس : الجيش . والدَّعْق ، قد فسرّه الرضىّ رحمه الله ؛ ويجوز أن يفسَّر بأمر آخر ؛ وهو الهيْج والتّنفير ؛ دَعَقَ القومَ يَدْعَقُهم دَعْقا ، أى هاج منهم ونَفّرهم .

ونواحر أرضهم ، قد فسّره رحمه الله أيضا ؛ ويمكن أن يفسّر بأمر آخر ، وهو أن يراد به أقصى أرضِهم وآخرها ، من قولهم لآخر ليلة فى الشهر : ناحرة .

وأعنان مسارِبهم ومسارحهم : جوانبها ، والمسارب : مايسرُب فيه المال الراعى ، والمسارح : مايسرح فيه ، والفرق بين «سرْح» و «سرب» ، أن السُّروح إنما يكونُ فى أوّل النهار ، وليس ذلك بشرط فى السُّروب .

***

عود إلى أخبار صِفّين

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه فى صِفّين ، يحرّضهم به ، وقد ذكرنا من حديث صِفّين فيما تقدّم أكثره ؛ ونحن نذكر هاهنا تتمة القصّة ؛ ليكون مَنْ وقف على ما تقدّم وعلى هذا المذكور آنفا هنا ، قد وقف على قصّة صفين بأسرها .

اتفق النّاس كلّهم أنّ عمّارا رضى الله عنه أصيب مع علىّ عليه السلام بصِفّين ، وقال كثيرٌ منهم ، بل الأكثر : إن أويساً القَرَنىّ[1] أصيب أيضا مع علىّ عليه السلام بصِفّين . وذكر ذلك نصر بن مزاحم فى ‹‹ كتاب صِفّين ›› رواه عن حفص بن عمران البرجمىّ ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى البخترىّ ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله فى أويس ماقال ، وقال الناس كلّهم : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إنّ الجنّة لتشتاق إلى

(١) هو أويس بن عامر القرنى (بفتح القاف والراء) سيد التابعين ؛ ذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب.

عمّار » ، ورووْا عنه صلى الله عليه وآله أنّ عماراً جاء يستأذن عليه ، فقال : « ائذنوا له، مَرْحَباً بالطيّب المطيّب »(١).

* * *

وروى سلمة بن كهيل ،عن مجاهد ، أن النبيّ صلى الله عليه وآله رأى عمّارا وهو يحمل أحجار المسجد فقال : « مالهم ولعمار ! يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار ! » .

وروى الناس كافّة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « تقتلك الفئة الباغية »(٢) .

* * *

وروى نصر بن مزاحم فى كتاب صِفّين، عن عمرو بن شمِر، عن مالك بن أعْيَنَ،عن زيد بن وهب الُجهنيّ ، أن عمّار بن ياسر نادى(٣) فى صِفّين يوما قبل مقتله بيوم أو بيومين: أين من يبغى رضوان الله عزّ وجلّ ولا يؤوب إلى مال ولا ولد؟ فأتته عِصابة من النّاس؛ فقال: أيّها الناس، اقصِدوا بنا قَصْد هؤلاء القوم [الذين يتبعون دم عثمان، ويزعمون أنه قتِل مظلوما، والله إن كان إلا ظالما لنفسه ، الحاكم بغير ماأنزل الله](٤). ودفع علىّ عليه السلام الراية إلى هاشم بن عُتْبة بن أبى وقّاص — وكان عليه ذلك اليوم دِرْعان — فقال له علىّ عليه السلام كهيئة المازح : أيا هاشم ، أما تخشى على نفسك أن تكون أعْوَر جبانا ؟ قال : ستعلم ياأميرَ المؤمنين ،والله لألُفّنّ بين جماجم العرب لفَّ رجل ينوِى الآخرة . فأخذ رمحا فهزّه فانكسر ، ثم أخذ آخر فوجده جاسيا فألقاه ، ثم دعا برمح لَيّن فشدّ به اللواء(٥).

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو قال: لما دفع علىّ عليه السلام الرايةَ إلى هاشم بن عُتْبة،قال

(١) صفين ٣٦٧
(٢) صفين ٣٦٦
(٣) صفين : « نادى يومئذ » .
(٤) تكملة من صفين
(٥) صفين ٣٦٩-٣٧٠ .

له رجل من أصحابه مِن بَكْر بن وائل : أقْدِم هاشم - يكررها - ثم قال : مالك [يا هاشم[١]] قد انتفخ سَحْرك ! أعوَراً وجُبنا ! قال : مَنْ هذا ؟ قالوا : فلان ، قال : أهلُها وخيرمنها ، إذا رأيتَنى قد صُرعت فخذها . ثم قال لأصحابه : شدّوا شُسوعَ نعالكم ، وشدّوا أُزُرَكم ، فإذا رأيتمونى قد هَزَزْت الراية ثلاثا ، فاعلموا أنّ أحداً منكم لا يسبقنى إلى الحملة[٢] . ثم نظر إلى عسكر معاوية ، فرأى جمعا عظيما ، فقال : مَن أولئك ؟ قيل : أصحاب ذى الكَلاع ، ثم نظر فرأى جندا ، فقال : من أولئك ؟ قيل : قريش وقوم من أهل المدينة ، فقال : قَوْمى ، لا حاجة لى فى قتالهم ، مَنْ عند هذه القبّة البيضاء ؟ قيل : معاوية وجنده ، قال : فإنى أرى دُونهم أسْوِدة[٣] ، قيل : [ذاك][١] عمرو بن العاص وابناه ومواليه ، فأخذ الراية فهزّها ، فقال رجل من أصحابه : الْبَث[٤] قليلا ولا تعجَل ، فقال هاشم :

قَدْ أكثرا لَوْمى وَمَا أَقلاَّ[٥] ... إنى شَرَيْتُ النفس لَنْ أعتَلاّ

أعوَرُ يبغى أهلَه محــــلاّ ... قد عالج الحيــاة حتى مَلاّ

لا بد أن يَفُلّ أو يُفَلاّ[٦] ... أَشلّهم بذى الكعوب شَلاّ[٧]

---

(١) تكملة من صفين .

(٢) صفين : « إليها »

(٣) أسودة : جمع سواد ، وهو الشخص .

(٤) صفين : « امكث »

(٥) مروج الذهب ٢ : ٣٩٢ : « قد أكثر القوم » .

(٦) الفل : الهزيمة .

(٧) الشل : الطرد ، وذو الكعوب : الرمح · ورواية الطبرى ٦ : ٢٤ :

* يَتُلّهم بذى الكعوب تَلاّ *

ويتلهم : يصرعهم . وفى إحدى روايتى صفين . « أشدهم بذى الكعوب » .

مَعَ ابن عَمِّ أحمــدَ المُعَلَّى (١) أوّلُ مَنْ صَدَّقَهُ وَصَــلَّى (٢)

* * *

قال نصر : وحدّثنا عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : لما تناول هاشم الراية ، جعل عمار بن ياسر يحرّضه على الحرب ، ويقرعه (٣) بالرمح ، ويقول : أقدم يا أعور :

* لَا خَيْرَ فِي أَعْوَرَ لا يأتى الْفَزَعْ *

فيستحيي من عمّار ، ويتقدّم ، ويركز الراية ؛ فإذا ركزها عاوده عمّار بالقول ، فيتقدّم أيضا . فقال عمرو بن العاص : إني لأرى لصاحب الراية السَّوْدَاء عملا ، لئن دام على هذا لَتَفْنَيَنّ العرب اليوم ! فاقتتلوا قتالا شديدا ، وعمّار ينادى : (٤) صبرا ! والله إن الجنة (٤) تحت ظلال البيض . فكان بإزاء هاشم وعمّار أبو الأعور السُّلمىّ ، ولم يزل عمّار بهاشم ينخِّسُه وهو يزحف بالراية ، حتى اشتدّ القتال وعظم ، والتقى الزَّحْفان ، واقتتلا قتالا لم يسمع السامعون بمثله ، وكثرت القتلى في الفريقين جميعا (٥) .

* * *

وروى نصر ، عن عمرو بن شَمِر ، قال : حدّثنى (٦) مَنْ أثق به من أهل العراق ،

(١) بعده فى صفين :

* فيه الرَّسُول بالهدَى استهلّا *

(٢) بعده فى صفين :

* فجاهَدَ الكفّارَ حَتّىٰ أَبْلَىٰ *

والخبر فى صفين ٣٧٠ ، ٣٧١ ، وبعده هناك : « قال : وقد كان على قال له : أتخاف أن يكون أعور جبانا يا هاشم المرقال ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ لتعلمنى ـ إن شاء الله ـ ألف اليوم بين جماجم القوم ؛ فحمل يومئذ يرقل إرقالا » .

(٣) صفين : « يتناوله » .

(٤ ـ ٤) صفين : « صبرا عباد الله ، الجنة » . والبيض : السيوف .

(٥) صفين : « كليهما » ، والخبر هناك فى ٣٧١ ، ٣٧٢

(٦) فى صفين . « عن عمرو بن شمر ، عن أبى إسحاق ، عن أبى السفر » .

قال: لما التقينا بالقوم فى ذلك اليوم، وجدناهم خمسةَ صفوف [قد قيّدوا أنفسهم بالعمائم][١]، فقتلنا صفًّا، ثم صفًّا، ثم خلصنا إلى الرابع؛ ماعلى الأرض شامىّ ولا عِراقى يولّى دُبُرَه، وأبو الأعور يقول:

إذا مافَرَرْنَا كانَ أسْوَا فِرارِنا صُدودَ الخدودِ وازْورارَ المناكبِ[٢]

صُدودَ الخـدودِ والقنا متشاجرٌ ولا تبرح الأقدامُ عنـد التضاربِ

قال نصر: والتقتْ فى هذا اليوم هَمْدان العراق بعكّ الشام، فقال قائلهم:

هَمْدَانُ هَمْدَانُ؛ وعكٌّ عكٌّ سَتَعْلَمُ اليـومَ مَنِ الأَرَكُّ[٣]

وكانت على عَكّ الدروع، وليس عليهم رايات[٤]، فقالت: هَمْدان: خدِّموا القوم، أى اضربوا سوقهم — فقالت عَكّ: ابرُكوا برْكَ الْكَمل[٥]، فبركوا كما يبرك[٦] الجمل ثم رموا الحجَر، وقالوا: لا نفرّ حتى يفر الحـكَر[٧].

قال نصر: واقتتل الناسُ من لدن اعتدالِ النهار إلى صلاة المغرب، ما كان صلاة القوم إلا التـكبير عند مواقيت الصلاة.

ثم إنّ أهل[٨] العراق كشفوا ميمنة أهل الشام، فطاروا فى سواد الليل، وكشف أهلُ الشام مَيْسَرة أهل العراق، فاختلطوا فى سواد الليل، وتبدّلت الرايات بعضُها ببعض، فلما أصبح الناس وجَدَ أهلُ الشام لواءهم وليس حوله إلّا ألف رجل، فاقتلعوه وركزوه من

---

(١) من صفين.

(٢) لقيس بن الخطيم؛ ديوانه ١٠

(٣) الأرك: الضعيف.

(٤) صفين: « رانات »، والرانات: جمع ران؛ وهو كالخف إلا أنه لا قدم له

(٥) يريد « الجمل » وعك تقلب الجيم كافا. وانظر صفين ٢٥٦

(٦) صفين: « كما برك ».

(٧) أى الحجر، بلغة عك.

(٨) صفين: « ميسرة العراق ».

وراء موضعه الأول وأحاطوا به، ووجد أهلُ العراق لواءهم مركوزا وليس حوله إلا ربيعة؛ وعلىّ عليه السلام بينها ، وهم محيطون به ، وهو لا يعلم مَنْ هم ، ويظنّهم غيرهم ؛ فلما أذّن مؤذّن علىّ عليه السلام الفجر ، قال علىّ عليه السلام :

يامَرْحَباً بالقائلينَ عَدْلا وبالصّلاةِ مَرْحَباً وأهلا

ثم وقف وصلّى الفجر ، فلما انفتل أبصر وجوهاً ليست بوجوه أصحابه بالأمس، وإذا مكانُه الذى هو فيه ما بيْن الميسرة إلى القلب ، فقال : مَنِ القوم ؟ قالوا : ربيعة ، وإنك ياأمير المؤمنين لعندنا منذ الليلة [1] ! فقال :

* فخرٌ طويلٌ لك ياربيعهْ *

ثم قال لهاشم بن عُتبة : خذ اللواء ؛ فوالله مارأيتُ مثل هذه الليلة. فخرج هاشم باللواء حتى ركزه في القلب [2] .

* * *

قال نصر : حدثنا عمرو بن شِمر، عن الشعبيّ، قال : عبّى معاوية تلك الليلة أربعة آلاف وثلثمائة من فارس وراجل مُعْلِمين [3] بالخضرة ، وأمرهم أن يأتوا عليًّا عليه السلام مِن ورائه . ففَطِنتْ لهم هَمْدان، فواجهوهم وصَمَدوا إليهم ، فباتوا تلك الليلة يتحارسون، وعلىّ عليه السلام قد أفضى به ذهابه ومجيئه إلى رايات ربيعة ؛ فوقف بينها وهو لا يعلم ، ويظنّ أنه فى عسكر الأشعث ، فلما أصبح لم يرَ الأشعث ولا أصحابه ، ورأى سعيد بن قيس الهَمْدانىّ على مركزه، فجاء إلى سعيد رجل من ربيعة، يقال له زُفَر [4] فقال [له] [5] : ألست القائل بالأمس: لئنْ لم تنتهِ ربيعة لتكونَنّ ربيعة ربيعة، وهَمْدان هَمْدان ؟ فما أغنتْ همدان

---

(١) صفين : « وقد بت فيهم تلك الليلة » .

(٢) صفين ٣٧٣ ، ٣٧٤

(٣) يقال رجل معلم ، بكسر اللام ؛ إذا علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها ؛ ومنه قول الشاعر :

فتعرّفونى إننى أنا ذاكُمُ شاكٍ سلاحى فى الحوادث مُعْلِمُ

(٤) صفين : « نفر » .

(٥) من صفين .

البارحة ! فنظر إليه علىٌّ عليه السلام نظر منكر ، ونادى منادى علىٍّ عليه السلام : أن اتّعدوا للقتال، واغدُوا عليه، وانهَدُوا إلى عدوّكم . فكلّهم تحرّك إلا ربيعة لم تتحرّك ، فبعث إليهم علىّ عليه السلام : أن انهَدُوا إلى عدوّكم ، فبعث إليهم أبا ثَرْوان ، فقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يُقرئكم السلام ، ويقول لكم : يامعشرَ ربيعة، مالكم لا تَنْهَدُون إلى عدوّكم وقد نَهَدَ الناس ! قالوا : كيف نَنْهد وهذه الخيل من وراء ظهرنا ! قل لأمير المؤمنين فليأمر هَمْدان أو غيرها بمناجزتهم لنَنْهد . فرجع أبو ثروان إلى علىّ عليه السلام، فأخبره ، فبعث إليهم الأشتر ، فقال : يامعشرَ ربيعة ، مامنعكم أن تنهدوا وقد نَهد الناس — وكان جهير الصوت — وأنتم أصحاب كذا ، وأصحاب كذا ؟! فجعل يعدّد أيامهم . فقالوا : لسنا نفعل حتى ننظر ماتصنع هذه الخيل التى خَلف ظهورنا ؛ وهى أربعة آلاف ، قل لأمير المؤمنين : فَلْيَبْعَثْ إليهم مَنْ يكفيه أمرهم .

وراية ربيعة يومئذ مع الحُضَين(١) بن المنذر . فقال لهم الأشتر : فإن أمير المؤمنين يقول لكم : اكفُونيها ، إنكم لو بعثتم إليهم طائفةً منكم لتركوكم فى هذه الفلاة ، وفرّوا كاليعافير(٢) . فوجّهت حينئذ ربيعة إليهم تيم الله والنَّمِر بن قاسط وعَنَزَة . قالوا : فمشينا إليهم مستلئمين مقنّعين فى الحديد — وكان عامّة قتال صِفِّين مَشياً — قال : فلما أتيناهم هرَبُوا وانتشروا انتشارَ الجراد ، فذكرت قوله : « وفرّوا كاليعافير» . ثم رجعنا إلى أصحابنا وقد نشب القتال بينهم وبين أهل الشام ، وقد اقتطع أهلُ الشام طائفةً من أهل العراق ، بعضها من ربيعة ، فأحاطوا بها ، فلم نَصلْ إليها حتى حملنا على أهل الشام ، فعلَوْناهم بالأسياف حتى انفرجوا لنا ، فأفضينَا إلى أصحابنا فاستنقذناهم ، وعرَفناهم تحت النَّقْع بسيماهم وعلامتهم . وكانت علامة أهل العراق بصِفِّين الصّوف الأبيض ، قد جعلوه فى رءوسهم وعلى

(١) فى الأصول : حصين » بالصاد المهملة ؛ تصحيف ، وهو الحُضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشى ، كان من كبار التابعين ، وانظر المؤتلف ٨٧ .

(٢) اليعافير : جمع يعفور ؛ وهو الظبى .

أكتافهم ، وشعارهم : « يا ألله ، يا ألله ! يا أحد يا صمد ! يا رب محمد ! يا رحمن يا رحيم ! » ، وكانت علامة أهل الشام خِرَقًا صُفْرًا ، قد جعلوها على رءوسهم وأكتافهم ، وشعارهم :

* نحن عبادُ الله حقًّا حقًّا *

يالثارات عثمان !

قال نصر : فاجتلدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد ، فلم يتحاجزوا حتى حَجَز بينهم الليل ، وما يُرَى رجلٌ من هؤلاء ومن هؤلاء موليًّا [١] .

* * *

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد [٢] ، قال : كانوا عربًا يعرف بعضُهم بعضًا فى الجاهلية ، وإنّهم لحديثو عهْد بها ، فالتقوْا فى الإسلام . وفيهم بقايا تلك الحميّة ، وعند بعضهم بصيرة الدّين والإسلام ، فتضاربوا واستحيَوْا من الفِرار ؛ حتى كادت الحرب تبيدهم ، وكانوا إذا تحاجزوا دَخَلَ هؤلاء عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم [٣] .

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعد ، قال : فبينا علىّ عليه السلام واقفًا بين جماعة من هَمْدان وحِمير وغيرهم من أفناء [٤] قحطان ، إذ نادى رجل من أهل الشام : من دلّ على أبى نوح الحِميرىّ ؟ فقيل له : قد وجدته ، فماذا تريد ؟ قال : فحَسر عن لِثامة ، فإذا هو ذو الكَلاع الحِميرىّ ، ومعه جماعة من أهله ورهطه ، فقال لأبى نوح : سِرْ معى ، قال : إلى أين ؟ قال : إلى أن نخرُجَ عن الصّف ، قال : وما شأنُك ؟ قال : إنّ لى إليك لحاجة ، فقال أبو نوح : معاذ الله أن أسير إليك إلا فى كتيبة ! قال ذو الكَلاع : بلى فسِرْ فلك ذمّة الله وذمّة رسوله

(١) صفين ٢٧٤ — ٢٧٦

(٢) فى صفين : « نصر ؛ عمر ، حدثنى صديق أبى عن الإفريقى بن أنعم قال » .

(٣) الخبر فى صفين ٣٧٧ موصول بما بعده ؛ وهناك : « فيدفنونهم ، فلما أصبحوا — وذلك يوم الثلاثاء — خرج الناس إلى مصافهم ، فقال أبو نوح : فكنت فى الخيل يوم صفين ، فى خيل على عليه السلام ، وهو واقف بين جماعة من همدان وحمير وغيرهم من أفناء قحطان . . . » .

(٤) أفناء الناس : أخلاطهم .

وذمّة ذى الكَلاع ، حتّى ترجع إلى خيلك ، فإنما أريد أن أسألك عن أمرٍ فيكم تماريْنا فيه . فسار أبو نُوح ، وسار ذو الكَلاع ، فقال له : إنما دعوتُك أحدّثك حديثاً حدّثناه عمرو بن العاص قديماً فى خلافة[1] عمر بن الخطاب ، ثم أذكرْناه الآن به فأعاده ؛ إنه يزعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه قال : « يلتقى أهل الشّام وأهلُ العراق ، وفى إحدى الكتيبتين الحقّ وإمام الهدى ، ومعه عمّار بن ياسر ». فقال أبو نوح : نعم والله[2] ؛ إنه لفينا . قال : نشدتُك الله ، أجادٌّ هو على قتالنا[3] ؟ قال أبو نوح : نعم وربّ الكعبة ، لهو أشدّ علَى قتالكم منّى ، ولوددت أنّكم خَلْق واحد فذبحتُه وبدأت بك قبلهم ، وأنت ابن عمّى[4]. قال ذو الكَلاع : وَيلك ! علام تمنّى ذلك مِنّا ! فوالله ماقطعتُك فيما بينى وبينك قَطّ ، وإنّ رحِمَك لقريبة ، وما يَسُرّنى أنْ أقتلك . قال أبو نوح : إنّ الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة ، ووصل به أرحاماً متباعدة ، وإنى قاتلُك وأصحابك ، لأنّا على الحقّ وأنتم على الباطل . قال ذو الكَلاع : فهلْ تستطيع أن تأتِيَ معى صفّ أهل الشام ، فأنا لك جارٌ منهم ، حتى تلقى عمرو بن العاص ، فتخبرَه بحال عمّار وجِدّه فى قتالنا ، لعلّه أن يكونَ صلحٌ بين هذين الجندين !

ـ قلت : واعَجَباه من قوم يعتريهم الشكّ فى أمرهم لمكان عمّار ، ولا يعتريهم الشكّ لمكان علىّ عليه السلام ! ويستدلّون على أنّ الحقّ مع أهل العراق بكوْن عمّار بين أظهرهم ، ولا يعبئون بمكانِ علىّ عليه السلام ! ويحذرون من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « تقتلُك الفئة الباغية » ، ويرتاعون لذلك ، ولا يرتاعون لقوله صلى الله عليه وآله فى علىّ عليه السلام : « اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه » ، ولا لقوله : « لا يحبّك إلا مؤمن

(١) صفين : « إمارة »
(٢) صفين : « لعمر الله » .
(٣) صفين : « فى قتالنا » .
(٤) كذا فى د ، وفى ب : « أنت وابن عمى » .

ولا يبغضك إلا منافق » . وهذا يدلّك على أنّ عليا عليه السلام اجتهدت قريش كلّها من مبدإ الأمر فى إخمال ذكره وستر فضائله ، وتغطيَة خصائصه حتى مُحِيَ فضله ومرتبته من صدورِ الناس كافّة إلا قليلا منهم .

قال نصر : فقال له أبو نوح : إنّك رجل غادِرٌ ، وأنت فى قوم غُدُر ، وإنْ لم يُرِد الغدر أغدروك ، وإنى أن أموتَ أحبُّ إلىّ من أن أدخل مع معاوية . فقال ذو الكَلاع : أنا جارٌ لك من ذلك ؛ ألّا تقتل ولا تسلَب ولا تكرَه على بيعة ، ولا تحبَس عن جندك ؛ وإنما هى كلمة تبلّغها عمرو بن العاص ، لعلّ الله أن يُصلِحَ بذلك بين هذين الجندين ، ويضع عنهم الحرب . فقال أبو نوح : إنى أخاف غَدَراتِك وغَدَراتِ أصحابك . قال ذو الكَلاع : أنا لك بما قلت زعيم ، قال أبو نوح : اللهمّ إنك ترى ما أعطانى ذو الكَلاع ، وأنت تعلم ما فى نفسى ، فاعصِمْنى واخترْ لى وانصرنى ، وادْفع عنّى . ثم سار مع ذى الكَلاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله الناس ، وعبد الله بن عمر يحرّض الناس على الحرب ، فلما وقفا على القوم ، قال ذو الكَلاع لعمرو : ياأبا عبد الله ، هلْ لك فى رجل ناصح لبيب مشفِق ؛ يخبرك عن عَمّار بن ياسر فلا يكْذبك ؟ قال : ومَنْ هو ؟ قال : هو ابن عمىّ هذا ، وهو من أهل الكوفة . فقال عمرو : أرى عليك سيما أبى تراب ! فقال أبو نوح : علىّ سيما محمد وأصحابه ، وعليك سيما أبى جهل وسيما فرعون ! فقام أبو الأعور فسلّ سيفَه ، وقال : لا أرى هذا الكذّاب اللئيم يسبّنا بين أظهرنا وعليه سيما أبى تراب ! فقال ذو الكَلاع : أقسم بالله لئن بسطتَ يدك إليه لأحطمنّ أنفَك بالسيف ؛ ابن عمّى وجارى ، عقدت له ذمّتى ، وجئت به إليكم ليخبركم عمّا تماريتُم فيه . فقال له عمرو بن العاص : ياأبا نوح ، أذكّرك بالله إلّا ماصدَقتنا ولم تكْذبنا ، أفيكم عَمّار بن ياسر ؟ قال أبو نوح : ماأنا بمخبرِك حتى تخبرَ : لِمَ تسأل عنه ومعنا من أصحاب محمد صلى الله عليه عدّة غيره ، وكلّهم جادّ على قتالكم ؟ فقال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « إنّ

عمارا تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس لعمار أن يفارق الحقّ، ولن تأكلَ النار من عمّار شيئاً»، فقال أبو نوح : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والله إنه لَفينا جادٌّ على قتالكم ! فقال عمرو: الله الذى لا إله إلا هو إنه لجادّ على قتالنا ! قال : نعم والله الذى لا إله إلا هو ؟ ولقد حدّثنى يوم الجمل أنّا سنظهر على أهل البصرة ، ولقد قال لى أمس : إنّكم لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سَعَفات [1] هَجَر؛ لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنكم على باطل؛ ولكانت قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . قال عمرو : فهل تستطيع أن تجمَع بينى وبينه ؟ قال : نعم ، فركب عمرو بن العاص وابناه ، وعُتْبة بن أبى سفيان وذو الكَلاع ، وأبو الأعور السُّلَمىّ، وحوشب ، والوليد بن عقبة وانطلقوا ، وسار أبو نوح ومعه شُرَحبيل بن ذى الكَلاع يحميه ؛ حتى انتهى إلى أصحابه ، فذهب أبو نوح إلى عمّار ، فوجده قاعدا مع أصحاب له ، منهم الأشتر وهاشم وابنا بُدَيْل، وخالد بن معمر، وعبدالله بن حَجَل، وعبدالله بن العباس. فقال لهم [2] أبو نوح : إنّه دعانى ذو الكَلاع ، وهو ذو رحِم؛ فقال : أخبِرْنى عن عمّار ابن ياسر ، أفيكم هو ؟ فقلت : لِمَ تسأل ؟ فقال: أخبرَنى عمرو بن العاص فى إمْرة عمر بن الخطاب أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه ، يقول : « يلتقى أهلُ الشام وأهل العراق ، وعمّار مع أهل الحق ، وتقتله الفئة الباغية » ، فقلت : نعم، إن عمّاراً فينا ، فسألنى : أجادّ هو عَلَى قتالنا ؟ فقلت : نعم والله، إنه لأجدّ منّى فى ذلك، ولوددت أنكم خَلْق واحد فذبحته وبدأت بك ياذا الكَلاع ، فضحك عمّار ، وقال : أيسرّك ذلك ؟ قال : نعم ، ثم قال أبو نوح : أخبرَنى الساعة عمرو بن العاص ، أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه يقول : «تقتل عمّارا الفئة الباغية» ، قال عمّار : أقرّرته بذلك ؟ قال : نعم ، لقد قرّرته بذلك فأقرّ،

---

(١) الحديث فى النهاية ٢ : ١٦٢ ؛ قال فى شرحه : « السعفات : جمع سعفة ، بالتحريك ؛ وهى أغصان النخيل ؛ وقيل : إذا يبست سميت سعفة ؛ وإذا كانت رطبة ؛ فهى شطبة ؛ وإنما خص هجر المباعدة فى المسافة ؛ ولأنها موصوفة بكثرة النخيل » .

(٢) صفين : « وقال أبو نوح » .

فقال عمّار : صدق ، وليضرّنّه ماسمع ولا ينفعه . قال أبو نوح : فإنه يريد أن يلقاك ، فقال عمّار لأصحابه : اركبُوا ، فركبوا وساروا . قال : فبعثنا إليهم فارساً من عبد القيس يسمّى عوف بن بشر فذهب ، حتى إذا كان قريباً منهم ، نادى : أين عمرو بن العاص؟ قالوا : هاهنا؛ فأخبره بمكان عمّار وخيله ، قال عمرو : قل له : فليسرْ إلينا ، قال عوف : إنه يخاف غَدارتك وفَجَراتك ، قال عمرو : ماأجرأك عليّ وأنت على هذه الحال ؟ قال عوف : جرّأني عليك بصري فيك وفى أصحابك ، وإن شئت نابذتك الآن على سواء ، [وإن شئت التقيت أنت وخصماؤك ، وأنت كنت غادرا][1] ؛ فقال عمرو : إنك لسفيهٌ ، وإنى باعث إليك رجلا من أصحابى يوافقك[2] ، قال : ابعث مَنْ شئت ، فلستُ بالمستوحش ، وإنك لا تبعث إلا شقيًّا ، فرجع عمرو ، وأنفذ إليه أبا الأعور ، فلمّا تواقفا تعارفا ، فقال عوف : إنّى لأعرف الجسد وأنكر القلب ، وإنى لا أراك مؤمنا ولا أراك إلا من أهل النار ، قال أبو الأعور : ياهذا ؛ لقد أعطِيتَ لسانا يكبّك الله به على وجهك فى النار ، قال عوف : كلاّ والله إنّى لأتكلّم بالحق وتتكلّم بالباطل ، وإنى أدعوك إلى الهدى وأقاتلك على الضلال[3] ؛ وأفرّ من النار ، وأنت بنعمة الله ضالّ ، تنطق بالكذب وتقاتل على ضلالة ، وتشترى العقاب بالمغفرة ، والضلالة بالهدى ؛ انظر[4] إلى وجوهنا ووجوهكم وسيمانا وسيماكم ، واسمع دعوتَنا ودعوتكم ، فليس أحدٌ مِنّا إلا وهو أولى بالحق وبمحمد ، وأقرب إليه منكم . فقال أبو الأعور : لقد أكثرتَ الكلام ، وذهب النّهار ، ويحك ! ادعُ أصحابَك وأدعُو أصحابى ، وليأت أصحابُك فى قلّة إن شاءوا أو كثرة ، فإنى أجيء من أصحابى بعدّتهم[5] ، [فإن شاء أصحابك فليقلّوا ،

---

(١) تكملة من كتاب صفين .

(٢) كذا فى د ، وفى ب : « يوافقك » .

(٣) صفين : « وأقاتل أهل الضلال » .

(٤) صفين : « انظروا . . . واسمعوا . . . . » .

(٥) صفين : « بعددهم » . وفى ب : « بعدة » .

وإن شاءوا فليكثروا] [١] . فسار [٢] عمّار في اثني عشر فارسا ، حتى إذا كانوا بالمنصف سار عمرو بن العاص في اثني عشر فارسا حتى اختلفت أعناق الخيل [٢] ؛ خيل عمار وخيل عمرو ، ونزل القوم واحتبوْا بحمائل سيوفهم ، فتشهّد عمرو بن العاص ، فقال له عمار : اسكت ، فلقد تركتها وأنا أحقّ بها منْك ، فإن شئتَ كانت خصومة فيدفع حقّنا باطلَك ، وإنْ شئتَ كانت خطبة ؛ فنحن أعلم بفَصْل الخطاب منك ، وإن شئتَ أخبرتُك بكلمةٍ تفصِلُ بيننا وبينك ، وتكفّرك قبل القيام ، وتشهد بها على نفسك ، ولا تستطيع أن تكذّبني فيها . فقال عمرو: ياأبا اليقظان ، ليس لهذا جئتُ إنما جئتُ لأني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم .أذكّرك الله إلّا كففتَ سلاحهم ، وحقَنْتَ دماءهم ، وحرصتَ [٣] على ذلك ، فعلام تقاتلوننا ! أوَ لسنا نعبُد إلهًا واحدا ، ونصلي إلى قبلتكم وندعو دعوتكم ، ونقرأ كتابكم ، ونؤمن بنبيّكم ! فقال عمّار : الحمد لله الذي أخرَجها مِنْ فيك ، إنّها لي ولأصحابي: القبلة ، والدين ، وعبادة الرحمن ، والنبيّ والكتاب ؛ من دونك ودونَ أصحابك. الحمدُ لله الذي قرّرك لنا بذلك ، وجعلك ضالّا مضلّا أعمى ، وسأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك؛ إنّ رسول الله صلى الله عليه أمرني أنْ أقاتِلَ الناكثين ؛ فقد فعلت ، وأمرني أن أقاتِل القاسطين وأنتم هم ، وأمّا المارقون فلا أدري أدركهم أوْ لا ! أيّها الأبتر ، ألست تعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « مَنْ كنتُ مولاه فعليّ مولاه ، اللهمّ والِ مَنْ وَالاه ، وعادِ مَنْ عاداه ! » ! فأنا مولَى الله ورسوله وعليّ مولاى بعدهما . قال عَمْرو : لِمَ تشتِمني ياأبا اليقظان ولست أشتِمك ! قال عمّار : وبِمَ تشتِمني ؟ أتستطيع أن تقول : إنّي عصيت الله ورسوله يوما قط ! قال عمرو: إن فيك لمساب [٤] سوى ذلك ؛ قال عَمّار : إن الكريم مَنْ أكرمه

---

(١) تكملة من كتاب صفين .

(٢ – ٢) صفين : « فسار أبو الأعور في مائة فارس حتى إذا كان حيث كنا بالمرة الأولى وقفوا وسار في عشرة بعمرو ، وسار عمار في اثني عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل . . . » .

(٣) صفين : « وحرضت على ذلك » .

(٤) صفين : « لمسبات » .

الله ! كنتُ وضيعاً فرفعني الله ، ومملوكا فأعتقني الله ، وضعيفا فقوّاني الله ؛ وفقيراً فأغناني الله ! قال عمرو : فما ترى في قتل عثمان ؟ قال : فتح لكم باب كلّ سوء ، قال عمرو : فعليّ قتله ؟ قال عمّار : بل الله ربُّ عليّ قتله وعليّ معه ، قال عمرو : فكنتَ[1] فيمن قتله ؟ قال : كنتُ مع مَنْ قتله ، وأنا اليوم أقاتل معهم ، قال عمرو : فلم قتلتموه ؟ قال عمّار : إنّه أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه ، فقال عمرو : ألا تسمعون ؟ قد اعترف بقتل إمامكم ! فقال عمّار ، قد قالها فرعون قبلك لقومه : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾[2] . فقام أهلُ الشام ولهم زَجَل فركبوا خيولهم ورجعوا ، وقام عمّار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا ، وبلغ معاوية ما كان بينهم فقال : هلكت العرب إن حرّكتهم خفّة العبد الأسود ـ يعني عمارا[3] .

* * *

قال نصر : فحدّثنا عمرو بن شمر ، قال : فخرجت[4] الخيول إلى القتال واصطفّت بعضُها لبعض ، وتزاحف الناس ، وعلى عمّار دِرْعٌ بيضاء ؛ وهو يقول : أيّها الناس ، الرَّواح إلى الجنّة .

فقاتل القوم قتالا شديدا لم يَسْمَع السامعون بمثله ، وكثرت القتلى حتى أنْ كان الرجل ليشدّ طُنُب فُسطاطه بيد الرجل أو برجْله . وحكى الأشعث بعد ذلك ، قال : لقد رأيت أخبِيَة صِفّين وأروقتها ، وما فيها خِباء ولا رواق ولا فُسطاط إلا مَرْبوطا بيد إنسانٍ أو برجله .

قال نصر : وجعل أبو السّماك الأسديّ يأخذ إداوة من ماء وشَفْرَةَ حَديدة ، فيطوف في القتلى ، فإذا رأى رجلا جَريحًا وبه رَمَق أقعده ، فيقول له : مَنْ أمير المؤمنين ؟ فإذا قال :

(١) صفين : « أكنت » .
(٢) من الآية ٢٥ في سورة الشعراء
(٣) صفين ٣٧٧ ـ ٣٨٤
(٤) صفين : « وخرج للقتال » أي عمار .

« عليّ » غسَل الدم عنه ، وسقاه من الماء ، وإن سكت وجاء بالسكين حتى يموت ولا يسقيه [١] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : سمعت الشعبيّ ، يقول : قال الأحنف بن قيس : والله إنّي إلى جانب عمّار بن ياسر ، [بيني وبينه رجل من بني الشعيراء [٢]] .

فتقدّمنا حتى دنوْنا من هاشم بن عُتْبة ، فقال له عمار : احمِلْ فداك أبي وأمّي ! فقال له هاشم : يرحمك الله يا أبا اليقظان ! إنّك رجل تأخذك خِفّة في الحرب ، وإنّي إنما أزحفُ باللواء زحفاً ، أرجو أن أنال بذلك حاجتي ، وإن خَفَفْتُ لم آمن الهَلَكة . وقد كان قال معاوية لعمرو : ويحك ! إنّ اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان من قبل يُرقل به إرقالاً ، وإنْ زحف به اليوم زحفاً إنه لَليومُ الأطول على أهل الشام ، فإن زحف في عُنُق [٣] من أصحابه ؛ إني لأطمع أن تقتطع . فلم يزل به عمار حتى حمل ، فبصُر به معاوية ، فوجّه إليه حماة أصحابه ومَنْ يُزَنُّ [٤] بالبأس والنّجْدة منهم في ناحية ، وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومعه يومئذ سيفان قد تقلّد بأحدهما ، وهو يضرب بالآخر ، فأطافت به خيولُ عليّ عليه السلام ، وجعل عمرو يقول : يا الله ، يا رحمن ! ابني ، ابني ! فيقول معاوية : اصبر فلا بأس عليه . فقال عمرو : لو كان يزيد ابن معاوية ، أصبَرت [٥] ! فلم يزل حماة أهل الشام تذبّ عن [٦] عبد الله حتى نجا هاربا على فرسه [٧] [ومن معه ، وأصيب هاشم في المعركة] [٢] .

* * *

(١) صفين ٣٨٥

(٢) من صفين .

(٣) عنق ، أي جماعة .

(٤) يزن ، أي يتهم .

(٥) صفين : « إذا لصبرت » .

(٦) صفين : « يذبون عنه » .

(٧) صفين ٣٨٥ ، ٣٨٦

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : وفى هذا اليوم قُتِل عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أصيب فى المعركة ، وقد كان قال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص : والله إنّها لراية قد قاتلتُها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهنّ ، ثم قال :

نَحْنُ ضربناكُمْ على تأويلِهِ　　كما ضربناكُمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ　　ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ
* أو يَرْجِعَ الحقُّ إلى سَبيلِهِ *

ثم استسقى وقد اشتدّ عطشه ، فأتته امرأة طويلة اليدين ، ما أدرى أعُسٌّ معها أم إدواة ، فيها ضَيَاحٌ[1] من لبن ! فقال حين شرب : « الجنّة تحت الأسنّه ، اليوم ألقى الأحبّه ، محمدا وحزبه » . والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنهم على الباطل . ثم حمل وحَمَل عليه ابن حَوّى السَّكْسكى[2] وأبو العادية ، فأما أبو العادية فطعنه ، وأما ابن حَوّى فاحتزّ رأسه ، وقد كان ذو الكَلاع يسمع عمرو بن العاص يقول : إن النبى صلى الله عليه يقول لعمار : « تقتلك الفئة الباغية ، وآخر شُرْبك ضَيَاحٌ من لبن » ، فقال ذو الكَلاع لعمرو : ويحك ما هذا ! قال عمرو : إنه سيرجع إلينا ، ويفارق أبا تراب ؛ وذلك قبل أن يصاب عمّار ، فلما أصيب عمار فى هذا اليوم أصيب ذو الكَلاع ، فقال عمرو لمعاوية : والله ما أدرى بقتل أيّهما أنا أشدّ فرحا ! والله لو بقى ذو الكَلاع حتى يقتل عمّار لمال بعامّة قومه إلى علىّ ، ولأفسد علينا أمرنا[3] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : كان لا يزال رجل يجىء فيقول لمعاوية وعمرو : أنا قتلت عمّارا ، فيقول له عمرو : فما سمعته يقول ؟ فيخلط ، حتى أقبل ابنُ حَوّى[4] ،

---

(١) الضياح بالفتح : اللبن الرقيق الكثير الماء .
(٢) صفين : « ابن جون السكونى » ، وفى مروج الذهب ٢ : ٢١ : « أبو حواء السكسكى » .
(٣) صفين : « جندنا » ٣٨٦ ، ٣٨٧
(٤) صفين : « ابن جون » .

فقال : أنا قتلتُه ، فقال عمرو : فما كان آخر منطقه ؟ قال: سمعته يقول: « اليوم ألقى الأحبَّه، محمداً وحزبه » . فقال : صدقت ، أنت صاحبُه ، أما والله ما ظفرتْ يداك ؛ ولقد أسخطتَ ربك (١) .

* * *

قال نصر : حدثنا عمرو بن شمر ، قال : حدثني إسماعيل السدّيّ ، عن عبد خير الهمْدانيّ ، قال: نظرتُ إلى عمّار بن ياسر يوماً من أيام صِفِّين ،قد رُمِيَ رميةً فأغمي عليه، فلم يصلِّ الظهرَ ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ولا الفجر ،ثم أفاق فقضاهنّ جميعاً،يبدأ بأوّل شيء فاته ، ثم بالتي تليها (٢) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن السديّ ، عن أبي حُرَيث ، قال : أقبل غلامٌ لعمّار بن ياسر ، اسمه راشد،يحمل إليه يوم قتل بشربة من لبن،فقال عمّار: أما إنّي سمعتُ خليلي رسول الله صلى الله عليه يقول : « إنّ آخرَ زادك من الدنيا شربة لبن » (٣) .

* * *

قال نصر : وروى عمرو بن شمر ، عن السّديّ،أنّ رجلَين بصِفِّين اختصما في سلَب عمّار وفي قتله، فأتَيا عبدالله بن عمرو بن العاص،فقال : ويحكما اخرجا عَنِّي ! فإنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « ما لقريش (٤) ولعمّار ! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار . قاتله وسالبُه في النار » .

---

(١) صفين : ٣٨٧ ، ٣٨٨
(٢) صفين ٣٨٨
(٣) صفين ٣٨٨
(٤) العبارة في صفين : « ولعت قريش بعمار ، ما لهم ولعمار .. »

قال السُّدِّىّ : فبلغنى أنّ معاوية قال لما سمع ذلك : إنما قتَله مَنْ أخرجه ؛ يخدع بذلك طَغَام أهل الشام (١) .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو، عن جابر، عن أبى الزبير ، قال: أتى حُذَيفةَ بنَ اليمان رهطٌ من جُهينة ، فقالوا له : يا أبا عبد الله ، إنّ رسول الله صلى الله عليه استجار من أن تُصْطَلَمَ أمّتُه (٢)، فأجير من ذلك ، واستجار من أن يُذيق (٣) أمّتَه بعضها بأس بعض، فمنع من ذلك ، فقال حُذَيْفة : إنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يقول : « إنّ ابنَ سميّة لم يخيَّر بين أمرين قطّ إلا اختار أشدَّهما ــ يعنى عمّارا ــ فالزموا سمتَه » (٤) .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر، قال : حمل عمّار ذلك اليوم على صفّ أهل الشام وهو يرتجز :

كَلّا وربِّ البيت لا أبرحُ أجى ... حتّى أموتَ أو أرى ما أشتهى

لا أفتأ الدّهرَ أحامى عن عَلِي (٥) ... صهر الرّسول ذى الأمانات الوفِى

ينصرنا ربّ السموات العلِى (٦) ... ويقطع الهامَ بحــدّ المشرفِى

يمنحنا النّصْرَ عَلَى من يبتغى (٧) ... ظلماً علينا جاهــداً ما يأتلِى

قال : فضرب أهلَ الشام حتى اضطرهم إلى الفرار (٨) .

* * *

(١) صفين ٣٨٨ ، ٣٨٩

(٢) تصطلم : تستأصل .

(٣) صفين : « واستجار من أن يذوق بعضها بأس بعض » .

(٤) صفين ٣٨٩

(٥) صفين : « أنا مع الحق أحامى عن على » .

(٦) صفين : نقتل أعداءه وينصرنا العلى .

(٧) صفين : « والله ينصرنا » .

(٨) صفين ٣٨٩

قال نصر : وقد كان عبد الله بن سويد الحميرىّ من آل ذى الكلاع ، قال لذى الكلاع : ما حديثٌ سمعتَه من ابن العاص فى عمّار ؟ فأخبره ، فلما قُتِل عمّار خرج عبد الله ليلًا يمشى ، فأصبح فى عسكر علىّ عليه السلام ، وكان عبد الله من عُبّاد أهل زمانه ، وكاد أهل الشام أن يضطربوا لولا أنّ معاوية قال لهم : إنّ عليا قتل عمّارا ، لأنه أخرجه إلى الفتنة . ثم أرسل معاوية إلى عمرو : لقد أفسدْتَ علىّ أهل الشام ؛ أكلّ ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه تقوله ! فقال عمرو : قلتُها ولستُ أعلم الغيب ، ولا أدرى أنّ صِفّين تكون ! قلتُها وعمّار يومئذ لك ولىٌّ ، وقد رويتَ أنت فيه مثل ما رويت . فغضب معاوية وتنمّر لعمرو ، وعزم على منعه خيرَه ، فقال عمرو لابنه وأصحابه : لا خيْر فى جوار معاوية ؛ إنْ تجلّت هذه الحرب عنه لأفارقنّه ــ وكان عمرو حَمِىّ الأنف ، قال(١) :

تعاتبنى أن قلتُ شيئًا سمعتُه — وقد قلتَ لو أنصفتَنى مثلَه قبْلِى

أنعلُك فيما قلت نعلٌ ثبيتةٌ — وتزْلَقُ بى فى مثل ما قلتُه نعلِى !

وما كان لى علمٌ بصِفّين أنّها — تكون وعمّارٌ يحثّ على قتلِى

ولو كان لِى بالغيْبِ علمٌ كتمتُها — وكايدتُ أقوامًا مراجِلُهمْ تَغْلِى(٢)

أبى الله إلا أنّ صدرَك واغرٌ — علىّ بلا ذنبٍ جنيتُ ولا ذحْل

سوى أننى والراقصاتِ عشيّةً — بنصرك مدخولُ الهوى ذاهلُ العقلِ

فلا وضَعَتْ عَنِّى حَصانٌ قِناعها — ولا حملتْ وجْناءُ ذِعْلِبَةٌ رَحْلِى(٣)

ولازلتُ أُدْعَى فى لؤىّ بن غالبٍ — قليلاً غَنائِى لا أُمِرُّ ولا أُحْلِى

إنِ اللهُ أرخَى من خِناقِكَ مَرّةً — ونلتَ الذى رجّيت إن لم أزُرْ أهلى

---

(١) صفين : فقال فى ذلك » .

(٢) ب : « كابدت » تصحيف صوابه من د .

(٣) الوجناء : الناقة الشديدة ، شبهت بالوجين من الأرض ؛ وهو الأرض الصلبة . والذعلبة : السريعة

وأتركُ لك الشّامَ التى ضاق رُحْبُها ... عليك ولم يَهْنِئكَ بها العيشُ من أجلى

فأجابه معاوية :

أألآن لما ألقتِ الحربُ بَرْكَها ... وقام بنا الأمر الجليلُ على رِجْلِ
غمزْتَ قناتى بعد ستّين حجّة ... تِباعًا كأنى لا أُمِرُّ ولا أُحْلِى !
أتيتَ بأمرٍ فيه للشام فتنةٌ ... وفى دون ماأظهرتَه زَلّةُ النَّعْلِ
فقلتُ لك القولَ الّذى ليس ضائراً ... ولو ضرّ لم يضرُرْكَ حملُك لى ثقلى
تُعاتِبنى فى كلّ يوم وليلةٍ ... كأنّ الذى أبليكَ ليس كما أبلى[1]
فياقبّحَ اللهُ العتابَ وأهلَه ... ألم ترَ ما أصبحتُ فيه من الشُّغْلِ !
فدعْ ذا ولكن هل لك اليومَ حيلةٌ ... تردّ بها قوماً مراجلُهم تَغْلِى !
دعاهم علىٌّ فاستجابوا لِدَعْوةٍ ... أحبّ إليهم من ثَرَى المال والأهل
إذا قلت هابوا حَوْمَةَ الموت أرْقَلُوا ... إلى الموت إرقال الْمُلوك إلى الفَحْلِ

قال : فلما أتى عمرا شعر معاوية أتاه ، فأعتبه[2] وصار أمرهما واحدا .

قال « نصر : ثم إن عليا عليه السلام دعا فى هذا اليوم هاشم بن عُتْبة ومعه لواؤه [وكان أعور][3] فقال له : ياهاشم[4] حتى متى ! : فقال هاشم : لأجهدنّ ألا أرجع إليك أبداً . فقال علىّ عليه السلام: إنّ بإزائك ذا الكَلاع ، وعنده الموت الأحمر . فتقدّم هاشم

---

(١) صفين : « فعاتبتنى »

(٢) أعتبه : أرضاه .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « ياهاشم حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ فقال هاشم : لأجهدن على ألا أرجع إليك أبداً ، قال على : إن بإزاك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر ! فتقدم هاشم فلما أقبل قال معاوية : من هذا المقبل ؟ فقيل : هاشم المرقال . ، فقال : أعور بنى زهرة ! قاتله الله ! وقال : إن حماة اللواء ربيعة ، فأجيلوا القداح ، فمن خرج سهمه عبيته لهم ، فخرج سهم ذى الكلاع لبكر بن وائل ، فقال : ترّحك الله من سهم ! كرهت الضراب ! وإنما كان جل أصحاب على أهل اللواء من ربيعة ؛ لأنه أمر حماة منهم أن يحاموا عن اللواء ، فأقبل هاشم وهو يقول » .

فلما أقبل ، قال معاوية : مَن هذا المقبل ؟ فقيل : هاشم المِرْقال ، فقال : أعور بنى زُهْرة ! قاتله الله ! فأقبل هاشم وهو يقول :

أعْوَرُ يبغى نفسه خَلاصــا مثل الفَنيقِ لابســاً دِلاَصاً[1]
لادِيَةً يخشى ولا قِصاصــا كلّ امرئ وإن كَبَا وحَاصاً[2]
* لَيْسَ يرَى مِنْ يَوْمِه مَنَاصاً *

فحمل صاحب لواء ذى الـكَلاع — وهو رجل من عُذْرة — فقال :

ياأعْوَرَ العينِ — ومابى من عَوَرْ — اثْبُتْ فإنّى لَسْتُ من فَرْعَىْ مُضرْ
نحن اليمانونَ وَمَا فينــاَ خَوَرْ كَيْفَ تَرى وَقْعَ غُلاَمٍ من عُذَرْ !
ينعَى ابنَ عفّان ويلحَى مَنْ عَذَرْ سِيّانِ عنـدى مَنْ سَعَى ومَنْ أمَرْ

فاختلفا طعنتين ، فطعنه هاشم فقتله ،وكثرت القتلى حول هاشم ،وحمل ذو الـكَلاع، واختلط الناس واجتلدوا ، فقتِل هاشم وذو الـكَلاع جميعا ،وأخذ عبدُ الله بن هاشم اللواء وارتجز ، فقال :

ياهاشمَ بنَ عتبةَ بنِ مالكْ أعزِزْ بشيخٍ من قُرَيْش هالِكْ !
تَخبِطه الخيــلانُ بالسنابكْ فى أسودٍ من نقعهِنّ حَالِكْ
أبشرْ بحُورِ العِين فى الأرائكْ والرَّوْح والريحانِ عنْدَ ذلِكْ[3]

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبىّ ، قال : أخذ عبد الله بن هاشم بن عتبة راية أبيه ، ثم قال : أيّها الناس ، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذى قدّر أرزاقهم ،

(١) بعده فى صفين :

☆ قَدْ جَرّبَ الْحَرْبَ وَلَا أَنَاصَا ☆

(٢) حاص : هرب .
(٣) صفين ٣٩٣ — ٣٩٥

وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم، فدعاه الله ربه فاستجاب لأمره(١)، وسلّم لأمره، وجاهد فى طاعة ابن عمّ رسوله. أول مَنْ آمن به، وأفقههم فى دين الله، الشديد على أعداء الله، المستحلّين حُرم الله، الذين عملوا فى البلاد بالجوْر والفساد، واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله، وزيّن لهم الإثم والعدوان، فحق عليكم جهادُ مَنْ خالف الله، وعطّل حدوده، ونابذَ أولياءه. جودوا بمهجكم فى طاعة الله فى هذه الدنيا، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى، والأبد الذى لا يفنى. فوالله لو لم يكن ثوابٌ ولا عقاب، ولا جنّة ولا نار، لكان القتالُ مع علىّ أفضلَ من القتال مع معاوية، فكيف وأنتم ترجون ماترجون!

* * *

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، قال: لما انقضى أمرُ صِفّين، وسلّم الحسن عليه السلام الأمرَ إلى معاوية، ووفدت عليه الوفود، أشخِص عبدالله بن هاشم إليه أسيراً، فلمّا مثَل بين يديه، وعنده عمرو بن العاص، قال: ياأميرَ المؤمنين، هذا المختال ابن المرقال، فدونك الضب المضبّ(٢)، المغترّ المفتون؛ فاقتله، فإنّ العصا من العُصيّة، وإنما تلد الحيّةُ حُيَيّة، وجزاء السيئة سيئة مثلها.

فقال عبد الله: إن تقتلنى فما أنا بأوّل رجل خذله قومُه، وأسلمه يومُه. فقال عمرو: ياأميرَ المؤمنين، أمكنىِّ منه أشخب أوداجه على أثباجه. فقال عبد الله: فهلاّ كانت هذه الشجاعة منك يابن العاص فى أيام صِفّين، ونحن ندعوك إلى النِّزال، وقد ابتلّت أقدام الرجال من نقيع الجريال(٣)، وقد تضايقت بك المسالك، وأشرفتَ منها على المهالك! وايمُ الله لولا مكانُك منه لرميتُك بأحدّ مِنْ وقع الأشافى(٤)؛ فإنك لاتزال تكثر فى

(١) « له »
(٢) المضب: اللازم.
(٣) الجريال: صبغ أحمر، ويريد به هنا الدم.
(٤) الأشافى: جمع إشفى، وهو مخصف الإسكاف.

هوَسِك ، وتخبط فى دَهَسِكَ ، وتنشبُ فى مَرسك، [تخبط العشواء ، فى الليلة الحِنْدِس الظلماء] .(١) فأمر(٢) معاوية به إلى الحبس ، فكتب عمرو إلى معاوية(٢) :

أمرْتُك أمراً حازما فعصيتَنِى ... وكانَ من التوفيق قتلُ ابن هاشمِ
وكانَ أبوه يامعاويةُ الذى ... رَمَاكَ على حربٍ بحزّ الغلاصِمِ
فقتّلنا حتى جرتْ من دمائنا(٣) ... بصِفّين أمثالُ البحور الخضارِمِ
وهذا ابنهُ ، والمرء يشبهُ أصلَه ... ستقرَعُ - إن أبقيتَه - سِنّ نادمِ !

فبعث معاوية بالشعر إلى عبد الله بن هاشم ، فكتب فى جوابه من السجن :

معاوىَ إن المرء عَمْراً أبتْ له ... ضغينةُ صَدْرٍ وُدّها غير سالمِ
يرى لك قتلِى يابن حَرْبٍ ، وإنّما ... يَرَى ما يرَى عمرو ملوكُ الأعاجمِ
على أنهم لا يقتلون أسيرَهُمْ ... إذا كان فيه مَنْعَةٌ للمسالمِ
وقد كان منّا يوم صِفّين نَفْرَةٌ ... عليك ، جناها هاشمٌ وابن هاشم
قضى الله فيها ماقضى ثمّتَ انقضى ... وما مامَضى إلّا كأضغاثِ حالم
فإن تعفُ عنّى تعفُ عن ذِى قرابةٍ ... وإن ترَ قتْلِى تستحلّ محارمى

هذه رواية نصر بن مزاحم(٤) .

* * *

---

(١) من صفين .

(٢-٢) صفين : « قال فأعجب معاوية ما سمع من كلام ابن هاشم فأمر به إلى السجن وكف عن قتله ؛ فبعث إليه عمرو بأبيات يقول له » .

(٣) صفين :

* فَمَا بَرِحُوا حَتَّى جَرَتْ مِنْ دِمَائِنَا *

(٤) صفين ٣٩٥ ، ٣٦٠

وروى أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الله المرزبانيّ ، أنّ معاوية لما تمّ له الأمر بعد وفاة عليّ عليه السلام ، بعث زيادا على البصرة ، وناد منادى معاوية : أمِنَ الأسودُ والأحمر بأمان الله ؛ إلاّ عبد الله بن هاشم بن عُتْبة ! فمكث معاوية يطلبه أشدّ الطلب ، ولا يعرف له خبراً ، حتى قدم عليه رجلٌ من أهل البصرة ، فقال له : أنا أدُلّك على عبد الله بن هاشم بن عتبة ؛ اكتب إلى زياد ؛ فإنه عند فلانة المخزوميّة ؛ فدعا كاتبه فكتب : من معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبى سفيان ، أما بعد ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعمِدْ إلى حىّ بنى مخزوم ، ففتّشه داراً دارا ، حتى تأتىَ إلى دار فلانة المخزوميّة؛ فاستخرج عبد الله بن هاشم المِرْقال منها ؛ فاحْلِقْ رأسَه ؛ وألبسه جُبّة شَعَر ، وقيّده ، وغُلّ يده إلى عنقه ، واحمله على قَتَب بعير بغير وطاء ولا غذاء ، وانفُذْ به إلىّ .

قال المرزبانيّ : فأما الزبير بن بكّار فإنه قال : إنّ معاوية قال لزياد لما بعثه إلى البصرة: إنّ عبد الله بن المِرْقال فى بنى ناجية بالبصرة ، عند امرأة منهم يقال لها فلانة ، وأنا أعزم عليك إلا حَطَطْت رَحْلك ببابها ، ثم اقتحمت الدار واستخرجتَه منها ، وحملتَه إلىّ.

فلما دخل زياد إلى البصرة ، سأل عن بنى ناجية ، وعن منزل المرأة فاقتحم الدار ، واستخرج عبدَ(١) الله منها ، فأنفذه إلى معاوية فوَصل إليه يوم الجمعة، وقد لاقى نَصَباً كثيرا، ومن الهجير ما غيّر جسمَه ، وكان معاوية يأمر بطعام فيتّخذ فى كلّ جمعة لأشراف قريش ولأشراف الشام ووفود العراق ، فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه ، وقد ذَبل وسَهِمَ وجهه ، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص ، فقال معاوية : يا أبا عبد الله ، أتعرف هذا الفتى؟ قال: لا ، قال : هذا ابن الّذى كان يقول فى صِفّين :

أعْوَر يبغى أهلَه مَحَلاّ قَدْ عالَجَ الحياة حتى ملاّ
* لا بدّ أن يَفُلّ أو يُفَلاّ *

قال عمرو : وإنه لهو ! دونك الضّبّ المضِبّ ، فاشخب أوداجَه ، ولا ترَجِعْه إلى أهل

(١) ب : « واستخرجه » .

العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق ، وله مع ذلك هوًى يُرْدِيه ، وبطانة تغويه ، فو الذى نفسى بيده لئنْ أفلَتَ من حَبائلك ، ليُجَهّزن إليك جيشاً تكثر صواهله ، لشرّ يوم لك .
فقال عبد الله وهو فى القيد : يابن الأبتر ، هلّا كانت هذه الحماسة عندك يوم صِفّين ، ونحن ندعوك إلى البراز ، وتلوذ بشمائل الخيل كالأمَة السوداء والنّعجة القوداء[1] ! أما إنه إن قتلنى قَتَل رجلا كريم المخبرة ، حميد المقدرة[2] ، ليس بالجِبْس المنكوس ، ولا الثّلِب[3] المركوس . فقال عمرو : دع كَيتَ وكَيتَ ، فقد وقعت بين لَحْيى لَهْزَم ، فرُوس للأعداء ، يسعطك إسعاطَ الكودَن[4] الملجم . قال عبد الله : أكثر إكثارك ، فإنى أعلمك بَطِراً فى الرخاء ، جبانا فى اللقاء ، هيّابة عند كفاح الأعداء ، ترى أنْ تقىَ مهجَتَك ، بأن تبدىَ سوءتك . أنسيتَ يوم صفّين وأنت تُدْعى إلى النزال ، فتحيد عن القتال ، خوفا أن يغمرك رجال لهم أبدان شداد ، وأسنّة حداد ، ينهبون السَّرح ، ويذلّون العزيز .

قال عمرو : لقد علم معاوية أنى شهدت تلك المواطن ، فكنت فيها كمِدرَة الشوْك ، ولقد رأت أباك فى بعض تلك المواطن تخفِق أحشاؤه ، وتنِقّ أمعاؤه . قال : أما والله لو لقيَك أبى فى ذلك المقام ، لارتعدتْ منه فرائصك ، ولم تسلَم منه مهجتُك ، ولكنه قاتل غيرَك فقتل دونك .

فقال معاوية : ألا تسكت لا أمّ لك ! فقال : يا بن هند ، أتقول لى هذا ! والله لئن شئت لأعرقنّ جبينك ، ولأقيمنّك وبين عينيك وَسْم يلين له أخدعاك . أبأكثر من الموت تخوّفنى ! فقال معاوية : أو تكفّ يابن أخى ! وأمر به إلى السجن .

فقال عمرو : وذكر الأبيات ، فقال عبد الله : وذكر الأبيات أيضا ، وزاد : « فأطرق معاوية طويلاً حتى ظنّ أنه لن يتكلم » ، ثم قال :

---

(١) القوداء : الذليلة المنقادة .
(٢) المقدرة ، مثلثة الدال : القوة واليسار .
(٣) الثلب : المعيب .
(٤) الكودن : البرذون يوكف ويشبه به البليد .

أرَى العفوَ عن عُلْيا قريشٍ وسيلةً ... إلى الله فى اليوم العَبُوس القماطرِ
واستُ أرى قتلِى فتًى ذا قرابة ... له نسب فى حىّ كعب وعامرِ
بل العفوَ عنه بعد ما خابَ قِدْحُه ... وزلّتْ به إحدى الجدود العواثرِ
وكان أبوه يوم صِفّين مُحَنَقًا ... علينـــا ، فأردته رماحُ يُحابِرِ

ثم قال له : أتراك فاعلا ما قال عمرو من الخروج علينا ! قال : لا تسل عن عَقِيدات الضمائر ، لاسيما إذا أرادت جهادا فى طاعة الله . قال : إذن يقتلك الله كما قتل أباك ، قال : ومَنْ لى بالشهادة !

قال : فأحسن معاوية جائزته ، وأخذ عليه موثقًا ألّا يساكنه بالشام فيفسد عليه أهله .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن السّدىّ ، عن عبد خير الهمدانىّ ، قال : قال هاشم بن عُتْبة يوم مقتله : أيّها الناس ، إنى رجل ضَخْم ، فلا يهولنّكم مسقطى إذا سقطت ، فإنه لا يَفرَغ منى أقلّ من نَحْر جَزور ، حتى يفرُغ الجزارُ من جزْرها . ثم حمل فصرِع ، فمرّ عليه رجل وهو صريع بين القتلى ، فناداه : اقرأ على أمير المؤمنين السلام ، وقل له : بركات الله ورحمته عليك[1] يا أمير المؤمنين ، أنشُدك الله إلا أصبحت وقد ربطت مقاودَ خيلك بأرجل القتلى ، فإنّ الدبْرة تصبح غدا لمن غلَب على القتلى . فأخبَر الرجلُ عليا عليه السلام بما قاله ، فسار فى الليل بكتائبه حتى جعل القتلى خلف ظهره ، فأصبح والدّبْرة له على أهل الشام[2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن السدىّ ، عن عبد خير ، قال : قاتل هاشمٌ الحارثَ بن المنذر التَّنُوخىّ ، حمل عليه بعد أن أعيا وكلّ ، وقتل بيده ، فطعنه بالرّمح فشقّ بطنَه فسقط ، وبعث إليه علىّ عليه السلام وهو لا يعلم : أقدِم بلوائك ، فقال للرسول : انظر

(١) ساقطة من ب

(٢) صفين ٤٠١

إلى بطنى ، فإذا هو قد انشقّ ، فجاء علىّ عليه السلام حتى وقف عليه ، وحوله عصابة من أسلم قد صرعوا معه ، وقوم من القراء ، فجزع عليه ، وقال :

جَزَى الله خــيراً عُصْبَةً أسلَمِيَّةً صِباح الوُجوه صُرِّعُوا حَوْلَ هاشمِ
يزيد وسعدانٌ وبِشْرٌ وَمَعْبَـدٌ وسفيان ، وابنا معبدٍ ذى المكارم
وعُرْوة لا يَبْعَدْ نَثَاهُ وذِكْرُهُ[1] إذا اخترِطت يوما خفافُ الصوارم[2]

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبىّ ، عن أبى سلمة[3] ، أنّ هاشم بن عتبة استصرخ الناس عند المساء : [4]ألا مَنْ كان له إلى الله حاجة ، ومن كان يريد الآخرة فليقبل[4] . فأقبل إليه ناسٌ كثير شدّ بهم على أهل الشام مرارا ، ليس من وجه يحمل عليه إلا صبروا له ، فقاتل قتالا شديدا ثم قال لأصحابه : لا يهولنّكم ماترون من صبرهم ، فوالله ماترون منهم إلا حميّة العرب وصبرها تحت راياتها ، وعند مراكزها ؛ وإنّهم لعلى الضلال ، وإنكم لعلى الحق ؛ ياقوم اصبروا وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدوّنا على تؤدة ، رويدا ، واذكروا الله ، ولا يُسلمنّ رجل أخاه ، ولا تُكثروا الالتفات ، واصمُدوا صمدهم ، وجالدوهم محتسبين ؛ حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ وهو خير الحاكمين .

قال أبو سلمة : فبينا هو وعصابة من القُرّاء يجالدون أهل الشام ، إذ طلع عليهم فتًى شابٌّ ، وهو يقول :

أنا ابن أرباب ملوكِ غسّانْ والدائنُ اليوم بدِين عثمانْ[5]

---

(١) نثاه : خبره .
(٢) اخترطت : سلت ، والخبر فى صفين ٤٠٤ ، ٤٠٥
(٣) صفين : « عن عمرو بن شمر ، عن رجل » .
(٤ — ٤) صفين : « ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل » .
(٥) صفين : « غسان » .

أنبأنا قراؤنا بما كانْ[1]   أنّ عليًّا قتلَ ابنَ عفانْ

ثم شدّ لا ينثنى حتى يضربَ بسيفه ، ثم جعل يلعن عليا ويشتمه ويُسهب فى ذمّه ، فقال له هاشم بن عتبة : ياهذا إنّ الكلام بعده الخصام ، وإنّ لعنَك سيّد الأبرار ، بعده عقاب النار . فاتق الله ، فإنك راجع إلى ربك فيسألك عن هذا الموقف وعن هذا المقال[2] . قال الفتى : إذا سألنى ربّى قلت : قاتلتُ أهلَ العراق ، لأن صاحبهم لا يصلّى كما ذُكِر لى ، وإنهم لا يصلّون ، وصاحبُهم قتل خليفتَنا ، وهمْ آزروه على قتله . فقال له هاشم : يابنىّ ، وما أنت وعثمان ! إنما قتله أصحابُ محمد ؛ الذين هم أولى بالنظر فى أمور المسلمين ، وإنّ صاحبنا كان أبعدَ القوم عن دمه ، وأما قولك : « إنه لا يصلّى » ، فهو أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله ، وأوّل من آمن به . وأما قولك : إن أصحابه لا يصلّون ، فكلّ مَنْ ترى معه قراء الكتاب ، لا ينامون الليل تهجّدا ، فاتق الله واخشَ عقابه ، ولا يغرُرْك من نفسك الأشقياء الضالون .

فقال الفتى : ياعبدَالله ، لقد دخل قلبى وجلٌ من كلامك ، وإنى لأظنّك صادقا صالحا ، وأظنّنى مخطئا آثما ، فهل لى من توبة ؟ قال : نعم ، ارجع إلى ربّك وتب إليه ، فإنه يقبل التوبةَ ويعفو عن السيئات ، ويحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين . فرجع الفتى إلى صفّه منكسراً نادما ، فقال له قوم من أهل الشام : خدعك العراقىّ ! قال : لا ، ولكنْ نصحنى العراقىّ[3] .

قال نصر : وفى قتل هاشم وعمار تقول امرأة من أهل الشام :

لا تعدَمُوا قوماً أذاقوا ابنَ ياسرٍ   شَعوباً ولم يعطوكُمُ بالخزائمِ

---

(١) صفين : « أنبأنا أقوامنا »
(٢) صفين : « وما أردت به »
(٣) صفين ٤٠٣ ، ٤٠٤

فنحنُ قتلنا اليثربىَّ ابن مِحْصَنٍ خطيبكمُ وابنى بُدَيْلٍ وهاشمِ [(١)]

قال نصر : أما اليثربىّ ، فهو عمرو بن مِحْصن الأنصارىّ ، وقد رثاه النجاشىّ شاعر أهل العراق ، فقال :

لِنِعْمَ فتى الحيَّين عمرو بن مِحْصَنٍ إذا صارخُ الحىّ المصبَّحُ ثوّبا [(٢)]
إذا الخيل جالت بينها قِصَدُ القنا [(٣)] يثرن عَجاجاً ساطِعاً متنصّبا
لقــد فُجع الأنصارُ طرًّا بسيِّدٍ أخى ثقــةٍ فى الصّالحات مجرَّبا
فيارُبَّ خــيرٍ قد أفدتَ ، وجفنةٍ ملأتَ ، وقِرْنٍ قد تركت مسلَّبا [(٤)]
ويارُبَّ خَصْمٍ قد رددتَ بغيظِهِ فآب ذليلاً بعــد أن كان مغضَبا
وراية مجــدٍ قد حملتَ وغَزْوَةٍ شهدتَ إذ النِّكْسُ الجبانُ تهيَّبا
حويطا على جلّ العشيرة ماجـدا [(٥)] وما كنت فى الأنصار نِكْساً مؤنَّبا
طويلَ عمادِ المجــد رَحْباً فناؤه خَصيباً إذا ما رائد الحىّ أجدبا
عظيمَ رمادِ النار لم يكُ فاحشا ولا فَشِــلاً يوم النِّزال مغلَّبا
وكنتَ ربيعاً ينفع الناسَ سيبُهُ وسيفا جُرَازاً باتِكَ الحــدّ مِقضباً
فمن يك مسرورا بقتــل ابن مِحْصَنٍ فعاش شقيّا ثم مات معــذّبا
وغُودِر منــكبًّا لفيهِ ووَجْهِهِ يعالج رمحاً ذا سنـانٍ وثعلبـا [(٦)]
فإن يقتلوا الحرّ الكريم ابنَ مِحْصَنٍ فنحن قتلنا ذا الكَلاع وحَوْشبا

---

(١) صفين ٤٠٥ .
(٢) المصبح : الذى صبحته الغارة ، والتثويب : الاستصراخ .
(٣) القصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة .
(٤) صفين : « فخيبا » .
(٥) صفين : « حووطا » .
(٦) الثعلب : طرف الرمح .

وإن يقتلوا ابنَىْ بُدَيْل وهاشما ... فنحن تركنا منكُمُ القَرْنَ أعضبا
ونحن تركنا حِمْيراً فى صفوفكم ... لدَى الحرب صَرْعى كالنّخيل مُشَذَّبا
وأفلَتَنَا تحت الأسنّة مرثِدٌ ... وكان قديما فى الفرار مدرّبا
ونحن تركنا عنـد مختلَف القنا ... أخاكم عُبيد الله لحما ملحّبَا
بصفّين لما ارفضّ عنه رجالكمْ ... ووجه ابن عتّاب تركناه مُلْغَبَا (١)
وَطَلْحة من بعـد الزبير ولم ندعْ ... لضبّةَ فى الهَيْجا عريفًا وَمَنْكِبا (٢)
ونحن أحطنا بالبعير وأهلِهِ ... ونحن سقيناكُمْ سِماما مقشَّبا (٣)

قال نصر : وكان ابن مِحْصن من أعلام أصحاب علىّ عليه السلام ، قتل فى المعركة ، وجزع علىّ عليه السلام لقتله .

قال : وفى قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانىّ،وهو من الصحابة — وقيل إنه آخر مَنْ بقى من صَحْب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشهد مع علىّ صِفّين ، وكان من مخلصى الشيعة :

ياهاشمَ الخيرِ جُزِيت الجَنّهْ ... قاتلتَ فى الله عَدُوّ السُّنّهْ
والتاركِى الحقّ وأهل الظِّنّهْ ... أعظِمْ بما فزت به مِنْ مِنّهْ !
صَـيّرنِى الدهر كأنّى شَنّهْ ... وسوف تعلو حول قبرى رَنّهْ (٤)

* من زوجةٍ وحَوْبَةٍ وكَنّهْ *

---

(١) صفين : « عنه صفوفكم » . ملغب ، من اللغب ، وهو التعب والنصب .
(٢) العريف : النقيب دون الرئيس ، والمنكب : من يعاونه .
(٣) المقشب : المخلوط .
(٤) الرنة : الندب والعويل على الميت .

قال نصر : والحَوْبة[١] القرابة ، يقال : لى فى بنى فلان حوبة ، أى قُرْبَى[٢] .

* * *

قال نصر : وقال رجلٌ من عُذْرة ، من أهل الشام :

لقـــد رأيتُ أموراً كلُّها عَجَبٌ   وما رأيتُ كأيامٍ بصفِّينَا
لَمَّا غَدَوْا وغَـــدوْنا كلُّنا حَنِقٌ   كما رأيتَ الجِمالَ الجِـــلَّةَ الجُونَا
خيـــلٌ تجولُ وأخرى فى أعِنَّتِها   وآخرونَ على غيـظٍ يُرَامُونَا
ثم ابتذلْنَا سيوفاً فى جمـــاجمِهِمْ   وَمَا نســـاقِيهمُ من ذاك يَجْزونا
كأنهـــــا فى أكفِّ القوم لامعةً   ســـلاسلُ البرق يَجْدَعْنَ العرانينا
ثم انصرفْنَا كأشـــلاءٍ مقطّعةٍ   وكلُّهم عنـــد قتلاهم يصلّونا[٣]

* * *

قال نصر : وقال رجل[٤] لعدىّ بن حاتم الطائىّ ـ وكان من جملة أصحاب علىّ عليه السلام ـ ياأبا طَرِيف ، ألم أسمعْك تقول يوم الدار : « واللهِ لاتحبِقُ فيها عَنَاقٌ حَوْليّة »[٥] ! وقد رأيتَ ما كان فيها ! وقد كان فقئت عـين عدىّ ، وقتل بنوه ـ فقال : أما والله لقد حَبَقَتْ فى قتله العَنَاق والتيس الأعظم[٦] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، قال : بعث علىّ عليه السلام خيلاً ليحبسوا عن معاوية مادّته ، فبعث معاوية الضحاك بن قيس الفِهْرِىّ فى خيل إلى تلك الخيل ، فأزالوها ،

---

(١) وفى اللسان عن أبى عبيد : « وهى عندى كل حرمة تضيع إن تركتها ، من أم أو أخت أو ابنة أو غيرها » .
(٢) صفين ٤٠٧ ، ٤٠٨
(٣) صفين ٤٠٥ ، ٤٠٦
(٤) صفين : « نصر عن عمرو بن شمر بإسناده »
(٥) الحبق : ضراط المعز ، والعناق : الأنثى من ولد المعز .
(٦) صفين ٤٠٨ ، ٤٠٩

وجاءت عيون عليّ عليه السلام فأخبروه بما كان ، فقال لأصحابه : ماترون فيما هاهنا ؟ فقال بعضهم : نرى كذا ، وقال بعضهم : نرى كذا ، فلما زاد الاختلاف ، قال عليّ عليه السلام : اغدُوا إلى القتال ، فغاداهم إلى القتال ، فانهزمت صفوف الشام من بين يديه ذلك اليوم ، حتى فرّ عتبة بن أبي سفيان عشرين فرسخا عن موضع المعركة ، فقال النجاشيّ فيه من قصيدة أولها :

لقـــد أمعنتَ ياعتبُ الفِرارَا ... وأورثَك الوغَى خِزْيًا وعارا
فلا يحمِــدْ خُصاكَ سوى طِمِرٍّ ... إذا أجريْتَهُ انهمر انهمـــارا

وقال كعب بن جُعيل — وهو شاعر أهل الشام — بعد رفع المصاحف ، يذكر أيام صِفّين ويحرّض معاوية :

معاوِيَ لاتنهضْ بغـــير وثيقةٍ ... فإنّكَ بعــــد اليوم بالذلِّ عارفُ
تركتم عبيــد الله بالقاع مسنَداً ... يمجّ نجيعــا والعروق نوازفُ
ألا إنّمــا تبــكى العيونُ لفارسٍ ... بصِفّين أجلَتْ خيلُه وهو واقفُ
ينوء وتعلوهُ شــآبيبُ من دمٍ ... كما لاح فى جيب القميص اللّفائفُ
تبدّل من أسماء أسيافَ وائلٍ ... وأيّ فتى لو أخطأته المتــالفُ !
ألا إن شَرّ الناس فى الناس كلّهمْ ... بنو أسد ، إنّى بمــا قلتُ عارفُ
وفرّت تميم : سعدُها وربابُها ... وخالفت الجمراء فيمن يخالفُ[1]
وقد صــبرت حولَ ابن عمّ محمّـــدٍ ... على الموت شهباء المناكب شارفُ[2]
فمــا برحوا حتى رأى الله صبرهم ... وحتى أتيحت بالأكفّ المصاحفُ

---

(١) الجمراء : لقب بنى العنبر بن عمرو بن تميم .

(٢) ورد هذا البيت وتاليــه فى كتاب صفين منسوبين إلى أبى جهمــة الأسدى ، يرد بهمــا على كعب ابن جعيل .

وقد تقدم ذكر هذه الأبيات بزيادة على ماذكرناه الآن [١] .

***

قال نصر : وهجا كعبَ بن جُعَيل عتبةُ بن أبى سفيان وعيّره بالفرار ، وكان كعب من شيعة معاوية ، لكنّه هجا عتبة تحريضا له ، فهجاه عتبة جوابا ، فقال له :

وَسُمِّيتَ كعباً بشرّ العظا م وكان أبوك يُسَمّى الجُعَلْ [٢]

وإنّ مكانك من وائلٍ مكانُ القُرادِ من است الجَمَلْ [٣]

***

قال نصر : ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة الخميس ، حدّثنا بها عمر ابن سعد ، عن سليمان الأعمش ، عن إبراهيم النَّخَعِىّ ، قال : حدثنا القعقاع بن الأبرد الطُّهَوِىّ ، قال : والله إنى لواقف قريباً من علىّ عليه السلام بصِفّين يوم وقعة الخميس ، وقدالتقتْ مذحِج-وكانوا فى ميمنة علىّ عليه السلام-وعكّ لخم وجُذام والأشعريون ، وكانوا مستبصرين فى قتال علىّ عليه السلام ، فلقد والله رأيتُ ذلك اليوم من قتالهم ، وسمعت من وقع السيوف على الرءوس وخبْط الخيول بحوافرها فى الأرض وفى القتلى ؛ ما الجبال تَهِدّ [٤] ، ولا الصواعق تصعَق ، بأعظم من هؤلاء فى الصدور من تلك الأصوات . ونظرتُ إلى علىّ عليه السلام وهو قائم ، فدنوت منه فأسمعُه يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهمّ إليك الشكوى وأنت المستعان ! ثم نهض حين قام قائمُ الظهيرة وهو يقول : « ربّنا افتَحْ بيننا وبين قومنا بالحقّ ، وأنت خير الفاتحين » . وحمل على الناس بنفسه ، وسيفُه مجرّد بيده ، فلا والله ما حجز بين الناس ذلك اليوم إلا الله ربُّ العالمين ، فى قريب من ثلث الليل

---

(١) صفين ٤١٠ ، ٤١١

(٢) صفين : « سمى الجعل » .

(٣) صفين : ٤١٢

(٤) تهد : تحدث صوتا ، والهدة : الصوت .

الأول ، وقتِلتْ يومئذ أعلام العرب ، وكان فى رأس علىّ عليه السلام ثلاثُ ضَرَبات ، وفى وجهه ضربتان .

قال نصر : وقد قيل : إنّ عليا عليه السلام لم يخرج قطّ ، وقتِل فى هذا اليوم خزيمة ابن ثابت ذو الشهادتين ، وقتِل من أهل الشام عبد الله بن ذى الكَلاع الحميرىّ ، فقال معقل بن نَهيك بن يساف الأنصارىّ :

يالهفَ نفسِى ومَنْ يشفِى حَزَازتَها　　إذ أفلتَ الفاسِقُ الضِّلِيل منطلقاَ
وأفلت الخيــلَ عمرو وهى شاحِبَــةٌ　　تحت العجاج تحثّ الرّكْض والعَنَقاَ [1]
وافت منيّــــة عبد الله إذ لحقتْ　　قُبّ الخيول به ، أعْجِزْ بمن لِحقاَ
وانساب مروانُ فى الظَّلْماء مستتراً　　تحت الدجَى كلّما خاف الردى أرِقا

وقال مالك الأشتر :

نحن قتلنا حوشباً　　لمّا غدا قد أعلما
وذَا الكَلاع قبلَهُ　　ومَعْبَــداً إذْ أقدما
إن تقتلوا منــا أبا الـــيقظانِ شيخا مسلِماً
فقــد قتلنا منكمُ　　سبعين كَهْلا مجرِما
أضحوا بصِفّين وقدْ　　لاقوْا نَكالا مؤلِماَ

وقالت ضُبيعة بنت خزيمة بن ثابت ذى الشهادتين ترثى أباها رحمه الله :

عيْن جودى على خزيمة بالدمْــعِ قتيلِ الأحزاب يوم الفُراتِ
قتــلوا ذا الشّهادتين عُتوّا　　أدرك الله منهم بالتِّراتِ
قتلوه فى فتية غــــير عُزْلٍ　　يسرعون الركوبَ فى الدّعَواتِ
نصروا السيّد الموفّق ذا العــدْ　　لِ ، ودانوا بذاك حتى المماتِ

(١) العنق : ضرب من السير .

لعنَ الله معشراً قتلوه ورماهمْ بالخزي والآفاتِ[1]

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الأعمش ، قال : كتبَ معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله — وكان سيّداً معظما من سادات الأنصار ، وكان من شيعة عليّ عليه السلام — كتابا ، وكتب إلى زياد بن سميّة — وكان عاملا لعليّ عليه السلام على بعض فارس — كتابا ثانيا. فأما كتابه إلى أبي أيوب فكان سطراً واحدا : حاجَيْتك ! « لا تنسى الشيباء أبا عُذْرها، ولا قاتل بِكْرها » ، فلم يدر أبو أيوب ماهو ! قال : فأتى به عليا عليه السلام فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن معاوية كهف المنافقين ، كتب إليّ بكتاب لا أدرى ماهو ! قال عليّ عليه السلام : فأينَ الكتاب ؟ فدفعه إليه ، فقرأه ، وقال : نعم ، هذا مثل ضربه لك ، يقول: لا تنسى الشيباء أبا عذرها . والشيباء : المرأة البِكْر ليلةَ افتضاضها ، لا تنسى بعلها الذى افترعها أبدا ، ولا تنسى قاتل بِكْرها ؛ وهو أول ولدها ، كذلك لا أنسى أنا قتل عثمان .

وأما الكتابُ الذى كتَبه إلى زياد ، فإنّه كان وعيداً وتهدُّدا ، فقال زياد : ويْلِي عَلَى معاوية ، كهفِ المنافقين وبقيّة الأحزاب ! يتهدّدني ويتوعّدني ، وبيني وبينه ابنُ عمّ محمد ؛ معه سبعون ألفاً ، سيوفهم على عواتقهم ؛ يطيعونه[2] فى جميع مايأمرهم به، لا يلتفت رجل منهم وراءه حتى يموت ! أما والله لو ظفِر ثم خَلَص إليّ ليجدنّي أحمَر ضرّابا بالسيف .

قال نصر : أحمر أى مولى . فلما ادّعاه معاوية عاد عربيًّا مَنافيا[3] .

***

(١) صفين ٤١٣ — ٤١٦ (٢) صفين : « ومعه سبعون ألفاً طوائع ، سيوفهم عند أذقانهم » .
(٣) منافيا : منسوب إلى عبد مناف .

قال نصر : وروى عمرو بن شِمر أنّ معاوية كتب فى أسفل كتابه إلى أبى أيوب :

أبلغْ لديك أبا أيوبَ مألُـكةً ... أنّا وقومُك مثل الذئب والنَّقَدِ (١)

إمّا قتلتم أمير المؤمنين فلا ... ترجُوا المودة منّا آخر الأبد (٢)

إنّ الذى نلتموه ظالمينَ لهُ ... أبقت حرَارتُه صَدْعاً على كبدى (٣)

إنّى حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ ... لقد قتلتم إماماً غيرَ ذى أوَدِ (٤)

لا تحسِبوا أننى أنسى مصيبتَهُ ... وفى البلاد من الأنصار من أحَدِ

قد أبدلَ الله منكم خَيْرَ ذى كَلَعٍ ... واليحصبيّين أهْل الخوف والجَنَد (٥)

إن العراق لنا فقعٌ بقرقرةٍ ... أو شحمةٌ بزّها شاوٍ ولم يَكَدِ (٦)

والشام ينزلها الأبرار ، بلدتُهـا ... أمنٌ ، وبيْضتُها عِرِّيسةُ الأسد (٧)

فلما قرئ الكتاب على علىّ عليه السلام ، قال : لشدّ ماشحذَكم معاوية ! يامعشر الأنصار أجيبوا الرجل ؛ فقال أبو أيوب : ياأميرَ المؤمنينَ ، إنى ماأشاء أن أقولَ شيئاً من الشعر يعيا به الرجال إلا قلته ، فقال : فأنت إذاً أنت .

فكتب أبو أيوب إلى معاوية : أمّا بعد ، فإنك كتبت : « لا تنسى الشّيباء أبا عُذْرها ، ولا قاتل بِكْرها » ، فضربتَها مثلا بقتل عثمان ، ومانحن وقتل عثمان ! إنّ الذى تربص بعثمان

(١) المألـكة : الرسالة . والنقد : جنس صغير من الغنم ، يكون بالبحرين .
(٢) صفين : « عندى آخر الأبد » .
(٣) صفين : « حرارته » .
(٤) الأود : الاعوجاج .
(٥) الجند ، بالتحريك : مدينة باليمن ، وفى صفين : « أهل الحق والجند » .
(٦) الفقع : البيضاء الرخوة من الـكمأة . والقرقرة : الأرض المنخفضة ؛ ويقال فى المثل : « هو أذل من فقع بقرقرة » ، لأنه لا يمتنع على من جناه ، أو لأنه يداس بالأرجل .
(٧) صفين : « وحومتها عريسة الأسد » .

وثبط يزيد بن أسد وأهلَ الشام عن نُصرته لأضغانه ؛ وإنّ الذين قتلوه لغيرُ الأنصار ؛ وكتب فى آخر كتابه :

لا توعِدنّا ابنَ حرب إننا نفرٌ لا نبتغى وُدّ ذِى البغضاء من أحدِ[(١)]
واسْعَوْا جميعاً بنى الأحزاب كلّكمُ لسنا نريد رِضاكُمْ آخر الأبدِ
نحنُ الّذين ضربْنا النّاس كلّهمُ حتى استقامُوا وكانوا عُرْضة الأوَدِ
والعامَ قصرُك مِنّا إن ثبتّ لنا ضربٌ يزيّل بينَ الرُّوح والجسدِ[(٢)]
أمّا علىٌّ فإنا لا نفارقه ما رفرفَ الآلُ فى الدوّية الجَرَدِ[(٣)]
إمّا تبدّلتَ مِنّا — بعد نُصرتنا دينَ الرسول — أناساً ساكِنى الجَنَدِ
لا يعرفون أضلَّ اللهُ سعيهمُ إلا اتباعكم ، يا راعىَ النَّقَدِ
فقد بغى الحقّ هَضْماً شرُّ ذى كَلَعٍ واليحصبيّونَ طُرًّا بيضةُ البلدِ[(٤)]

قال : فلما أتى معاوية كتابُ أبى أيوب كسَره[(٥)] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شِمر ، قال : حدثنى مجالد ، عن الشعبىّ ، عن زياد ابن النّضر الحارثىّ ، قال : شهدتُ مع علىّ عليه السلام صِفّين ، فاقتتلنا مرة ثلاثة أيام وثلاث ليال ؛ حتى تكسّرت الرماح ، ونفدت السهام ، ثم صرنا إلى المسايفة ، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل ؛ حتى صرنا نحن وأهل الشام فى اليوم الثالث ؛ يعانق بعضُنا بعضاً ؛ ولقد قاتلتُ ليلتئذٍ بجميع السلاح ، فلم يبقَ شىء من السلاح إلا قاتلتُ به ؛ حتى تحاثَيْنا

(١) صفين : « إننا بشر » .
(٢) صفين : « أن أقمت لنا » .
(٣) الدوية : المفازة ؛ وفى صفين « الداوية ؛ وهما سواء . والجرد : الفضاء لانبات فيه .
(٤) اليحصبيون : بنو يحصب ؛ وهم بطن فى حمير
(٥) صفين ٤١٧ — ٤١٩

بالتراب ، وتكادَمْنا بالأفواه ؛ حتى صرنا قياما ينظر بعضنا إلى بعض ؛ ما يستطيع أحدٌ من الفريقين أن ينهضَ إلى صاحبه ؛ ولا يقاتل ؛ فلما كان نصفُ الليل من الليلة الثالثة ، انحاز معاوية وخيله من الصفّ وغلب علىّ عليه السلام على القَتْلَى ؛ فلما أصبح أقبل على أصحابه يدفنهم وقد قتِل كثير منهم ، وقتل من أصحاب معاوية أكثر ، وقتِل فيهم تلك الليلة شمِر بن أبرهة (١) .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن جابر عن تميم ، قال : والله إنّى لمع علىّ عليه السلام ؛ إذ أتاه علقمة بن زهير الأنصارىّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عمرو بن العاص يرتجز فى الصفّ بشعر ، أفأسمِعكه ! قال : نعم ، قال : إنه يقول :

إذا تخازَرْتُ وما بى من خَزَرْ (٢) ثم كَسَرْتُ العين من غير عَوَرْ (٣)
ألفيتَنى ألوَى بعيدَ المستمرّْ (٤) ذا صولةٍ فى المصمئلاتِ الكُبَرْ (٥)
أحمل ما حُمّلتُ من خيرٍ وشرّْ كالحيّة الصمّاء فى أصل الحَجَرْ

فقال علىّ : اللهم العنه ؛ فإنّ رسولك لعنه ، قال علقمة : وإنّه يا أميرَ المؤمنين يرتجز برجز آخر ، فأنشدك ؟ قال : قل ، فقال :

أنا الغلامُ القرشىّ المؤتمنْ الماجدُ الأبلجُ ليثٌ كالشّطَنْ
ترضى بىَ الشامُ إلى أرض عَدَنْ ياقادة الكوفة ، ياأهل الفِتَنْ (٦)

---

(١) صفين ٤٢٠ .
(٢) التخازر : تصنع الخزر ؛ وهو ضيق العين .
(٣) صفين : « ثم خبأت العين » .
(٤) الألوى : القوى الشديد المراس .
(٥) المصمئلات : الوقائع الشديدة ؛ وأصل المصمئلة : الداهية .
(٦) بعده فى صفين :

* يأيّها الأشرافُ من أهلِ اليمنْ *

أضربُكم ولا أرى أباحَسَنْ[1] كَفَى بهـذا حَزَناً من الحزنْ !

فضحك علىّ عليه السلام ، وقال : إنّه لكاذب ، وإنّه بمكانى لعالم، كاقال العربىّ: « غير الوهْى ترقعين وأنت مبصرة » ، وَيحْـكم ! أرونى مكانه ؛ لله أبوكم ؛ وخلاكم ذَمّ !

وقال محمد بن عمرو بن العاص :

لو شهدت جُمْلٌ مقامى ومشهدى[2] بصفّين يوماً شاب منها الذوائبُ
غداةَ غدَا أهلُ العراق كأنّهم من البحر موجٌ لُجّـهُ متراكبُ
وجئناهمُ نمشى صفوفا كأننا سحاب خريفٍ صفّفَتْهُ الجنائبُ
فطارتْ إلينا بالرماح كُماتُهُمْ وطِرْنا إليهمْ والسيوفُ قواضبُ
فدارتْ رَحانا واستدارت رحاهمُ سَرَاةَ نهارٍ ماتولّى المناكبُ
إذا قلت يوما قد ونوا برزتْ لنا كتائب منهم واحجنّت كتائبُ
وقالوا نرى من رأينا أن تُبايعوا عليًّا ، فقلنا بل نرى أن نضاربا[3]
فأبنَا وقد أردَوْا سَرَاةَ رجالنا[4] وليس لما لاقَوْا سوى الله حاسبُ
فلم أر يوماً كان أكثر باكيا ولا عارضاً منهم كميًّا يكالب
كأنّ تلالى البيض فينا وفيهمُ تلألُؤُ برقٍ فى تِهامة ثاقِب[5]

(١) بعده فى صفين :

* أعنِي عَليًّا وَابن عمّ المُؤْتمَنْ *

(٢) صفين : « وموقفى »

(٣) فى البيت إقواء .

(٤) صفين : « نالوا سراة رجالنا » .

(٥) فى صفين : « فرد عليه محمد بن على بن أبى طالب :

لَوْ شَهِدَتْ جُمْلٌ مَقَامَكَ أَبْصَرَتْ مَقَامَ لَئِيمٍ وَسْطَ تِلْكَ الْكَتَائِبِ
أتَذْكُرُ يَوْماً لَمْ يَكُنْ لَكَ فَخْرُهُ وقَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ عَلَيْكَ الْجَلاَئِبُ
وَأَعْطَيْتُمُونَا مَا نَقِمْتُمْ أذِلّةً على غَـيْرِ تَقْوَى اللهِ وَالدِّينُ وَاصِبُ

وقال النّجاشىُّ يذكر عليا عليه السّلام ، وجِدّه فى الأمر :

إنى إخالُ عليًّا غيرَ مرتدِعٍ ... حتّى تُقام حقوقُ الله والحُرَمُ
أما ترى النّقْعَ معصوبًا بلمّتهِ ... كأنه الصّقْرُ فى عِرْنينه شَمَمُ (١)
غضبانُ يحرق نابيْهِ على حَنَقٍ (٢) ... كما يغطّ الفنيقُ المصعَبُ القَطِمُ (٣)
حتى يزيل ابنَ حربٍ عن إمارته ... كما تنكّب تيسَ الحَبْلَةِ الحُلُمُ (٤)

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد عن الشعبىّ ، قال : بلغ النجاشىّ أن معاوية تهدده فقال : (٥) .

يأيُّها الرجلُ المبدِى عداوتَهُ ... رَوِّئْ لنفسك أىَّ الأمر تأتمِرُ !
لا تحسبنّى كأقوام ملكْتَهُمُ ... طوعَ الأعِنّه لمّا ترشح الغُدُرُ
وما علمتُ بما أضمرتَ من حَنَقٍ ... حتى أتتنى به الرُّكْبانُ والنُّذُرُ
إذا نفَسْتَ على الأمجاد مجدَهُمُ (٦) ... فابْسُطْ يديك ، فإن الخير مبتدَرُ
واعلم بأنّ علىَّ الخيرِ من نفَرٍ ... شُمِّ العرانين لا يعلوهُمُ بشَرُ
لا يجحد الحاسد الغضبان فضلهمُ (٧) ... ما دام بالحَزْن من صَمّائها حَجَرُ
نعم الفتى أنتَ إلّا أنّ بينكما ... كما تفاضلَ ضوءُ الشمس والقمرُ

---

(١) فى صفين : « نقع القبائل فى عرنينه شمم » .
(٢) صفين : « نابيه بحرته » .
(٣) المصعب : الفحل ، والقطم : المشتهى للضراب .
(٤) صفين ٤٢٠ – ٤٢٤ ، وبعد هذا البيت هناك :

لَوْ تَرَوْهُ كَمِثْلِ الصَّقْرِ مُرْتَبِذًا ... يَخْفِقْنَ مِنْ حَوْلِهِ العِقْبانُ وَالرَّخَمُ

(٥) فى صفين : « وقال النجاشى أيضا يمدح عليا ويهجو معاوية ، وقد بلغه أنه يتهدده » .
(٦) صفين : « الأنجاد » .
(٧) صفين : « لا يرتقى الحاسد الغضبان مجدهم » .

ولا إخالك إلا لستَ منتهياً   حتى يمسّك من أظفاره ظفُرُ
لا تحمَدنّ امرأً حتى تجرِّبه   ولا تذمنّ مَنْ لم يبلُهُ الخبُرُ
إنى امرؤٌ قلما أُثنى على أحدٍ   حتّى أرى بعضَ ما يأتى وما يَذَرُ
وإن طوى معشرٌ عنّى عداوتَهم   فى الصَّدر أو كان فى أبصارهم خَزَرُ
أجمعتُ عزْماً جراميزى بقافيةٍ   لا يبرحُ الدَّهرَ منها فيهمُ أثَرُ (١)

قال : فلمّا بلغ معاويةَ هذا الشعر ، قال : ما أراه إلا قد قارب (٢) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن إسحاق ، أنّ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان يحمل على الخيل يوماً ، فجاءه رجل ، فقال : هل من فرسٍ يابن ذى الجناحين ! قال : تلك الخيل فخذ أيَّتَها شئت ، فلما ولّى قال ابنُ جعفر : إن تصب أفضل الخيل تقتَل ، فما عتَم أن أخذ أفضل الخيل ، فركبه ، ثم حمل على فارس قد كان دعاه إلى البراز ، فقتله الشامىّ ، وحمل غلامان آخران من أهل العراق ؛ حتى انتهيا إلى سرادق معاوية ، فقتلا عنده ؛ وأقبلت الكتائبُ بعضُها نحو بعض ، فاقتتلت قياما فى الركب ، لا يسمع السامع إلا وقْع السيوف على البيض والدَّرَق .

وقال عمرو بن العاص :

أجئتم إلينا تسفِكون دماءَنا   وما رُمتمُ وعرٌ من الأمر أعسرُ
لعمرى لَمَا فيه يكون حِجاجُنا   إلى الله أدْهَى لو عقلتم وأنكرُ
تعاورتمُ ضَرْباً بكلِّ مهنَّدٍ   إذا شَدّ وَرْدَانٌ تقدّم قَنْبَرُ (٣)
كتائبكم طوراً تَشُدُّ وتارةً   كتائبنا فيها القَنَا والسَّنَوَّرُ (٤)

(١) يقال : ضم فلان جراميزه ؛ إذا رفع ما انتشر من ثيابه ثم مضى ؛ يريد أنه أجمع أمره ومضى ، ويريد بالقافية ، الشعر بقوله فى الهجاء ، وفى صفين : « جمعت صبرا » .
(٢) صفين ٤٢٤ .   (٣) قنبر غلام على ، ووردان غلام عمرو بن العاص .
(٤) السنور هنا : الدروع . والخبر فى صفين ٥ ، ٤ .

إذا ما ٱلتقوا يوماً تدارك بينهمْ طِعانٌ وموت فى المعارك أحمرُ

وقال رجل من كلب مع معاوية يهجو أهل العراق ويوبخهم :

لقد ضلّتْ معاشرُ من نزارٍ إذا انقادوا لمثل أبى تُرابِ (١)
وإنهـــمُ وبيعتَهمْ عليًّا كواشمةِ التغضّنِ بالخضابِ
تزيّنُ من سَفاهتِها يديْها وتحسِرُ باليدين عن النقابِ
فإياكم وداهيـــةً نئوداً تسير إليكم تحتَ العُقابِ (٢)
إذا سارُوا سمعتَ لحافتيْهمْ دويًّا مثل تصفيقِ السَّحابِ (٣)
يُجيبون الصَّريخَ إذا دعاهمْ وقد طعن الفوارسُ بالحرابِ (٤)
عليهم كلُّ سابغـــةٍ دِلاصٍ وأبيضَ صارمٍ مثل الشِّهابِ (٥)

وقال أبو حيّة بن غزيّة الأنصارىّ ؛ وهو الذى عقر الجمل يوم البصرة ، واسمه عمرو :

سائلْ حليلةَ معبدٍ عن بعلِها وحليلةَ اللخمىّ وابن كَلَاعِ (٦)
واسأل عُبَيْد الله عن فرساننا لمّا ثَوَى مُتَجَدِّلا بالقـــاعِ
واسأل معاويةَ المولّى هارباً والخيل تَمعجُ وهى جِدّ سراعِ (٧)
ماذا يخبِّرك المخـــبر منهمُ عنهمْ وعنّا عند كلّ وقاعِ (٨)
إن يصدُقوك يخبِّرُوك بأننا أهلُ النَّدَى قِدْماً مجيبُو الدَّاعِى

(١) صفين ٤٢٧ .
(٢) النئود : الداهية الشديدة والعقاب : الراية .
(٣) صفين : « إذا هشوا » .
(٤) الصريخ : المستغيث .
(٥) الدلاص : الدرع .
(٦) صفين : ٤٣١
(٧) تمعج : تسرع ، وفى صفين : « والخيل تعدو » .
(٨) الوقاع : المواقعة فى الحرب .

إن يصدقوك يخبّروك بأنّنـــا   نحمى الحقيقة كلّ يوم مَصاع [١]

ندعو إلى التقوى ونرعَى أهلها   برعاية المأمونِ لا المضيـــاع

ونسنّ للأعــداء كلّ مثقّفٍ   لَدْنٍ وكلّ مشطّبٍ قطّاع [٢]

وقال عدىّ بن حاتم الطائىّ :

أقولُ لما أنْ رأيتُ المعمعَهْ [٣]   واجتمع الجندان وسْطَ البلْقعَهْ

هــذا علىّ والهدَى حقًّا معَهْ   يارَبّ فاحفظه ولا تضيّعَهْ

فإنه يخشاك ربّ فارفعَهْ   ومن أراد عيبَهُ فضعضعَهْ

* أو كادَهُ بالبَغْى منك فقمعَهْ *

وقال النعمان بن جعلان الأنصارىّ :

سائلْ بصِفّين عنّا عند غدْوَتنا   أمْ كيفَ كُنّا إلى العلياء نبتدرُ [٤]!

وسلْ غداةَ لقينا الأزْدَ قاطِبَةً   يوْمَ البصيرة لما استجمعتْ مُضَرُ

لولا الإلهُ وعَفوٌ من أبى حسنٍ   عنهم ، ومازال منه العفو يُنتظر [٥]

لما تداعتْ لهم بالمِصْرِ داعيـــةٌ   إلّا الــكلابُ ، وإلّا الشاء والُحمُرُ

كم مُقْعَصٍ قد تركنــاهُ بمقفَرَةٍ   تعوِى السباعُ عليه وهو منعفِرُ [٦]

ما إن يؤوب ولا ترجوه أسرته   إلى القيــامة حتى ينفخ الصُّــوَرُ [٧]

قال عمرو بن الحمِق الُخزاعىّ :

---

(١) المصاع : المجالدة والقتال . وفى صفين : « عند كل مصاع » .

(٢) سيف مشطب : فيه شطب ؛ وهى الخطوط والطرائق .   (٣) صفين ٤٥٣

(٤) صفين : ٤٣٣ .

(٥) البيت فى صفين :

لولَا الإلهُ وقومٌ قد عرفتهمُ   فيهم عفَافٌ ، وما يأتى به القدر

(٦) المقعص : المقتول بمكانه ، أو المجهز عليه .

(٧) صفين : « ما إن تراه ولا يبكى علانية » .

تقولُ عِرْسِيَ لما أنْ رأت أَرَقِي ... ماذا يهيجكَ من أصحاب صِفّينا [1] !
ألستَ في عُصْبَةٍ يهدى الإلهُ بهمْ ... لا يظلمون ، ولا بغياً يريدونا !
فقلت إني عَلَى ما كان من رَشَدٍ ... أخشى عواقبَ أمرٍ سوف يأتينا
إدالةَ القومِ في أمرٍ يرادُ بنـا ... فاقْـنَيْ حياءً وكُفِّي ماتقولينا [2]

وقال حُجْر بن عدى الكندىّ .

يا ربَّنا سَلِّم لنـا عليّا ... سَلِّم لنا المهذَّب التقيّا [3]
المؤمنَ المسترشِد الرضيّا ... واجعله هادى أمةٍ مهديّا
واحفظه ربِّ حفظك النبيّا ... لا خَطِل الرأى ولا غبيّا [4]
فإنه كان لنـا وليّا ... ثم ارتضيه بعـده وصيّا

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الشعبى ، قال : قال الأحنف بن قيس في صِفّين لأصحابه : هلَكت العرب ! قالوا له : وإن غَلَبْنا يا أبا بحر ؟ قال : نعم ، قالوا : وإن غُلِبنا ؟ قال : نعم ، قالوا : والله ما جعلتَ لنا مخرجا . فقال الأحنف : إنّا إنْ غلبناهم لم نترك بالشام رئيسا إلا ضربنا عنقه ، وإن غلبونا لم يعرّج بعدها رئيس عن معصية الله أبدا [5] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الشّعبىّ ، قال : ذكر معاوية يوماً صِفّين بعد عام الجماعة ، وتسليم الحسن عليه السلام الأمرَ إليه ، فقال الوليد بن عُقْبة : أىّ بنى عمّك

(١) صفين : ٤٣٣
(٢) اقنى حياء ، أى الزمى الحياء .
(٣) صفين ٤٣٤
(٤) في الأصول : « بغيا » وما أثبته من صفين
(٥) صفين ٤٤٠

كان أفضلَ يوم صفّين [ياوليد][1] ، عند وَقَدان الحرب ، واستشاطة لَظَاها حين قاتلت الرجال على الأحساب ؟ قال : كلّهم قد وصل كَنَفَيْها عند انتشار وقْعتها ، حتى ابتلّت أثباجُ الرّجال من الجِرْيال ، بكلّ لَدْن عَسّال ، وبكلّ عَضْب قصّال . فقال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : أما والله لقد رأيتُنا يوما من الأيام ، وقد غشيَنا ثعبان فى مثل الطَّوْد الأرعن ، قد أثار قسطلّا حال بيننا وبين الأفق ، وهو على أدهم شائل الغرّة ، — يعنى عليا عليه السلام — يضربهم بسيفه ضربَ غرائب الإبل ؛ كاشراً عن نابه كشر المُخدر الحرِب ، فقال معاوية : نعم إنه كان يقاتل عن ترَةٍ له وعليه[2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الشعبى ، قال : أرسل علىّ عليه السلام إلى معاوية : أن ابرُز إلىّ وأعْفِ الفريقين من القتال ، فأيّنا قتل صاحبَه كان الأمر له . فقال عمرو : لقد أنصفك الرجل ، فقال معاوية : أنا أبارز الشجاع الأخرق ! أظنك ياعمرو طمعت فيها . فلمّا لم يجب قال علىّ عليه السلام : وانفساه ! أيطاع معاوية وأعصى ! ماقاتلت أمة قطّ أهلَ بيتِ نبيها وهى مقرّة بنبيّها غير هذه الأمّة !

ثم إنّ عليا عليه السلام أمرَ الناس أن يحملُوا على أهل الشام ، فحملوا ، فنقضوا صفوف الشام ، فقال عمرو : عَلَى مَنْ هذا الرَّهج الساطع ؟ قالوا : على ابنيْك عبدالله ومحمد ، فقال عمرو : ياوردان ، قدّم لوائى ، فأرسل إليه معاوية : إنه ليس على ابنيْك بأس فلا تنقض الصفّ ، والزم موقفك ، فقال عمرو : هيهات هيهات .

الليثُ يَحْمِي شِبْلَيْهِ ماخيرُه بَعْدَ ابنَيْهِ !

ثم تقدّم باللواء ، فأدركه رسول معاوية [فقال][3] : إنه ليس على ابنيك بأس ؛ فلا تحملنّ ،

---

(١) من صفين

(٢) صفين ٤٤٠ ، ٤٤١

(٣) من د وصفين .

فقال : قل له : إنك لم تلدهما ، وإني أنا ولدتُهما . وبلغ مقدّم الصفوف ، فقال له الناس: مكانَكَ ! إنّه لا بأس على ابنيك ؛ إنّهما في مكان حريز . فقال : أسمعوني أصواتَهما حتى أعلمَ أحيّان هما أم قتيلان ! ونادى : ياوردْان ، قدم لواءك قَيْدَ قوس ؛ فقدّم لواءه ، فأرسل عليّ عليه السلام إلى أهل الكوفة : أن احملوا ، وإلى أهل البصرة : أن احملوا . فحمل الناس من كلّ جانب ، فاقتتلوا قتالًا شديدا ، وخرج رجل من أهل الشام ، فقال : مَنْ يبارز ؟ فبرز إليه رجلٌ من أهل العراق ، فاقتتلا ساعةً ، وضرب العراقيّ الشاميّ عَلَى رجله ، فأسقط قدَمَه ، فقاتل ولم يسقط إلى الأرض ، فضرَبه العراقيّ أخرى ، فأسقط يده ، فرمى الشاميّ سيفه إلى أهل الشام ، وقال : دونكم سيفي هذا ، فاستعينوا به على قتال عدوّكم. فاشتراه معاوية من أوليائه بعشرة آلاف درهم[1].

* * *

قال نصر : وحدّثنا مالك الجُهَنيّ ، عن زيد بن وهب ، أنّ عليًّا عليه السلام مرّ عَلَى جماعة من أهل الشام بصِفّين ، منهم الوليد بن عقبة ، وهم يشتِمونه ويقصِبونه[2] ، فأخبر بذلك ، فوقف على ناسٍ من أصحابه ، وقال : انهَدُوا إليهم ، وعليكم السكينة والوقار وسيما الصالحين ، أقرِبْ بقومٍ من الجهل ، قائدهم ومؤدّبهم معاوية ، وابن النابغة ، وأبو الأعور [السُلَميّ][3] ، وابن أبي مُعيط شارب الحرام ، والمحدود[4] في الإسلام ! [وهم أولاء][3] ، يقصِبونني ويشتمونني ، وقبل اليوم ماقاتلوني وشتَموني ، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام ، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام ، فالحمد لله ، ولا إله إلا الله ! لقديمًا ماعاداني الفاسقون ، إنّ هذا لهو الخطب الجلل ؛ إنّ فساقا كانوا عندنا غيرَ مرضيّين ، وعَلَى الإسلام

---

(١) صفين ٤٤١ ، ٤٤٢

(٢) يقصبونه : يسبونه .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « المجلود »

وأهله متخوّفين ، أصبحوا وقد خدموا شطّر هذه الأمة ، وأشربوا فى قلوبهم حبّ الفتنة ، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان ، ونَصَبُوا لنا الحرب ، وجَدُّوا فى إطفاء نور الله ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون . اللهمّ فإنهم قد ردّوا الحق فافضُضْ جمعهم ، وشتّت كلمتهم ، وأبلسهم بخطاياهم ، فإنه لا يَذلّ مَنْ واليت ، ، ولا يَعِزّ من عاديت(١) .

***

قال نصر : وكان علىّ عليه السلام ، إذا أراد الحملة هلّل وكبّر ، ثم قال :

من أىِّ يومىّ من الموتِ أفرّ ... أيومَ لم يقـــدر أو يوم قُدِرْ !

فحمل معاوية لواءه الأعظم مع عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، فأمر علىّ عليه السلام جارية بن قُدامة السعدىّ أن يلقاه بأصحابه ، وأقبل عمرو بن العاص بعده فى خيل ، ومعه لواء ثانٍ ، فتقدّم حتى خالط صفوفَ العراق ، فقال علىّ عليه السلام لابنه محمد : امش نحو هذا اللواء رويداً ؛ حتى إذا أشرَعْت الرماح فى صدورهم فأمسك يدك حتى يأتيك أمرى . ففعل – وقد كان أعدّ علىّ عليه السلام مثلهم مع الأشتر – فلما أشرَع محمد الرماح فى صدورِ القوم ، أمر علىّ عليه السلام الأشترَ أن يحمل فحمل ، فأزالهم عن مواقفهم ، وأصاب منهم رجالاً ، واقتتل الناس قتالا شديدا ، فما صلّى مَنْ أراد الصلاة إلا إيماء ، فقال النجاشىّ فى ذلك اليوم يذكر الأشتر :

ولما رأينا اللواءالعقاب(٢) ... يقحّمه الشانئُ الأخزرُ

كليث العرينِ خلال العجاج ... وأقبل فى خيـله الأبترُ

دعَوْنالهاالكبش كَبْشَ العراق ... وقد أضمر الفشلَ العسكرُ(٣)

فردّ اللواء عَلَى عَقْبِــــهِ ... وفاز بحظوتها الأشترُ

(١) صفين ٤٤٤ ، ٤٤٥

(٢) صفين : « رأيت اللواء لواء العقاب »

(٣) صفين : « وقد خالط العسكر العسكر »

كما كان يفعل فى مِثلها ... إذا ناب مَعْصَوْصِبٌ منكر
فإن يدفع الله عن نفسه ... فحظّ العراق به الأوفرُ
إذا الأشتر الخيرُ خلّى العراق ... فقد ذهب العُرْف والمنكَرُ
وتلك العراق ومن عرفت ... كفَقْعٍ تضمّنه القَرْقَرُ (١)

* * *

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عتبة الكندىّ ، قال : حدثنى شيخ من حَضرموت شَهِد مع علىّ عليه السلام صِفّين ، قال : كان مِنّا رجل يعرف بهانئ بن فهد(٢) ، وكان شجاعا ، فخرج رجل من أهل الشام يدعو إلى البراز فلم يخرج إليه أحد ، فقال هانئ : سبحان الله ! مايمنعكم أن يخرج منكم رجل إلى هذا ! فوالله لولا أنّى موعوك، وأنّى أجدُ ضعفا شديداً لخرجت إليه . فما ردّ أحدٌ عليه ، فقام وشدّ عليه سلاحه ليخرج ، فقال له أصحابُه : ياسبحان الله ! أنت موعوك وَعْكَةً شديدة ، فكيف تخرج ! قال : والله لأخرجنّ ولو قتلنى ، فخرج؛ فلما رآه عرفه ، وإذا الرجل من قومه من حَضرموت، يقال: له يعمر بن أسد الحضرمىّ ، فقال : ياهانئ ، ارجع فإنّه إن يخرج إلىّ رجلٌ غيرُك أحبُّ إلىّ ، فإنّى لا أحبّ قتلك . قال هانئ : سبحان الله ! أرجع وقد خرجت؛ لا والله لأقاتلنّ اليوم حتى أقتل ، ولا أبالى قتلتَنى أنت أو غيرك ! ثم مشى نحوه ، وقال: اللهمّ فى سبيلك ونصراً لابن عمّ رسولك . واختلفا ضربتين ، فقتله هانئ ، وشدّ أصحاب يعمر بن أسد على هانئ ، فشدّ أصحاب هانئ عليهم ، فاقتتلوا وانفرجوا عن اثنين وثلاثين قتيلا. ثم إنّ عليا عليه السلام أرسل إلى جميع العسكر : أن احملوا ، فحمل الناس كلّهم على راياتهم، كلٌّ منهم

---

(١) الفقع : الكمأة الرخوة ، والقرقر : الأرض اللينة المطمئنة . والشعر فى صفين ٤٥١ — ٤٥٢
(٢) صفين : « ابن نمر »

يحمل عَلَى مَنْ بإزائه [١]، فتجالَدُوا بالسيوف،وعُمُد الحديد ؛ لا يُسمع إلّا صوت ضرب الهامات ، كوقع المطارق على السنّادِين، ومرّت الصلوات كلّها،فلم يصلّ أحدٌ إلا تكبيراً عند مواقيت الصلاة ؛ حتى تفانَوْا ، ورقّ الناس ، وخرج رجل من بين الصّفين ، لا يُعلَم مَنْ هو ، فقال : أيّها الناس ، أخرَج فيكم المحلّقون؟فقيل : لا ، فقال : إنّهم سيخرُجون، ألسنتُهم أحلَى من العسل ، وقلوبهم أمرّ من الصَّبِر ، لهم حُمَة كحُمَة الحيات . ثم غاب الرجل فلم يُعلم مَنْ هو [٢] !

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن السدى،قال : اختلط أمر الناس تلك الليلة، وزال أهلُ الرايات عن مراكزهم،وتفرّق أصحابُ علىّ عليه السلام عنه،فأتى ربيعة ليلا؛ فكان فيهم،وتعاظم الأمر جدّاً،وأقبل عدىّ بن حاتم يطلُب عليا عليه السلام فى موضعه الذى تركه فيه فلم يجده ، فطاف يطلبه ، فأصابه بين رماح ربيعة ، فقال : ياأمير المؤمنين؛ أمّا إذْ كنت حيّا ، فالأمر أمَمٌ ، مامشيتُ إليك إلّا عَلَى قتيل ؛ وما أبقت هذه الوقعة لهم عميدا ، فقاتِل حتى يفتح الله عليك، فإنّ فى الناس بقيّة بعد.وأقبل الأشعث يلهث جزعاً، فلما رأى عليا عليه السلام هلّل فكبّر ، وقال : ياأمير المؤمنين ، خيل كخيلٍ ورجال كرجال ؛ ولنا الفضلُ عليهم إلى ساعتنا هذه ، فعدْ إلى مكانك الذى كنتَ فيه ؛ فإنّ الناس إنما يظنّونك حيث تركوك.وأرسل سعيد بن قيس الهَمْدَانىّ إلى علىّ عليه السلام: إنّا مشتغلون بأمرنا مع القوم ، وفينا فضْل ، فإن أردت أن نمِدّ أحداً أمددناه.فأقبل علىٌّ عليه السلام عَلَى ربيعة ، فقال : أنتم دِرْعى ورمحى – قال:فربيعة تفخَر بهذا الكلام إلى اليوم – فقال عدىّ بن حاتم . ياأمير المؤمنين،إنّ قوما أنِسْت بهم؛وكنت فى هذه الجولة

---

(١) صفين : « لحمل الناس على راياتهم كل قوم بحيالهم »
(٢) صفين ٤٤٧ ، ٤٤٨

فيهم ، لمظلِمُ حقّهم ؛ والله إنّهم لصُبُر عند الموت ، أشدّاء عنـد القتال ـ فدعا على عليه السلام بفرَس رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يقال له المرتجز ، فركبه ، ثم تقدّم أمام الصفوف ، ثم قال : بل البغلة ، بل البغلة ، فقدِّمت له بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الشهباء ، فركبها ، ثم تعصّب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت سوداء ، ثم نادى : أيّها الناس ، مَنْ يَشْرِ نفسه اللهَ يربح ، إنّ هذا ليومٌ[1] له مابعده ، إنّ عدوّكم قد مسّه القَرْح كما مسكم ، فانتدبوا لِنصرة دين الله . فانتدب له مابين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفا ، قد وضعوا سيوفَهم عَلَى عواتقهم ، فشدّ بهم على أهل الشام ، وهو يقول:

دبّوا دبيب النمل لا تفوتُوا ... وأصبِحُوا فى حربكم وبيتُوا
حتّى تنالوا الثأر أو تموتُوا ... أولَا فإنى طالمـــا عُصِيتُ
قد قلتمو لو جئتنـــا ! فجيتُ ... ليس لـكم ما شئتمُ وشيتُ
* بل مايريد المُحْيِيُ المميتُ *

وتبعه عدىّ بن حاتم بلوائه ، وهو يقول :

أبعـد عمّارٍ وبعـــد هاشمِ ... وابن بُديلٍ فارس الملاحِم
نرجو البقاء ، ضلّ حُلْمُ الحالِم ... لقد عَضَضْنا أمسِ بالأباهِم !
فاليوم لا نقرعُ سنّ نادِم ... ليس امرؤ من حتفِه بسالِم

وحمل وحمل الأشتر بعدَها فى أهل العراق كافّة،فلم يبق لأهل الشام صفّ إلا انتقض، وأهمد أهل[2] العراق ماأتوْا عليه حتّى أفضى الأمر إلى مضرِب معاوية،وعلىٌّ عليه السلام يضرب الناس بسيفه قُدُمًا قُدُمًا ، ويقول :

---

(١) ج ، د : « إن هذا اليوم » .
(٢) صفين : « وأهمدوا ما أتوا عليه »

أضربُهم ولا أرى معاويهْ　　الأخزَرَ العينِ العظيمَ الحاويهْ

* هوتْ به النار أمٌّ هاويهْ *

فدعا معاوية بفرسه لينجوَ عليه ، فلما وضع رجله في الرّكاب توقّف وتلوّم قليلا ، ثم أنشد قول عمرو بن الإطنابة :

أبتْ لي عِفّتي وأبَى بلائي　　وأخذِي الحمدَ بالثمن الرّبيحِ

وإقدامي على المكروهِ نفسي　　وضربي هامَةَ البطلِ المشيحِ

وقَولِي كلّما جشأت وجاشتْ　　مكانَكِ تُحمَدي أو تستريحي

لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ　　وأحمِي بعدُ عن عِرْضٍ صحيحِ

بذي شُطَبٍ كلوْن الملح صافٍ　　ونفسٍ ما تقَرّ عَلَى القَبِيحِ

ثم قال : يا عمرو بن العاص ، اليوم صبر وغداً فخر ، قال : صدقت ، إنك وما أنت فيه ، كقول القائل[1] :

ما علّتِي وأنا جَلْدٌ نابلُ[2]　　والقوس فيها وَتَرٌ عُنابِلُ[3]

تَزِلّ عن صَفْحتِها المعابلُ[4]　　الموتُ حقٌّ والحياة باطلُ

فثَنَى معاوية رجلَه من الركاب ، ونزل واستصرخ بعكّ والأشعريّين ، فوقفوا دونه ، وجالدُوا عنه ، حتى كَرِه كلٌّ من الفريقين صاحبَه ، وتحاجز الناس[5] .

* * *

(١) صفين : « ابن أبي الأفلح » ؛ وهو عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ؛ صحابي ، ذكره ابن حجر في الإصابة ٢ : ٢٣٥ . والرجز في اللسان ١٣ : ٥٠٦ .

(٢) في اللسان : « طب خاتل » .

(٣) العنابل: الوتر الغليظ.

(٤) المعابل : جمع معبلة ؛ وهي النصل الطويل العريض .

(٥) صفين ٥٥٧ ـ ٥٦٠ .

قال نصر : جاء رجل إلى معاوية بعد انقضاء صِفّين وخلوص الأمر له ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ لى عليك حقًّا ، قال : وماهو؟ قال : حق عظيم ! قال ويحك! ماهو ؟ قال : أتذكر يوماً قدّمت فرسك لتفرّ ، وقد غشيَك أبو تراب والأشتر ، فلما أردت أن تستوثبه وأنت على ظهره ، أمسكتُ بعنانك وقلت لك : أين تذهب ! إنه للؤمٌ بك أن تسمَح العرب بنفوسها لك شهرين ، ولا تسمح لها بنفسك ساعة ، وأنت ابن ستين ! وكم عسى أن تعيش فى الدنيا بعد هذه السنّ إذا نجوت ! فتلوّمتَ فى نفسك ساعة ، ثم أنشدتَ شعرا لا أحفظه ثم نزلت ! فقال : ويحك ! فإنك لأنت هو ! والله ما أحلّنى هذا المحل إلا أنت ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن النخعىّ ، عن ابن عباس ، قال : تعرّض عمرو بن العاص لعلىّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين ، وظنّ أنه يطمع منه فى غرّة فيصيبهُ ، فحمل عليه علىٌّ عليه السلام فلما كاد أن يخالطه أذرى نفسه عن فرسه ، ورفع ثوبه وشغر برجلِه ، فبدت عورتُه ، فصرف عليه السلام وجهه عنه ، [وارتُثّ[1]] ، وقام معفّراً بالتراب ، هارباً على رجليه ، معتصِماً بصفوفه . فقال أهل العراق : يا أميرَ المؤمنين : أفلت الرجل ! فقال أتدرون مَنْ هو ؟ قالوا : لا ، قال : فإنه عمرو بن العاص ، تلقّانى بسوءته فصرفت وجهى عنه . ورجع عمرو إلى معاوية ، فقال : ما صنعتَ يا أبا عبدالله ؟ فقال : لقيَنى علىّ فصَرعنى ، قال : احمَد الله وعورتك ، والله إنّى لأظنّك لو عرفتَه لما أقحمتَ عليه ، وقال معاوية فى ذلك :

ألا لله من هفوات عمرٍو   يعاتبنى على تركى برازى

---

(١) من صفين .

فقد لاقى أبا حسن عليًّا فآب الوائلىُّ مآبَ خازِى

فلو لم يُبد عورتَه لطارت بمهجتهِ قوادمُ أىّ بازى[1]

فإن تكن المنيّة أخطأتْهُ فقد غنّى بها أهل الحجاز !

فغضب عمرو وقال : ماأشدّ تعظيمك [عليًّا][2] أبا تراب فى أمرى ! هل[3] أنا إلا رجل لقيَه ابن عمّه فصرعه ! أفترى السماء قاطرةً لذلك دمًا ؟! قال : لا ، ولكنها معقِبة لك خزيًا[4] ..

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : لما اشتدّ الأمر ، وعظُم على أهل الشام ، قال معاوية لأخيه عُتبة بن أبى سفيان : الْقَ الأشعث ، فإنه إن رضى رضيتِ العامّة ـ وكان عُتْبة فصيحا ـ فخرج فنادى الأشعث ، فقال الأشعث : سَلُوا مَنْ هو المنادى ؟ قالوا : عُتْبة ابن أبى سفيان ، قال : غلام مُتْرَفٌ ولا بدّ من لقائه ! فخرج إليه ، فقال : ماعندك ياعتبة ؟ فقال : أيها الرجل ، إنّ معاوية لو كان لاقيا رجلا غير علىّ للقيَك ، إنك رأسُ أهل العراق ، وسيّد أهل اليمن ، وقد سَلَفَ من عثمان إليك ما سلف من الصِّهر والعمل ، ولستَ كأصحابك ، أمّا الأشتر فقتَل عثمان ، وأما عدىّ فحرّض عليه ، وأما سعيد بن قيس فقلّد عليًّا ديتَهُ ، وأما شُريح وزحْر بن قيس فلا يعرفان غيرَ الهوى ، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرّما ، وحاربت أهل الشام حميّة ، وقد بلغنا منك وبلغت منا ما أردت ؛ وإنّا لا ندعوك إلى ترك علىّ ونصرة معاوية ، ولكنا ندعوك إلى البقيّة التى فيها صلاحُك وصلاحنا . فتكلّم الأشعث ، فقال : ياعُتْبة ، أمّا قولك : « إن معاوية لا يلقى إلا عليا »،

---

(١) صفين : « به ليثا يذلل كل نازى »
(٢) صفين .
(٣) صفين : « هو » .
(٤) صفين ٤٦٣ ، ٤٦٤

فلو لقيني والله لما عظم عنى، ولا صَغُرْتُ عنه، وإن أحبّ أن أجمع بينه وبين عليّ فعلت. وأما قولك: «إنى رأسُ أهل العراق، وسيّد أهل اليمن»؛ فإن الرأس المتبَع والسيّد المطاع، هو عليّ بن أبي طالب؛ وأما ماسلف من عثمان إلىّ، فوالله مازادنى صهرهُ شرفا، ولا عمله عزًّا. وأما عيبُك أصحابى، فإنه لا يقرّبك منى، ولا يباعدنى عنهم؛ وأما محاماتى عن أهل العراق؛ فمن نزل بيتا حماه؛ وأما البقية فلستم بأحوجَ إليها منّا، وسنرى رأينا فيها.

فلما عاد عتبة إلى معاوية، وأبلغه قوله قال له: لا تلقَهُ بعدها؛ فإنّ الرجل عظيم عند نفسه؛ وإن كان قد جَنَح للسّلم. وشاع فى أهل العراق ماقاله عُتْبة للأشعث وما ردّه الأشعث عليه؛ فقال النجاشىّ يمدحه:

يابن قيس وحارثٍ ويزيدٍ   أنتَ والله رأسُ أهلِ العراقِ
أنت والله حيّة تنفث السـ   ـمّ قليلٌ منها غَناء الراقى[1]
أنت كالشمس والرجال نجومٌ   لا يُرى ضوءها مع الإشراقِ
قد حميتَ العراق بالأسلِ السُّمْـ   ـرِ وبالبيض كالبروق الرّقاق
وسَعَرت القتال فى الشام بالبيـ   ـض المواضى وبالرّماح الدّقاق
لا ترى غير أذرع وأكفٍّ   ورءوسٍ بهامِها أفلاقِ[2]
كلّما قلت قد تصرّمت الهيـ   ـجا سقيّتهمْ بكأسٍ دِهاقِ
قد قضيتَ الذى عليك من الحقّ   وسارتْ به القِلاص المناقى[3]
أنت حلوٌ لمن تقرّب بالو   دّ وللشـانئين مرّ المذاقِ
بئسما ظنّه ابن هندٍ ومَنْ مثـ   ـلُكَ فى الناس عند ضِيق الخناقِ!

---

(١) صفين: «قليل فيها»
(٢) أفلاق: جمع فلق؛ وهو المكسور.
(٣) المناق: النياق السمينة، جمع منقية.

قال نصر : فقال معاوية لما يئس من جهة الأشعث لعمرو بن العاص : إن رأس الناس بعد عليّ هو عبد الله بن العباس ، فلو كتبتَ إليه كتاباً لعلك ترقّقه ، ولعلّه لوقال شيئا لم يخرج عليّ منه ؛ وقد أكلتنا الحرب ، ولاأرانا نصلُ إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام . فقال عمرو : إن ابن عباس لايُخدَع؛ ولو طمعت فيه لطمعت فى عليّ ، قال معاوية: على ذلك فاكتب ، فكتب عمرو إليه :

أما بعد ، فإنّ الذى نحن فيه وأنتم ليس بأوّل أمر قاده البلاء ؛ وأنت رأسُ هذا الجمع بعد عليّ ، فانظر فيما بقى ، ودعْ مامضى ، فوالله ماأبقت هذه الحرب لنا ولالكم حياةً ولا صبرا، فاعلم أنّ الشام لاتهلِك إلّا بهلاك العراق ، وأنّ العراق لاتهلِك إلا بهلاك الشام؛ فما خيرُنا بعد هلاك أعدادنا منكم ، وماخيركم بعد هلاك أعـدادِكم منّا ! ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ؛ ولكنا نقول : ليتها لم تكن ؛ وإنّ فينا مَنْ يكره اللقاء ، كما أنّ فيكم مَنْ يكرهه ؛ وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ؛ أو مؤتَمَن مشاوَر وهو أنت، فأما الأشتر الغليظ الطبع ، القاسي القلب ؛ فليس بأهل أن يدعَى فى الشورى ولافى خواصّ أهل النجوى . وكتب فى أسفل الكتاب :

طال البلاء وما يرجَى له آسى — بعد الإله سوى رِفقِ ابن عباسِ
قولاله قول من يرجومودّته[1]: — لاتنس حظّك إنّ الخاسر الناسِي
انظر فدًى لكَ نفسى قبل قاصمةٍ — للظهر ليس لها راقٍ ولا آسِ
إنّ العراق وأهل الشام لن يجدوا — طعم الحياة مع المستغلِق القاسى
يابن الذى زمزمٌ سقيا الحجيج له — أعظمْ بذلك من فخرٍ عَلَى الناس!
إنى أرى الخير فى سلم الشآم لكمْ — والله يعلم ما بالسِّلم من باس
فيها التقَى وأمور ليس يجهلها — إلا الجهول ومانوكى كأكياس

(١) صفين : « قول من يرضى لحظوته »

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس ،عرضه على أمير المؤمنين عليه السلام ، فضحك، وقال : قاتل الله ابنَ العاص ! ماأغرّاه بك ياعبد الله . أجبه وليردّ ليه شعرَه الفضل ابن العباس، فإنه شاعر ؛ فكتب ابن عباس إلى عمرو :

أما بعد ، فإنى لاأعلمُ أحداً من العرب أقلّ حياء منك ، إنه مالَ بك معاوية إلى الهوى فبعتَه دينَك بالثمن اليسير ، ثم خبطت الناس فى عَشْوة ؛ طمعا فى الدنيا فأعظمتَها إعظام أهلِ الدنيا ، ثم تزعم أنك تتنزّه عنها تنزُّه أهل الورع ، فإن كنت صادقا فارجع إلى بيتك ، ودعْ الطمع فى مصر والركون إلى الدنيا الفانية ، واعلم أنّ هذه الحرب ما معاوية فيها كعلىّ ؛ بدأها علىّ بالحق ، وانتهى فيها إلى العذر ، وبدأها معاوية بالبغى وانتهى فيها إلى السرف ؛ وليس أهلُ العراق فيها كأهل الشام ؛ بايعَ أهلُ العراق عليا، وهو خيرٌ منهم ، وبايع أهل الشام معاويةَ وهم خير منه ، ولست أنا وأنت فيها سواء ، أردتُ الله وأردتَ مصر ، وقد عرفتَ الشيء الذى باعدَك منّى ، ولا أعرف الشيء الذى قرّبك من معاوية ، فإن تُرِدْ شرًّا لانسبقك به ، وإن ترد خيرا لاتسبقنا إليه . والسلام .

ثم دعا أخاه الفضل ، فقال : يابنَ أمّ ، أجب عَمْراً ، فقال الفضل :

يا عمرُو حسبُكَ من مَكْرٍ وَوَسْوَاسِ ... فاذهبْ فليس لداء الجهل من آسِ
إلا تواتر طعنٍ فى نحورِكمُ ... يُشْجِى النفوس وَيَشْفِى نخوة الرّاسِ
أمّا علىٌّ فإن الله فَضّله ... بفضلٍ ذى شرفٍ عالٍ على النّاسِ
إن تعقلوا الحربَ نعقلْها مخيّسةً ... أو تبعثوها فإنّا غيرُ أنكاسِ (١)

---

(١) بعده فى صفين :

قَدْ كانَ مِنّا ومنكمْ فى عجاجتِها ... مالا يردُّ ، وكلٌّ عُرْضَةُ البَاسِ

قَتْلَى العراق بِقَتلَى الشام ذاهبةٌ   هذا بهذا ، وما بالحقّ من باس (١)

ثم عرض الشعرَ والكتاب على عليّ عليه السلام، فقال : لا أراه يُجيبك بعدها أبداً بشيء إن كان يعقل ؛ وإن عاد عُدْتَ (٢) عليه . فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص عَرَضه على معاوية ، فقال : إنّ قلبَ ابن عباس وقلْب عليّ قلب واحد ، وكلاهما ولَد عبد المطلب ، وإن كان قد خَشُن فلقدْ لان ، وإن كان قد تعظّم أوْ عَظّم صاحبه ، فلقد قارب وجنح إلى السّلْم .

قال نصر : وقال معاوية لأكْتُبَنّ إلى ابن عباس كتاباً أستعرض فيه عقله ، وأنظر مافى نفسه ، فكتب إليه :

أما بعد ، فإنّكم معشرَ بنى هاشم لستم إلى أحدٍ أسرعَ بالمساءة منكم إلى أنصار ابن عفّان ؛ حتى إنكم قتلتم طلحةَ والزبير ؛ لطلبهما دَمَه ، واستعظامهما ما نِيلَ منه؛ فإن كان ذلك منافسةً لبنى أميّة فى السلطان ، فقد وَلِيَها عدىّ وتَيْم فلمْ تنافسوهم ، وأظهرتم لهم الطاعة ، وقد وقع من الأمر ماترى ، وأكلتْ هذه الحروبُ بعضُها بعضاً ؛ حتى استوينا فيها ، فما يطمعكم فينا يطمعُنا فيكم، وما يؤيسنا منكم يؤيسكم منّا؛ ولقد رجونا غير ما كان ، وخشينا دونَ ماوقع ، ولست ملاقينا اليومَ بأحدّ من حَدّ أمس ، ولا غداً بأحدّ من حَدّ اليوم ، وقد قنعْنا بما فى أيدينا من مُلك الشام ، فاقنعوا بما فى أيديكم من مُلك العراق ، وأبقُوا على قريش ، فإنّما بَقِىَ من رجالها ستة : رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز ، فأمّا اللذان بالشام فأنا وعمرو ، وأمّا اللّذان بالعراق فأنت

(١) بعده فى صفين :

لَا بَارَكَ اللّهُ فى مصر لقدْ جلبتْ   شرًّا وحظُّكَ منْها حُسْوَةُ الكاسِ

ياعمرو إنّكَ عارٍ منْ مَفَاخِرِها   ـ والرَّاقِصَاتِ ـ ومِنْ يوم الجزا كاسِ

(٢) صفين : « فنعود إليه » .

وعلىّ ، وأما اللّذان بالحجاز ، فسعد وابن عمر ؛ فاثنان من الستّة ناصبان لك ، واثنان واقفان فيك ، وأنت رأسُ هذا الجمع ؛ ولو بايعَ لك النّاسُ بعد عثمان كنّا إليك أسرعَ منّا إلى علىّ [١] .

فلما وصل الكتابُ إلى ابن عبّاس أسخطه ، وقال : حتّى مَتَى يخطب ابنُ هندٍ إلىّ عقلى ! وحتّى متى أجمجم على مافى نفسى ! وكتب إليه :

أما بعد [فقد] [٢] أتانى كتابك ، وقرأته . فأما ماذكرتَ من سرعتنا إليك بالمساءة إلى أنصار ابن عفّان ، وكراهتنا لسلطان بنى أمية،فلَعمرى لقد أدركتَ فى عثمان حاجتَك حين استنصرك فلم تنصره ؛ حتى صرت إلى ماصرتَ إليه . وبينى وبينك فى ذلك ابنُ عمّك وأخو عثمان ، وهو الوليدبن عقبة . وأما طلحة والزبير ، فإنّهما أجلباعليه وضيّقا خناقه ، ثم خرجا ينقُضان البَيْعة ، ويطلبان المُلْك ، فقاتلناهما على النّكث ، كما قاتلناكَ على البغى . وأمّا قولك : إنه لم يبقَ من قريش غيرُ ستة ، فما أكثرَ رجالها ، وأحسن بقيّتها ! وقد قاتلك من خيارها مَنْ قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من خذَلك . وأما إغراؤك إيانا بعدىّ وتيم ،فإن أبا بكر وعمرخيرٌ من عثمان ، كما أن عثمان خير منك،وقد بقِىَ لك منّا ماينسيك ماقبله ، وتخاف مابعده . وأمّا قولك : لو بايع الناس لِى لاستقامُوا ! فقد بايع النّاس عليا وهو خيرٌ منّى فلم يستقيموا له . وما أنت والخلافةَ يامعاوية ! وإنما أنت طليق وابن طليق ! والخلافة للمهاجرين الأوّلين ؛ وليس الطُّلقاء منها فى شىء ! والسلام .

فلما وصل الكتاب إلى معاوية،قال : هذا عملى بنفسى ، لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة . وقال :

---

(١) بعدها فى صفين : « فى كلام كثير كتب إليه » .
(٢) من صفين .

دعوتُ ابنَ عبّاس إلى جلّ حظّه ... وكان امرأً أُهدى إليه رسائلى
فأخلَف ظنى والحوادث جَمّةٌ ... وما زاد أن أغلَى عليه مراجلى
فقل لابن عباس : أراك مخوّفا ... بجهلك حلمى ، إننى غير غافل
فأبرِق وأرعِد ما استطعت فإنّنى ... إليك بما يشجيك سَبْطُ الأنامل (٢)

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : عقد معاوية يوماً من أيام صفّين الرياسة على اليمن من قريش ، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم ؛ منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد وعتبة ابنا أبى سفيان ، وبُسْر بن أبى أرطاة ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وذلك فى الوقعات الأولى من صِفّين ، فغمّ ذلك أهلَ اليمن ، وأرادوا ألّا يتأمّرَ عليهم أحدٌ إلّا منهم . فقام إليه رجل من كِنْدة ، يقال له عبد الله بن الحارث السَّكونىّ ، فقال : أيّها الأمير ، إنّى قد قلت شيئاً فاسمعه ، وضمه منّى على النصيحة ، قال : هات ، فأنشده :

مُعاوىَ أحييتَ فينا الإِحَنْ ... وأحدثت بالشّام مالم يكُنْ
عقدتَ لبُسْرٍ وأصحابه ... وما النّاس حولكَ إلاّ اليَمَنْ
فلا تَخلِطنّ بنا غيرَنا ... كما شيب بالماء صَفْوُ اللّبَنْ (٣)
وإلاّ فدعْنا عَلَى حالنا ... فإنا وإنّا إذا لم نُهَنْ
ستعلم إن جاشَ بحرُ العراقِ ... وأبدى نواجذَه فى الفتَنْ
وشدّ علىٌّ بأصحابِه (٤) ... ونفسُك إذ ذَاكَ عندالذّقَنْ

---

(١) صفين : « حد » .
(٢) صفين ٢٧٢ ، ٤٧٣
(٣) صفين : « تخصن اللبن »
(٤) صفين : « على وأصحابه »

بأنا شمارُك دونَ الدِّثارِ وأنّا الرماحُ وأنَّا الْجُنَنْ
وأنّا السيوفُ ، وأنّا الحتوفُ وأنّا الدُّروع ، وأنّا المِجَنّْ

قال : فبكى لها معاوية ، ونظر إلى وجوه أهل اليمن ، فقال : أعن رضاكم يقول ماقال ؟ قالوا : لا مرحباً بما قال ؛ إنّما الأمرُ إليك فاصنع ما أحببت . فقال معاوية : إنما خالطتُ بكم أهلَ ثقتي ، ومَنْ كان لى فهو لكم ؛ ومنْ كان لكم فهو لى . فرضيَ القومُ وسكتوا ، فلمّا بلغ أهلَ الكوفة مقالُ عبد الله بن الحارث لمعاوية [فيمن عقد له من رءوس أهل الشام][1] ، قام الأعور الشّنىّ إلى علىّ عليه السلام ؛ فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنا لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية ، ولكن نقول : زاد الله في سرورك[2] وهداك ! نظرتَ بنور الله ، فقدّمت رجالا ، وأخّرتَ رجالا . عليك أن تقول ، وعلينا أن نفعل . أنت الإمام ، فإن هلكتَ فهذان من بعدك — يعنى حسنا وحسينا عليهما السلام — وقد قلتُ شيئا فاسمعه ، قال : هات ، فأنشده :

أبا حسنٍ أنت شمسُ النّهـــارِ وهذانِ في الحادثاتِ القَمَرْ
وأنت وهـــــذان حتى المــماتِ بمنزلةِ السَّمْعِ بَعْدَ البصَرْ
وأنتمْ أُناس لكم سَوْرَةٌ تقصّر عنها أكفُّ البَشَرْ
يخبِّرُنا النّاسُ عن فضلكمْ وفضلكُمُ اليومَ فوق الخبَرْ
عقدت لقومٍ أولى نجـدةٍ من أهلِ الحياء وأهلِ الخطَرْ[3]
مساميحُ بالموت عند اللقـا ءِ منّا وإخواننا من مُضَرْ
ومن حىّ ذى يَمَن جِـلّةٌ يقيمون فى النّائبات الصَّعَرْ
فكلٌّ يسرّك فى قومِـه ومن قال لا ، فبفيهِ الحَجَرْ

(١) من صفين .
(٢) صفين : « زاد الله فى سرورك وهداك »
(٣) صفين ٤٨٣ ، ٤٨٤

ونحنُ الفوارس يوم الزبير وطلحة إذ قيل أودى غُدَرْ
ضربناهمُ قبلَ نصفِ النّهار إلى الليل حتى قضينا الوطَرْ
ولم يأخذ الضرب إلا الرءوسَ ولم يأخذ الطعنُ إلا الثُّغَرْ
فنحنُ أولئك في أمسنا ونحن كذلك فيما غبَرْ

قال : فلم يبق أحدٌ من الرؤساء إلا وأهدى إلى الشّنّيّ »[أو أتحفه] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، قال : لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، دعا عمرو بن العاص ، وبُسْر بن أبي أرطاة ، وعُبيد الله ابن عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فقال لهم : إنّه قد غمّني مقامُ رجال من أصحاب عليّ ، منهم سعيد بن قيس الهمْدانيّ في قومه ، والأشتر في قومه ، والمِرْقال ، وعديّ بن حاتم ، وقيس بن سعد في الأنصار ، وقد علمتم أنّ يمانيَتَكم وقَتْكم بأنفسها أياماً كثيرة ، حتى لقد استحييتُ لكم ، وأنتم عُدّتهم من قريش ، وأنا أحبّ أن يعلم النّاس أنّكم أهلُ غَنَاء ، وقد عبّأت لكلّ رجلٍ منهم رَجُلًا منكم ، فاجعلوا ذلك إلىّ ، قالوا : ذاك إليك ، قال : فأنا أكفيكم غداً سعيد بن قيس وقومَه ، وأنت يا عمرو المرقال أعور بنى زهرة ، وأنت يا بسرُ لقيس بن سعيد ، وأنت يا عُبيد الله للأشتر ، وأنت يا عبد الرحمن لأعور طيّئ — يعنى عديّ بن حاتم — وقد جعلتها نُوَباً في خمسة أيام ، لكلّ رجلٍ منكم يوم ، فكونوا على أعِنّة الخيل ، قالوا : نعم ، فأصبح معاوية في غده ، فلم يدعْ فارسا إلا حَشَده ، ثم قصد لهمْدان بنفسه ، وارتجز فقال :

لن تمنعَ الحرمةَ بعد العامِ بين قتيلٍ وجريحٍ دامِ (١)
سأملِكُ العِرَاق بالشّآمِ أنعَى ابنَ عفانَ مَدَى الأيامِ

(١) قبله في صفين :
لَا عَيْشَ إلّا فلْقَ قِحْفِ الهامِ من أرحبٍ وشاكِرٍ وشبامِ

فطعن فى أعرض الخيل مليًّا . ثم إن همدان تنادتْ بشعارها ، وأقحم سعيد بن قيس فرسَه على معاوية ، واشتدّ القتال حتى حجز بينهم الليل ، فهمْدان تذكر أنّ سعيدا كاد يقتنصه ؛ إلا أنه فاته ركْضاً ، وقال سعيد فى ذلك :

يالهفَ نفسِى فاتنى معاويهْ　　فوق طِمِرٍّ كالعُقاب هاَوِيَهْ

* والراقصاتِ لا يعودُ ثانيَهْ (١) *

قال نصر : وانصرف معاوية ذلك اليوم ، ولم يصنع شيئا ، وغدا عمرو بن العاص فى اليوم الثانى فى حُماة الخيل ، فقصد المرقال ، ومع المرقال لواء علىّ عليه السلام الأعظم فى حماة الناس ، [وكان عمرو من فرسان قريش (٢)] ، فارتجز عمرو ، فقال :

لَاعيْشَ إن لم ألقَ يوماً هاشما　　ذاك الذى جَشّمَنِى المجاشما (٣)

ذاكَ الّذِى يشتِمُ عِرْضى ظالما　　ذاك الّذِى إن يَنْجُ منّى سالما

* يَــكُنْ شَجًى حَتّى المماتِ لازما *

فطعن فى أعراض الخيل مُزْبِداً ، وحمل المرقال عليه ، وارتجز فقال :

لَا عَيْشَ إن لم ألقَ يوماً عَمْرَا　　ذاك الّذى أحدث فينا الغَدْرَا

أو يبدّل الله بأمرٍ أمرا (٤)　　لا تجزعى يا نفسُ صَبْراً صَبْرَا

ضَرْباً هَذَاذَيْكَ وطَعْناً شَزْرَا (٥)　　ياليت ما تجنِى يــكونُ القبرا !

---

(١) والرقص : ضرب من سير الإبل ، وبعده فى صفين :

إلّا على ذاتِ خَصِيلٍ طَاوِيَهْ　　إنْ يَعْدِ اليومَ فــكَفّى عاليَــهْ

(٢) من صفين .

(٣) بعده فى صفين :

* ذَاكَ الذى أقامَ لى المآتِمَا *

(٤) صفين : « أو يحدث الله لأمر أمرا »

(٥) هذا ذيك ، أى هذًّا بعد هذ ، يعنى قطعا بعد قطع .

فطاعن عمرا حتى رجع ، وانصرف الفريقان بعد شدّة القتال ، ولم يسرّ معاوية ذلك ، وغدَا بُسر بن أبى أرطاة فى اليوم الثالث فى حماة الخيل ، فلقى قيس بن سعد ابن عبادة فى كُماة الأنصار ، فاشتدّت الحرب بينهما ، وبَرَزَ قيس كأنه فَنيقٌ مُقْرَم ، وهو يقول :

أنا ابنُ سعدٍ زانهُ عُبَادَهْ ... والخزرجيّون كماةٌ سادَهْ
ليس فرارى فى الوغى بعادَهْ ... إنّ الفِرار للفتى قِلادَهْ
يارَبِّ أنت اقْنِنِى الشهادَهْ ... فالقتلُ خير من عناقِ غادَهْ
* حتّى متى تُثْنَى لى الوِسادَهْ *

وطاعن خيل بُسر ، وبرز بُسْر فارتجز وقال :

أنا ابن أرطــاةَ العظيمُ القَدْرِ ... مُرَدَّدٌ فى غالبٍ وفهرِ
ليس الفِرَار من طباع بُسْرِ ... إن أرجــع اليوم بغــيرِ وِترِ
وقد قضيتُ فى العــدوّ نذرى ... ياليت شعرى كم بقِى من عمرى !

ويطعن بُسرٌ قيسا ، ويضرب قيس بالسيف ، فردّه على عقبيه ، ورجع القوم جميعا ، ولقيس الفضل ، وتقدّم عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى اليوم الرابع ؛ لم يترك فارساً مذكورا إلا جمعه ؛ واستكثر ما استطاع ، فقال له معاوية : إنّك اليوم تلقى أفعى أهل العراق ، فارفق واتئد ، فلقيَه الأشتر أمام الخيل مُزبداً — وكان الأشتر إذا أراد القتال أزبد — وهو يقول :

يارَبِّ قَيِّض لِى سيوف الكفَرَهْ ... واجعل وفاتى بأكفّ الفَجَرهْ
فالقتل خيرٌ من ثياب الحِبَرَهْ ... لا تعدلُ الدّنيا جميعا وَبَرَهْ
* ولا بعوضاً فى ثواب البرَرَهْ *

وشدّ على الخيل خيل الشام ، فردّها . فاستحيا عبيد الله وبرز أمام الخيل ـ وكان فارسا شجاعا ، وقال :

أنْمى ابن عفانٍ وأرجو ربِّى ذاك الّذى يخرجنى من ذَنْبى
ذاك الّذى يكشف عنِّى كَرْبى إنّ ابنَ عفّان عظيمُ الخطبِ
يأبىَ له حُبّى بكلّ قلبى إلا طِعانِى دونه وضَرْبى

* حَسْبِى الذى أنويه حَسْبِى حَسْبِى *

فحمل عليه الأشتر ، وطعنه واشتدّ الأمر ، وانصرف القوم ، وللأشتر الفضل . فغمّ ذلك معاويةَ ، وغدا عبد الرحمن بن خالد فى اليوم الخامس ، وكان رجاء معاوية أن ينال حاجته ، فقوّاه بالخيل والسلاح ، وكان معاوية يعدّه ولدا ، فلقيَه عدىّ بن حاتم فى كُماة مَذحِج وقُضاعة ، فبرز عبد الرحمن أمام الخيل ، وقال :

قُلْ لعدىٍ ذَهَبَ الوعيدُ أنا ابن سيفِ الله لا مزيدُ
وخالدٌ يزينه الوليدُ ذاك الّذى قيل له الوحيدُ[1]

ثم حمل فطعن الناس ، فقصده عدىّ بن حاتم ، وسدّد إليه الرمح ، وقال :

أرجُو إلهى وأخافُ ذَنْبى ولستُ أرجو غيرَ عَفْوِ ربِّى
يا بنَ الوليد بغضكم فى قَلْبى كالهَضْب بل فوق قِنان الهَضْبِ

فلما كاد أن يخالطه بالرمح ، توارى عبد الرحمن فى العَجاج ، واستتر بأسنّة أصحابه واختلط القوم ، ثم تحاجزوا ، ورجع عبد الرحمن مقهوراً ، وانكسر معاوية ؛ وبلغ أيمن بن خزيم ما لقىَ معاوية وأصحابه ، فشمت بهم ـ وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام وكان معتزلا للحرب فى ناحية عنها ، فقال :

---

(١) صفين : « ذاك الذى هو فيكم الوحيد » .

معاوىَ إنّ الأمرَ لله وحـــدَهُ ... وإنّك لا تسطيع ضُرّا ولا نَفْعاَ
عبَأتَ رجالًا من قُريشٍ لعُصْبَةٍ ... يمَانيَةٍ لا تستطيع لهـــا دَفْعاَ
فكيف رأيتَ الأمرَ إذ جدّ جِدّه ... لقد زادك الأمر الذى جئته جَدْعاَ
تعبِّى لقيسٍ أو عدىَّ بن حاتم ... والأشتَرِ، ياللناس أغمارك الجُدْعا (١)
وتجعـــلُ للمرقالِ عمراً وإنه ... لليثٌ لَقِى من دون غايتَه ضَبْعاَ
وإنّ سعيداً إذ برزتَ لرمحه ... لفارس هَمْدَان الذى يشعَب الصَّدْعاَ
ملِىٌّ بضرْب الدارعين بسيفه ... إذا الخيل أبدَتْ من سنابكها نَقْعاَ
رجعتَ فلم تظفرْ بشىء تُريدُه ... سوى فرسٍ أعيت وأبْت بها ظَلْعاَ
فدعهمْ فلا والله لا تستطيعهمْ ... مجاهرةً ؛ فاعمل لقهرهمُ خَدْعا

قال : وإنّ معاوية أظهر لعمرو شماتة،وجعل يقرّعه ويوبّخه ، وقال: لقد أنصفتكم؛ إذ لقيت سعيد بن قيس فى هَمْدان ، وفررتم . وإنك لجبان ياعمرو ! فغضب عمرو ، وقال: فهلاّ برزت إلى علىّ إذ دعاك إن كنت شجاعا كما تزعم ! وقال :

تسير إلى ابنِ ذى يزنٍ سعيدٍ ... وتترك فى العجاجة مَنْ دَعاَ كا
فهلْ لك فى أبى حسنٍ علىٍّ ... لعلّ الله يُمْكِنُ مِنْ قفاكا !
دعاك إلى البرازِ فلم تجبْــــهُ ... ولو نازلتَـــه تربَتْ يدَاكا
وكنت أصمّ ، إذ ناداك عنهـا ... وكان سكوتُه عنهـــا مُناكا
فآب الكبْش قد طَحَنَتْ رَحاَهُ ... بنجْدته وما طَحَنَتْ رَحاكا
فما أنصفتَ صحبَك يابنَ هنـدٍ ... أتفرقه وتغضب مَنْ كفاكا
فلا والله ما أضمرْتَ خـــيراً ... ولا أظهرتَ لِى إلّا هواكا

(١) الأغمار : جمع غمر ، وهو من لا تجربة له ، والجدع : جمع أجدع ، وهو السيء الغذاء .

قال : وإن القرشيِّين استحيَوْا ماصنعوا ، وشمِت بهم اليمانيةُ من أهل الشام ، فقال معاوية : يامعشر قريش؛ والله لقد قرّبكم لقاء القوم إلى الفتح ؛ ولكن لامَرَدَّ لأمرِ الله؛ ومِمّ تستحيون ! إنما لقيتم كباش العراق، فقتلتم منهم وقتلوا منكم، ومالكم علىّ من حجة. لقد عبأت نفسى لسيّدهم وشجاعهم سعيد بن قيس . فانقطعوا عن معاوية أياما ، فقال معاوية [فى ذلك] [1] :

لعمرى لقد أنصفتُ والنِّصْف عادتى … وعاين طعناً فى العَجاج المعاينُ

ولولا رجائى أن تئوبوا بُنهزةٍ [2] … وأنْ تغسِلوا عاراً وَعَتْهُ الكنائنُ

لناديت للهيجا رجالًا سواكمُ … ولكنّما تحمى الملوكَ البطائنُ

أتدرونَ مَنْ لاقيتمُ ، فَلَّ جيشكمْ ! … لقيتمْ لُيوثًا أصحرتْها العرائن [3]

لقيتمْ صناديد العِراق ومَنْ بهم … إذا جاشت الهيجاء تُحْمَى الظعائنُ

وما كان منكم فارسٌ دون فارسٍ … ولكنّه ماقدّر الله كائن !

فلما سمع القوم ماقاله معاوية ، أتوه فاعتذروا إليه ، واستقاموا إليه على مايحب [4] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، قال : لما اشتدّ القتال وعظُم الخطب ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : أن قدّم عكًّا والأشعريين إلى مَنْ بإزائهم. فبعث عمرو إليه أنّ بإزاء عَكّ هَمْدان [5] . فبعث إليه معاوية : أنْ قدّم عَكًّا ، فأتاهم عمرو ، فقال : يامعشر عَكّ، إنّ عليا قد عرف أنكم حىّ أهل الشام، فعبّأ لكم حَىّ أهل العراق هَمْدان،

(١) من صفين

(٢) صفين : « أن تبوءوا »

(٣) أصحرتها : أبرزتها . والعرائن : جمع عرين ؛ مسكن الأسد .

(٤) صفين ٤٨٢ — ٤٩٢

(٥) صفين : « أن همدان بإزاء عك » .

فاصبروا وهَبُوا إلىّ جماجمكم ساعة من النهار ؛ فقد بلغ الحقّ مقطعَه . فقال ابن مسروق العكىّ : أمهلنى حتى آتىَ معاوية ، فأتاه فقال : يامعاوية ، اجعلْ لنا فريضةً ألفىْ رجل فى ألفين ألفين ، ومَنْ هلك فابنُ عَمّه مكانه ؛ لنقرّ اليوم عينَك. فقال : لك ذلك، فرجع ابنُ مسروق إلى أصحابه ، فأخبرَهم الخبر ، فقالت عكّ : نحن لهمْدان ، ثم تقدّمت عكّ ، ونادى سعيد بن قيس : ياهمْدان ، أن تقدّموا [1] ! فشدّت هَمْدان على عكّ رجّالة ، فأخذت السيوفُ أرجُلَ عكّ ، فنادى ابن مسروق :

* ياللعكِّ بَرْكاً كبركِ الكَمَلْ *

فبركوا تحت الحجف ، فشجرتهم [2] همْدان بالرماح ، وتقدّم شيخ من هَمْدان ، وهو يقول :

يالبَكيلٍ لخمُها وحاشِدُ [3] نفسى فداكُمْ طاعِنُوا وجالِدُوا
حتى تخرّ منكم القماحِدُ [4] وأرجلٌ يتبعها سواعدُ
* بذاك أوصى جدّكم والوالدُ *

وقام رجل من عكّ ، فارتجز فقال :

تدعون هَمْدان وندعو عكّا بكّوا الرجالَ ياللعكّ بكّا
إن خَدّم القومُ فبركاً بَرْكاً لا تدخِلوا اليومَ عليكم شَكّا [5]
* قد مَحَك القومُ فزيدُوا مَحْكا *

---

(١) صفين : « خدموا »
(٢) صفين : « وشجروهم بالرماح » ، وشجروهم : طعنوهم .
(٣) بكيل وحاشد : من بطون همدان .
(٤) القماحد : جمع قمحدة ، وهى ما أشرف على القفا من عظم الرأس .
(٥) خدموا ، أى اضربوا موضع الخدمة ؛ وهى الخلخال ، يعنى اضربوهم فى سوقهم .

قال : فالتقى القومُ جميعا بالرماح،وصاروا إلى السيوف،وتجالدوا حتى أدركهم الليل فقالت همدان : يامعشر عَكّ ، نحن نقسم بالله إننا لا ننصرف حتى تنصرفوا. وقالت عكّ مثل ذلك ، فأرسل معاوية إلى عكّ أن أبرّوا قَسَم (١) إخوتكم وهلمّوا . فانصرفت عكّ ، فلما انصرفت انصرفت هَمْدان ، فقال عمرو : يامعاوية ، والله لقد لقيتْ أسْد أسْداً ؛ لم أرَ والله كهذا اليوم قطّ لو أنّ معك حيّا كعكّ ، أو مع عليّ حيّ كهمْدان لكان الفناء .

وقال عمرو فى ذلك :

إنّ عكّاً وحاشداً وبَكيلا كأسود الضّراء لاقتْ أسودَا
وجَثَا القومُ بالقنا وتساقوْا بظُباةِ السيوف موتا عتيدا
ازورار المناكب الغُلْب بالشُّمّ وضربِ المسوّمين الخدودا
ليس يدرون ما الفرار ولو كا ن فراراً لكان ذاك سديدا
يعلم الله مارأيت من القو م ازوراراً ، ولا رأيت صدودا
غير ضرب فوق الطُّلى ، وعلى الها م وقرع الحديد يعلو الحديدا
ولقد قال قائل خدّموا السُّو ق ، فخرّت هناك عكّ قعودا
كبُروك الجمال أثقلها الحِمْلُ فما تستقلّ إلا وئيدا

قال : ولما اشترطت عكّ والأشعريون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم ، لم يبقَ من أهل العراق أحدٌ فى قلبه مرض إلا طمع فى معاوية ، وشخص (٢) ببصره إليه ؛ حتى فشا ذلك فى الناس ، وبلغ عليا عليه السلام ، فساءه (٣) .

* * *

---

(١) صفين : أبروا قسم القوم
(٢) صفين : « وشخص بصره إليه » .
(٣) صفين ٤٨٥ ، ٤٩٤

قال نصر : وجاء عدىّ بن حاتم يلتمس عليا عليه السلام ، ما يطأ إلا على قتيل أو قدم أو ساعد ، فوجده تحت رايات بكر بن وائل ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، ألا تقومُ حتى نقاتلَ إلى أن نموت ! فقال له علىّ عليه السلام : ادنُ ، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه ، فقال : ويحك! إن عامّة مَنْ معى اليوم يعصينى ، وإنّ معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه !

قال نصر : وجاء المنذر بن أبى حَميصة الوداعىّ — وكان شاعر همْدان وفارسها — عليًّا عليه السلام فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ عكاًّ والأشعريّين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم ، فباعوا الدين بالدنيا ؛ وإنّا قد رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبالعراق من الشام ، وبكَ من معاوية ؛ والله لآخرتُنا خيرٌ من دنياهم ، ولعراقنا خيرٌ من شآمهم ، ولإمامنا أهدى من إمامهم ؛ فاستفتِحنا بالحرب ، وثِقْ منّا بالنصر ، واحملنا على الموت ، وأنشده :

إن عكاًّ سالوا الفرائض والأشـ ... ـعرَ سالُوا جوائزاً بَثَنيّهْ[1]

تركوا الدّين للعطاء وللفرْ ... ض ، فكانوا بذاك شرَّ البريّهْ

وسألنا حُسْنَ الثواب من اللهِ ... وصبراً على الجهاد ونيّهْ

فلكلٍّ ماساله ونواهُ ... كلّنا يحسب الخلافَ خطيّهْ

ولأهلُ العراق أحسن فى الحرْ ... ب إذا ما تدانَتِ السّمْهريّهْ

ولأهلُ العراق أحمل للثقْلِ ... إذا عمّت البلادَ بليّهْ

ليس منّا من لم يكن فى الله ... ه وليًّا ياذا الولا والوصيّهْ

فقال على عليه السلام : حسبك الله! يرحمك الله ! وأثنى عليه وعلى قومه خيرا . وانتهى شعره إلى معاوية ، فقال : والله لأستميلنّ بالدنيا ثقاتِ علىّ ، ولأقسمنّ فيهم الأموال حتى تغلب دنياى آخرته .

قال نصر : فلما أصبح النّاس غدوْا على مصافهم ، وأصبح معاوية يدورُ فى أحياء اليمن ، وقال : عبّوا إلىّ كلّ فارس مذكور فيكم ، أتقوّى به على هذا الحىّ من همْدان

(١) بثنية : منسوب إلى بثنة ، قرية بالشام .

فخرجت خيل عظيمة ، فلما رآها علىّ عليه السلام وعرف أنها عيونُ الرجال ، فنادى : يالَهَمْدان ! فأجابه سعيد بن قيس ، فقال له علىّ عليه السلام : احمل ، فحمل حتى خالط الخيل بالخيل ، واشتدّ القتال ، وحطّمتهم هَمْدان حتى ألحقتْهم بمعاوية؛ فقال معاوية: مالقيت من همدان ! وجزع جزعا شديدا ، وأسرع القتل فى فرسان الشام ، وجمع علىّ عليه السلام هَمْدان ، فقال لهم : يامعشر هَمْدان ، أنتم درْعى ورمحى ومِجَنِّى ، ياهمدان مانصرتم إلا الله، ولا أجبتم غيرَه . فقال سعيد بن قيس : أجَبْنَا الله وأجَبْنَاك ، ونصرْنا رسول الله فى قبره، وقاتلنا معك مَنْ ليس مثلك ، فارمِنا حيث شئت .

قال نصر : وفى هذا اليوم قال علىٌّ عليه السلام :

ولو كنتُ بوّاباً على باب جَنّةٍ لقلتُ لهَمْدانَ ادخلى بسلامِ

فقال علىّ عليه السلام لصاحب لواء همْدان : اكفِنى أهل حِمْص ، فإنى لم ألقَ من أحدٍ مالقيت منهم . فتقدّم وتقدّمت هَمْدان ، وشدّوا شدّةً واحدة على أهل حِمْص ، فضربوهم ضربا شديدا متداركا ، بالسيوف وعُمُد الحديد ، حتى ألجئوهم إلى قبّة معاوية ، وارتجز من هَمْدان رجل ، عِدَادُه فى أرْحب ، فقال :

قدْ قتلَ الله رجال حِمْصِ غُرُّوا بقولِ كذِبٍ وخَرْصِ
حِرْصاً على المال وأىّ حِرصِ! قد نكَصَ القومُ وأىّ نَكْصِ !
* عن طاعةِ الله وفحوى النَّصِّ *

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعدٍ ، قال : لما ردتّ خيول معاوية أسِف فجرّد سيفه وحمل فى كُماة أصحابه ، فحملت عليه فوارس هَمْدان ، ففاز منها ركضا ، وانكسرت كُماته ورجعت هَمْدان إلى مراكزها ، فقال حُجر بن قحطان الهَمْدانىّ ، يخاطب سعيد ابن قيس :

ألا بنَ قيس قرّت العينُ إذ رأتْ فوارسَ همْدان بن زيد بن مالكِ
عَلَى عارفاتٍ للقاء عوابس طوالَ الهوادي مشرفاتِ الحواركِ
معوّدة للطعن فى ثغراتها يَجُلْنَ فيحطمْن الحصى بالسنابكِ
عَبَاها علىّ لابن هند وخيله فلو لم يفتها كانَ أوّل هالكِ
وكانت له فى يومه عند ظنّه وفى كلّ يوم كاسفِ الشمس حالكْ
وكانتْ بحمد الله فى كلّ كُرْبةٍ حُصوناً وعزّاً للرجال الصّعَالكِ
فقل لأمير المؤمنين : أن ادعُنا متى شئت إنّا عُرْضة للمهالك[(١)]
ونحن حَطَمْنا السُّمْرَ فى حيِّ حمير وكِندة والحىّ الخفاف السكاسك
وعكّ ولخم شائلينَ سياطَهُمْ حذارَ العوالى كالإماء العوارك[(٢)]

* * *

قال : نصر : وحدّثنا عمر بن سعد عن رجاله ، أنّ معاوية دعا يوماً بصفّين مروان ابن الحكم ، فقال له : إنّ الأشتر قد غمّنى وأقلقنى ، فاخرج بهذه الخيل فى يحصُب والكَلَاعيين ، فالقه: فقال مَرْوان: ادعالها عمرا ، فإنه شعارك دون دِثارك قال : فأنت نفسى دون وريدى . قال :لو كنتُ كذلك ألحقْتَنى به فى العطاء وألحقْتَه بى فى الحِرْمان، ولكنك أعطيتَه مافى يدك ، ومنّيته مافى يد غيرك ، فإن غَلَبت طاب له المقام، وإن غُلِبتَ خفّ عليه الهرب. فقال معاوية : سيغنى الله عنك . قال : أمّا إلى اليوم فلم يغنِ . فدعا معاوية عمرا، فأمره بالخروج إلى الأشتر ، فقال : أما إنى لا أقول لك ماقال مروان، قال :وكيف تقوله وقد قدّمتُك وأخّرته ، وأدخلتُك وأخرجته ! قال : أما والله إن كنتَ فعلتَ، لقد قدّمتنى كافيا ، وأدخلتَنى ناصحا ؛ وقد أكثر القوم عليك فى أمر مصر ، وإن كان لا يرضيهم

---

(١) صفين : « إذا شئت
(٢) العوارك : الحوائض .

إلّا رجوعُك فيما وثِقت لى به منها فارجع فيه . ثم قام فخرج فى تلك الخيل،فلقيَه الأشتر أمام القوم ، وقد علم أنه سيلقاه ، وهو يرتجز ويقول :

يالَيتَ شعرى كيف لى بعمرو ذاكَ الذى أوجبتُ فيه نَذْرى !
ذَاكَ الّذِى أطلبـــه بوِتْرِى ذاك الذى فيه شفاء صدرِى
مَنْ بائِعِى يوماً بكلّ عمرى يُعْلِى به عنـــد اللقاء قَدْرِى
أجعله فيــــــه طعام النّسرِ أو لا فربِّى عاذِرِى بعذرِى

فلما سمع عمرو هـــذا الرجز ، فشل [1] وجَبُن ، واستحيا أن يرجع ، وأقبل نحو الصوت ، وقال :

ياليت شعرى كيف لى بمالكِ ؟ كم كاهلٍ جببتُه وحارِكِ ! [2]
وفارسٍ قتلتـــه وفاتكِ [3] ومُقْدِمٍ آب بوجـهٍ حالكِ
* مازلت دهرى عرضة المهالك [4] *

فغشِيَه الأشتر بالرمح ، فراغ عمرو عنه ، فلم يصنع الرمح شيئا ، ولوَى عَمْرو عِنان فرسه ، وجعل يده على وجهه ، وجعل يرجع راكضا نحو عسـكره . فنادى غلامٌ من يَحْصُب : ياعمرو ، عليك العَفَا ما هبت الصبا ؛ ياآل حمير [إنّا لكم ما كان معكم [5]] ؛ هاتوا اللواء [6] ، فأخذه وتقدّم ، وكان غلاما حَدَثا ، فقال :

---

(١) صفين : « وفشل حبله وجبن » .
(٢) جببته : قطعته ، والحارك أعلى الكاهل .
(٣) بعده فى صفين :

* ونابلٍ فتـكتُه وباتك *

(٤) صفين : « هذا وهذا عرضة المهالك » .
(٥) من صفين
(٦) صفين : « أبلغونى اللواء »

إن يَكُ عمرو قد علاه الأشترُ ... بأسمرٍ فيه سِنانٌ أزهرُ
فذاك واللهِ لعمرى مفخرُ ... ياعمرو تكفيك الطِّعانَ حِمْيَرُ
واليحصبىّ بالطعان أمهرُ ... دون اللواء اليوم موتٌ أحمرُ

فنادى الأشترُ ابنَه إبراهيم : خذ اللواء ، فغلام لغلام . وتقدم فأخذ إبراهيم اللواء، وقال :

يأيُّها السائلُ عَنِّى لا تُرَعْ ... أقدِمْ فإنى مِنْ عَرانين النَّخَعْ
كيف ترى طعن العراقىّ الجَذَعْ ... أطيرُ فى يوم الوَغَى ولا أقَعْ
ماساءكم سَرّ ، وماضرّ نَفَعْ ... أعددْتُ ذا اليومَ لهول المطَّلَعْ

ويحمل على الحِمْيرىّ ، فالتقاه الحميرىّ بلوائه ورمحه ، فلم يبرحا يطعَن كلّ واحد منهما صاحبَه ، حتى سقط الحميرىّ قتيلا ، وشمت مروان بعمرو ، وغضب القحطانيون على معاوية ، وقالوا : تولى علينا مَنْ لا يقاتل معنا . ولِّ رجلا مِنّا ، وإلا فلا حاجة لنا فيك .

وقال شاعرهم :

مُعَاوِىَ إمّا تدْعُنا لعظيمةٍ ... يُلَبَّسُ مِنْ نكرائِها الغَرْضُ بالحَقَبْ[(١)]
فولّ علينا مَنْ يحوطُ ذمارَنا ... من الحِمْيرِيِّينَ الملوكِ على العربْ
ولا تأمرنّا بالّتى لا نريدُها ... ولا تجعلنّا بالهوى موضع الذّنَبْ
ولا تغضبنّا والحوادث جَمّةٌ ... عليك ، فيفشو اليوم فى يحصُبَ الغضبْ
فإن لنا حقّا عظيما وطاعةً ... وحُبًّا دخيلاً فى المُشاشِ وفى العَصَبْ[(٢)]

***

فقال لهم معاوية : والله لا أولى عليكم بعد هذا اليوم إلا رجلا منكم[(٣)]

(١) الغرض : حزام الرجل . والحقب : حبل يشد به الرحل فى بطن البعير .
(٢) المشاش : رءوس العظام ، وفى صفين : « فى المشاشة والعصب » .
(٣) صفين ٤٩٩ — ٥٠٢

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، قال : لما أسرع أهلُ العراق فى أهل الشام ، قال لهم معاوية : هذا يوم تمحيص ، وإنّ لهذا اليوم مابعده ، وقد أسرعتم فى القوم كما أسرعوا فيكم ، فاصبروا وموتوا كراماً . وحرّض علىّ عليه السلام أصحابَه ، فقام إليه الأصبغ بن نباتة ، وقال : ياأمير المؤمنين ، قدّمنى فى البقيّة من الناس ، فإنك لا تفقد لى اليوم صبرا ولا نصرا ؛ أما أهل الشام فقد أصبنا ؛ وأما نحن ففينا بعض البقية ، ائذن لى فأتقدّم ، فقال له : تقدّم على اسم الله والبركة ، فتقدم وأخذ الراية ومضى بها ، وهو يقول :

إنّ الرجاء بالقنوط يُدْمَغُ ... حتى متى يرجو البقاء الأصبغ
أما ترى أحداث دهر تَنْبُغُ ... فادبغ هواك، والأديم يدبَغُ
والرفق فيما قد تريد أبلغُ ... اليوم شغل ، وغدا لا تفرُغُ

فما رجع إلى علىّ عليه السلام حتى خضب سيفه دما ورمحه . وكان شيخا ناسكا عابدا ، وكان إذا لقىَ القومُ بعضُهم بعضا يغمِد سيفه ، وكان من ذخائر علىّ عليه السلام ممّن قد بايعه على الموت ؛ وكان علىّ عليه السلام يضنّ به عن الحرب والقتال(١) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : نادَى الأشتر يوما أصحابَه ، فقال : أما من رجل يشرِى نفسه لله ! فخرج أثال بن حَجْل بن عامر المذحِجىّ فنادى بين العسكرين : هلْ من مبارز ؟ فدعا معاوية ـ وهو لا يعرفه ـ أباه حَجْلَ بن عامر المذحِجىّ ، فقال : دونك الرجل ـ قال : وكان مستبصرين فى رأيهما ـ فبرز كلّ واحد منهما إلى صاحبه ، فبدره بطعنة ، وطعنه الغلام ، وانتسبا فإذا هو ابنه ، فنزلا فاعتنق كلّ

---

(١) صفين ٥٠٢ ، ٥٠٣

واحد منهما صاحبَه ، وبكيا . فقال له الأب : يابنيّ ، هلمّ إلى الدنيا. فقال له الغلام : ياأبي هلمّ إلى الآخرة . ثم قال : ياأبتِ والله لو كان من رأيي الانصراف إلى أهل الشام لوجبَ عليك أن يكون من رأيك لي أن تنهاني ، واسوأتاه ! فماذا أقول لعليّ وللمؤمنين الصالحين! كنْ على ماأنت عليه ، وأنا على ماأنا عليه . فانصرف حَجْل إلى صفّ الشام ، وانصرف ابنه أثال إلى أهل العراق ، فخبّر كلّ واحد منهما أصحابَه ، وقال في ذلك حَجْل:

إنّ حَجْل بن عامرٍ وأثالًا أصبحا يضربان في الأمثالِ
أقبل الفارس المدجّج في النقــع أثالٌ يدعو يريد نزالي
دون أهل العراق يخطر كالفحــل على ظهر هيكلٍ ذيّالِ
فدعاني له ابنُ هند وما زا لَ قليلا في صحبه أمثالي
فتناولتُه ببادرة الرُّمــحِ وأهوَى بأسمرٍ عسّال
فاطّعنّا وذاك من حدث الدهـ ـر عظيمٌ ، فتى لشيخ بجالِ[1]
شاجراً بالقناة صدرَ أبيه وعزيزٌ عليّ طعنُ أثال[2]
لا أبالي حين اعترضتُ أثالاً وأثالٌ كذاك ليس يُبَالِي
فافترقنا على السلامة ، والنفْــسُ يقيها مؤخَّرُ الآجالِ
لا يراني على الهدى وأراه مِنْ هُدَايَ على سبيل ضلال

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق ، قال أثال ابنه مجيبا له[3] :

إن طعني وسْطَ العجاجة حَجْلاً لم يكن في الّذى نويتُ عُقوقا
كنت أرجو به الثواب من اللـ ـهِ وكَوْني مع النبيّ رفيقـا

---

(١) البجال : الكبير
(٢) صفين : « وعظيم على »
(٣) صفين : « وكان مجتهدا ومستبصرا »

لم أزل أنصر العراق على الشا م أرانى بفعلِ ذاك حَقيقــا
قال أهل العراق إذ عَظُم الخط بُ ونقّ المبارزون نَقيقــا :
مَنْ فتى يسلك الطريق إلى اللـ ـه ، فكنتُ الذى سلكت الطريقا[(١)]
حاسرَ الرأس لاأريد سوى المو تِ أرى الأعظم الجليل دقيقا
فإذا فارس تقحّم فى الرو ع خِدَبًّا مثل السَّحوق عتيقا[(٢)]
فبدانى حَجْلٌ يبادِرَة الطّعـ ـنِ وما كنت قبلها مسبوقا
فتلقّيتُه بعالية الرّمـ ـحِ كِلانا يطاولُ العَيوقا
أحمد الله ذا الجلالة والقد رة حمداً يزيدنى توفيقا
إذ كففتُ السنان عنه ولم أد ن قتيلا منهُ ولا تُفروقا[(٣)]
قلتُ للشّيْخ لستُ أكفر نعما ك لطيف الغــذاء والتفنيقا[(٤)]
غير أنى أخاف أن تدخل النا رَ فلا تعصنى وكنْ لى رفيقا
وكذا قال لى فغرّب تغريبـ ـاً، وشرّقتُ راجعا تشريقــا[(٥)]

***

قال نصر : وحــدّثنا عمرو بن شِمر بالإسناد المذكور ، أنّ معاويةَ دعا النّعمان بن بشير بن سعد الأنصارىّ ، ومسلَمة بن مخلَّد الأنصارىّ ـ ولم يكن معه من الأنصار غيرهما ـ فقال : ياهذان ، لقد غمّنى مالقيت من الأَوْس والخزرَج ، واضعِى سيوفِهم عَلَى عواتقهم يدعُون إلى النّزال ، حتى لقد جَبّنُوا أصحابى الشجاع منهم والجبان؛ وحتى والله ماأسأل عن

---

(١) صفين : « فكنت الذى أخذت »
(٢) الخدب : الضخم العظيم . والسحوق : النخلة الطويلة ؛ وفى صفين : « تقحم فى النقع » .
(٣) الثفروق : قمع التمرة .
(٤) التفنيق : التنعيم .
(٥) صفين ٥٠٣ ، ٥٠٦

فارس من أهل الشام إلّاقيل قتله الأنصار : أما واللهِ لألقينّهم بحدّى وحديدى، ولأعبئنّ لكلّ فارس منهم فارسا ينشَبُ فى حَلْقِه، ولأرمينّهم بأعدادِهم من قريش، رجال لم يغذِهم التّمر والطَّفَيْشل [1]، يقولون : نحن الأنصار ؛ قد والله آوَوْا ونصروا ، ولكن أفسدوا حَقَّهم بباطلهم !

فغضِب النعمان ، وقال : يامعاوية لا تلومَنّ الأنصار فى حبّ الحرب والسرعة [2] نحوها ، فإنهم كذلك كانوا فى الجاهلية. وأمّا دُعاؤهم إلى النزال [3] فقد رأيتَهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يفعلون ذلك كثيرا . وأما لقاؤك إياهم فى أعدادهم من قريش فقد علمت مالقيتْ قريش منهم قديما ، فإن أحبَبت أن ترَى فيهم مثلَ ذلك آنفا فافعل . وأما التّمر والطَّفَيْشَل ، فإنّ التمر كان لنا فلما [4] ذقتُموه شارَكتمونا فيه. وأما الطَّفَيْشَل، فكان لليهود ، فلما أكلناه غلبناهم عليه ، كما غلبت قريش عَلَى السَّخينة [5] .

ثم تكلّم مسلمة بن مخلد ، فقال : يامعاوية، إنّ الأنصار لاتعاب أحسابُها ولا نَجَداتها. وأما غمّهم إياك فقد والله غمّو نا ، ولو رضِينا ما فارقونا ولا فارقْنا جماعَتهم ، وإنّ فى ذلك مافيه من مباينة العشيرة ؛ ولكنا حملنا ذلك لك ، ورجونا منك عِوَضه . وأما التّمر والطَّفَيْشَل ؛ فإنهما يجرّان عليك السخينة والخرنوب .

قال : وانتهى هذا الكلام إلى الأنصار ، فجمع قيس بن سعد الأنصار، ثم قام فيهم خطيبا فقال : إنّ معاوية قال مابلغكم ، وأجابه عنكم صاحِباَ كم ، ولعَمْرِى إن غظتُم

---

(١) الطفيشل ، بوزن سميدع ؛ ذكره صاحب القاموس وقال : إنه نوع من المرق .

(٢) صفين : « بسرعتهم فى الحرب » .

(٣) صفين : « فأما دعاؤهم الله » .

(٤) صفين : « فلما أن ذقتموه » .

(٥) فى اللسان : « السخينة : دقيق يلقى على ماء أو لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى ، وهو الحساء . . . وفى حديث معاوية أنه مازح الأحنف بن قيس فقال : ماالشيء الملفف فى البجاد ؟ قال : هو السخينة يا أمير المؤمنين . والملفف فى البجاد وطب اللبن يلف فيه ليحمى ويدرك ، وكانت تميم تعير به ، والسخينة : الحساء المذكور يؤكل فى الجدب ؛ وكانت قريش تعير بها » .

معاوية اليوم ؛ لقد غظتموه أمس ، وإن وترتموه فى الإسلام ؛ فاقد وترتموه فى الشرك ؛ وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين ، فجدُّوا اليومَ جدًّا تُنْسُونه به ما كان أمس ، وجِدّوا غداً جدًّا تنسُونه به ما كان اليوم ؛ فأنتم مع هذا اللواء الذى كان يقاتل عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل ؛ والقوم مع لواء أبى جهل والأحزابِ فأمّا التمر فإنا لم نغرسْه ؛ ولكن غلبنا عليه مَنْ غرسه ، وأما الطَّفَيْشَل ، فلو كان طعامنا لسُمِّينا به؛ كما سمّيت قريش بسخينة ، ثم قال سعد فى ذلك :

يابن هند دع التوثب فى الحرْ ... ب إذا نحن بالجيادِ سَرَيْنَا (١)

نحنُ مَنْ قد علمتَ فادْن إذا شئتَ بمنْ شئْتَ فى العجاج إلينا (٢)

إنْ تشأ فارس له فارس منّا وإنْ شئْتَ باللّفيف التقينا

أىّ هذين ماأردت نخذه ... ليس منّا وليس منك الهوينَى

ثم لا نسلخ العجاجة حتّى ... تنجلى حربُنا ؛ لَنَا أو عَلَيْنَا (٣)

لَيْتَ ما تطلبُ الغَداةَ أتانَا ... أنْعَمَ الله بالشهادة عَيْنَا

فلما أتى شعرُه وكلامُه معاويةَ ، دعا عمرَو بن العاص،فقال : ماترى فى شتم الأنصار؟ قال : أرى أن تُوعِدَهم ، ولا تشتِمهم (٤) . ماعسى أن تقولَ لهم إذا أردتَ ذمّهم ! فذُمّ أبدانَهم ولا تذمّ أحسابهم .(٥ فقال : إن قيس بن سعد يقوم كلّ يوم خطيبا ٥)، وأظنّه والله يُفنينا غدا إن لم يحبسْه عنّا حابس الفيل،فما الرأىُ ؟ قال : الصبر والتوكّل،وأرسل

---

(١) صفين : « فى البلاد نأينا » .

(٢) بعده فى صفين :

إنْ برَزْنا بالجَمْعِ نَلْقَكَ فِى الجَمْـعِ ، وَإنْ شئتَ محضة أسْرَيْنا

فالْقنا فِى اللّفيفِ نَلْقَكَ فى الخَزْ ... رجِ نَدْعو فى حربنا أبَوَيْنا

(٣) فى صفين : « ثم لا تنزع العجاجة » ، والعجاج : ما تثيره الريح من التراب ، واحده عجاجة .

(٤) صفين : « أرى أن توعد ولا تشتم » .

(٥ ــ ٥) صفين : « قال معاوية ، إن خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيبا » .

إلى رءوس الأنصار مع علىّ، فعاتبهم وأمرهم أن يعاتبوه، فأرسل معاوية إلى أبى مسعود[١] والبَرَاء بن عازب، وخُزيمة بن ثابت، والحجّاج بن غزية، وأبى أيّوب، فعاتبهم فمشوا إلى قيس بن سعد، وقالوا له: إنّ معاوية لا يحبّ الشتم، فكُفَّ عن شتمه، فقال: إنّ مثلى لا يشتم، ولكنّى لا أكفُّ عن حربه حتى ألقى الله. قال: وتحرّكت الخيل غُدْوة، فظنّ قيس أنّ فيها معاوية، فحمل على رجل يشبهه، فضربه بالسيف فإذا هو ليس به، ثم حملَ على آخر يشبهه أيضا فقنّعه بالسيف[٢].

فلما تحاجَزَ الفريقانِ شتَمه معاوية شتما قبيحا، وشتَم الأنصار فغضِب النّعمان ومسلَمة، فأرضاهما بعد أنْ همّا أن ينصرفا إلى قومهما.

ثم إنّ معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السِّلْم. فخرج النعمان، فوقف بين الصّفين، ونادى: ياقيس بن سعد، أنا النعمان بن بشير، فخرج إليه، وقال: هيه يانعمان! ماحاجتُك؟ قال: ياقيس، إنّه قد أنصفكم مَنْ دعاكم إلى مارضىَ لنفسه. يامعشرَ الأنصار، إنكم أخطأتم فى خَذْل عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصارَه يوم الجمل، وأقحمتُم خيولَكم على أهلِ الشام بصفّين، فلو كنتم إذْ خذلتم عثمان خذلتُم عليا؛ لكانت واحدةً بواحدة، ولكنّكم[٣] لم ترضَوْا أن تكونوا كالناس؛ حتى أعلمتُم فى الحرب، ودعوتم

---

(١) صفين: «فأرسل معاوية إلى رجال من الأنصار، فعاتبهم؛ فيهم عقبة بن عمر وأبو مسعود....».

(٢) فى صفين: ثم انصرف وهو يقول:

قولُوا لهـذا ٱلشّامِى معاوِيَهْ ... إنْ كلُّ ماأَوْعَدْتَ ريحٌ هَاوِيَهْ
خَوّفْتَنَا أَكْلُبَ قَوْمٍ عَاوِيَهْ ... إلىّ يا ٱبْنَ ٱلخَاطِئِينَ الماضِيَهْ
تُرْقِلُ إرْقَالَ العَجُوزِ ٱلْجَارِيَهْ ... فى أثرِ السّارِى لَيَالِى الشّاتِيَهْ

(٣) صفين: «ولكنكم خذلتم حقا، ونصرتم باطلا، ثم لم ترضوا....».

إلى البراز . ثم لم ينزل بعلىّ خطبٌ قطّ إلا هوّنتم عليه المصيبةَ ، ووعدتموه الظفر . وقد أخذت الحربُ منّا ومنكم ماقد رأيتم ، فاتّقوا الله فى البقيّة .

فضحك قيس ، وقال : ما كنتُ أظنّك يانعمان محتوياً على هذه المقالة ، إنه لاينصحُ أخاه من غشّ نفسه ، وأنت الغاشّ الضالّ المضِلّ . أما ذكرُك عثمان ؛ فإن كانت الأخبار تكفيك فخذ منّى واحدة ؛ قتَل عثمان مَنْ لستَ خيراً منه ، وخَذَله مَنْ هو خيرٌ منك. وأمّا أصحابُ الجمل فقاتلناهم على النكث . وأمّا معاوية ؛ فوالله لو اجتمعتْ عليه العرب قاطبة لقاتلته الأنصار ؛ وأماقولك إنّالسنا كالناس ، فنحن فى هذه الحرب كما كنّا مع رسول الله ، نتقى السيوف بوجوهنا ، والرماحَ بنحورنا ؛ حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. ولكن انظر يانعمان ؛ هل ترَى مع معاوية إلا طليقاً ، أو أعرابيًا ، أو يمانيّا مستدرجا بغرور! انظرْ أين المهاجرون والأنصار والتّابعون لهم بإحسان ؛ الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه! ثم انظر ، هل ترَى مع معاوية أنصاريًا غيرك وغير صُوَيحبك ؛ ولستما والله ببدريّين ولا عَقَبيّين ولا أُحُديّين ، ولا لكما سابقة فى الإسلام ، ولا آية فى القرآن . ولعمرى لئن شغبتَ علينا لقد شغب علينا أبوك[1] !

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، قال : كان فارسَ أهل الشام الذى لاينازَع عوفُ بن مجزأة المرادىّ ، المكنى أبا أحمر ، وكان فارسَ أهل الكوفة العكبرُ بن جدير الأسدىّ ، فقام العكبر إلى علىّ عليه السلام ، وكان

---

(١) الخبر فى صفين ٥٠٧ ـ ٥١٢ ، وبعده ، وقال قيس فى ذلك :

وَالرّاقِصَاتِ بِكلِّ أشعث أغبرٍ خوص ٱلعُيونِ تحُثُّهَا ٱلرّكْبَانُ
مَا ٱبْنُ ٱلمُخَلَّدِ نَاسِيًا أسيافَنَا فِيمَنْ تُحَارِبُهُ ولا النُّعمانُ
تَرَكَا ٱلبَيَانَ وفى ٱلعِيَانِ كِفَايَةٌ لَوْ كَانَ ينفعُ صَاحِبِيهِ عِيَانُ

منطيقا فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ فى أيدينا عهداً من الله لا نحتاج فيه إلى الناس ؛ قد ظننا بأهلِ الشام الصبر[١] وظنّوا بنا ، فصبرنا وصبروا ، وقد عجبت من صبر أهل الدنيا [لأهل الآخرة ، وصبر أهلِ الحقّ على أهل الباطل ، ورغبة أهل الدنيا[٢]] ، [٣]ثم قرأتُ آية من كتاب الله فعلمت أنهم مفتونون[٣] : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ[٤] ﴾ . فقال له عليه السلام خيراً ، وخرج الناس إلى مصافّهم ، وخرج عوف بن مجزأة المراديّ نادراً من الناس ، وكذا كان يصنع ، وقد كان قتل نفراً من أهلِ العراق مبارزةً ، فنادى : يا أهل العراق ؛ هلْ من رجل عَصاه سيفُه يبارزنى ! ولا أغرّكم من نفسى ! أنا عوف بن مجزأة[٥] . فنادى النّاس بالعكبَر ، فخرج إليه منقطعا عن أصحابه ليبارزه ، فقال عوف :

بالشّام أمْنٌ ليس فيه خوفْ ... بالشّام عَدْلٌ ليس فيه حَيْفْ
بالشام جُودٌ ليس فيه سَوْفْ ... أنا ابن مجزاةٍ واسمى عوفْ
هل من عراقىّ عصــاه سَيْفْ ... يَبْرُز لى وكَيْفَ لِى وكَيفْ !

فقال له العكبَرُ :

الشّام مَحْلٌ والعراق مُمطِرُ[٦] ... بها إمامٌ طــاهرٌ مطَهّرُ[٧]
والشام فيها أعــورٌ ومُعْوِرْ ... أنا العراقىّ واسمى عَكْبَرُ[٨]

---

(١) صفين : « وظنوه » .
(٢) من صفين .
(٣ ـ ٣) صفين : « ثم نظرت فإذا أعجب ما يعجبنى جهله بآية من كتاب الله » .
(٤) سورة العنكبوت ١ ـ ٣
(٥) صفين : « فأنا فارس زوف » ، وزوف أبو قبيلة .
(٦) صفين : « تمطر »
(٧) صفين : « بها الإمام والإمام معذر » .
(٨) المعور : القبيح السريرة .

ابن جُدير وأبوه المنـــذرُ ادن ، فإنى فى البراز قَسْوَرْ[1]

فاطّعنا ، فصرعه المكبر وقتله ، ومعاوية على التلّ فى وجوه قريش ونفر قليل من الناس ، فوجه المكبّر فرسَه ، يملأ[2] فروجه ركضاً ؛ ويضربه بالسوط مسرعا نحو التلّ . فنظر معاوية إليه فقال : هذا الرجلُ مغلوبٌ عَلَى عقله أو مستأمن ؛ فاسألوه ، فأتاه رجل وهو فى حَمْوِ فرسه ، فناداه فلم يجبه ، ومضى مبادراً ؛ حتى انتهى إلى معاوية ، فجعل يطعن فى أعراض الخيل ورجا أن ينفرد بمعاوية فيقتله ، فاستقبله رجال ؛ فقتل منهم قوما ، وحال الباقون بينه وبين معاوية بسيوفهم ورماحهم ؛ فلما لم يصل إليه قال : أوْلى لك يا بن هند[3] ! أنا الغلام الأسديّ ، ورجع إلى صفّ العراق ولم يكلّم ، فقال له علىّ عليه السلام : مادعاك إلى ماصنعت ؟ لا تُلْقِ نفسَك إلى التهلُكة ؛ قال : يا أمير المؤمنين أردت غِرّة ابن هند لحيل بينى وبينه ؛ وكان المكبر شاعرا فقال :

قتلتُ المرادىّ الذى كان باغياً ينادِى وقد ثار العَجَاجُ : نزَالِ

يقولُ : أنا عوفُ بن مجزاة والمُنَى لقـــاه ابن مجزاةٍ بيوم قتالِ

فقلت له لمّا علا القومَ صَوْتُه : مُنِيتَ بمشبوحِ اليدين طوّالِ[4]

فأوْجَرْتُه فى ملتقى الحرْب صَعْدَةً ملأتْ بها رعباً صدورَ رجالِ[5]

---

(١) صفين : « فإنى للكمى مصحر » ، والمصحر : المنكشف لقرنه .

(٢) صفين : « فلأ فروجه » ؛ يقال : ملأ الفرس فرجه وفروجه ؛ إذا أسرع ، والفرج : ما بين فخذى الفرس ورجليها .

(٣) أولى لك ، كلمة تهدد ووعيد ، معناه قد وليك ، أى قاربك الشر فاحذر . وقيل : أولاك الله ما تكرهه ، وقيل : معناه أولى لك العقاب والهلاك .

(٤) رجل مشبوح الذراعين ؛ أى عريضهما ، وفى النهاية : فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان مشبوح الذراعين ، أى طويلهما ، وقيل : عريضهما ، وفى رواية : « كان شبح الذراعين » ، والشبح : مد الشىء بأوتاد كالجلد والحبل ، وشبحت العود إذا نحته حتى تعرضه » .

(٥) يقال : أوجر فلانا الرمح طعنه به فى فيه ، وقيل فى صدره . والصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف .

فغادرتُه يكبو صريعاً لوجهِه ينوء مِراراً فى مَكَرّ مجَالِ (١)
وقدّمت مُهرى راكضاً نحو صفِّهمْ أصَرِّفُه فى جَرْيه بشِمَالى (٢)
أريدُ به التلّ الذى فوق رأسِه معاويةُ الجانى لكلّ خَبالِ (٣)
فقامَ رجالٌ دونَهُ بسيوفهِمْ وقام رجالٌ دونَهُ بعوالى
فلو نلتُه نلتُ التى ليس بعدها وفزت بذكر صالح وفعالِ (٤)
ولو متّ فى نيلِ المُنَى ألف مَوْتةٍ لقلت إذا ما متّ : لست أبالى

قال : فانكسر أهل الشام لقتل عَوْف المرادىّ ، وهدر معاوية دم المكبر ، فقال المكبر : يد الله فوق يده ، فأين الله جلّ جلاله ودفاعه عن المؤمنين (٥) !

* * *

قال نصر : ورَوَى عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصين ، عن أبى الكنود ، قال : جزِع أهلُ الشام عَلَى قتلاهم جزعاً شديدا ، وقال معاوية بن خديج : قَبَح الله ملكا يملكه المرء بعد حَوْشَبٍ وذى الكَلاع ، والله لو ظفِرْنا بأهل الدنيا بعد قتلهما بغير مئونة ما كان ظفراً . وقال يزيد بن أسد لمعاوية : لا خيرَ فى أمرٍ لا يشبه آخرُه أوله ، لا يدمى جريح ولا يبكى قتيل حتى تنجلىَ هذه الفتنة ، فإن يكن الأمر لك أدميت

---

(١) صفين : « ينادى مرارا » .
(٢) فى صفين : « فأضربه فى حومة بشمال » .
(٣) بعده فى صفين :

يقولُ ـ ومُهرِى يَغرفُ الجَرْىَ جامحاً بفارِسِهِ ـ : قَدْ بَانَ كُلُّ ضَلَالِ
فلمّا رَأونِى أصْدُقُ الطّعْنَ فيهِمُ جلَا عنهُمُ رجمَ الغيُوبِ فِعالِى

(٤) صفين : « من الأمر شىء غير قيل وقال » .
(٥) صفين ٥١٢ ـ ٥١٦

وبكيت عَلَى قرار ، وإن يكن لغيرك فما أصبت به أعظم . فقال معاوية : يا أهلَ الشام ، ما جعلكم أحقّ بالجزع عَلَى قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم ؟ والله ما ذو الكلاع فيكم بأعظَم من عمّار بن ياسر فيهم ، ولا حَوْشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم ، وما عبيد الله بن عمر فيكم بأعظَم من ابن بُدَيل فيهم ، وما الرجال إلّا أشباه ، وما التمحيص إلّا من عند الله ؟ فأبشرُوا فإنّ الله قد قتل من القوم ثلاثة : قتَل عماراً وكان فتاهم ، وقتل هاشماً وكان حمزتَهم ، وقتل ابنَ بُدَيل وهو الذى فعل الأفاعيل ؟ وبقى الأشتر ، والأشعث ، وعدىّ بن حاتم ، فأمّا الأشعث فإنما حمى عنه[1] مصره ، وأمّا الأشتر وعدىّ فغضبا والله [للفتنة[2]] ، قاتلهما غدا إلى شاء الله تعالى ، فقال معاوية بن خَدِيج : إن يكن الرجال عندك أشباها فليست عندنا كذلك ، وغضب . وقال شاعر اليمن يرثى ذا الكلاع وحوشباً[3] :

مَعَاوِىَ قد نلنا ونيلتْ سَرَاتُنَا ... وجُدِّع أحياء الكَلاع ويحصُبِ
فذو كَلَعٍ لا يُبْعِد الله دارَه ... وكلّ يمان قد أصيبَ بحوْشَبِ
هما ماهما كانا ــ معاوى ــ عصمةً ... متى قلت كانا عصمةً لا أكذّبِ
ولو قُبِلَتْ فى هالكٍ بَذْلُ فِدْيَةٍ ... فديتُهما بالنفس والأمّ والأبِ[4]

* * *

وروى نصر ، عن عمر بن سعد ، عن عبيد الرحمن بن كعب ، قال : لما قتل عبد الله بن بُدَيل يوم صِفِّين مَرّ به الأسود بن طَهْمَان الخزاعىّ ، وهو بآخر رَمَق ، فقال له : عَزّ عَلَىّ والله مصرعُك ! أما والله لو شهدتُك لآسيتُك ، ولدافعتُ عنك ، ولو رأيت الذى أشْعَرك[5]

(١) صفين : « لحماة مصره » .
(٢) من صفين .
(٣) صفين : « وقال الحضرمى فى ذلك شعرا » .
(٤) صفين ٥١٨ ، ٥١٩ .
(٥) الإشعار : الإدماء بطعن أو رمى أو وج بحديدة .

لأحببت ألّا أزايلَه ولا يزايلني حتى أقتله ، أو يلحقني بك . ثم نزل إليه،فقال:رحمك الله ياعَبد الله ، [والله] (١) إن كان جارك لَيأْمَنُ بوائقك ، وإن كنتَ لمِن الذاكرين الله كثيراً.أوْصني رحمك الله . قال : أوصيك بتقوى الله ، وأن تناصحَ أميرَ المؤمنين،وتقاتل معه حتى يظهر الحقّ أو تلحق بالله ، وأبلغْ أميرَ المؤمنينَ عنّي السلام،وقل له : قاتلْ عَلَى المعركة حتى تجعلَها خَلْف ظهرك ؛ فإنه مَنْ أصبَح والمعركة خلف ظهره ، كان الغالب .

ثم لم يلبث أن مات .

فأقبل أبو الأسود إلى عليّ عليه السلام ، فأخبره ، فقال : رحمه الله ! جاهَدَ معنا عدوّنا في الحياة ، ونصح لنا في الوفاة (٢) .

* * *

قال نصر : وقد رُوى نحو هذا عن عبد الرحمن بن كَلَدة ، حدثني محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بحر ، عن عبد الرحمن بن حاطب ، قال : خرجتُ ألتمس أخي سويداً في قَتلَى صِفّين، فإذا رجل صريع في القَتلَى ، قد أخذ بثوبي فالتفتّ ، فإذا هو عبدالرحمن ابن كَلَدة ، فقلت : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! هل لك في الماء ومعي (٣) إداوة ؟ فقال : لاحاجة لي فيه، قد أنفذ فيّ السلاح وخرقني،فلست أقدر على الشراب،هل أنت مُبلِغٌ عنّي أميرَ المؤمنين رسالةً أرسلُك بها ؟ قلت : نعم ، قال : إذا رأيته فاقرأ عليه السلام ، وقل له : ياأميرَ المؤمنين ، احمِلْ جرحاك إلى عسكرك حتى تجعلهم من وراء ظهرك،فإنّ الغَلَبة لمن فعل ذلك ؛ ثم لم أبرح حتى مات.فخرجتُ حتى أتيتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام فقلت له : إنّ عبد الرحمن بن كَلَدة يقرأ عليكَ السّلام ، قال : وأين هو ؟ قلت:وجدتُه وقد أنفذه السّلاح وخرّقه ، فلم يستطع شرب الماء ، ولم أبرح حتى مات . فاسترجع عليه السلام ، فقلت:قد أرسلني إليك برسالة ، قال:وماهي ؟ قلت : إنّه يقول : احمِلْ جرحاك

(١) من صفين .
(٢) صفين ٥٢٠ ، ٥٢١
(٣) الإدواة : إناء صغير من جلد ؛ ويجمع على أداوى .

إلى عسكرك ، واجعلهم وراءَ ظهرك ؛ فإنّ الغَلبة لمن فعل ذلك ، فقال : صدَق ، فنادى مناديه فى العسكر أن احمِلوا جرحاكم من بيْن القتلى إلى معسكركم ، ففعلوا [١] .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن عامر ، عن صعصعة بن صُوحان ، أنّ أبرهَة بن الصَّبّاح الحِميرىّ قام بصِفّين ، فقال : ويحكم يامعشر أهل اليمن ! إنّى لأظنّ الله قد أذِنَ بفنائكم ! ويحكم خَلّوا بين الرجلين ، فليقتتلا ، فأيّهما قَتَل صاحبَه مِلْنا معه جميعا — وكان أبْرهة من رؤساء أصحاب معاوية — فبلغ قولُه عليا عليه السلام ، فقال : صدق أبرهة ! والله ماسمعتُ بخطبة منذ وردتُ الشام أنا بها أشدّ سروراً منّى بهذه الخطبة !

قال : وبلغ معاويةَ كلامُ أبرهة ، فتأخر آخر الصفوف ، وقال لمن حوله : إنّى لأظنّ أبرهة مصاباً فى عقله . فأقبلَ أهلُ الشام يقولون : والله إنّ أبرهة لأكمَلُنا ديناً وعقلا ، ورأيا وبأسا ؛ ولكن الأمير [٢] كره مبارزة علىّ ، وسمع مادار من الكلام أبو داود عروة ابن داود العامرىّ — وكان من فرسان معاوية — فقال : إن كان معاوية كره مبارزة أبى حسن ، فأنا أبارزه ، ثم خرج بين الصفّين ، فنادى : أنا أبو داود فابرز إلىّ ياأبا حسن ، فتقدم علىّ عليه السلام نحوه ، فناداه الناس : ارجعْ ياأميرَ المؤمنين عن هذا الكلب فليس لك بخطر ، فقال : والله مامعاوية اليوم بأغيظَ لى منه ، دعونى وإياه ، ثم حَمَلَ عليه فضربه فقطعه قطعتين ، سقطت إحداهما يمنيّةً والأخرى شامية ؛ فارتجّ العسكران لهوْل الضربة ، وصرخ ابن عمّ لأبى داود : واسوء صباحاه ! وقبّح الله البقاء بعد أبى داود ! وحمل على علىّ عليه السلام ، فطعنه فضرب الرمح فبراه ، ثم قنّعه ضربةً فألحقه بأبى داود ، ومعاوية

---

(١) صفين ٤٤٨ ، ٤٤٩

(٢) صفين : « معاوية » .

واقف على التلّ ، يبصر ويشاهد ، فقال : تبًّا لهذه الرجال وقبحا، أما فيهم من يقتلُ هذا مبارزَة أو غيلة ، أو فى اختلاط الفيلق وثَوَران النقع . فقال الوليد بن عقبة : ابرزْ إليه أنت فإنّك أولى الناس بمبارزته ، فقال : والله لقد دعانى إلى البراز حتى لقد استحييتُ من قريش ، وإنى والله لا أبرز إليه ، ماجعل العسكرُ بين يدَى الرئيس إلا وقاية له . فقال عتبة بن أبى سفيان : الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فقد علمتم أنه قتل حريثا ، وفضح عمرا ولا أرى أحدا يتحكّك به إلا قتله . فقال معاوية لبُسْر بن أرطاة : أتقوم لمبارزته ؟ فقال : ماأحدٌ أحقّ بها منك ، أما إذ بيتموه فأنا له ، قال معاوية : إنك ستلقاه غدا فى أوّل الخيل ، وكان عند بُسْر ابن عمّ له ، قدم من الحجاز يخطب ابنته ، فأتى بسرا ، فقال له : إنى سمعتُ أنك وعدتَ من نفسك أن تبارز عليا ، أما تعلم أنّ الوالى من بعد معاوية عتبة ثم بعده محمد أخوه ، وكلٌّ من هؤلاء قِرْن علىّ ، فما يدعوك إلى ماأرى ! قال : الحياء ، خرج منى كلام ، فأنا أستحيى أن أرجع عنه . فضحك الغلام ، وقال :

تنازِله يابُسْر إن كنتَ مثلَه ... وإلا فإنّ الليث للشاء آكل(١)
كأنك يابُسْر بن أرطاةَ جاهلٌ ... بآثاره فى الحرب أو متجاهلُ
معاويةُ الوالى وصِنْواه بعدَهُ ... وليس سواء مستعارٌ وناكلُ
أولئك هم أولى به منك إنّه ... علىٌّ فلا تقربْه ، أمّك هابلُ ؟
متى تَلْقَهُ فالموت فى رأس رمحه ... وفى سيفِه شغلٌ لنفسك شاغلُ
وما بعده فى آخر الخيل عاطفٌ ... ولا قبله فى أوّل الخيل حامل

فقال بُسْر : هل هو إلا الموت ؟ لا بدّ من لقاء الله فغدا علىّ عليه السلام منقطعاً من خيله ، ويده فى يد الأشتر ، وهما يتسايران رويدا ، يطلبان التلّ ليقفا عليه ؟ إذ برز له بُسْر مقنعا فى الحديد ، لا يعرف ، فناداه : أبرز إلى أباحسن ، فانحدر إليه على تؤدة غير مكترث به

(١) صفين : « للضبع آكل » .

حتى إذا قار به طعنه وهو دارعٌ فألقاه إلى الأرض ، ومنع الدّرع السنان أن يصلَ إليه ، فاتقاه بسرٌ بعورته ، وقصد أن يكشفها ، يستدفع بأسه ، فانصرف عنه عليه السلام مستدبرا له فعرفه الأشتر حين سقط فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هذا بُسْر بن أرطاة ، هـذا عدو الله وعدوك ، فقال : دعه عليه لعنة الله ، أبعد أن فعلها ؟ فحمل ابنُ عَمّ بُسر من أهل الشام ، شاب ، على عليٍّ عليه السلام . وقال :

أرديتَ بُسْرا والغلامُ ثائرُهْ   أرْدَيْتَ شيخاً غاب عنــه ناصرُهْ

* وكلُّنا حامٍ لبُسْرٍ واتِراه *

فلم يلتفت إليه على عليه السلام ، وتلقّاه الأشتر فقال له :

في كل يوم رجُلُ شيخٍ شاغرَهْ   وعورةٌ وسْطَ العَجَاج ظاهِرهْ

تبرزُها طعنة كفٍ واتِره   عمروٌ وبُسْرٌ منيا بالفاقِرهْ

فطعنه الأشتر ، فكسر صُلبه ، وقام بُسْرٌ من طعنة على عليه السلام موليًا ، وفرّت خيله ، وناداه عليّ عليه السلام : يا بُسْر ، معاوية كان أحقّ بها منك ، فرجع بُسر إلى معاوية ، فقال له معاوية : ارفع طرفك ، فقـد أدال الله عمراً منك ، قال الشاعر في ذلك :

أفي كلّ يومٍ فارسٌ تندبونَهُ   له عورةٌ تحْتَ العجاجة باديَهْ

يكفّ بها عنه عليٌّ سنــانَهُ   ويضحَكُ منها في الخلاء معاويَهْ

بدت أمسِ من عمرو فقنّع رأسَه   وعورةُ بسْرٍ مثلُها حَذْو حاذيَهْ

فقولا لعمرو وابن أرطاةَ أبصِرَا   سَبيلَيْكُما ، لاتلقيَا اللّيْث ثانيَهْ

ولا تحمَدا إلا الحيا وخُصا كما   هما كانتاَ للنَّفس - والله - واقيَهْ

فلولاهما لم تنجُوَا من سِنَانه   وتلك بما فيها عن العوْد ناهِيَهْ

متى تلقيا الخيلَ المغيرة صُبْحةً وفيها علىٌّ فاتركا الخيل ناحيَهْ (١)

وكونا بعيداً حيث لا تبلغ القَنَا ونار الوغى ، إن التجارب كافيَهْ (٢)

وإنْ كان منه بعدُ للنفس حاجةٌ فعودَا إلى ماشئتما هِيَ ماهيَهْ

قال : فكان بُسْر بعد ذلك اليوم ، إذا لقِيَ الخيل الّتى فيها علىٌّ ينتحِى ناحية ، وتحامى فرسانُ الشام بعدها عليًّا عليه السلام (٣) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الأجلح بن عبد الله الكندىّ ، عن أبى جُحيفة ، قال : جمع معاوية كلّ قرشىٍّ بالشام ، وقال لهم : العجَب يامعشر قريش ! أنّه ليس لأحد منكم فى هذه الحرب فِعالٌ (٤) يطول بها لسانه غداً ماعدا عمراً ، فما بالكم ! أين حمّية قريش ؟ فغضب الوليد بن عُقْبة ، وقال : أىّ فعال تريد ؟ والله مانعرف فى أكفائنا من قريش العراق مَنْ يُغنى غناءنا باللسان ولا باليد . فقال معاوية : بلى إنّ أولئك ، وقَوْا عليا بأنفسهم . قال الوليد : كلاّ ، بل وقاهم علىٌّ بنفسه . قال : ويحكم ! أمَا فيكم مَنْ يقوم لقِرْنه منهم مبارزة ومفاخرة ! فقال مروان : أمّا البراز فإنّ عليًّا لا يأذنُ لحسن ولا لحسين ولا لمحمّد بنيه فيه ، ولا لابن عباس وإخوته ، ويصلَى بالحرب دونهم ، فلأيّهم نبارز ! وأمّا المفاخرة ؛ فبماذا نفاخرهم ! بالإسلام أم بالجاهلية ! فإن كان بالإسلام ، فالفخر لهم بالنبوّة ، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن ، فإن قلنا قريش ، قالوا لنا : عبد المطلب .

---

(١) صفين : « الخيل المشيحة » .

(٢) صفين : « وحمى الوغى » .

(٣) صفين : ٥٢١ - ٥٢٧

(٤) فعال ، بالكسر : جمع فعل ، وفى صفين : « فعال يطول به لسانه » ، والفعال بالفتح : الفعل الحسن .

فقال عُتْبة بن أبى سفيان : الهوا عن هذا ، فإنى لاق بالغداة جَعْـدة بن هُبيرة ، فقـال معـاوية : بخٍ بخٍ ! قومُه بنو مخزوم ، وأمّـه أمّ هانئ بنت أبى طالب ، كفء كريم !

وكثر العتاب والخصام بين القوم ، حتى أغلظوا لمروان وأغلظ لهم ، فقال مرْوان : أما والله ، لولا ما كان منّى إلى علىّ عليه السلام فى أيام عثمان ، ومشهدى بالبصرة ، لـكان لى فى علىّ رأىٌ يـكفى امرأً ذا حسب ودين ؛ ولـكنّ ولعلّ . ونابذ معـاوية الوليد بن عُقْبة [دون القوم][1] ، فأغلظ له الوليد ، فقال معاوية : إنّك إنّما تجترئ علىّ بنسبك من عثمان ، ولقد ضربك الحدّ وعزلك عن الـكوفة .

ثم إنهم ما أمسوا حتى اصطلحوا ، وأرضاهم معاوية من نفسه ، ووصلهم بأموال جليلة. وبعث معاوية إلى عُتْبة ، فقال : ما أنت صانعٌ فى جَعْدة ! قال : ألقاه اليوم وأقاتله غداً ، وكان لجعْدة فى قريش شرفٌ عظيم ، وكان له لسانٌ ، وكان من أحبّ الناس إلى علىّ عليه السلام ، فغدا عليه عُتْبة ، فنادى : أبا جَعْدة أبا جعدة ! فاستأذن عليًّا عليه السلام فى الخروج إليه ، فأذِن له ، واجتمع الناس ، فقال عُتْبة : ياجَعْدة ، والله ما أخرجك علينا إلا حبّ خالك وعمّك عامل البحرين ؛ وإنّا والله ما نزعم أنّ معـاوية أحقُّ بالخلافة من علىّ ، لولا أمره فى عثمان ؛ ولـكن معاوية أحقّ بالشام لرضا أهلِها به ، فاعفوا لنا عنها ؛ فوالله ما بالشام رجلٌ به طِرْق[2] إلا وهو أجدُّ من معاوية فى القتـال ؛ وليس بالعراق رجل له مثل جدّ علىّ فى الحرب ، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم ، وما أقبح بعلىّ أن يكون فى قلوب المسلمين أوْلَى الناس بالنّاس ؛ حتى إذا أصابَ سلطانا أفنى العرب . فقال جعدة : أما حُبّى لخالى ، فلو كان لك خالٌ مثله لنسيتَ أباك ؛ وأما ابن أبى سلمة فلم يصب أعظمَ من قدره ، والجهاد أحبّ إلىّ من العمل ؛ وأما فضـل علىّ عَلَى معاوية ؛

(١) من صفين .

(٢) الطرق هنا : القوة ، وفى الحديث : « لا أجد رجلا به طرق يتخلف » .

فهذا مالا يختلف فيــه اثنان . وأمّا رضاكم اليوم بالشام ؛ فقد رضيتم بها أمسِ فلم نقبل . وأمّا قولك : « ليس بالشام أحدٌ إلّا وهو أجدّ من معاوية ، وليس بالعراق رجل مثل جدّ عليّ » ؛ فهــكذا ينبغى أن يكون ، مضى بعليّ يقينُه ، وقصّر بمعاوية شــكّه ، وقصْدُ أهلِ الحقّ خيرٌ من جهد أهل الباطل . وأمّا قولُك : « نحن أطوع لمعاوية منكم لعليّ » فوالله مانَسأله إن سكتَ ، ولا نردّ عليــه إن قال . وأما قتلُ العرب ، فإنّ الله كتب القتل والقتال ، فمن قتله الحقُّ فإلى الله .

فغضب عُتبة ، وفَحَش على جَعْدة فلم يجبه ، وأعرض عنه ، فلما انصرف عنه ، جمع خيله فلم يستبقِ [منها][1] شيئاً ، وجلّ أصحابه السّــكون والأزْد والصّدِف ، وتهيّأ جَعْدة بما استطاع ، والتقوا ، فصَبر القوم جميعاً ، وباشر جَعْدة يومئذ القتال بنفسه ، وجزع عتبة ، فأسلم خيله ، وأسرع هارباً إلى معاوية ، فقال له : فَضَحك جَعْدة وهَزَمتك ، لا تغسل رأسَك منها أبداً ! فقال : والله لقد أعذرت ؛ ولــكن أبَى الله أنْ يديلنا منهم ؛ فــا أصنع ؟ وحَظِى جَعْدَةُ بعدها عند عليّ عليه السلام !

وقال النّجاشيّ فيما كان من فُحْش عتبة عَلَى جَعْدة :

إنّ شتمَ الــكريم ياعُتْبُ خطبٌ   فاعْلَمَنْهُ من الخطوب عظيمُ
أمّـــه أمّ هانئٍ وأبوهُ   من معدٍّ ومن لؤيٍّ صميمُ
ذاكَ منها هبيرة بن أبي وهْــبٍ أقرّتْ بفضــله مخزومُ
كان فى حربكم يعــدّ بألفٍ   حــين يلقى بها القُرومَ القرومُ
وابنُه جَعْدَةُ الخليفة منــه   هــكذا تنبت الفروع الأرومُ[2]

---

(١) من صفين .
(٢) صفين : « هكذا يخلف الفرع الأروم » .

كلّ شيء تريده فهو فيـــهِ   حَسَبٌ ثاقبٌ ودين قـــويمُ
وخطيب إذا تمعـــرّت الأوْ   جُهُ يشجَى بهِ الألدّ الخصيمُ
وَحَليمٌ إذا الْحُبَى حَلّها الْجَهْـــلُ ، وخفّت من الرجال الحلومُ
وشَـكِيمُ الحروب قد علم النّا   سُ إذا حَلّ فى الحروب الشكيمُ
وصحيح الأديم من نَغَل العيـــبِ إذا كان لا يصحّ الأديمُ
حامل للعظيم فى طلب الحمْـــدِ إذا عظّم الصغيرَ اللئـــيمُ
ما عسى أن تقول للذهب الأحمـــر عيباً ، هيهات منك النجوم !
كلّ هـــذا بحمْدِ ربّك فيهِ   وسوى ذاك كَانَ وهو فطيمُ

وقال الأعور الشّنّىّ فى ذلك ، يخاطب عُتْبة بن أبى سفيان :

ما زلتَ تظهرُ فى عِطْفيك أبّهـــةً   لا يرفع الطّرْف منك التّيه والصَّلَفُ
لا تحسبِ القومَ إلّا فقع قَرْقَرَةٍ   أو شحمةً بزّها شاوٍ لها نُطَفُ(١)
حتى لقيت ابنَ مخزومٍ ، وأىّ فتى   أحيـــا مآثر آباء له سَلَفُوا !
إن كان رهط أبى وهب جحاجحةً   فى الأولين ، فهـذا منهمُ خَلَفُ
أشجاك جَعْدَة إذ نادى فوارسَـــه   حاموا عن الدّين والدنيا فما وقفوا
هـــلاّ عطفتَ على قومٍ بمصرعةٍ   فيها السّكُون وفيها الأزْدوالصّدِفُ(٢)

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبىّ ، قال : كان رجلٌ من أهل الشام ،

---

(١) الفقع : ضرب من أردأ الكمأة . والقرقرة : الأرض السهلة المطمئنة .
(٢) صفين ٥٢٧ — ٥٣٣ ، وبعد هذا البيت :

قدْ كُنْتَ فى منظرٍ من ذَا ومستَمَعٍ   يا عُتْبَ لَوْلا سفاه الرأى والسَّرَفُ
فالْيَوْمَ يُقْرَعُ منكَ السِّنُّ من نَدَمٍ   ما للمُبَارِزِ إلّا الْعَجْـــز وَالْقَصَفُ

يقال له الأصبغ بن ضرار الأزدىّ ، من مسالح معاوية وطلائعه ، فندب له علىّ عليه السلام الأشتر ، فأخذه أسيرا من غير قتال ، فجاء به ليلا فشدّه وثاقا ، وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح ؛ وكان الأصبغ شاعرا مفوّها ، فأيقن بالقتل ، ونام أصحابه ، فرفع صوته فأسمع الأشتر ، وقال :

ألا ليتَ هذا الليلَ أصبح سرمداً ... عَلَى الناس لا يأتيهمُ بنهارِ (١)
يكونُ كذا حتى القيامة إنّنى ... أحاذِرُ فى الإصباح يوم بوارى (٢)
فيا ليل أطبق ، إن فى الليل راحةً ... وفى الصبح قتلِى أو فكاك أسارِى
ولو كنتُ تحت الأرض ستين واديًا ... لما ردّ عنّى ما أخاف حِذارى
فيا نفسُ مهلًا إن للموت غاية ... فصبراً على ما ناب يا بنَ ضرارِ
أأخشَى ولى فى القوم رِحْمٌ قريبة ... أبَى الله أن أخشى ومالكُ جارى (٣)
ولو أنّه كانَ الأسير ببلدةٍ ... أطاعُ بها ، شمّرت ذيلَ إزارى
ولو كنت جارَ الأشعثِ الخير فكّنى ... وقلّ من الأمر المخوفِ فرارى
وجارَ سعيد أو عدىّ بن حاتم ... وجارَ شُريحِ الخيرِ قَرّ قَرارِى
وجار المرادىّ الكريم وهانىء ... وزحْرِ بن قيس ما كرهت نهارِى (٤)
ولو أننى كنتُ الأسير لبعضهم ... دعوتُ فتى منهم ففكّ إسارى (٥)
أولئك قومى لا عدمتُ حياتَهم ... وعفوهمُ عنّى وستْر عوارى

(١) صفين . « طبق سرمداً » .
(٢) صفين « ضرمة نار » .
(٣) صفين : « والأشتر جارى » .
(٤) صفين : « المرادى العظيم » .
(٥) صفين : « دعوت رئيس القوم » .

قال : فغدا به الأشتر إلى علىّ عليه السلام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّ هذا رجل من مسالح معاوية ، أصبته أمس ، وبات عندنا الليل ، فحرّكنا بشعره ، وله رَحِمٌ ، فإن كان فيه القتل فاقتله ؛ وإن ساغ لك العفو عنه فهَبْه لنا ؛ فقال : هو لك يامالك ، وإذا أصبت منهم أسيرا فلا تقتله ، فإنّ أسير أهل القبلة لا يقتل .

فرجع به الأشتر إلى منزله وخلى سبيله .

(١) صفين ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

(١٢٥)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى الخوارج لما أنكروا تحكيم الرجال ، ويذم فيه أصحابه فى التحكيم :

إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ ؛ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ . هَذَا الْقُرْآنُ ، إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ ؛ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ . وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ ، لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾[١] ، فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ؛ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ؛ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ ؛ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَا تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا ، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ .

إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ، وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ ، مِنَ الْبَاطِلِ ، وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ وَزَادَهُ . فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ !

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

اُسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ .

مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا ، وَلَا زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا ؛ لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ !

أُفٍّ لَكُمْ ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً [(١)] يَوْماً أُنَادِيكُمْ ، وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ !

* * *

الشَّرْحُ :

دَفّتا المصحف : جانباه اللّذان يكنُفانه ، وكان الناس يعملونهما قديما من خشب ، ويعملونهما الآن من جلد ؛ يقول عليه السلام : لا اعتراضَ عليّ في التحكيم ، وقول الخوارج : « حكّمتَ الرجال » دَعْوَى غير صحيحة ؛ وإنما حكّمت القرآن ؛ ولكنّ القرآن لا ينطق بنفسه ، ولا بدّ له ممن يترجم عنه . والتَّرْجُمان بفتح التاء وضم الجيم ، هو مفسّر اللغة بلسان آخر ، ويجوز ضمّ التاء لضمة الجيم ، قال الراجز :

* كالتُّرْجُمان لَقِيَ الأنباطا *

ثم قال : لمّا دعينا إلى تحكيم الكتاب، لم نكن القوم الذين قال الله تعالى في حقّهم: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [(٢)] ، بل أجبنا إلى ذلك، وعملنا بقول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[(٣)] . وقال : معنى ذلك أنْ نحكم بالكتاب والسنّة ، فإذا عمل الناس بالحقّ في هذه الواقعة ، واطّرحوا الهوى والعصبية ، كنّا أحقّ بتدبير الأمّة وبولاية الخلافة من المنازع لنا عليها.

---

(١) مخطوطة النهج : « ترحاً » .

(٢) سورة النور ٤٨ . (٣) سورة النساء ٥٩ .

فإن قلت : إنّه عليه السلام لم يقل هكذا ؛ وإنما قال : إذا حُكِم بالصدق فى كتاب الله ، فنحن أولى به ، وإذا حُكِم بالسنة فنحن أحقّ بها !

قلت : إنه رفع نفسه عليه السلام أن يصرّح بذكر الخلافة فكنّى عنها ، وقال : نحنُ إذا حُكِم بالكتاب والسنة أولى بالكتاب والسنّة ، ويلزم من كونه أوْلى بالكتاب والسنة من جميع الناس أن يكون أولى بالخلافة من جميع الناس ، فدلّ على ما كنّى عنه بالأمر المستلزم له .

فإن قلت : إذا كان الرجال الذين يترجمون القرآن ويفسّرونه ، وقد كُلِّفُوا أن يحكموا فى واقعة أهل العراق وأهل الشام ، بما يدلّهم القرآن عليه ؛ يجوز أن يختلفوا فى تفسير القرآن وتأويله ، فيدّعى صاحب أهل العراق من تفسيره ما يستدلّ به على مراده ، ويدّعى وكيل أهل الشام ما يقابل ذلك ويناقضه ، بطريق الشبهة التى تمسكوا بها من دم عثمان ، ومن كون الإجماع لم يحصل على بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، احتاجَ الحكمان حينئذ إلى أنْ يحكم بينهما حَكمان آخران ، والقول فيهما كالقول فى الأول إلى ما لا نهاية له ؛ وإنما كان يكون التحكيم قاطعا للشّغَب لو كانَ القرآن ينصّ بالصريح الذى لا تأويل فيه ، إمّا عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام وإمّا على معاوية ، ولا نصّ صريح فيه ؛ بل الذى فيه يحتمل التأويل والتجاذب ؛ فما الذى يفيد التحكيم والحال تعود لا محالة جَذَعة !

قلت : لو تأمّل الحكمان الكتاب حقّ التأمّل ، لوجدا فيه النصّ الصريح على صحة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّ فيه النصّ الصريح على أنّ الإجماع حجّة ، ومعاوية لم يكن مخالفاً فى هذه المقدمة ولا أهل الشام ، وإذا كان الإجماع حجّة ، فقد وقع الإجماع لما توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله ، على أنّ اختيار خمسةٍ من صلحاء المسلمين لواحد منهم وبيعته توجب لزوم طاعته وصحة خلافته ، وقد بايع أميرَ المؤمنين عليه السلام

خمسةٌ من صلحاء الصحابة بل خمسون ؛ فوجب أنْ تصحّ خلافته ، وإذا صحّت خلافته نفذت أحكامه ، ولم يجب عليه أن يقيد بعثمان ، إلا إن حضر أولياؤه عنده ، طائعين له مبايعين ، ملتزمين لأحكامه ؛ ثم بعد ذلك يطالبون القصاص من أقوام بأعيانهم ، يدّعون عليهم دمَ المقتول ؛ فقد ثبت أنّ الكتاب لو تؤمِّلَ حقّ التأمّل ، لكان الحق مع أهل العراق ، ولم يكن لأهل الشام من الشبهة ما يقدح فى استنباطهم المذكور .

ثم قال عليه السلام : فأمّا ضربى للأجل فى التّحكيم فإنما فعلته لأن الأناة والتثبّت من الأمور المحمودة ؛ أما الجاهل فيعلم فيه ما جهله ، وأما العالم فيثبُت فيه على ما علِمه ، فرجوتُ أن يصلح الله فى ذلك الأجلِ أمرَ هذه الأمّة المفتونة .

ولا تؤخذ بأكظامها : جمع كَظَم ؛ وهو مخرج النَّفَس ، يقول : كرهت أن أُعجِل القوم عن التبيّن والاهتداء ، فيكون إرهاقى لهم ، وتركى للتنفيس عن خناقهم ، وعدُولِى عن ضرب الأجل بينى وبينهم أدْعَى إلى استفسادهم ، وأحْرَى أن يركبوا غيَّهم وضلالهم ، ولا يُقْلِعوا عن القبيح الصادر عنهم .

ثم قال : أفضلُ الناس مَنْ آثرَ الحقّ وإن كرثه ـ أى اشتدّ عليه ، وبلغ منه المشقة . ويجوز « أكرثه » بالألف ـ على الباطل وإن انتفع به وأورثه زيادة .

ثم قال : « فأين يتاه بكم ؟ » ، أى أين تذهبون فى التيه ؟ يعنى فى الحيْرة . وروى : « فأنى يُتاهُ بكم ؟ » .

ومن أين أُتيتم ؟ أى كيفَ دخل عليكم الشيطان أو الشبهة ، ومن أىّ المداخل دخل اللّبس عليكم !

ثم أمرهم بالاستعداد للمسير إلى حرب أهل الشام ، وذكَر أنهم مُوزَعُون بالجوْر ،

أي ملهمون ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ [(١)] أي ألهمني ، أوزعته بكذا وهو موزَع به ، والاسم والمصدر جميعا الوزع بالفتح ، واستوزعت إليه تعالى شكره فأوزَعني ، أي استلهمته فألهمني .

ولا يعدِلون عنه ؛ لا يتركونه إلى غيره ، وروى « لا يعدلون به » ؛ أي لا يعدلون بالجوْر شيئا آخر ، أي لا يرضون إلّا بالظلم والجوْر ولا يختارون عليهما غيرها .

قوله : « جفاة عن الكتاب » : جمع جافٍ وهو النابي عن الشيء ، أي قد نَبوْا عن الكتاب لا يلائمهم ولا يناسبونه ، تقول : جفا السرجُ عن ظهرِ الفرس إذا نبا وارتفع ، وأجفيتُه أنا ، ويجوز أن يريد أنّهم أعراب جفاة ، أي أجْلافٌ لا أفهام لهم .

قوله : « نُكُبٌ عن الطريق » ، أي عادلون ، جمع ناكب ، نكَب ينكُب عن السبيل ، بضم الكاف ، نكُوبا .

قوله : « وما أنتم بوثيقة » ، أي بذي وثيقة ، لحذف المضاف ، والوثيقة : الثقة ، يقال : قد أخذت في أمر فلان بالوثيقة ، أي بالثقة ، والثقة مصدر .

والزوافر : العشيرة والأنصار ، ويقال : هم زافرتهم عند السلطان ، للذين يقومون بأمره عنده .

وقوله : « يعتصم إليها » ، أي بها ، فأناب « إلى » مناب الباء ، كقول طرفة :

وإن يَلْتَقِ الحيّ الجميع تلاقِني ... إلى ذِرْوة البيت الرفيع المصمّدِ [(٢)]

وحُشاش النار : ما تُحَشّ به ، أي توقد ، قال الشاعر :

أفي أن أحُشّ الحرب فيمن يُحشّها ... ألامُ ، وفي ألّا أقرّ المخازيا !

---

(١) سورة النمل ١٩ .

(٢) من المعلقة ــ بشرح التبريزي ٧٧

وروى « حَشاش » بالفتح كالشِّياع ، وهو الحطب الذى يلقى فى النار قبل الجزل ، وروى : « حُشّاش » بضم الحاء وتشديد الشين ، جمع حاشٍ ، وهو الموقد للنار .

قوله : « أفٍّ لكم » من الألفاظ القرآنية ، وفيها لغات « أفّ » بالكسر وبالضم وبالفتح و « أفٍّ » منونا بالثلاث أيضا ، ويقال : أفًّا وتفًّا ؛ وهو إتباع له ، وأُفّة وتُفّة ، والمعنى استقذار المعنىّ بالتأفيف .

قوله : « لقد لقيت منكم بَرْحاً » ، أى شدّة ، يقال : لقيت منهم بَرْحاً بارحا ، أى شدّة وأذى ، قال الشاعر :

أجدّك هذا عمرَكَ الله كلّما دَعَاكَ الهوى بَرْحٌ لعينك بارح[1] !

ويروى : « ترحا » ، أى حزنا .

ثم ذكر أنه يناديهم جهارا طورا ، ويناجيهم سِرًّا طورا ، فلا يجدهم أحراراً عند ندائه ، أى لا ينصرون ولا يجيبون ، ولا يجدهم ثقاتاً وذوى أمانة عند المناجاة ، أى لا يكتمون السرّ .

والنّجاء : المناجاة ، مصدر ناجيته نجاء ، مثل ضاربته ضِرابا ، وصارعته صِراعا .

---

(١) اللسان (برح) من غير نسبة .

(١٢٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما عوقب على التسوية فى العطاء وتصييره الناس أسوة فى العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف :

أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ ! وَاللهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً ! وَلَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ !

ثم قال عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ ؛ وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ ؛ وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ؛ إِلَّا حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ ؛ وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ ؛ فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ ، وَأَلْأَمُ خَدِينٍ .

* * *

الشرح :

أصل « تأمرونى » : تأمروننى ، بنونين،فأسكن الأولى وأدغم،قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الزمر ٦٤

ولا أطور به : لا أقرَب به ولا تَطُرْ حَوْلنَا ، أى لاتقرب ماحولنا ، وأصله من طَوار الدار ، وهو ما كان ممتداً معها من الفناء .

وقوله : « ما سمر سمير » يعنى الدهر ، أى ما أقام الدهر ومابقى ، والأشهر فى المثل : « ما سمر ابنا سمير » ، قالوا : السمير الدهر ، وابناه الليل والنهار . وقيل : ابنا سمير الليل والنهار ، لأنه يُسمَر فيهما ، ويقولون : لا أفعله السَّمَر والقمر ، أى ما دام الناس يسمرون فى ليلة قمراء ولا أفعله سميرَ الليالى ، أى أبدا ، قال الشَّنْفَرَى :

هنالِكَ لَا أرْجُو حياةً تَسُرُّنِى سميرَ اللَّيالى مُبْسلا بالجرائر (١)

قوله : « وما أمّ نجم فى السماء نجما » ، أى قصد وتقدّم ، لأن النجوم تتبع بعضها بعضا ، فلا بدّ من تقدم وتأخر ؛ فلا يزال النجم يقصد نجما غيره ، ولا يزال النجم يتقدم نجما غـيره .

والخدين : الصديق ؛ يقول عليه السلام : كيف تأمرونى أن أطلب النصر من الله بأن أجور على قوم ولّيت عليهم ! يعنى الذين لاسوابق لهم ولاشرف ؛ وكان عُمَر ينقصهم فى العطاء عن غيرهم .

ثم قال عليه السلام : لوكان المال لى وأنا أفرّقه بينهم لسوّيت ، فكيف وإنما هو مال الله وفيئه !

ثم ذكر أنّ إعطاء المال فى غير حقّه تبذير وإسراف ، وقد نهى الله عنه وأنه يرفع صاحبه عند الناس ، ويضعه عند الله ، وأنه لم يسلك أحد هذه المسلك إلاّ حرمه الله ودّ الذين يتحبب إليهم بالمال ، ولو احتاج إليهم يوما عند عثرة يعثرها لم يجدهم .

* * *

(١) ديوانه ٣٦

واعلم أن هذه مسألة فقهية ورأيُ عليّ عليه السلام وأبي بكر فيها واحد ، وهو التسوية بين المسلمين في قسمة الفيء والصدقات ، وإلى هذا ذهب الشافعيّ رحمه الله ، وأما عمر فإنه لمّا وَلِيَ الخلافة فضّل بعض الناس على بعض ، ففضّل السابقين على غيرهم ، وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين ، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، وفضّل العرب على العجم ، وفضّل الصريح على المولى ، وقد كان أشار على أبي بكر أيام خلافته بذلك ، فلم يقبل ، وقال : إنّ لم يفضّل أحدا على أحد ، ولكنه قال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾[1] ، ولم يخصّ قوما دون قوم ، فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار به أولا . وقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله ، والمسألة محلّ اجتهاد ، وللإمام أن يعمل بما يؤديه إليه اجتهاده ، وإن كان اتباع عليّ عليه السلام عندنا أَوْلى ، لا سيما إذا عضّده موافقة أبي بكر على المسألة ، وإن صحّ الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوّى ، فقد صارت المسألة منصوصا عليها ، لأن فعله عليه السلام كقوله .

---

(١) سورة التوبة ٩

(١٢٧)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج أيضا :

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ـ بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِمْ ؛ وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلاَمِ ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ . ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ . وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ. وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ ؛ فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ ، فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ .

أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ ؛ وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ؛ فَإِنَّمَا حُكِّمَ

الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ ، وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ ؛ فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا ؛ فَلَمْ آتِ لَا أَبَا لَكُمْ بُجْراً ، وَلَا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ ، وَلَا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ .

إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلَّا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ ، فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ ؛ وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا ، فَمَضَيَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا ، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا .

* * *

الشّرْحُ :

ليس لقائل أن يقول له عليه السلام معتذرا عن الخوارج : إنهم إنما ضلّلوا عامّة أمة محمد صلى الله عليه وآله ، وحكَموا بخطئهم وكفرهم وقتلهم بالسيف خبطاً ، لأنهم وافقوك فى تصويب التحكيم ؛ وهو عندهم كفر فلم يؤاخذوهم بذنبك كما قلت لهم ؟ وذلك لأن أمير المؤمنين عليه السلام ما قال هذه المقالة إلّا لمن رأى منهم استعراض العامّة ، وقتل الأطفال حتى البهائم ، فقد كان منهم قوم فعلوا ذلك . وقد سبق منّا شرح أفعالهم ووقائعهم بالناس ، وقالوا : إن الدار دار كفر لا يجوز الكفّ عن أحد من أهلها ، فهؤلاء هم الذين وجّه أميرُ المؤمنين عليه السلام إليهم خطابه وإنكاره ، دون غيرهم من فرق الخوارج .

[مذهب الخوارج فى تكفير أهل الكبائر]

واعلم أن الخوارج كلّها تذهب إلى تكفير أهل الكبائر ، ولذلك كفّروا عليا عليه السلام ومَن اتّبعه على تصويب التحكيم ؛ وهذا الاحتجاج الذى احتجّ به عليهم

لازم وصحيح ؛ لأنه لو كان صاحبُ الكبيرة كافرا لما صلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا ورّثه من المسلم ، ولا مكّنه من نكاح المسلمات ، ولا قسم عليه من الفيء ولأخرجه عن لفظ الإسلام .

وقد احتجت الخوارج لمذهبها بوجوه :

منها قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾(١) ، قالوا : فجعل تارك الحجّ كافرا .

والجواب أن هذه الآية مجملة ، لأنه تعالى لم يبيّن ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بماذا ؟ فيحتمل أن يريد تارك الحج ، ويحتمل أن يريد تاركَ اعتقاد وجوبه على من استطاع إليه سبيلا ، فلا بدّ من الرجوع إلى دلالة ، والظاهر أنه أراد لزومَ الكفر لمن كفر باعتقاد كون الحج غيرَ واجب ؛ ألا تراه فى أول الآية قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ ، فأنبأ عن اللزوم ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بلزوم ذلك ! ونحن نقول : إنّ مَنْ لم يقل : لله على الناس حج البيت ، فهو كافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٢) ، قالوا : والفاسق لفسقه وإصراره عليه آيسٌ من رَوْح الله ، فكان كافرا .

والجواب أنّا لا نسلّم أن الفاسقَ آيسٌ من رَوْح الله مع تجويزه تلَافِى أمره بالتوبة والإقلاع ؛ وإنما يكون اليأس مع القطع ، وليس هذه صفة الفاسق ، فأمّا الكافر الذى يجحد الثواب والعقاب ، فإنه آيسٌ من رَوْح الله ، لأنه لا تخطُر له التوْبة والإقلاع ، ويقطع على حسن معتقده .

ومنها قولُه تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٣) وكلّ مرتكبٍ للذنوب فقد حكَم بغير ما أنزل الله . ولم يحكم بما أنزل الله .

(١) سورة آل عمران ٩٧ (٢) سورة يوسف ٨٧
(٣) سورة المائدة ٤٤

والجواب أنّ هذا مقصورٌ على اليهود؛ لأن ذكرهم هو المقدّم فى الآية ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾(١) ثم قال عقيب قوله: ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾(٢) فدلّ على أنها مقصورة على اليهود .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾(٣) ، قالوا : وقد اتفقنا مع المعتزلة على انّ الفاسق يصلَى النارَ ، فوجب أنْ يسمّى كافرا .

والجواب ، أنّ قوله تعالى : ﴿ نارًا ﴾ نكرة فى سياق الإثبات فلا تعمّ ، وإنّما تعمّ النكرة فى سياق النفى ؛ نحو قولك : « مافى الدار من رجل » ؛ وغير ممتنع أن يكون فى الآخرة نار مخصوصة لا يصلّاها إلّا الّذين كذّبوا وتولّوْا ، ويكون للفسّاق نار أخرَى غيرها .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٤) ، قالوا: والفاسق تحيط به جهنّم ، فوجب أن يكون كافرا .

والجواب أنه لم يقل سبحانه : « وَإنّ جهنم لا تحيط إلاّ بالكافرينَ » وليس يلزم من كونها محيطةً بقوم ألاّ تحيط بقوم سواهم .

ومنها قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(٥) . قالوا :

---

(١) سورة المائدة ٤٣
(٢) سورة المائدة ٤٦
(٣) سورة الليل ١٤ – ١٦
(٤) سورة التوبة ٤٩
(٥) سورة آل عمران ١٠٧

والفاسق لا يجوز أن يكونَ ممّن ابيضّت وجوههم ، فوجب أن يكونَ ممّن اسودّت ، ووجب أن يسمّى كافرا ، لقوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

والجواب أنّ هذه القسمة ليست متقابلة ؛ فيجوز أن يكونَ المكلّفون ثلاثة أقسام: بيضُ الوجوه ، وسود الوجوه ؛ وصنف آخر ثالث بَين اللونين ؛ وهم الفساق .

ومنها قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾(١) . قالوا : والفاسق على وجهه غبَرة ، فوجب أن يكونَ من الكفرة والفجرة .

والجواب، أنّه يجوز أن يكون الفسّاق قسماً ثالثا لا غبرة على وجوههم، ولا هى مسفِره ضاحكة ، بل عَلَى ما كانت عليه فى دار الدنيا .

ومنها قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (٢). قالوا : والفاسق لا بدّ أن يجازَى ، فوجب أن يكون كفورا .

والجواب ، أنّ المرادَ بذلك : « وهل نجازِى بعقاب الاستئصال إلا الكفور » ؛ لأنّ الآية وردت فى قصّة أهل سَبأ ، لكونهم استؤصِلوا بالعقوبة .

ومنها أنّه تعالى قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾(٣) ، وقال فى آية أخرى :﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٤) ، فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركا .

والجواب أنّا لا نسلّم أنّ لفظة « إنما » تفيد الحصر ؛ وأيضا فإنه عطف قوله :

---

(١) سورة عبس ٣٨ ـ ٤٢
(٢) سورة سبأ ٤٧
(٣) سورة الحجر ٤٢
(٤) سورة النحل ١٠٠

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ على قوله : ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ، فوجب أن يثبت التغاير بين الفريقين ، وهذا مذهبنا ، لأنّ الذين يتولّونه هم الفسّاق ، والذين هم به مشركون هم الكفار .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١) فجعل الفاسق مكذّبا .

والجواب ، أنّ المراد به الذين فسقوا عن الدين ، أي خرجوا عنه بكفرهم ، ولا شُبْهة أنّ مَنْ كان فسقه من هذا الوجه فهو كافر مكذّب ، ولا يلزم منه أنّ كل فاسق على الإطلاق فهو مكذّب وكافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٢) ، قالوا : فأثبت الظالمَ جاحدا ، وهذه صفة الكفار .

والجواب أنّ المكلّف قد يكون ظالما بالسرقة والزنا ، وإن كان عارفا بالله تعالى ، وإذا جاز إثبات ظالم ليس بكافر ولا جاحد بآيات الله تعالى ، جاز إثباتُ فاسق ليس بكافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣) .

والجواب ، أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الكافر فاسق ، ولا تدلّ على أنّ الفاسق كافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤) .

---

(١) سورة السجدة ٢٠
(٢) سورة الأنعام ٣٣
(٣) سورة النور ٥٥
(٤) سورة الأعراف ١٠٢ ــ ١٠٥

فنص سبحانه على أن مَنْ تخف موازينه يكون مكذّبا ، والفاسق تخف موازينه،فكان مكذِّبا ، وكلّ مكذِّب كافر .

والجواب أنّ ذلك لا يمنع من قسم ثالث ، وهم الذين لا تخف موازينهم ولا تثقل؛ وهم الفساق ، ولا يلزم من كون كلّ مَنْ خفّت موازينه يدخل النار ألّا يدخل النار إلا من خَفّت موازينه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ (١) ، وهذا يقتضى أنّ من لا يكون مؤمنا فهو كافر ، والفاسق ليس بمؤمن ،فوجب أن يكون كافرا .

والجواب أنّ « منْ » هاهنا للتبعيض ، وليس فى ذكر التبعيض نفى الثالث، كما أن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ (٢) ؛ لا ينفى وجود دابّة تمشى على أكثر من أربع كبعض الحشرات .

* * *

ثم نعود إلى الشرح :

قوله عليه السلام : « ومن رَمَى به الشيطان مراميَه » ، أى أضلّه كأنّه رمَى به مرمًى بعيدا ، فضلّ عن الطريق ؛ ولم يهتدِ إليها .

قوله : « وضرب به تيهَه » أى حيّره وجعله تائها .

ثم قال عليه السلام : يهلكُ فىّ رجُلان ، فأحدهما مَنْ أفرط حبّه له واعتقاده فيه حتى ادّعى له الحلول كما ادّعت النصارى ذلك فى المسيح عليه السلام، والثانى مَنْ أفرط بغضه له، حتى حارَبَه ، أو لعنه ، أو برئ منه ، أو أبغضه ؛ هذه المراتب الأربع؛ والبغض أدناها ، وهو

---

(١) سورة التغابن ٢

(٢) سورة النور ٤٥

مُوبِقٌ مهلك ؛ وفى الخبر الصّحيح المتّفق عليه أنه لايحبّه إلا مؤمن ، ولا يُبغضه إلّا منافق ؛ وحسبك بهذا الخبر ، ففيه وحده كفاية .

[فصل فى ذكر الغلاة من الشيعة والنصيرية وغيرهم]

فأما الغُلاة فيه فهالكون كما هلك الغلاة فى عيسى عليه السلام . وقد روى المحدّثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عليه السلام : « فيك مُثُلٌ من عيسى بن مريم ، أبغضتْه اليهود فبهتَت أمّه ، وأحبّته النصارى فرفعته فوق قدره » ، وقد كان أمير المؤمنين عثر على قوم من أصحابه خرجوا من حدّ محبته باستحواذ الشيطان عليهم أن كفروا بربهم ، وجحدوا ما جاء به نبيُّهم ، فاتخذوه ربًّا وادّعوه إلهًا ، وقالوا له : أنت خالقنا ؛ ورازقنا ، فاستتابهم ، واستأنى وتوعّدهم فأقاموا على قولهم ، فحفر لهم حفرًا دخّن عليهم فيها ، طمعا فى رجوعهم ، فأبوا فحرقهم ، وقال :

أَلَا تَرَوْنِي قَدْ حَفَرْتُ حُفَرًا (١) إنّى إذا رأيتُ أمرًا منكَرَا
* أوقدتُ نارِىَ وَدَعَوْتُ قَنْبَرَا *

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفى ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المصيصى ، المعروف بنوين ، وروى أيضاً عن علىّ بن محمد النوفلىّ عن مشيخته ، أن عليا عليه السلام مرّ بقوم وهم يأكلون فى شهر رمضان نهارا ، فقال : أسفر أم مرضى ؟ قالوا : لا ولا واحدة منهما ، قال : فمن أهل الكتاب أنتم فتعصمكم الذمّة والجزية ؟ قالوا : لا ، قال : فما بالُ الأكل فى نهار رمضان ! فقاموا إليه ، فقالوا : أنت أنت ! يومون إلى ربوبيته ، فنزل عليه السلام عن فرسه ، فألصق خدّه بالأرض ، وقال : ويلكم ! إنما أنا عبدٌ من عبيد الله ، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام . فأبوْا فدعاهم مرارا ، فأقاموا على كفرهم ، فنهض إليهم ، وقال : شدُّوهم وثاقا ، وعلىّ بالفَعَلَة والنار والحطب ، ثم أمر

(١) الحفر : البئر الواسعة .

بحفر بئرين لحفرتا ، إحداهما سَرَبًا والأخرى مكشوفة ، وألقى الحطب فى المكشوفة ، وفتح بينهما فتحا ، وألقى النار فى الحطب ، فدخن عليهم ، وجعل يهتف بهم ، ويناشدهم ليرجعوا إلى الإسلام ، فأبوْا ، فأمر بالحطب والنار فألقَى عليهم ، فأحرِقوا ، فقال الشاعر :

لترم بِىَ المنيّةُ حيثُ شاءتْ إذا لم ترمِنى فى الحفرتيْنِ
إذَا ما حُشّتَا حطبًا بنـــار فذاك الموت نقداً غير دَيْنِ

قال : فلم يبرحْ عليه السلام حتى صارُوا حُمَمًا .

ثم استترت هذه المقالة سنة أو نحوها ، ثم ظهر عبد الله بن سبأ وكان يهوديا يتستّر بالإسلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام فأظهرها ، واتّبَعه قومٌ فسمّوا السبَئيّة[1] ، وقالوا : إنّ عليا عليه السلام لم يمتْ ، وإنّه فى السماء ، والرعد صوته والبرق صوته ؛ وإذا سمعوا صوت الرعد ، قالوا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ! وقالوا فى رسول الله صلى الله عليه وآله أغلَظ قول ، وافتروْا عليه أعظم فرْية ، فقالوا : كَتَم تسعة أعشار الوحى ، فنعَى عليهم قولَهم الحسنُ بن علىّ بن محمد بن الحنفيّة رضى الله عنه فى رسالته ، التى يذكر فيها الإرجاء ، رواها عنه سليمان بن أبى شيخ ، عن الهيثم بن معاوية ، عن عبد العزيز بن أبان ، عن عبد الواحد بن أيمن المكىّ ، قال : شهدتُ الحسن بن علىّ بن محمد بن الحنفيَّة يمْلِى هذه الرسالة ، فذكرها وقال فيها : ومِنْ قول هذه السبئيّة : هدِينا لوحى ضلّ عنه الناس ، وعِلْم خفِىَ عنهم ؛ وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كتم تسعة أعشار الوحى ؛ ولو كتم صلى الله عليه وآله شيئًا مما أنزل الله عليه لكَتَم شأن امرأة زيد ، وقوله تعالى : ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾[2] .

---

(١) السبئية هم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة ، وقالت بتناسخ الجزء الإلهى بعد على رضى الله عنه . وانظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) سورة التحريم ١

ثم ظهر المغيرة بن سعيد [١] ، مولى بَجِيلة ، فأراد أن يحدِثَ لنفسه مقالةً يستهوى بها قوماً ، وينال بها مايريد الظَّفَر به من الدنيا ، فغلَا فى علىّ عليه السلام ، وقال : لو شاء علىّ لأحيا عاداً وثمودَ وقرونا بين ذلك كثيرا .

وروى على بن محمد النوفلىّ ، قال : جاء المغيرة بن سعيد ، فاستأذنَ عَلَى أبى جعفر محمد بن علىّ بن الحسين ، وقال له : أخبر الناس أنّى أعلمُ الغيب ، وأنا أطعمك العراق ، فزجره أبو جعفر زجْراً شديدا ، وأسمعه ما كَرِهَ ، فانصرف عنه ، فأتى أبا هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفيّة رحمه الله ، فقال له مثل ذلك — وكان أبو هاشم أيّداً — فوثب عليه فضربه ضرباً شديدا أشفى به على الموت ، فتعالج حتى برِئ ، ثم أتى محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن رحمه الله — وكان محمد سُكَيْتاً [٢] — فقال له كما قال للرجلين ، فسكت محمد فلم يجبْه ، فخرج وقد طمع فيه بسكوته ، وقال : أشهد أنّ هذا هو المهدىّ الذى بَشّر به رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه قائمُ أهل البيت ، وادّعى أنّ علىّ بن الحسين عليه السلام أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن . ثم قدم المغيرةُ الكوفة ، وكان مشعبذاً ، فدعا الناس إلى قوله ، واستهواهم واستغواهم ، فاتّبعه خلق كثير ، وادّعى عَلَى محمد بن عبد الله أنه أذِنَ له فى خَنْق الناس وإسقائهم السموم ، وبثّ أصحابَه فى الأسفار يفعلون ذلك بالناس ، فقال له بعضُ أصحابه : إنّا نخنُق مَن لا نعرف ، فقال : لاعليكم ! إنْ كان من أصحابكم عجّلتموه إلى الجنة ، وإن كان من عدوّكم عجّلتموه إلى النار؛ ولهذا السبب كان المنصور يسمّى محمد بن عبد الله الخنّاق ، وينحله ما ادّعاه عليه المغيرة .

ثم تفاقم أمرُ الغُلاة بعد المغيرة ، وأمعنوا فى الغلوّ ، فادعوْا حلول الذات الإلهية

---

(١) هو المغيرة بن سعيد العجلى ، مولى خالد بن عبد الله القسرى ، ادعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد بن على بن الحسين ، وبعد ذلك ادعى النبوة لنفسه ، واستحل المحارم ، وغلا فى على غلواً لا يعتقده عاقل ، وزاد على ذلك قوله بالتشبيه . الشهرستانى ١ : ١٥٥

(٢) السكيت ، على التصغير : الكثير السكوت .

المقدّسة فى قوم من سلالة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا بالتناسخ ، وجحدوا البعث والنشور ، وأسقطوا الثواب والعقاب ، وقال قوم منهم : إن الثواب والعقاب إنّما هو ملاذّ هذه الدنيا ومشاقّها ، وتولّدت من هذه المذاهب القديمة التى قال بها سلفهم مذاهبُ أفحش منها قال بها خَلَفُهم ، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنّصيريّة[1] ، وهى التى أحدثها محمد بن نصير النميرىّ ، وكان من أصحاب الحسن العسكرىّ عليه السلام ، والمقالة المعروفة بالإسحاقية وهى التى أحدثها إسحاق بن زيد بن الحارث ، وكان من أصحاب عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف ، ويثبت لعلىّ عليه السلام شركة مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى النبوّة على وجهٍ غير هذا الظاهر الذى يعرفه الناس ؛ وكان محمد بن نصير من أصحاب الحسن بن علىّ بن محمد ابن الرّضا ، فلما مات ادّعى وكالة لابن الحسن الذى تقول الإماميّة بإمامته ، ففضحه الله تعالى بما أظهره من الإلحاد والغلوّ والقول بتناسخ الأرواح ، ثم ادّعى أنه رسول الله ونبىٌّ من قِبَل الله تعالى ، وأنه أرسله علىّ بن محمد بن الرضا ، وجحد إمامة الحسن العسكرىّ وإمامة ابنه ، وادعى بعد ذلك الربوبية ، وقال بإباحة المحارم .

وللغلاة أقوال كثيرة طويلة عريضة ؛ وقد رأيتُ أنا جماعةً منهم ، وسمعت أقوالهم ، ولم أر فيهم محصّلا ، ولا مَنْ يستحقّ أن يخاطَب ؛ وسوف أستقصى ذِكْرَ فِرَقِ الغلاة وأقوالهم فى الكتاب الذى كنت متشاغلاً بجمعه ، وقطعنى عنه اهتمامى بهذا الشرح ، وهو الكتاب المسمى " بمقالات الشيعة " إن شاء الله تعالى .

* * *

قوله عليه السلام : « والزموا السَّواد الأعظم » ؛ وهو الجماعة ، وقد جاء فى الخبر عن

---

(١) انظر الشهرستانى ١ : ١٦٨ ، ١٦٩

رسول الله صلى الله عليه وآله هذه اللفظة التي ذكرها عليه السلام، وهى : « يد الله على الجماعة ولا يبالى بشذوذ مَنْ شذّ » ، وجاء فى معناها كثير ، نحو قوله عليه السلام : « الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » ، وقوله : « لا تجتمع أمتى على خطأ » ، وقوله : « سألت الله ألّا تجتمع أمتى على خطأ ، فأعطانيها » ، وقوله : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » ، وقوله : « لا تجتمع أمّتى على ضلالة » ، و « سألت ربّى ألّا تجتمع أمتى على ضلالة فأعطانيها » . و « لم يكن الله ليجمع أمّتى على ضلال ولا خطأ » .

وقوله عليه السلام : « عليكم بالسّواد الأعظم » ، وقوله : « مَنْ خرج من الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه » .

وقوله : « مَنْ فارق الجماعة مات ميتة جاهليّة » ، وقوله : « مَنْ سرّه بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة » .

والأخبار فى هذا المعنى كثيرة جدا .

ثم قال عليه السلام : « مَنْ دعا إلى هـذا الشعار فاقتلوه » ، يعنى الخوارج ، وكان شعارهم أنّهم يحلِقون وسط رءوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل .

قال : « ولو كان تحت عمامتى هذه ـ أى لو اعتصم واحتمى بأعظم الأشياء حُرْمة ـ فلا تكفّوا عن قتله » .

ثم ذكر أنه إنما حُكِّم الحكمان ليُحييا ما أحياه القرآن ، أى ليجتمعا على ما شهد القرآن باستصوابه واستصلاحه ، ويميتا ما أماته القرآن ، أى ليفترقا ويصدّا وينكلا عمّا كرهه القرآن ، وشهد بضلاله .

والبُجْر ، بضم الباء : الشرّ العظيم ، قال الراجز :

* أرمى عليها وهى شىءٌ بُجْرُ *

أى داهية .

ولاخَتَلْتُكم ، أى خدعتكم ، خَتَلَهُ وخاتله : أى خدعه ، والتخاتل : التخادع .

ولا ابْتَسته عليكم ؛ أى جعلته مشتبها ملتبسا ، ألبستُ عليهم الأمر ألبسه بالكسر .

والملأ : الجماعة من الناس . والصَّمْد : القصد .

قال : سبق شرطُنا سوء رأيهما ، لأنا اشترطنا عليهما فى كتاب الحكومة مالامضرّة علينا ؛ مع تأمّله فيما فعلاه من اتّباع الهوى وترك النصيحة للمسلمين .

(١٢٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة :

يا أَحْنَفُ ، كَأَنِّى بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِى لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ ، وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ ، وَلَا حَمْحَمَةُ خَيْلٍ ، يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ .

ـ قال الشريف الرضىّ أبو الحسن رحمه الله تعالى : يُومِىءُ بِذَلِكَ إلى صاحِبِ الزَّنْجِ ـ

* * *

ثم قال عليه السلام :

وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ ، الَّتِى لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ ؛ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ .

أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا ، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا ، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا !

* * *

الشرح :

اللّجَب : الصوت . والدُّور المزخرفة : المزيّنة المموّهة بالزُّخرف ، وهو الذهب . وأجنحة الدور التى شبّهها بأجنحة النسور : رواشينها . والخراطيم : ميازيبها .

وقوله : « لا يندب قتيلُهم » : ليس يريد به مَنْ يقتلونه ، بل القتيل منهم؛ وذلك لأنّ أكثرَ الزّنج الذين أشار إليهم ؛ كانوا عبيد الدهاقين البصرة وبنائها ، ولم يكونوا ذوى زوجات وأولاد ، بل كانوا على هيئة الشطّار عُزّابا فلَا نادبةَ لهم .

وقوله : « ولا يفقد غائبهم » يريد به كثرتهم وأنّهم كلما قتِل منهم قتيل سدّ مسدّه غيره ، فلا يظهر أثر فقده .

وقوله : « أنا كابّ الدنيا لوجهها » ، مثل الكلمات المحكيّة عن عيسى عليه السلام : أنا الذى كببت الدنيا على وجهها ، ليس لى زوجة تموت ، ولا بيت يخرب . وسادِى الحجَر وفراشى المدَر ، وسراجى القمر .

* * *

[أخبار صاحب الزّنج وفتنته وما انتحله من عقائد]

فأما صاحب الزّنج[(١)] هذا فإنه ظهر فى فُرات البصرة فى سنة خمس وخمسين ومائتين رجل زعم أنّه علىّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فتبعه الزّنج الذين كانوا يكسَحون[(٢)] السّباخ فى البصرة .

وأكثرُ الناس يقدحون فى نسبه وخصوصا الطالبيين.. وجمهور النسّابين اتفقوا على

---

(١) ذكره صاحب الأعلام فقال : « على بن محمد الورزنينى العلوى ، الملقب بصاحب الزنج ؛ من كبار أصحاب الفتن فى العهد العباسى ، وفتنته معروفة بفتنة الزنج ؛ لأن أكثر أنصاره منهم . ولد ونشا فى ورزنين ، إحدى قرى الرى ، وظهر فى أيام المهتدى بالله العباسى ، سنة ٢٥٥ هـ ، وكان يرى رأى الأزارقة ، والتف حوله سودان أهل البصرة ورعاعها ، فامتلكها واستولى على الأبلة ، وتتابعت لقتاله الجيوش ؛ فكان يظهر عليها ويشتتها ؛ ونزل البطائح ، وامتلك الأهواز ، وأغار على واسط ، وبلغ عدد جيشه ثمانمائة ألف مقاتل ، وجعل مقامه فى قصر اتخذه بالمختارة ، وعجز عن قتاله الخلفاء ؛ حتى ظفر به الموفق بالله ، فقتله ، وبعث برأسه إلى بغداد . قال المرزبانى : تروى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك كان يقولها وينحلها غيره ، وفى نسبه العلوى طعن وخلاف .

(٢) كسح البيت : كنسه ؛ ثم استعير لتنقية البئر والنهر وغيره .

أنّه من عبد القيس ، وأنّه علىّ بن محمد بن عبد الرحيم ، وأمّه أسديّة من أسد بن خزيمة ، جدّها محمد بن حكيم الأسدىّ ، من أهل الكوفة ، أحد الخارجين مع زيد بن علىّ ابن الحسين عليه السلام عَلَى هشام بن عبد الملك ، فلما قتِل زيد ، هرب فلحق بالرّىّ وجاء إلى القرية التى يقال لها وَرْزَنِين ، فأقام بها مدّة ، وبهذه القرية ولد علىّ بن محمد صاحب الزّنج ، وبها منشؤه ، وكان أبو أبيه المسمّى عبد الرحيم رجلاً من عبد القيس ، كان مولده بِالطالِقان ، فقدِم العراق ، واشترى جارية سِنْديّة ، فأولدها محمدا أباه .

وكان علىّ هذا متّصلا بجماعة من حاشية السلطان وخَوَل بنى العباس ، منهم غانم الشّطرنجىّ ، وسعيد الصغير ، وبشير[1] ، خادم المنتصر ؛ وكان منهم معاشُه ومن قوم من كتّاب الدولة يمدحهم ويستمنحهم بشعره ، ويعلّم الصبيان الخطّ والنّحو والنجوم ، وكان حسن الشعر[2] مطبوعا عليه ؛ فصيحَ اللهجة ؛ بعيد الهمة ، تسمو نفسه إلى معالى الأمور ، ولا يجد إليها سبيلاً ؛ ومن شعره القصيدة المشهورة التى أولها :

---

(١) الطبرى : « بشر » .

(٢) وذكره المرزبانى فى معجم الشعراء ٢٩ ، وقال : تروى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك ؛ سمعت ابن دريد يذكر أنها ـ أو أكثرها ـ له ؛ لأنه كان يقولها وينحلها لغيره ، وقرئت عليه بحضرتى فاعترف بها . قال : وفيما يروى لعلى لما هرب من الدار التى كان فيها فى اليوم الذى قتل فيه :

عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ يَاخَيْرَ منزِلٍ ... خَرَجْنَا وَخَلَّفْنَاهُ غيرَ ذَمِيم

فإنْ تكُنِ الأيَّامُ أَحْدَثْنَ فرقَةً ... فمَنْ ذَا الَّذِى مِنْ رَيْبِهِنَّ سَلِيمُ

وله :

لَهْفَ نَفْسِى عَلَى قُصُورٍ ببغـدا ... دَ ، وَمَا قَدْ حَوَتْهُ كُلُّ عَاصِ

وَخُمُورٍ هُنَاكَ تُشْرَبُ جَهْراً ... ورِجَالٍ عَلَى المعاصِى حِراصِ

لستُ بابنِ الفَواطِمِ الغُرّ إنْ لمْ ... أجلِ الخَيْلَ حَوْلَ تلكَ العِراصِ

رأيتُ المقـــامَ على الاقتصادِ   قُنوعًا بهِ ذلّةً في العِبادِ

ومن جملتها :

إذا النّار ضاقَ بهاَ زَنْدُهاَ   ففسحتُهـــا في فِراق الزّنادِ
إذا صارمٌ قرَّ في غِمْـــدِهِ   حَوَى غيرُهُ السَّبْقَ يوم الجلادِ

ومن الشعر المنسوب إليه :

وإنّا لتصبحُ أسيافنَا   إذا ما انتضين ليومٍ سَفُوكِ
منابرهنّ بطونُ الأكُفّ   وأغمادهُنّ رءوسُ المـــلوكِ

ومن شعره فى الغزل :

ولمّا تبينت المنـــازل بالحمى   ولم أقضِ منهاَ حاجـة المتورّدِ
زفرت إليهـا زفرةً لو حشوتُها   سرابيل أبدانِ الحـديد المسرّدِ (١)
لرقّت حواشِيها ، وظلّت متونُها   تَلين كما لانَتْ لداود فى اليد

ومن شعره أيضا :

وإذا تُنازعنى أقولُ لهـا قرِى   موتٌ يريحُـك أو صعود المنبرِ
ماقد قُضِى سيكونُ فاصطبرى له   ولك الأمان مِنَ الّذِى لم يقدر

* * *

وقد ذكرالمسعودىّ فى كتابهالمسمى "مروج الذهب"، أنّأفعالعلىّ بن محمد صاحب الزّنج ، تدلّ على أنّه لم يكن طالبيًّا،وتصدّق مارُمى به من دعوته فى النسب؛لأنّ ظاهر حاله كان ذَهابه إلى مذهب الأزارقة ، فى قتل النساء والأطفال والشيخ الفانى والمريض ،

---

(١) البدن : الدرع القصيرة ؛ وجمعه أبدان .

وقد روى أنه خطب مرّة ، فقال فى أول خطبته : « لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر لا حُكم إلا لله » ، وكان يرى الذنوب كلّها شِركا [١] .

ومن الناس من يطعن فى دينه ويرميه بالزّندقة والإلحاد ؛ وهذا هو الظاهر من أمره ، لأنه كان متشاغلا فى بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرلابات .

* * *

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى [٢] ، أن علىّ بن محمد شَخَص من سامُرّاء وكان يعلّم الصبيان بها ، ويمدح الكتّاب ، ويستميح الناس ، فى سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادّعى بها أنّه علىّ بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، ودعا النّاس بهجَر إلى طاعته ، فاتّبعه جماعة كثيرة من أهلها ، واتّبعه [٣] جماعة أخرى ؛ فكانت بسببه بين الذين اتّبعوه والذين أبوْه عصبيّة ، قتل فيها بينهم جماعة ، فانتقل عنهم لمّا حدث ذلك إلى الأحساء ، وضَوَى [٤] إلى حىّ من بنى تميم ، ثم من بنى سعد يقال لهم بنو الشّماس ، فكان بينهم مقامه ؛ وقد كان أهل البحرين أحلّوه من أنفسهم محلّ النبىّ صلى الله عليه وآله ـ فيما ذكر ـ حتى جُبِىَ له الخراج هنالك ، ونفذ حُكْمُه فيهم ، وقاتلوا أسبابَ السلطان لأجله ، ووتَرَ منهم جماعةً كثيرة ، فتنكّروا له ، فتحوّل عنهم إلى البادية . ولما انتقل إلى البادية صحبَه جماعة من أهل البحرين ، منهم رجل كيّال من أهل الأحساء ، يقال له يحيى بن محمد الأزرق ، مولَى بنى دارم ، ويحيى بن أبى

---

(١) مروج الذهب ٤ : ١٩٤ ، ١٩٥
(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ١٧٤٣ وما بعدها (طبع أوربا) .
(٣) فى الطبرى : « وأبته جماعة أخر » .
(٤) ضوى : التجأ وانضم .

ثعلب ، وكان تاجراً من أهل هَجَر ، وبعض موالِي بنى حنظلة أسود يقال له سليمان ابن جامع ، وكان قائد جيشه حيث كان بالبحرين .

ثم تنقّل فى البادية من حىّ إلى حىّ ، فذكر عنه أنه كان يقول : أوتيتُ فى تلك الأيام آياتٍ من آياتِ إمامتى،منها أنى لقِّيت سوراً من القرآن لم أكن أحفظها، فجرى بها لسانى فى ساعة واحدة؛منها «سبحان» و «الكهف» و «صاد» ، ومنها أنى ألقيتُ نفسى على فراشى،وجعلت أفكّر فى الموضع الذى أقصِد له،وأجعل مُقامى به إذا نبت البادية بى. وضقْتُ ذَرْعاً بسوء طاعة أهلها،فأظلّتْنى سحابة، فبرقت ورعدت،واتّصل صوتُ الرعد منها بسمعى ، فخوطبت فقيل لى:اقصِد البصرة ؛ فقلت لأصحابى وهم يكتنفوننى:إنى أُمِرْت بصوت من هذا الرعد بالمصير إلى البصرة .

وذكر عنه أنّه عند مصيره إلى البادية أوْهَم أهلَها أنه يحيى بن عمر أبو الحسين (١) المقتول بناحية الكوفة فى أيام المستعين ، فاختدَع بذلك قوماً منهم ، حتى اجتمع عليه منهم جماعة،فزحف بهمْ إلى موضع من البحرين،يقال له الرّدْم،فكانت بينه وبين أهله وقعة عظيمة، كانت الدَّبْرَة (٢) فيها عليه وعلى أصحابه، قتِلوا فيها قتلاً ذريعا ، فتفرّقت عنه العرب وكرهته ، وتجنّبتْ صحبتَه .

فلما تفرّقت العرب عنه ونبتْ به البادية ، شخص عنها إلى البصرة ، فنزل بها فى بنى ضُبَيعة ، فاتّبعه بها جماعة ، منهم علىّ بن أبان المعروف بالمهلبىّ ، من ولد المهلّب بن أبى صُفْرة ، وأخواه محمد والخليل وغيرهم ؛ وكان قدومه البصرة فى سنة أربع وخمسين ومائتين

---

(١) هو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، خرج فى أيام المتوكل ، وقتل فى أيام المستعين سنة ٢٥٠ ، ورثاه الشعراء . قال أبو الفرج : وما بلغنى أن أحداً ممن قتل فى الدولة العباسية من آل أبى طالب رثى بأكثر مما رثى به يحيى ، ولا قيل فيه الشعر بأكثر مما قيل فيه . وانظر أخباره فى مقاتل الطالبيين ٦٣٩ ـ ٦٦٤

(٢) فى الطبرى : « الدائرة » ، وهما بمعنى .

وعاملُ السلطان بها يومئذ محمد بن رجاء، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبلالية والسّعدية، فطمع فى أحد الفريقين أن يميلَ إليه ، فأرسل أربعةً من أصحابه يَدْعُون إليه ؛ وهم محمد ابن سَلْم القصّاب الهجَرى ّ وبُرَيش القُرَيعىّ وعلىّ الضرّاب ، والحسين الصيدنانىّ ، وهم الذين كانوا صحِبوه بالبحرين ، فلم يستجب لهم أحد من أهل البلد ، وثار عليهم الجند ، فتفرّقوا ، وخرج علىّ بن محمد من البصرة هاربًا ، وطلبه ابنُ رجاء فلم يقدر عليه . وأخبر ابنُ رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه ، فأخذهم فحبسهم ، وحبس معهم زوجة علىّ ابن محمد ، وابنه الأكبر ، وجارية له كانت حاملا ؛ ومضى علىّ بن محمد لوجهه يريد بغداد ومعه قوم من خاصّته ؛ منهم محمد بن سلْم ، ويحيى بن محمد ، وسليمان بن جامع ، وبُريش القُريعىّ ، فلما صاروا بالبطيحة ، نذِر بهم بعضُ موالى الباهليّين ، كان يلى أمر البَطيحة ، فأخذهم وحملهم إلى محمد بن أبى عوْن وهو عامل السلطان بواسط ، فاحتال لابن أبى عوْن حتى تخلّص هو وأصحابه من يده ؛ ثم صار إلى بغداد فأقام بها سنة ، وانتسب فى هذه السنة إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد ؛ وكان يزعم أنه ظهر له أيّام مقامه ببغداد فى هذه السنة آيات ، وعرف ما فى ضمائر أصحابه وما يفعله كلّ واحد منهم ، وأنه سأل ربّه أن يعلِمه حقيقة أمور كانت فى نفسه ، فرأى كتابا يكتَب له على حائط ، ولا يرى شخص كاتبه .

* * *

قال أبو جعفر : واستمال ببغداد جماعة، منهم جعفر بن محمد الصُّوحانىّ ، من ولد زيد ابن صُوحان العبدىّ ، ومحمد بن القاسم، وغلامان لبنى خاقان[1] ؛ وهما مُشرق ورفيق، فسمّى مشرقا حمزة وكنّاه أبا أحمد ، وسمى رفيقا جعفرا وكنّاه أبا الفضل ؛ فلما انقضى عامه ذلك ببغداد ، عُزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثبتْ رؤساء الفتنة بها من البلاليّة والسّعدية،

(١) الطبرى : « وغلاما يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان » .

ففتحوا المحابس، وأطلقوا مَنْ كان فيها ، فتخلّص أهله وولده فيمن تخلّص ، فلمّا بلغه ذلك شخص عن بغداد ، فكان رجوعه إلى البصرة فى شهر رمضان من سنة خمس وخمسين ومائتين؛ ومعه علىّ بن أبان المهلبىّ ، وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام مشرق ورفيق ، وأربعة أخر من خواصّه ؛ وهم يحيى بن محمد ، ومحمد بن سلم ، وسليمان بن جامع ، وأبو يعقوب المعروف بجربان ؛ فساروا جميعا حتى نزلوا بالموضع المعروف ببرنخل من أرض البصرة فى قصر هنالك يعرف بقصر القرشىّ على نهر يعرف بعمود ابن المنجم ؛ كان بنو موسى بن المنجّم احتفروه ، وأظهر أنه وكيل لولد الواثق فى بيع ما يملكونه هنالك من السِّباخ .

قال أبو جعفر : فذكر عن ريحان بن صالح ، أحد غلمان الشّورجيّين الزّنوج ، وهو أوّل مَنْ صحبه منهم ، قال : كنت موكّلا بغلمان مولاى ، أنقل الدقيق إليهم ، فمررت به وهو مقيم بقصر القرشىّ يظهر الوكالة لأولاد الواثق ، فأخذنى أصحابه وصاروا بى إليه ، وأمرونى بالتسليم عليه بالإمرة ، ففعلت ذلك ، فسألنى عن الموضع الذى جئت منه ، فأخبرته أنى أقبلت من البصرة ، فقال : هل سمعت لنا بالبصرة خبرا ؟ قلت : لا ، قال : فخبر البلالية والسّعدية ؟ قلت : لم أسمع لهم خبراً ، فسألنى عن غلمان الشورجيّين وما يجرى لكلّ جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر ، وعمّن يعمل فى الشّورج من الأحرار والعبيد ؛ فأعلمتُه ذلك ، فدعانى إلى ما هو عليه ، فأجبتهُ فقال لى : احتَل فيمن قدرتَ عليه من الغلمان ، فأقبلْ بهم إلىّ . ووعدنى أن يقوّدنى على من آتيه به منهم ، وأن يحسن إلىّ ، واستحلفنى ألّا أعلِم أحداً بموضعه ، وأن أرجع إليه . فخلّى سبيلى ، فأتيتُ بالدقيق الذى معى إلى غلمان مولاى ، وأخبرتهم خبره ، وأخذت له البيعة عليهم ، ووعدتهم عنه بالإحسان والغنى ، ورجعت إليه من غد ذلك اليوم ، وقد وافاه رفيق غلام الخاقانية[1]

---

(١) فى الطبرى : « غلام يحيى بن عبد الرحمن » .

وقد كان وجّهه إلى البصرة [١]، يدعو إليه غلمان الشُورج ، ووافى إليه صاحب له آخر يعرف بشبل بن سالم [٢] ، قد كان دعا إليه قوما منهم أيضا [٢]، وأحضر معه حريرة كان أمره بابتياعها ، ليتخذها لواء ، فكتب فيها بالحمرة [٣] : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . [٤] ﴾ الآية، وكتب اسمه واسم أبيه عليها ، وعلّقها فى رأس مُرْدِيّ [٥] ، وخرج وقت السّحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان؛ فلما صار إلى مؤخّر القصر الذى كان فيه ، لقيه غلمان رجل من الشورجيين، يعرف بالعطار [متوجهين إلى أعمالهم] [٦]، فأمر بأخذ وكيلهم، فأخذ وكُتّف ، واستضم غلمانه إلى غلمانه ، وكانوا خمسين غلاما ، ثم صار إلى الموضع المعروف بالسّنائيّ فاتّبعه الغلمان الذين كانوا فيه ، وهم خمسمائة غلام فيهم الغلام المعروف بأبى حُديد ،وأمر بأخذ وكيلهم ، وكتّفه ثم مضى إلى الموضع المعروف بالسيرافيّ ، فاتّبعه مَنْ كان فيه من غلمان ، وهم مائة وخمسون غلاما ، منهم زُرَيق وأبو الخنجر، ثم صار إلى الموضع المعروف بسَبَخة ابن عطاء، فأخذ طريفا ، وصبيحا الأعسر، وراشدا المغربيّ ، وراشدا القرمطيّ [٧]؛ وكلّ هؤلاء من وجوه الزّنج وأعيانهم الذين صاروا قوّادا وأمراء فى جيوشهم ،وأخذ معهم ثمانين غلاما .

ثم أتى إلى الموضع المعروف بغلام سَنهل الطّحّان، فاستضافَ مَنْ كان به من الغلمان ؛ ثم لم يزل يفعل مثل ذلك فى يومه حتى اجتمع إليه بشر كثير من الزّنج ،ثم قام فيهم

---

(١) الطبرى : « فى حوائج من حوائجه » .
(٢ ـ ٢) الطبرى : « وكان من غلمان الدباسين » .
(٣) الطبرى : « بحمرة وخضرة » .
(٤) سورة التوبة ١١١ .
(٥) المردى : خشبة تدفع بها السفينة .
(٦) من الطبرى .
(٧) الطبرى . « القرماطى » .

آخرَ الليل خطيبا ، فمنّاهم ووعَدهم أن يقوّدهم ويرئّسهم ويملّكهم الأموال والضّياع ، وحلف لهم بالأيمان الغليظة ألّا يغدرَ بهم ، ولا يخذُلَهم ، ولا يدعَ شيئا من الإحسان إلّا أتى إليهم .

ثم دعا وكلاءهم ، فقال : قد أردتُ ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وكلّفتموهم مالا يطيقونه ، فكلّمنى أصحابى فيكم ، فرأيت إطلاقكم .

فقالوا له : أصلحك الله ! إنّ هؤلاء الغلمان أُبّاق[1] ، وإنهم سيهربون منك فلا يُبقُون عليك ولا علينا ، فخذ من مواليهم مالًا ، وأطلِقهم .

فأمرَ الغلمان فأحضَروا شطوبا[2] ، ثم بطح كلَّ قوم وكيلَهم ، فضرَب كلّ رجلٍ منهم خمسمائة شطبة ، [وأحلفهم بطلاق نسائهم ألّا يعلموا أحداً بموضعه][3] ، ثم أطلقهم ، فمضوا نحو البصرة ومضى رجل منهم حتى عَبَر دُجَيل الأهواز ، فأنذر الشُّورجيين ليحفظوا غِلْمانهم ، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام زنجىّ[4] ، ثم سار ، وعَبَر دُجَيْلا ، وسار إلى نهر ميمون بأصحابه ، واجتمع إليه السُّودان من كلّ جهة .

فلما كان يوم الفطر ، جمعهم وخطب خطبة ذكَر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وأنّ الله تعالى قد استنقذهم من ذلك ، وأنه يريد أن يرفَع أقدارَهم ، ويملّكهم العبيدَ والأموال والمنازل ، ويبلُغَ بهم أعلَى الأمور ، ثم حلف لهم على ذلك . فلما فرغَ من خطبته

---

(١) أبّاق : هاربون .

(٢) الشطوب : جريد النخل المجفف .

(٣) من الطبرى .

(٤) فى الطبرى : « يقال له عبد الله ، ويعرف بكريخا » .

أمرَ الّذِين فهموا عنه قوله أن يُفهِمُوه مَنْ لَا فهمَ له من عَجَمهم ، لتطيبَ بذلك أنفسهم، ففعلوا ذلك .

* * *

قال أبو جعفر : فلمّا كان فى اليوم الثالث من شوال،وافاه الحِميرىّ أحد عمال السلطان بتلك النواحى ، فى عدد كثير، فخرج إليه صاحب الزّنج فى أصحابه،فطرده وهزم أصحابَه، حتى صاروا فى بطن دجْلة ، واستأمن إلى صاحب الزّنج رجل من رؤساء السودان،يعرف بأبى صالح القصير فى ثلاثمائة من الزنج ، فلما كثر من اجتمع إليه من الزّنج قوّد قواده ، وقال لهم : مَنْ أتى منكم برجلٍ من السودان فهو مضموم إليه .

قال أبو جعفر : وانتهى إليه أن قوماً من أعوان السلطان هناك ، منهم خليفة بن أبى عون على الأُبُلّة ، ومنهم الحِميرىّ قد أقبلوا نحوه ، فأمر أصحابه بالاستعداد لهم، فاجتمعوا للحرب،وليس فى عسكره يومئذ إلا ثلاثةُ أسياف : سيفه ، وسيف علىّ بن أبان،وسيف محمد بن سلْم ، ولحق القوم،ونادى الزّنج ، فبدر مُفَرّج النوبىّ والمكنىّ بأبى صالح،وريحان ابن صالح ، وفتح الحجام ؛ وقد كان فتح حينئذ يأكل وبين يديه طبق،فلما نهض تناول ذلك الطبق ، وتقدم أمام أصحابه ، فلقيه رجل من عسكر أصحاب السلطان،فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذى كان فى يده ، فرمى الرجل(١) سلاحَه ، وولّى هاربا،وانهزم القوم كلّهم ، وكانوا أربعة آلاف ، فذهبوا على وجوههم ، وقُتِل مَنْ قتل منهم ، ومات بعضُهم عطشا ، وأُسِرَ كثير منهم ، فأتى بهم صاحب الزّنج ، فأمر بضرب أعناقهم ، فضربت ، وحملت الرءوس على بغال كان أخذها من الشورجيّين ، كانت تنقل الشُّورَج .

* * *

---

(١) الطبرى : « فرمى ببلبل » .

قال أبو جعفر: ومرّ فى طريقه بالقرية المعروفة بالحمدية[١] فخرج منها رجلٌ من موالى الهاشميّين ، فحمل على بعض السودان فقتله ، ودخل القرية ، فقال له أصحابه : ائذنْ لنا فى انتهاب القرية وطلب قاتل صاحبنا ، فقال : لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند أهلها[٢] ، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ، ونسائلهم أن يدفعوه إلينا ، فإنْ فعلوا وإلّا حلّ[٣] لنا قتالهم ، وعجّل المسير من القرية ، فتركها وسار[٤] .

قال أبو جعفر : ثم مرّ على القرية المعروفة بالكرخ ، فأتاه كبراؤها ، وأقاموا له الأنزال[٥] ، وبات ليلته تلك عندهم ، فلمّا أصبح أهدى له رجلٌ من أهل القرية المسمّاة جُبّى فرسا كميتا ، فلم يجد سرجا ولا لجاما ، فركبه بحبل وسنفه[٦] بحبل ليف .

* * *

قلت : هذا تصديق قول أمير المؤمنين عليه السلام: «كأنه به قد سار فى الجيش الذى ليس لهُ غبار ولا لجب، ولا قعقعة لجم ، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدامُ النعام » .

* * *

قال أبو جعفر : وأوّل مالٍ صار إليه مائتا دينار وألف درهم ، لما نزل القرية المعروفة بالجعفرية ، أحضر بعض رؤسائها ، وسأله عن المال فجحَد ، فأمر بضرْب عنقِه، فلما خاف

(١) فى الطبرى : « ومضى حتى وافى القادسية » .
(٢) الطبرى : « القوم » .
(٣) الطبرى : « وإلا ساغ » .
(٤) الطبرى : « وأعجلهم عن المسير ، فصاروا إلى نهر ميمون راجعين ، فأقام فى المسجد الذى كان أقام فيه . فى بدأته ، وأمر بالرءوس المحمولة معه ، وأمر بالأذان أبا صالح النوبى فأذن وسلم عليه بالإمرة ، فأقام فصلى بأصحابه العشاء الآخرة ، وبات ليلته بها ، ثم مضى من الغد حتى مر بالكرخ . . . » .
(٥) الأنزال : جمع نزل ، وهو ما هيىء للضيف أن ينزل عليه .
(٦) سنفه : شده بالسناف ؛ وهو حبل يشد على رقبة البعير .

أحضر له هذا القدر ، وأحضر له ثلاثةَ براذين : كميتاً وأشقرَ وأشهبَ ، فدفع أحدَها إلى محمد بن سلم ، والآخر إلى يحيى بن محمد ، والآخر إلى مشرق غلام الخاقانية . ووجدوا فى دار لبعض الهاشميين سلاحاً فانتهبوه ، فصار ذلك اليوم بأيدى بعض الزنج سيوف وآلات وأتراس .

قال أبو جعفر : ثم كانتْ بينه وبين مَنْ يليه من أعوان السلطان ، كالحيرىّ ، ورُميس وعقيل وغيرهم وقعات ، كان الظفر فيها كلّها له ، وكان يأمر بقتل الأسرى ، ويجمع الرءوس معه ، وينقلها من منزل إلى منزل ، وينصبها أمامه إذا نزل ، وأوقعَ الهيبة والرّهبةَ فى صدور الناس بكثرة القتلى ، وقلة العفو ، وعلى الخصوص المأسورين ، فإنه كان يضرب أعناقَهم ولا يستبقى منهم أحدا .

قال أبو جعفر : ثم كان له مع أهل البصرة وقعة بعد ذلك سار يريدها فى ستة آلاف زنجىّ ، فاتّبعه أهل الناحية المعروفة بالجعفرية ليحاربوه ، فعسكر عليهم ، فقتلَ منهم مقتلةً عظيمة ، أكثر من خمسمائة رجل ؛ فلما فرغ منهم صمد نحو البصرة ، واجتمع أهلها ومَنْ بها من الجند ، وحاربوه حرباً شديداً ، فكانت الدائرة عليه ، وانهزم أصحابه ، ووقع كثير منهم فى النّهرين المعروفين بنهر كثير ونهر شيطان ، وجعل يهتف بهم ويردّهم ولا يرجعون ، وغرق مِنْ أعيان جنده وقوّاده جماعة ؛ منهم أبو الجون ، ومبارك البحرانىّ ، وعطاء البربرىّ ، وسلّام الشامى ، فلحقه قوم من جند البصرة ، وهو على قنطرة نهر كثير فرجع إليهم بنفسه ، وسيفُه فى يده ، فرجموا عنه ؛ حتى صاروا إلى الأرض وهو يومئذ فى دُرّاعة[1] وعمامة ونعل وسيف ، وفى يده اليسرى ترس ، ونزل عن القنطرة ، فصعدها البصريون يطلبونه ، فرجع إليهم ، فقتل منهم رجلا بيده على خمس مراقٍ من القنطرة ، وجعل يهتف بأصحابه ، ويعرّفهم مكانه ، ولم يكن بقى معه فى ذلك الموضع من أصحابه

(١) الدراعة : جبة مشقوقة من المقدم ، وهو ضرب من الثياب .

إلا أبو الشوك ومصلح ورفيق ومشرق غلاما الخاقانية ، وضلّ أصحابُه عنه ، وانحلّتْ عمامته ، فبقى على رأسه كَور[1] منها أو كَوران ، فجعل يسحبها من ورائه ، ويعجله المشى عن رفعها، وأسرع غلاما الخاقانية فى الانصراف،وقصّر عنهما فغابا عنه،فاتّبعه رجلان من أهل البصرة بسيفيهما ، فرجع إليهما ، فانصرفا عنه ، وخرج إلى الموضع الذى فيه مجمع أصحابه ، وقد كانوا تحيّروا ، فلما رأوه سكنوا .

* * *

قال أبو جعفر : ثم سأل عن رجاله وإذا قد هرب كثير منهم ، ونظر فإذا هو مِنْ جميع أصحابه فى مقدار خمسمائة رجل ، فأمر بالنفخ فى البوق الذى كانوا يجتمعون لصوته ، فنفخ فيه فلم يرجع إليه أحد .

قال : وانتهب أهلُ البصرة سفنا كانت معه ، وظفروا بمتاع من متاعه ، وكتب من كتبه واصطرلابات كان معه ، ثم تلاحق به جماعة ممن كان هرب ، فأصبح وإذا معه ألف رجل . فأرسل محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد إلى أهل البصرة يعظهم ويعلمهم أنّه لم يخرج إلّا غضبا لله وللدين ، ونهيا عن المنكر ، فعبر محمد بن سلم حتى توسّط أهل البصرة ، وجعل يكلّمهم ويخاطبهم ، فرأوا منه غِرّة ، فوثبوا عليه فقتلوه ،ورجع سليمان ويحيى إلى صاحب الزّنج ، فأخبراه، فأمرهما بطىّ ذلك عن أصحابه؛ حتى يكون هو الذى يخبرهم .

فلما صلى بهم العصر ، نعى إليهم محمد بن سلم ، وقال لهم : إنكم تقتلُون به فى غدٍ عشرة آلاف من أهل البصرة .

قال أبو جعفر : وكان الوقعة التى كانت الدّبرة عليه فيها يوم الأحد لثلاث عشرة

---

(١) كور العمامة : يريد كل دائرة من العمامة ، وكل دور منها كور . (اللسان) .

ليلة خلون من ذى القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلما كان يوم الاثنين جمع له أهل البصرة وحشدوا لما رأوا من ظهورهم عليه يوم الأحد ، وانتدب لذلك رجلٌ من أهل البصرة يعرف بحمّاد الساجىّ،وكان من غزاة البحر فى الشّذا[1] ، وله علم بركوبها،والحرب فيها ، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خَفّ معه من حزبى البلالية والسعدية ، ومن غير هذه الأصناف من الهاشميّين والقرشيّين ومن يحبّ النظر ومشاهدة الحرب من سائر أصناف الناس، وشحنَ ثلاثة مراكب من الشّذا [1] بالرماة، وجعل الناس يزدحمون فى الشّذا حِرْصاً على حضور ذلك المشهد ، ومضى جمهورُ الناس رَجّالة،منهم من معه سلاح ومنهم من لاسلاحَ معه بل نظّارة،فدخلت السفن النهر المعروف بأمّ حبيب بعد زوال الشمس من ذلك اليوم فى المدّ،ومرّت الرجالة والنظارة على شاطئ النهر ، قد سدُّوا ماينفذ فيه البصر كثرةً وتكاثفا ، فوجّه صاحب الزنج صاحبه زُرَيقا وأبا الليث الأصبهانىّ ، فجعلهم كمينا من الجانب الشرقىّ من نهر شيطان ، وكان مقيماً بموضع منه ، ووجّه صاحبيْه شبلا وحسينا الحمامىّ ، فجعلهما كمينا فى غربيّه ، ومع كلّ من الكمينين جماعة ، وأمر علىّ بن أبان المهلبى أن يتلقّى القوم فيمنْ بقى معه مِنْ جمعه ، وأمره أن يستتر هو وأصحابه بتراسهم ، ولا يثور إليهم منه ثائر ، حتى يوافيَهم القوم ويخالطوهم بأسيافهم ، فإذا فعلوا ذلك ثاروا إليهم وتقدّم إلى الكمينيْن إذا جاوزهما الجمع، وأحسّا بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجا من جنبى النهر ، ويصيحا بالناس .

وكان يقول لأصحابه بعد ذلك : لمّا أقبل إلىّ جمعُ البصرة وعاينتُه ، رأيت أمرا هائلا راعنى،وملأ صدرى رهبةً وجزعا ، ففزعت إلى الدعاء ، وليس معى من أصحابى إلا نفر يسير ، منهم مصلح، وليس منّا أحد إلا وقد خُيّل إليه مصرعه،فجعل مصلح يعجّبنى من

(١) الشذا : ضرب من السفن ، الواحدة شذاة ، قال صاحب التهذيب : هذا معروف ، لكنه ليس بعربى (اللسان) .

كثرة ذلك الجمع ، وجعلت أومئ إليه أن اسكت (١) ، فلما قرب القوم منى قلت : اللهمّ إن هذه ساعة العُسْرة ، فأعنى ، فرأيت طيوراً بيضا أقبلتْ فتلقّت ذلك الجمع ، فلم أستتم دعائى حتى بصرت بسُمَيْرِيّة (٢) من سفنهم قد انقلبتْ بمن فيها ، ففرقوا ، ثم تلتها الشذا فغرقت واحدة بعد واحدة ، وثار أصحابى إلى القوم ، وخرج الكميْنان من جنبى النهر ، وصاحوا وخبطوا الناس ، فغرقَتْ طائفة ، وقتلت طائفة ،وهربت طائفة نحو الشّط طمعا ، فأدركها السيف ، فمن ثبت قتل ، ومن رجع إلى الماء غرق ؛ حتى أبيد أكثرُ ذلك الجمع ، ولم ينج منهم إلّا الشريد ، وكثر المفقودون بالبصرة ، وعلا العويل من نسائهم .

* * *

قال أبو جعفر : وهذا يوم الشّذا الذى ذكره الناس فى أشعارهم ، وعظّموا ما فيه من القتل ، فكان ممن قتل من بنى هاشم ، جماعة من ولد جعفر بن سليمان (٣) وانصرف صاحب الزّنج (٤) وجمع الرءوس وملأ بها سفنا، وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب فى الجزر وأطلقها ، فوافت البصرة ، فوقفت فى مشرعة تعرف بمشرعة القيّار ، فجعل الناس يأتون تلك الرءوس،فيأخذ رأسَ كلّ رجل أولياؤه،وقوى صاحب الزنج بعد هذا اليوم، وسكن الرّعبُ قلوبَ أهلِ البصرة منه؛وأمسكوا عن حربه ، وكتب إلى السلطان بخبره، فوجّه جُعْلان التركىّ مددا لأهل البصرة ، فى جيش ذوى عدّة وأسلحة (٥) .

---

(١) الطبرى : « أن يمسك » .
(٢) السميريه على التصغير : ضرب من السفن (اللسان) .
(٣) بعدها فى الطبرى : « وأربعون رجلا من الرماة المشهورين فى خلق كثير لا يحصى عددهم » .
(٤) فى الطبرى : « وانصرف الخبيث وجمعت له الرءوس » .
(٥) فى الطبرى : « وأمر أبا الأحوص الباهلى بالمصير إلى الأبلة واليا ، وأمده برجل من الأتراك يقال له جريج » .

قال أبو جعفر : وقال أصحاب عليّ بن محمد له[١] : إنّا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة ، ولم يبق فيها إلا ضعفاؤهم ، ومَنْ لا حَراك به ، فأذنْ لنا فى تقحّمها، فنهاهم[٢] وهجّن آراءهم وقال : بل نبعد عنها ، فقد رعبناهم وأخفناهم ، ولنقتحمها وقتا آخر ، وانصرف بأصحابه إلى سَبَخة فى آخر أنهار البصرة ، تعرف بسبخة[٣] أبى قُرّة ، قريبة من النهر المعروف بالحاجر فأقام هناك ، وأمر أصحابَه باتّخاذ الأكواخ ، وهذه السَّبَخة متوسطة النّخل والقرى والعمارات ، وبثّ أصحابَه يمينا وشمالا ، يعيثون ويُغيرون على القرى ، ويقتلون الأكرة ، وينهبون أموالهم ، ويسرقون مواشيهم[٤] .

* * *

وجاءه شخص من أهل الكتاب من اليهود ، يعرف بمارويه ، فقبّل يدَه وسجَد له ، وسأله عن مسائل كثيرة ، فأجابه عنها ، فزعم اليهوديّ أنه يجد صفتَه فى التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله عن علامات فى يده وجسده ذكر أنها مذكورة فى الكتب ؛ فأقام معه .

* * *

قال أبو جعفر : ولما صار جعْلان التركى إلى البصرة بعسكره ، أقام ستة أشهر يحارب صاحب الزّنج ، فإذا التقوا لم يكن بينهم إلا الرمى بالحجارة والنُّشّاب ، ولم يجد جعلان إلى لقائه سبيلا ، لضيق الموضع بما فيه من النخل والدّغَل[٥] عن مجال الخيل ،

---

(١) فى الطبرى : « فزعم الخبيث أن أصحابه قالوا له بعقب هذه الوقعة : إنا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة . . . » .

(٢) فى الطبرى : « فزبرهم » .

(٣) فى الطبرى عن شبل : « هى سبخة أبى قرة ، موقعها بين النهرين : نهر أبى قرة ، والنهر المعروف بالحاجر » .

(٤) فى الطبرى : فهذا ما كان من خبره وخبر الناس الذين قربوا من موضعه فى هذه البيئة » ، أى سنة أربع وخمسين ومائتين .

(٥) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير الملتف . وكل موضع يخاف فيه الاغتيال .

ولأنّ صاحبَ الزنج قد كان خندق نفسه على وأصحابه .

ثم إنّ صاحب الزّنج بيّت جعلان ، فقتل جماعة من أصحابه ، ورُوِّع الباقون رَوْعا شديدا ، فانصرف جعلان إلى البصرة ووجّه إليه مقاتلة السّعْدية والبلالية فى جمع كثيف ، فواقعهم صاحب الزنج ، فقهرهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانصرفوا مفلولين ، ورجع جعلان بأصحابه إلى البصرة ، فأقام بها معتصما بجدرانها ، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج ، وأمر سعيد الحاجب بالشُّخوص إلى البصرة لحربهم .

قال أبو جعفر : واتفق لصاحب الزنج من السعادة أنّ أربعا وعشرين مركبا من مراكب البحر كانت اجتمعت تريد البصرة ، وانتهى إلى أصحابها خبرُ الزنج وقطعُهم السبل ، وفيها أموال عظيمة للتجار ، فاجتمعت آراؤهم على أن شدّوا المراكب بعضَها إلى بعض ؛ حتى صارت كالجزيرة ، يتصل أولها بآخرها ، وسارت فى دَجْلة ، فكان صاحب الزّنج يقول : نهضت ليلة إلى الصلاة وأخذت فى الدعاء والتضرّع ، فخوطبت بأن قيل لى : قد أظلّك فتحٌ عظيم ، فالتفتّ فلم ألبث أنْ طلعت المراكبُ ، فنهض أصحابى إليها فى شذاتها فلم يلبثوا أن حَوَوْها وقتلوا مقاتلتها ، وسَبوْا ما فيها من الرقيق ، وغنموا منها أموالا لا تحصى ؛ ولا يعرف قدرها فأَنهبتُ ذلك أصحابى ثلاثة أيام وأمرت بما بقى منها فحِيزَ لى .

* * *

قال أبو جعفر : ثم دخل الزّنج الأبلة فى شهر رجب من سنة ست وخمسين ومائتين ، وذلك أن جُعْلان لما تنحّى إلى البصرة ، ألحّ صاحبُ الزنج بالسّرايا على أهل الأُبلّة ، فجعل يحاربهم من ناحية شَطّ عثمان بالرجّالة ، وبما خَفّ له من السفن من ناحية دَجْلة ، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر معقِل .

فذكر عن صاحب الزنج أنه قال : ميّلت[١] بين عَبّادان والأبلّة ، فمِلْتُ إلى التوجّه إلى عَبّادان فندبت الرجال إلى ذلك ، فخوطبتُ وقيل لى : إنّ أقرب عدوّ داراً ، وأولاه ألّا يتشاغل عنه بغيره أهلُ الأُبلّة ، فرددت بالجيش الذى كنت سيّرته نحو عبّادان إلى الأبلّة ، ولم يزالوا يحاربون[٢] أهلَها إلى أنْ اقتحموها وأضرموها نارا ، وكانت مبنيّة بالساج بناء متكاثفاً ، فأسرعت فيها النار ، ونشأت ريح عاصف ، فأطارتْ شرَرَ ذلك الحريق إلى أن انتهى إلى شطّ عثمان ، وقتل بالأُبلّة خَلْق كثير ، وحُوِيت الأسلاب والأموال ، على أن الذى أحرق منها كان أكثرمما انتهب ، واستسلم أهل عبّادان بعدها لصاحب الزّنج ، فإن قلوبهم ضعفت ، وخافوه على أنفسهم وحُرمهم ، فأعطوْا بأيديهم ، وسلّموا إليه بلدهم ، فدخلها أصحابه ، فأخذوا مَنْ كان فيها من العبيد ، وحملوا ما كان فيها من السلاح ، ففرّقه على أصحابه ، وصانعه أهلها بمال كف به عنهم .

* * *

قال أبو جعفر : ثم دخل الزّنج بعد عَبّادان إلى الأهواز ولم يثبت لهم أهلُها ، فأحرقوا ما فيها ، وقتلوا ونهبوا ، وأخربوا ، فكان بالأهواز إبراهيم بن محمد المدبّر الكاتب ، وإليه خراجها[٣] وضياعها ، فأسروه بعد أن ضربوه ضربة على وجهه ، وحوَوْا كلّ ما كان يملكه من مال وأثاث ورقيق وكراع ، واشتدّ خوفُ أهلِ البصرة ، وانتقل كثير من أهلها عنها ، وتفرّقوا فى بلاد شتّى ، وكثرت الأراجيف من عوامّها .

* * *

---

(١) فى الأصول : « مثلت » ، وما أثبته من الطبرى .

(٢) الطبرى : « فلم يزالوا يحاربون أهل الأبلة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب سنة ٢٥٦ ، فلما كان فى هذه الليلة اقتحمها الزنج مما يلى دجلة ونهر الأبلة ، فقتل بها أبو الأحوص وابنه وأضرمت ناراً ، وكانت مبنية بالساج » .

(٣) الطبرى : « وإليه الخراج والضياع » .

قال أبو جعفر : فلمّا دخلت سنة سبع وخمسين أنفذ السلطان بُغراج التركى على حرب البصرة وسعيد بن صالح الحاجب للقاء صاحب الزنج ، وأمر بغُراج بإمداده بالرجال ، فلما صار سعيد إلى نهر معقِل ، وجد هناك جيشا لصاحب الزّنج فى النّهر المعروف بالمُرْغاب ، فأوقع بهم سعيد فهزمهم ، واستنقذ مافى أيديهم من النساء والنهب ، وأصابت سعيدا فى تلك الوقعة جراحات ؛ منها جراحة فى فيه .

ثم بلغه أنّ جيشاً لصاحب الزنج فى الموضع المعروف بالفرات ، فتوجّه إليه فهزَمه ، واستأمن إليه بعض قواد صاحب الزنج ؛ حتى لقد كانت المرأة من سكّان ذلك الموضع تجد الزنجىّ مستتراً بتلك الأدغال فتقبض عليه ؛ حتى تأتى به عسكر سعيد ، مابه عنها امتناع.

ثم قصد سعيد حرب صاحب الزّنج ، فعبر إليه إلى غربىّ دجْلة ، فأوْقَع به وَقَعَاتٍ متتالية ، كلّها يكونُ الظّفَر فيها لسعيد، إلى أنْ تهيّأ لصاحب الزّنج عليه أن وجّه إلى يحيى ابن محمد البحرانىّ صاحبه ؛ وهو إذ ذاك مقيم بنهر معقِل ، فى جيش من الزّنج ، فأمره بتوجيه ألف رجل من أصحابه ، عليهم سليمان بن جامع وأبو الليث القائدان ، ويأمرهما بقصد عسكر سعيد ليلًا ؛ حتى يوقعا به وقت طلوع الفجر ، من ليلة عيّنها لهم ، ففعلا ذلك ، وصارا إلى عسكر سعيد فى ذلك الوقت ، فصادَفا منه غِرّة وغفلة ، فأوقعا بِه وبأَصحابه ، وقت طلوع الفجر ؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأصبح سعيد وقد ضعف أمرُه ، واتّصل بالسلطان خبره ، فأمره بالانصراف إلى باب السلطان ، وتسليم الجيش الذى معه إلى منصور ابن جعفر الخيّاط ، وكان إليه يومئذ حرب الأهواز وكوتب بحرب صاحب الزنج ، وأنْ يصمد له ، فكانت بينهم وقعة كان الظّفَر فيها للزنج ، فقتِل من أصحاب منصور خلق كثير عظيم ، وحمل من الرءوس خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن محمد البحرانىّ القائد ، فنصبت على نهر معقِل .

* * *

قال أبو جعفر : ثم كانت بين الزّنج وبين أصحاب السلطان بالأهواز وقعات كثيرة ، تولّاها علىّ بن أبان المهلبىّ ، فقتل شاهين بن بِسْطام ، وكان من أكابر أصحاب السلطان ، وهزم إبراهيم بن سيما ، وكان أيضا من الأمراء المشهورين ، واستولى الزّنج على عسكره .

* * *

قال أبو جعفر : ثم كانت الواقعة العظمى بالبصرة فى هذه السنة ، وذلك أنّ صاحب الزّنج قطعَ الميرة عنهم ، فأضرّ ذلك بهم ، وألحّ بجيوشه وزنوجه عليهم بالحرب صباحا ومساء ، فلما كان فى شوّال من هذه السنة ، أزمع عَلَى جَمْع أصحابه للهجوم على البصرة، والجدّ فى خراجها ؛ وذلك لعلمه بضعف أهلها وتفرّقهم ، وإضرار الحصار بهم ، وخراب ما حولها من القرى . وكان قد نظر فى حِساب النجوم ، ووقف على انكساف القمر ، الليلة الرابعة عشرة من هذا الشهر ، فذكر محمد بن الحسن بن سهل أنه قال : سمعته يقول : اجتهدت فى الدعاء على أهل البصرة ، وابتهلت إلى الله تعالى فى تعجيل خرابها ، فخوطبت وقيل لى : إنّما البصرة خبزة [لك] [1] تأكلها من جوانبها ، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة . فأوّلتُ انكِسار نصف الرغيف بانكساف نصف القمر المتوقّع فى هذه الليالى ، وما أخلق أمرَ أهل البصرة أن يكون بعده !

قال : فكان يحدّث بهذا حتى أفاض فيه أصابُه ، وكَثُر تردّده فى أسماعهم وإجالتهم إياه بينهم .

* * *

ثم ندب محمد بن يزيد الدارمىّ — وهو أحد مَنْ كان صحِبَه بالبحرين للخروج إلى

(١) من الطبرى .

الأعراب واستنفار مَنْ قَدَر عليه منهم — فأتاه منهم بخَلْق كثير ، ووجّه إلى البصرة سليمان بن موسى الشعرانىّ ، فأمره بتطرّق البصرة ، والإيقاع بأهلها ، وتقدم إلى سليمان [بن موسى](١) بتمرين(٢) الأعراب على ذلك . فلما وقع الكسوف ، أنهض إليها علىّ بن أبان ، وضمّ إليه جيشاً من الزنج وطائفة من الأعراب ، وأمره بإتيان البصرة مما يَلِى بنى سعد ، وكتب إلى يحيى بن محمد البحرانىّ فى إتيانها مما يلِى نهر عدىّ ، وضمّ باقى الأعراب إليه ؛ فكان أوّل مَنْ واقَع أهل البصرة علىّ بن أبان وبغراج التركىّ يومئذ بالبصرة فى جماعة من الجند ، فأقام يقاتلهم يومين ، وأقبل يحيى بن محمد مما يَلِى قصر أنس ، قاصدا نحو الجسر ، فدخل علىّ بن أبان البلد وقت صلاة الجمعة ، لثلاث عشرة بقين من شوّال . فأقبل يقتل الناس ، ويحرّق المنازل والأسواق بالنار ، فتلقّاه بغراج وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان الهاشمىّ ، المعروف ببُرَيْه وكان وجيهاً مقدّما مطاعا — فى جَمْع عظيم ، فردّاه ، فرجع فأقام ليلته تلك(٣) . ثم غاداهم وقد تفرق جند البصرة فلم يكن فى وجهه أحد يدافعه ، وانحاز بغراج بمن معه ، وهرب إبراهيم بن محمد الهاشمىّ المعروف ببُريه ، فوضع علىّ بن أبان السيف فى الناس ، وجاء إليه إبراهيم بن محمد المهلبىّ — وهو ابن عمّه — فاستأمنه لأهل البصرة ، فحضر أهلُ البصرة قاطبة ، فأمّنهم ، ونادى مناديه : مَنْ أراد الأمان فليحضُر دارَ إبراهيم بن محمد المهلبىّ . فحضر أهلُ البصرة قاطبةً ، حتى ملئوا الأزّقة . فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة ، فأمر بأخذ السّكك والطرق عليهم ، وغَدَر بهم ، وأمر الزنوج بوضع السيف فيهم ، فقتِل كلّ مَنْ شهد ذلك المشهد .

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « فى تمرين » .

(٣) الطبرى : « يومه ذلك » .

ثم انصرف آخرَ نهار يومه ذلك فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخُريبة .

***

وروى أبو جعفر ، قال : حدثنى محمد بن الحسن بن سهل ، قال : حدثنى محمد بن سمعان ، قال : كنت يومئذ بالبصرة ، فمضيت مبادراً إلى منزلى لأتحصّن به ، وهو فى سكة المِرْبد ، فلقيتُ أهلَ البصرة هاربين ، يدعون بالويل والثبور ، وفى آخرهم القاسم بن جعفر ابن سليمان الهاشمىّ على بَغْل ، متقلّداً سيفاً ، يصيح بالناس : ويحكم ! تُسلِمون بلدكم وحَرَمكم ! هذا عدوّكم قد دخل البلد . فلم يلوُوا عليه ، ولم يسمعوا منه ، فمضى هارباً ، ودخلت أنا منزلى ، وأغلقت بابى ، وأشرفت فمرّ بى الأعراب ورجّالة الزنج ، يقدُمهم رجل على حصان كُمَيْت ، بيده رمح ، وعليه عَذَبة صفراء ، فسألت بعد ذلك عنه فقيل لى : إنّه علىّ بن أبان .

قال : ونادى منادى علىّ بن أبان : مَنْ كان من آل المهلّب فليدخل دارَ إبراهيم ابن يحيى المهلبىّ ، فدخلتْ جماعة قليلة ، وأغلِق الباب دونَهم ، ثم قيل للزنج : دونكم الناس فاقتلوهم ، ولا تبقوا منهم أحداً ، وخرج إليهم أبو الليث الأصفهانى ، أحدقوّاد الزنج ، فقال للزنج : كِيلوا ؛ وهى العلامة التى كانوا يعرفونها فيمن يؤمَرُون بقتله ، فأخذ الناسَ السيف ، قال : فوالله إنّى لأسمع تشهّدهم وضجيجهم وهم يقتلون ، وقد ارتفعت أصواتهم بالتشهّد ، حتى سُمِعت بالطُّفَاوة ، وهو مَحَلّ بعدٍ من الموضع الذى كانوا فيه .

قال : ثم انتشر الزّنج فى سِكَك البصرة وشوارعها ، يقتلون مَنْ وجدوا . ودخل علىّ بن أبان يومئذ المسجد فأحرقه ، وبلغ إلى الكلّاء فأحرقه إلى الجسر ، وأخذت النار كلّ مامرّت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع ، ثم ألحّوا بالغدوّ والروّاح عَلَى مَنْ وجدوه ، ويسوقونهم إلى يحيى بن محمد البحرانىّ ، وهو نازل ببعض سِكَك البصرة ، فمَنْ كان ذا مال قرّره حتى يستخرج ماله ثم يقتله ، ومَنْ كان مختلاً قتله معجّلا .

قال أبو جعفر : وقد كان علىّ بن أبان كفّ بعض الكفّ عن العَيْث بناحية بنى سعد، وراقب قوماً من المهلبيّين وأتباعهم ، فانتهى ذلك إلى علىّ بن محمد صاحب الزنج، فصرفه عن البصرة، وأقرّ يحيى بن محمد البحرانىّ بها لموافقته عَلَى رأيه فى الإثخان فى القتل، ووقوع ذلك بمحبّته ، وكتب إلى يحيى بن محمد يأمره بإظهار الكفّ ليسكن الناس ، ويظهرَ المستخفى ، ومَنْ قد عرف باليسار والثروة ، فإذا ظهر فليؤخذوا بالدلالة عَلَى مادفنوه وأخفوه من أموالهم ، ففعل يحيى بن محمد ذلك ، وكان لا يخلو فى اليوم من الأيام من جماعة يؤتَى بهم ، فمن عرف منهم باليسار استنزف ماعنده ثم قتله ، ومَنْ ظهرت له خلّته عاجله بالقتل حتى لم يدعْ أحداً ظهر له إلّا قتله .

* * *

قال أبو جعفر : وحدّثنى محمد بن الحسن ، قال : لما انتهى[1] إلى علىّ بن محمد عظيم ما فعل أصحابه بالبصرة سمعته يقول: دعوت عَلَى أهل البصرة فى غَدَاة اليوم الذى دخل فيه أصحابى إليها ، واجتهدت فى الدّعاء ، وسجدت وجعلت أدعو فى سجودى ، فرفعتْ إلىّ البصرة ، فرأيتها ورأيت أصحابى يقاتِلون فيها ، ورأيت بين السماء والأرض رجلا واقفا فى صورة جَعْفر المعلوف المتولّى كان للاستخراج فى ديوان الخراج بسامُرّاء، وهو قائم قد خَفَض يده اليسرى ، ورفع يده اليمنى ، يريد قلْب البصرة ، فعلمتُ أنّ الملائكة تولّت إخرابها دون أصحابى ،ولو كان أصحابى تولّوْا ذلك مابلغوا هذا الأمر العظيم الذى يحكى عنها؛ ولكن الله تعالى نصرنى بالملائكة ، وأيّدنى فى حُروبى ، وثبّتَ بهم مَنْ ضَعُف قلبُه من أصحابى.

قال أبو جعفر وانتسب صاحب الزّنج[2] فى هذه الأيام إلى محمد بن محمد بن زيد بن علىّ بن الحسين ، بعد انتسابه الذى كان إلى أحمد بن عيسى بن زيد ؛ وذلك لأنّه بعد

---

(١) الطبرى : « لما أخرب الخائن البصرة » .

(٢) الطبرى : « وانتسب الخبيث »

إخرابه البصرة ، جاء إليه جماعة من العلويّة الذين كانوا بالبصرة ، وأتاه فيمن أتاه منهم قوم من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فى جماعة من نسائهم وحُرَمهم ، فلما خافهم ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى ، وانتسب إلى محمد بن محمد بن زيد .

* * *

قال أبو جعفر : فحدثنى محمد بن الحسن بن سهل ، قال : (١ كنت حاضرا عنده وقد حضر جماعة من النوفليّين(١) ، فقال له القاسم بن إسحاق النوفلىّ : إنه انتهى إلينا أن الأمير(٢) من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فقال : لست من ولد عيسى ، أنا من ولد يحيى بن زيد .

قال محمد بن الحسن : فانتقل من أحمد بن عيسى بن زيد إلى محمد بن محمد بن زيد ، ثم انتقل من محمد إلى يحيى بن زيد ؛ وهو كاذب لأنّ الإجماع واقع على أنّ يحيى بن زيد مات ولم يعقِبْ ولم يولَدْ له إلّا بنت واحدة ماتت ؛ وهى ترضع .

فهذا ما ذكره أبو جعفر الطبرى فى '' التاريخ الكبير '' .

* * *

وذكر علىّ بن الحسن المسعودى فى '' مروج الذهب '' أن هذه الواقعة بالبصرة ، هلك فيها مِنْ أهلها ثلاثمائة ألف إنسان ، وأنّ علىّ بن أبان المهلبى بعد فراغه من الواقعة ، نصب منبرا فى الموضع المعروف ببنى يشكُر ، صلّى فيه يوم الجمعة ، وخطب لعلىّ بن محمد صاحب الزنج ، وترحّم بعد ذلك على أبى بكر وعمر ، ولم يذكر عثمان ولا عليا عليه السلام فى خطبته ، ولعن أبا موسى الأشعرىّ وعَمْرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان ، قال :

(١ ــ ١) الطبرى : « سمعت الخبيث وقد حضره جماعة من النوفليين » .
(٢) الطبرى : « إنك » .

وهذا يؤكد ما ذكرناه وحكيناه من رأيه ، وأنه كان يذهب إلى قول الأزارقة .

قال : واستخفى مَنْ سَلِم من أهل البصرة في آبار الدور ، فكانوا يظهرون ليلا ، فيطلبون الكِلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفار والسنانير ، فأفنوْها حتى لم يقدروا على شيء منها ، فصاروا إذا مات الواحد منهم أكلُوه ، فكان يراعى بعضُهم موتَ بعض ، ومَنْ قدر على صاحبه قتلَه وأكله ، وعدموا مع ذلك الماء ، وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة قد احتضرت ، وعندها أختها وقد احتوشوها ينتظرون أن تموتَ فيأكلوا لحمها ، قالت المرأة : فما ماتت حسناء حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه ، ولقد حضرت أختها ونحن على شريعة عيسى بن حرب وهي تبكي ومعها رأس الميت ، فقال لها قائل : ويحك ! مالك تبكين ! فقالت : اجتمع هؤلاء على أختي فما تركوها تموت حسناء حتى قطّعوها ، وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئا إلا الرأس ؛ وإذا هي تبكي شاكية من ظُلْمهم لها في أختها .

قال : وكان مثل هذا وأكثر منه وأضعافه ، وبلغ منْ أمر عسكره أنه ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشراف قريش ، فكانت الجارية تباع منهم بدرهمين وبثلاثة دراهم ، وينادَى عليها بنسبها: هذه ابنة فلان بن فلان ، وأخذ كلّ زنجيّ منهم العشرين والثلاثين يطؤهنّ الزّنج ويخدمْن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف، ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن عليّ عليه السلام ، وكانت عند بعض الزنج وسألته : أن يعتقها مما هي فيه ، أو ينقلها من عنده إلى غيره ، فقال لها : هو مولاك ، وهو أولى بك[٣] .

* * *

قال أبو جعفر : وأشخص السلطان لحرب صاحب الزنج محمدا المعروف بالمولد، في جيش

---

(١) مروج الذهب ٤ : ٢٠٧ ، ٢٠٨

كثيف، فجاء حتى نزل الأبُلّة، وكتب صاحب الزّنج إلى يحيى بن محمد البحرانىّ يأمره بالمصير إليه، فصار إليه بزنوجه، وأقام على محاربته عشرة أيام، ثم فَتَر المولد عن الحرب، وكتب علىّ ابن محمد إلى يحيى، يأمره أن يبيّته، فبيّته فهزمه، ودخل الزّنج عسكره فغنِموا مافيه، وكتب يحيى إلى صاحب الزّنج يخبره، فأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت، ثم انصرف عنه، فمرّ بالجامدة، وأوقع بأهلها، وانتهب كلّ ما كان فى تلك القرى، وسفَكَ ماقَدَر على سفكه من الدماء، ثم عاد إلى نهر معقل.

* * *

قال أبو جعفر: واتّصلت الأخبار بسامراء وبغداد وبالقوّاد والموالى وأهل الحضرة، بما جرى على أهلِ البصرة، فقامت عليهم القيامة، وعلم المعتمد أنه لا يرتُق هذا الفتق إلا بأخيه أبى أحمد طلحة بن المتوكل — وكان منصورا مؤيدا عارفا بالحرب وقيادة الجيوش، وهو الذى أخذ بغداد المعتز، وكسر جيوش المستعين، وخلعه من الخلافة، ولم يكن لبنى العباس فى هذا الباب مثله ومثل ابنه أبى العباس — فعقَد له المعتمد على ديار مضَر وقنّسرين والعواصم، وجلس له مستهلّ شهر ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين، فخلع عليه وعلى مفلح، وشَخَصا نحو البصرة لحرب على بن محمد وإصلاح ماأفسده من الأعمال، وركب المعتمد ركوبا ظاهرا يشيّع أخاه أبا أحمد إلى القرية المعروفة ببركوارا، وعاد.

* * *

قال أبو جعفر: وأما صاحب الزّنج فإنه بعد هزيمة محمد المولد أنفذ علىّ بن أبان المهلبىّ إلى حرب منصور بن جعفر وإلى الأهواز، فكانت بينهما حروب كثيرة فى أيام متفرّقة حتى كان آخرها اليوم الذى انهزم فيه أصحاب منصور، وتفرّقوا عنه، وأدركت منصورا طائفة من الزّنج، فلم يزل يكرّ عليهم حتى انقصف رمحه، ونفدت سهامه، ولم يبق معه سلاح،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانتهى إلى نهر يعرف بنهر ابن مَرْوان، فصاح بحصان كان تحته ايبَر ، فوثب فقصّر[1] فانغمس فى الماء .

وقيل : إنّ الحصان لم يقصّر فى الوثبة؛ ولكنّ رجلاً من الزّنج سبقه إلى النهر،فألقى نفسَه فيه ، لعلمه أنه لامحيص لمنصور عن النهر ، فلما وثب الفرس تلقّاه الأسود،فنكعس فغاصَ الفرس ومنصور ، ثم أطلع منصور رأسه ، فنزل إليه غلام من السودان من عُرَفاء مصلح ، يقال له ابرون ، فاحتزّ رأسه ، وأخذ سَلَبه،فولّى يارجوخ التركى صاحب حرب خوزستان ، ما كان مع منصور من العمل أصغجون التركى .

* * *

وقال أبو جعفر : وأما أبو أحمد،فإنّه شخَص عن سامُرّاءفى جيشلم يسمَعالسامعون بمثله ، كثرةً وعُدة ، قال : وقد عاينتُ أنا ذلك الجيش ، وأنا يومئذ ببغداد بباب الطاق، فسمعتُ جماعة من مشايخ أهل بغداد يقولون : قد رأينا جيوشا كثيرة للخلفاء ؛ فما رأينا مثل هذا الجيش أحسن عُدّة وأكمل عَتادا وسلاحا ، وأكثر عدداً وجمعا ، واتبع ذلك الجيشَ مِنْ متسوِّقة أهلِ بغداد خلق كثير .

* * *

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن الحسن بن سهل ، أن يحيى بن محمد البحرانىّ كان مقيما بنهر معقل قبل موافاة أبى أحمد ، فاستأذن صاحبَ الزّنج فى المصير إلى نهر العباس، فكره ذلك ، وخاف أن يوافيَه جيشٌ من قِبَل السلطان ، وأصحابه متفرّقون،فألحّ عليه يحيى حتى أذن له ، فخرج واتبعه أكثرُ أهلِ عسكر صاحب الزّنج ، وكان علىّ بن أبان

---

(١) الطبرى : « وقصرت رجلاه فانغمس فى الماء » .

مقيما بجُبّى فى جمع كثير من الزّنج ، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر صاحب الزّنج، يُغادونها ويراوحونها لنقلِ ما نالته أيديهم منها إلى منازلهم ، فليس بمعسكر علىّ بن[1] محمد يومئذ من أصحابه إلّا القليل ، فهو على ذلك من حاله، حتى وافى أبو أحمد فى الجيش ومعه مفلح ، فورد جيشٌ عظيم لم يرد على الزّنج مثلُه ، فلما وصل إلى نهر معقل ، انصرف مَنْ كان هناك من الزّنج ، فالتحقوا بصاحبهم مرعوبين ، فراعه ذلك ، ودعا برئيسين منهما ، فسألهما عن السبب الذى له تركا موضعهما ، فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد ، وكثرة عدد أهله وإحكام عدتّهم، وأنّ الذى عايناه من ذلك لم يكن فى قوتّهما الوقوف له فى المُدّة التى كانا فيها ، فسألهما : هل عَلِمَا مَنْ يقود هذا الجيش؟ فقالا : قد اجتهدنا فى علم ذلك ، فلم نجد مَنْ يصدُقنا عنه .

فوجّه صاحب الزّنج طلائعه فى سُميريّات ليعرف الخبَر ، فرجعت طلائعه إليه بتعظيم أمر الجيش وتفخيمه، ولم يقف أحدٌ منهم على مَنْ يقوده ، فزاد ذلك فى جزَعِه وارتياعه، فأمر بالإرسال إلى علىّ بن أبان يعلِمه خبرَ الجيش الوارد ، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه، ووافَى جيش أبى أحمد ، فأناخ بإزاء صاحب الزّنج فلما كان اليوم الذى كانت فيه الواقعة، خرج علىّ بن محمد يطوف فى عسكره ماشياً ، ويتأمّل الحال فيمن هو من حزبه ومَنْ هو [مقيم][2] بإزائه على حزبه، وقد كانت السماء مطرت ذلك اليوم مطرا خفيفا، والأرض ثريّة[3] تزلّ عنها الأقدام ، فطوّف ساعة من أوّل النهار ورجع ، فدعا بدواة وقرطاس ليكتب كتابا إلى علىّ بن أبان ، ليعلمه ماقد أظلّه من الجيش ، ويأمرَه بتقديم مَنْ قدَر على تقديمه من الرجال؛ فإنّه لفى ذلك ، إذ أتاه أبو دُلَفٍ القائد أحد قوّاد الزّنج ، فقال له: إنّ

(١) الطبرى : « الخبيث » .
(٢) من الطبرى .
(٣) فى الأصول : « تربة » وما أثبته من الطبرى .

القوم قد غَشَوك ورهقوك ، وانهزم الزَّنج من بين أيديهم، وليس فى وجوههم مَنْ يردّهم؛ فانظر لنفسك ، فإنهم قد انتهوا إليك[1]. فصاح به وانتهره وقال : اغْرُبْ[2] عنّى فإنك كاذبٌ فيما حكيت ، إنما ذلك جزعٌ داخَل قلبَك[3] لكثرة مَنْ رأيت من الجمع ، فانخلع قلبُك ، فلستَ تدرى ماتقول !

فخرج أبو دُلَفٍ من بين يديه، وأقبل يكتب ، وقال لجعفر بن إبراهيم السجّان : نادفى الزّنج ، وحرّكهم للخروج إلى موضع الحرب ، فقال له : إنّهم قد خرجوا ، وقد ظفروا بسُمَيريّتين من سفن أصحاب السلطان، فأمره بالرجوع لتحريك الرّجالة ، وكان من القضاء والقدر أن أصيب مفلح — وهو القائد الجليل، المرشّح لقيادة الجيش بعد أبى أحمد — بسهم غَرْب[4] لا يدرَى من رماه ، فمات لوقته ، ووقعت الهزيمة على أصحاب أبى أحمد، وقوى الزّنج على حربهم ، فقتلوا منهم جمعا كثيرا . ووافى علىّ بن محمد زنجه بالرءوس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقوْها بين يديه ، فكثرت الرءوس يومئذ حتى ملأت الفضاء ، وجعل الزّنج يقتسمون لحوم القتلى ، ويتهادونها بينهم ، وأُتِىَ بأسيرٍ من الجيش فسأله عن رأس العسكر ، فذكر أبا أحمد ومفلحا ، فارتاع لذكر أبى أحمد، وكان إذا راعه أمرٌ كذّب به ، وقال : ليس فى الجيش إلا مُفْلح ، لأنى لست أسمع الذِّكر إلا له ، ولو كان فى الجيش مَنْ ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد ، ولَمَا كان مُفْلح إلا تابعاً له ، ومضافا إليه[5] .

قال أبو جعفر : وقد كان قبل أن يصيبَ السهمُ مفلحا، انهزم الزّنج لما خرج عليهم

(١) الطبرى : « إلى الجبل الرابع » .
(٢) فى الأصول : « اعزب » ، وما أثبت من الطبرى
(٣) الطبرى : « دخلك » .
(٤) يقال : أصابه سهم غرب ، بالإضافة أو الوصف ، أى لا يدرى راميه .
(٥) الطبرى : « إلى صحبته » .

جيش أبى أحمد ، وجزِعُوا جزعاً شديدا ، ولجئوا إلى النهر المعروف بنهر أبى الخصيب ، ولا جسرَ يومئذ عليه ، فغرق منهم خلق كثير ، ولم يلبثْ صاحبُ الزنج إلا يسيرا حتى وافاه علىّ بن أبان فى أصحابه ، فوافاه وقد استغنى عنه بهزيمة الجيش السلطانى ؛ وتحيّز أبو أحمد بالجيش إلى الأبُـلّة ، ليجمع ما فرّقت الهزيمة منه ، ويجدّد الاستعداد للحرب ، ثم صار إلى نهر أبى الأسد فأقام به .

* * *

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن الحسن ، قال : فكان صاحب الزنج لا يدرى كيف قُتِل مفلح ؛ فلما لم يرَ أحداً ينتحل رميَه ادّعى أنّه كان الرامى له ، قال : فسمعته يقول : سقط بين يدىّ سَهْمٌ من السماء ، فأتانى به واح خادمى ، فدفعه إلىّ ، فرميتُ به فأصاب مُفلِحاً فقتله ، قال محمد : وكذَب فى ذلك ، لأنى كنتُ حاضراً معه ذلك المشهد ، مازال عن فرسه حتى أتاه خبرُ الهزيمة[1] .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إنّ الله تعالى أصاب صاحب الزّنج بمصيبة تعادِل فرحَه وسروره بقتل مُفلح عقيب قَتْل مُفْلح ، وذلك أنّ قائده الجليل يحيى بن محمد البحرانىّ أُسِرَ وقتل ، وصورة ذلك أن صاحب الزنج كان قد كتب إلى يحيى بن محمد ، يعلمُه ورودَ هذا الجيش عليه ، ويأمُره بالقدوم والتحرّر فى منصرفه من أنْ يلقاه أحدٌ منهم وقد كان يحيى غَنِمَ سفنا فيها متاعٌ وأموال ؛ لتجّار الأهواز جليلة ، وحامى عنها أصحابُ أصغجون التركى فلم يُغْن ، وهزمهم يحيى ، ومضى الزنج بالسفن المذكورة يمدُّونها متوجّهين نحو معسكر صاحب الزّنج على سَمْت البطيحة المعروفة ببَطيحة الصّحناة ، وهى طريقة متعسّقة وعرة ؛

(١) بعدها فى الطبرى : « وأتى بالرءوس وانقضت الحرب » .

فيها مشاقّ متعبة ، وإنما سلكها يحيى وأصحابه ، وتركوا الطريقَ الواضح ؛ للتحاسد الذى كان بين يحيى بن محمد وعلىّ بن أبان ، فإن أصحاب يحيى أشارُوا عليه ألّا يسلك الطريق التى يمرّ فيها على أصحاب علىّ بن أبان ، فأصغَى إلى مشورتهم فشرَعُوا له الطريق المؤدى إلى البطيحة المذكورة فسلكها ، وهذه البطيحة ينتهى السائر فيها إلى نهر أبى الأسد ، وقد كان أبو أحمد انحاز إليه ، لأن أهلَ القرى والسواد كاتبوه يعرّفونه خبر يحيى بن محمد البحرانىّ ، وشدة بأسه ، وكثرة جمعه ، وأنّه ربما خرج من البطيحة إلى نهر أبى الأسد ، فعسكر به ، ومنع أبا أحمد المِيرة ، وحال بينه وبين مَن يأتيه من الأعراب وغيرهم ، فسبقه أبو أحمد إلى نهر أبى الأسد ، وسار يحيى حتى إذا قرب من نهر أبى الأسد ، وافته طلائعُه ، فأخبرته بالجيش ، وعظّمت أمره ، وخوّفته منه ، فرجع من الطريق الذى كان سلكه بمشقّة شديدة نالته ، ونالت أصحابه ، وأصابهم مرض لتردّدهم فى تلك البطيحة ، وجعل يحيى على مقدّمته سليمان بن جامع ، وسار حتى وقف على قنطرة فورج نهر العباس ، فى موضع ضيّق تشتدّ فيه جرية المـاء ، وهو مشرف ينظر أصحابه الزنج : كيف يجُرون تلك السفن التى فيها الغنائم ، فمنها ما يغرق وما يسلم .

* * *

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن سمعان قال : كنتُ فى تلك الحال واقفاً مع يحيى على القنطرة ، وقد أقبل علىّ متعجّبا من شدّة جرية المـاء ، وشدّة ما يلقىَ أصحابُه من تلقّيه بالسفن ، فقال : أرأيت لو هجم علينا عدوّ فى هذه الحال مَن كان يكون أسوأ حالا منّا ! فو الله ما انقضى كلامُه حتى وافَى كاشهم التركى فى جيش ؛ قد أنفذه معه أبو أحمد عند رجوعه من الأبُـلّة إلى نهر أبى الأسد ، يتلقّى به يحيى ، فوقعت الصيحة ، واضطربت الزنج ، فنهضتُ متشوّفا للنظر ، فإذا الأعلام الحمر قد أقبلت فى الجانب الغربىّ من نهر العباس ويحيى به ، فلما رآها الزنج ألقوْا أنفسهم جملةً فى الماء ، فعبروا إلى الجانب الشرقى

وخلا الموضع الذى فيه يحيى ، فلم يبق معه إلا بضعة عشر رجلا منهم ، فنهض عند ذلك فأخذ درقته وسيفه ، واحتزم بمنديل ، ثم تلقّى القوم[١] فى النفر الذين تخلّفوا معه ، فرشقهم أصحاب كاشهم التركىّ بالسهام ، حتى كثر فيهم الجراح ، وجرح يحيى بأسهم ثلاثة فى عضُده اليمنى وساقه اليسرى ؛ فلما رآه أصحابُه جريحا ، تفرّقوا عنه ولم يعرف فيقصد له ، فرجع حتى دخل بعض تلك السفن ، وعبر به إلى الجانب الشرقىّ من النهر ؛ وذلك وقت الضحى ، وأثقلته الجراحات التى أصابته ، فلما رأت الزّنج شدّة مانزل به ، اشتدّ جزعهم ، وضعفتْ قلوبهم ، فتركوا القتال ، وكانت همّتهم النجاة بأنفسهم ، وحاز أصحاب السلطان تلك الغنائم التى كانتْ فى السفن فى الجانب الغربىّ من النهر ، وانفضّ الزنج بالجانب الشرقىّ عن يحيى ، فجعلوا يتسلّلون بقيّة نهارهم بعد قتل ذريع فيهم ، وأسْر كثير ، فلما أمسوا وأسدَف الليل ، طاروا على وجوههم . فلما رأى يحيى تفرّقَ أصحابه ركب سُميريّة كانت هناك ، وأقعد معه فيها متطبّبا ، يقال له عباد[٢] ، وطمع فى الخلاص إلى عسكر صاحب الزنج ، فسار حتى قرب من فُوّهة النهر ، فأبصر سميريّات وشذاءات لأصحاب السلطان فى فوّهة النهر ، فخاف أنْ تعترض سميريّته ، وجزع من المرور بها ، فعبر به الملاّح إلى الجانب الغربىّ من النهر ، فألقاه وطبيبه على الأرض فى زرع هناك ، فخرج يمشى وهو مثقل حتى ألقى نفسَه فى بعض تلك المواضع ، فأقام هناك ليلته تلك . فلما أصبح نزفه الدم ، ونهض عبّاد الطبيب[٣] ، فجعل يمشى متشوّفا أن يرى إنسانا ، فرأى بعضَ أصحاب السلطان ، فأشار لهم إلى موضع يحيى ، فجاءوا ، حتى وقفوا عليه ، فأخذوه ، وانتهى خبره إلى [الخبيث][٤] صاحب الزنج فجزع عليه جزعا شديدا ، وعظم عليه توجّعه .

---

(١) الطبرى : « القوم الذين أتوه » .
(٢) الطبرى : « ويعرف بأبى جيش » .
(٣) بعد فى الطبرى : « المتطبب » .
(٤) من الطبرى .

ثم حُمِل يحيى إلى أبى أحمد ، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد ، فأدخل إلى سامُرّاء راكبَ جمل ، والناس مجتمعون ينظرونه ، ثم أمر المعتمد ببناء دكّة عالية بحضرة مجرى الحلبة ، فبنيتْ ، ورفع للناس عليها حتى أبصره الخلائق كافّة ، ثم ضرب[1] بين يدى المعتمد وقد جلس له مائتى سوط بثمارها[1] ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف ، [ثم خبط بالسيوف] ثم ذبح وأحرق .

* * *

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن الحسن ، قال : لما قتِل يحيى البحرانىّ ، فانتهى خبرُه إلى صاحب الزّنج ، قال لأصحابه . لما عظم علىّ قتلُه ، واشتدّ اهتمامى به ، خوطبت فقيل لى : قتله خيرٌ لك ؛ إنه كان شرهًا . ثم أقبل على جماعة أنا فيهم ، فقال : مِنْ شَرَهه أنّا غنمنا غنيمة من بعض ما كنا نغنمه[2] وكان فيها عِقْدان ، فوقعا فى يد يحيى ، فأخفى عنّى أعظمهما خطرا ، وعرض علىّ أخسّهما ، ثم استوهبه فوهبته له ، فرُفِع إلىّ العِقْد الذى أخفاه حتى رأيته ، فدعوته فقلت : أحضِرْ لى العقد الذى أخفيتَه ، فأتانى بالعِقْد الذى وهبتُه له ، وجحد أن يكون أخذ غيرَه ، فرُفِع إلىّ العقد ثانية ، فجعلت أصفه له وأنا أراه وهو لا يراه ، فبُهِت وذهب ، فأتانى ، ثم استوهبنيه فوهبتُه له ، وأمرته بالاستغفار .

قال أبو جعفر : وذكر محمد بن الحسن ، أنّ محمد بن سمعان حدّثه أن صاحب الزّنج ، قال فى بعض أيّامه : لقد عُرِضَتْ علىّ النبوّة فأبيتها . فقيل له : ولم ذاك ؟ قال : إنّ لها أعباء خِفْت ألّا أطيق حملها .

* * *

(١ــ١) الطبرى : « ثم رفع للنـاس حتى أبصروه ، فضرب بالسياط ، وذكر أنه دخل سامرا يوم الأربعاء لتسع خلون من رجب على جمل ، وجلس المعتمد من غيرذلك اليوم ؛ وذلك يوم الخميس ، فضرب بين يديه مائة سوط بثمارها » .

(٢) الطبرى : « نصيبه » .

قال أبو جعفر : فأمّا الأميرُ أبو أحمد ، فإنّه لما صار إلى نهر أبي الأسد وأقام به ، كثرت العلل فيمن معه من جُنْده وغيرهم ، وفشا فيهم الموت ، فلم يزل مقيما هنالك حتى أبَلّ مَنْ نجَا مِنْهم من عِلّته ، ثم انصرف ، راجعا إلى بَاذاوَرْد ، فعسكر به ، وأمر بتجديد الآلات وإصلاح الشذوات والسميريّات وإعطاء الجند أرزاقَهم وشحّن السفن بقوّاده ومواليه وغِلْمانه ، ونهض نحو عسكر الناجم ، وأمر جماعة من قوّاده بقصد مواضع سَمّاها لهم؛ من نهر أبي الخصيب وغيره ، وأمر الباقين بملازمته والمحاربة معه ؛ في الموضع الذى يكون فيه ، وهم الأقلّون ؛ وعرف الزنج تفرّق أصحاب أبي أحمد عنه ، فكثروا في جهته ، واستعرت الحرب بينه وبينهم ، وكثرت القتلى والجراح بين الفريقين ، وأحرق أصحابُ أبي أحمد قُصوراً ومنازل كان الزّنج ابتنوها ، واستنقذوا من نساء أهل البصرة جَمْعاً كثيرا . ثم صرف الزّنج سورتَهم وشدّة حملتهم إلى الموضع الذى به أبو أحمد ، فجاءه منهم جمعٌ لا يقاوَم ، بمثل العدّة اليسيرة التي كان فيها ، فرأى أنّ الحزم في محاجزتهم ، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على تُؤدة وتمهّل ، ففعلوا ، وبقيت طائفة من جنده وَلَجُوا تلك الأدغال والمضايق ، فخرج عليهم كمين للزنج فأوقعوا بهم ، فحاموا عن أنفسهم ، وقتلوا عدداً كثيرا من الزّنج إلى أن قتلوا بأجمعهم ، وحملت رُءوسهم إلى الناجم ، فزاد ذلك في قوّته وعتوّه وعُجْبه بنفسه ، وانصرف أبو أحمد بالجيش إلى باذاورد ، وأقام يعبّى أصحابه الرجوع إلى الزنج ، فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره ، وذلك في أيام عُصُوف الرياح ، فاحترق العسكر ، ورحل أبو أحمد منصرفاً وذلك في شعبان من هذه السنة إلى واسط(١) .

فأقام بها إلى ربيع الأول ، ثم انصرف عنها إلى سامرّاء ؛ وذلك أنّ المعتمد كاتبه واستقدمه

---

(١) بعدها في الطبري : « فلما صار إلى واسط تفرق عنه عامة من كان معه من أصحابه » .

لحرب يعقوب بن الليث الصفار أمير خراسان ، فاستخلف على حرب الناجم محمدا المولد ، وأمّا الناجم فإنه لم يعلم خبر الحريق الذى وقع فى عسكر أبى أحمد ، حتى وَردَ عليه رجلان من أهل عَبّادان ، فأخبراه ، فأظهر أن ذلك من صُنْع الله تعالى له ونصره على أعدائه ، وأنه دعا الله على أبى أحمد وجيشه ، فنزلت نارٌ من السماء فأحرقتهم .

وعاد إلى العبث ، واشتد طغيانه وعتوّه ، وأنهض علىّ بن أبان المهلبىّ ، وضم إليه أكثر الجيش ، وجعل على مقدمته سليمان بن جامع ، وأضاف إليه الجيش الذى كان مع يحيى بن محمد البحرانى وسليمان بن موسى الشعرانىّ ، وأمرهم بأن يقصدوا الأهواز وبها حينئذ أصغجون[١] التركى ، ومعه نيزك القائد ؛ فالتقى العسكران بصحراء تعرف بدشت ميسان[٢] ، واقتتلوا ، فظهرت[٣] الزنج ، وقتل نيزك فى كثير من أصحابه ، وغرق أصغجون التركى ، وأسر كثير من قُوّاد السلطان ؛ منهم الحسن بن هرثمة المعروف بالشارى[٤] ، والحسن بن جعفر . وكتب علىّ بن أبان بالخبر إلى النّاجم ، وحمل إليه أعلاما ورءوسا كثيرة وأسرى ، ودخل علىّ بن أبان الأهواز ، وأقام بها بزنوجه يعيث وينهب القُرى والسواد ، إلى أن ندب المعتمد على الله موسى بن بغا لحرْبه ، فشخص عن سامُرّا ، فى ذى القعدة من هذه السنة ، وشيّعه المعتمد بنفسه إلى خلف الحائطين ، وخلع عليه هنالك فقدم أمامه عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز وإسحاق بن كنداخ إلى البصرة ، وإبراهيم بن سيما إلى الباذاورْد .

قال أبو جعفر : فلما ورد عبد الرحمن بن مفلح على الأهواز أناخ بقنطرة أربق[٥] عشرة أيام ، ثم مضى إلى علىّ بن أبان المهلبى فواقعه فهزمه علىّ بن أبان ، فانصرف فاستعدّ

(١) فى الأصول : « صغجور » ، تحريف .
(٢) الطبرى : « رستادان » .
(٣) الطبرى : « فـكانت الدبرة يومئذ على أصغجون » .
(٤) الطبرى : « الشار » .
(٥) الطبرى : « أربك » .

ثم عاد لمحاربته ، فأوقع به وقعة عظيمة ، وقتل من الزَّنج قتلًا ذريعا وأسر أسرى كثيرة ، وانهزم علىّ بن أبان ومَن معه من الزَّنج حتى أتوا الموضع المعروف ببَيان ، فأراد النّاجم ردّهم فلم يرجعوا ، للذّعر الذى خالطَ قلوبهم . فلما رأى ذلك أذِنَ لهم فى دخول عسكره ، فدخلوا جميعا ، فأقاموا معه بالمدينة التى كان بناها ، ووافَى عبد الرحمن بن مفلح حصنَ مهدىّ ليعسكر به ، فوجّه إليه النّاجم علىّ بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه ، ومضى علىّ بن أبان إلى قريب من الباذاورد ؛ وهناك إبراهيم بن سيما ، فواقعه إبراهيم، فهزم علىّ بن أبان، فعاوده فهزمه إبراهيم ، فمضى فى اللّيل ، وسلك الأدغال والآجام ؛ حتى وافَى نهرَ يحيى ، فانتهى خبره إلى عبد الرحمن بن مفلح ، فوجّه إليه طاشتِمُر التركىّ فى جمعٍ من الموالى ، فلم يصلْ إلى علىّ بن أبان ومن معه، لوعورة الموضع الذى كانوا فيه ، وامتناعه بالقصب والحُلاقِ[1] ، فأضرمه عليهم نارا ، فخرجوا منه هاربين ، وأسرَ منهم أسْرَى، وانصرف إلى عبد الرحمن ابن مفلح بالأسرى والظَّفَر، ومضى علىّ بن أبان ، فأقام بأصحابه فى الموضع المسمى بنسوخا، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن مفلح ، فصار إلى العمود، فأقام به ، وصار علىّ بن أبان إلى نهر السِّدْرة ، وكتب إلى النّاجم يستمدّه ويسأله التوجيه إليه بالشَّذا ، فوجّه إليه ثلاث عشرة شَذَاة ، فيها جمعٌ كثير من أصحابه، فسار علىّ بن أبان ومَنْ معه فى الشَّذَا، ووافَى عبد الرحمن بمن معه ، فلم يكن بينهما قتال ، وتواقف الجيشان يومَهما ذلك .

فلما كان الليل انتخَب علىّ بن أبان من أصحابه جماعةً يثق بجلَدهم وصبرهم ، ومضى ومعه[2] سليمان بن موسى المعروف بالشّعرانى ، وترك سائرَ عسكره مكانه ليخفى أمرُه، فصار من وراء عبد الرحمن ، ثم بَيّته وعسكره[3]، فنال منه ومن أصحابه نيلا ما ، وانحاز

(١) الحلاق : مكان ينبت الحلفاء .
(٢) الطبرى : « فيهم » .
(٣) الطبرى : « فى عسكره » .

عبدُ الرحمن عنه وترك أربع شَذَوَاتٍ من شَذَوَاته ، فغنمها علىّ بن أبان ، وانصرف ومضى عبد الرحمن لوجهه ؛ حتى وافى دُولاب(١) ، فأقام بها ، وأعدّ رجالا من رجاله ، وولّى عليهم طاشتمر التركىّ ، وأنفذهم إلى علىّ بن أبان ، فوافَوْه وهو فى الموضع المعروف بباب آزر ، فأوقوا به وَقْعةً انهزم منها إلى نهر السِّدرة ، وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمن بانهزامه عنه ، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وافى العود ؛ فأقام به واستمدّ أصحابه للحرب ، وهيّأ شذواته ، وولّى عليها طاشتمر ، وسار إلى فُوّهة نهر السِّدرة ، فواقع علىّ بن أبان وقعة عظيمة ، انهزم منها علىّ بن أبان ، وأخذ منه عشر شَذَوات ، ورجع علىّ بن أبان إلى الناجم مفلولا مهزوما ، وسار عبد الرحمن من فوره ، فعسكر ببيان ، فكان عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما يتناوبان المصير إلى عسكر النّاجم ، فيوقعان به ، ويخيفان مَنْ فيه وإسحاق بن كنداجيق(٢) يومئذ بالبصرة ، وقد قطع المِيرة عن عسكر الناجم ؛ فكان الناجم يجمع أصحابه فى اليوم الذى يخاف فيه موافاةَ عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم ابن سيما ؛ حتى ينقضىَ الحرب ، ثم يصرف فريقا منهم إلى ناحية البصرة ، فيواقع بهم إسحاق ابن كنداجيق ؛ فأقاموا على هذه الحال بضعة عشر شهرا إلى أن صرف موسى بن بغا عن حرب الزّنج(٣).

* * *

قال أبو جعفر : وسبب ذلك أنّ المعتمد ردّ أمرَ فارس والأهواز والبصرة وغيرها من

---

(١) الطبرى : « الدولاب » .

(٢) الطبرى : « كنداج » .

(٣) فى الطبرى : « إلى أن صرف موسى بن بغا عن حرب الخبيث ، وولّيها مسرور البلخى ، وانتهى الخبر بذلك إلى الخبيث » .

النواحى والأقطار إلى أخيه أبى أحمد ، بعد فراغه من حرب يعقوب بن الليث الصفّار وهزيمته له ، فاستخلف أبو أحمد على حرب صاحب الزنج مسروراً البلخىّ ، وصرف موسى بن بغا عن ذلك ؛ واتفق أنّ ابن واصل حاربَ عبد الرحمن بن مفلح ، فأسره وقتله ، وقتل طاشتمر التركىّ أيضا ، وذلك بناحية رَامَهُرْمز ، فاستخلف مسرورٌ البلخىّ على الحربِ أبا الساج وولّى الأهواز ؛ فكانت بينه وبين علىّ بن أبان المهلبىّ وقعة بناحية دولاب ، قتل فيها عبد الرحمن صهر أبى الساج ، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مُكْرَم ، ودخل الزّنج الأهواز ؛ فقتلوا أهلَها وسَبَوْا وأحرقوا [دورها][(١)] .

* * *

قال أبو جعفر : ثم وجّه صاحب الزّنج جيوشه بعد هزيمة أبى الساج إلى ناحية البطيحة والحوانيت ودستُميسان ، قال : وذلك لأنّ واسطاً خلتْ من أكثر الجند فى وقعة أبى أحمد ويعقوب بن الليث التى كانت عند دير العاقول ، فطمع الزنج فيها ، فتوجّه إليها سليمان بن جامع فى عسكر من الزّنج ، وأردفه الناجم بجيش آخر مع أحمد بن مهدىّ فى سُميريّات ، فيها رماة من أصحابه ، أنفذه إلى نهر المرأة ، وأنفذ عسكرا آخر فيه سليمان بن موسى ، فأمره أن يعسكر بالنهر المعروف باليهودىّ ؛ فكانت بين هؤلاء وبين من تخلّف بهذه الأعمال من عساكر السلطان حروب شديدة ، وكانت سجالاً لهم وعليهم ؛ حتى ملكوا البَطيحة والحوانيت ، وشارفوا واسطاً ، وبها يومئذ محمد المولّد من قِبَل السلطان فكانت بينه وبين سليمان بن جامع حروب كثيرة يطولُ شرحها وتعداده ، وأمدّه الناجم بالخليل بن أبان ـ أخى علىّ بن أبان المهلبىّ ـ فى ألف وخمسمائة فارس ، ومعه أبو عبد الله الزنجى المعروف بالمذوّب ، أحد قُوّادهم المشهورين ، فقوِىَ سليمان بهم ، وأوقع بمحمد المولّد ، فهزمه ، ودخل واسطاً فى ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين بزنوجه وقوّاده ، فقتل منها خلقا كثيرا ، ونهبها وأحرق دورها وأسواقها ، وأخرب كثيرا من منازل أهلها ،

---

(١) من تاريخ الطبرى .

وثبت المحاماة عنها قائدٌ كان بها من جانب محمد بن المولّد ، يقال له كنجور البخاريّ ، فحامَى يومه ذلك إلى العصر ، ثم قتِل . وكان الذي يقود الخيل يومئذ في عسكر سليمان بن جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالمذوّب ، وكان أحمد بن مهديّ الجبائيّ في السميريّات ، وكان مهربان[1] الزنجي في الشّذَوات ، وكان سليمان بن موسى الشعرانيّ وأخوه في ميمنته وميسرته ، وكان سليمان بن جامع ، وهو الأمير على الجماعة في قواده السّودان ورجالته منهم ، وكان الجميع يداً واحدة ، فلما قضوْا وطَرَهم من نهب واسط وقتل أهلها ، خرجوا بأجمعهم عنها ، فمضوا إلى جُنْبُلاء ، وأقاموا هناك يعيثون ويخربون .

وفي أوائل سنة خمس وستين ، دخلوا إلى النُّعمانية ، وجَرْجَرايا وجَبُّل ، فنهبوا وأخربوا وقتلوا وأحرقوا ، وهرب منهم أهل السّواد فدخلوا إلى بغداد .

* * *

قال أبو جعفر : فأمّا عليّ بن أبان المهلبيّ فإنه استولى على معظم أعمال الأهواز ، وعاث هناك وأخرب وأحرق ، وكانت بينه وبين عمّال السلطان وقواده مثل أحمد بن ليثويْه ، ومحمد بن عبد الله الكرديّ ، وتكين البخاري ، ومطر بن جامع ، وأغرتمش التركي وغيرهم ، وبينه وبين عُمّال يعقوب بن الليث الصفار ، مثل خضر بن العنبر وغيره حروبٌ عظيمة ، ووقعات كثيرة ، وكانت سِجالاً ، تارة له وتارة عليه ؛ وهو في أكثرها المستظهر عليهم . وكثرت أموال الزنج والغنائم التي حَوَوْها من البلاد والنواحي ، وعَظُم أمرهم ، وأهمّ الناسَ شأنُهم ، وعظم على المعتمد وأخيه أبي أحمد خَطْبُهم ، واقتسموا الدنيا ؛ فكان عليّ بن محمد الناجم صاحب الزنج وإمامهم مقيماً بنهر أبي الخصيب ، قد بنى مدينةً عظيمة سمّاها المختارة ، وحصّنها بالخنادق ، واجتمع إليه فيها من النّاس مالا ينتهي العدّ والحصر إليه ، رغبة ورهبة ؛ وصارتْ مدينة تضاهي سامُرّاء وبغداد ، وتزيد عليهما ، وأمراؤه وقواده

(١) كذا في الطبري ، وفي الأصول : « مهريار » .

بالبصرة وأعمالها يجبُون الخراج على عادة السلطان لَمّا كانت البصرة فى يده ، وكان علىّ ابن أبان المهلّبىّ — وهو أكبر أمرائه وقوّاده — قد استولى على الأهوز وأعمالها ، ودوّخ بلادها كرامهر مز وتستَر وغيرهما ، ودان له الناس ، وجبا الخراج ، وملَك أموالا لا تحصى .

وكان سليمان بن جامع وسليمان بن موسى الشعرانىّ ، ومعهما أحمد بن مهدىّ الجبائىّ فى الأعمال الواسطية ، قد ملكوها وبنوْا بها المدن الحصينة ، وفازوا بأموالها وارتفاعها ، وجَبَوْا خراجها ، ورتّبوا عمالهم وقوّادهم فيها ، إلى أن دخلت سنة سبع وستين ومائتين ، وقد عظم الخطب وجلّ ، وخيف على مُلك بنى العباس أن يذهب وينقرض ؛ فلم يجد أبو أحمد الموفّق — وهو طلحة بن المتوكّل على الله — بدًّا من التوجّه بنفسه ومباشرته هذا الأمر الجليل برأيه وتدبيره ، وحضوره معارك الحرب ، فندب أمامه ابنه أبا العباس ، وركب أبو أحمد إلى بستان الهادى ببغداد ، وعَرَض أصحاب أبى العباس ، وذلك فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، فكانوا عشرة آلاف ، فرسانا ورجّالة فى أحسن زىّ وأجمل هيئة ، وأكمل عدّة ، ومعهم الشّذَوات والسميريّات والمعابر برسم الرجّالة[1] ، كلّ ذلك قد أحكمت صنعته . فركب أبو العباس من بستان الهادى ، وركب أبو أحمد مشيّعا له حتى نزل القرية المعروفة بالفِرْك ، ثم عاد وأقام أبو العباس بالفِرْك أياما ؛ حتى تكامل عدده وتلاحق به أصحابه .

ثم رحل إلى المدائن ، فأقام بها أياما ، ثم رحل إلى دير العاقول ، فورَدَ عليه كتاب نُصَير المعروف بأبى حمزة ، وهو من جلّة أصحابه ، وكان صاحب الشّذَا والسميريّات ، وقد كان قدّمه على مقدّمته بدَجْلة يعلمه فيه أنّ سليمان بن جامع قد وافَى لمّا علم بشخوص أبى العباس ، والجبائىّ يقدُمه ، فى خيلهما ورجالهما وسفنهما حتى نزلا الجزيرة التى بحضرة

---

(١) الطبرى : «للرجالة» .

بردودا ، فوق واسط بأربعة فراسخ ، وأن سليمان بن موسى الشعرانىّ قد وافى نهر أبان بعسكره ؛ عسكر البرّ وعسكر الماء ؛ فرحل أبو العباس لمّا قرأ هذا الكتاب حتى وافى جَرْجَرَايا ، ثم منها إلى فم الصِّلح ، ثم ركب الظهر وسار حتى وافى الصِّلح ، ووجّه طلائعه ليتعرّف الخبر ، فأتاه منهم مَنْ أخبره بموافاة القوم ، وأن أوّلهم قريب من الصِّلح ، وآخرهم ببستان موسى بن بغا ، أسفل واسط ؛ فلما عرف ذلك عَدَل عن سَنَن الطريق ، ولقىَ أصحابه أوائل القوم ، فتطاردوا لهم عن وصيّةٍ أوصاهم أبو العباس بها ، حتى طمع الزّنج فيهم ، واغترّوا وأمعنوا فى اتّباعهم ، وجعلوا يصيحون بهم : اطلبوا أميراً للحرب ، فإن أميرَكم مشغول بالصّيد !

فلما قربوا من أبى العباس بالصِّلح ، خرج إليهم فيمن معه من الخيل والرجل ، وأمَرَ فصيح بأبى حمزة : يا نُصَير ، إلى أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب ! ارجع إليهم . فرجع نُصَير بشذَواته وسُميريّاته ؛ وفيها الرجال ، وركب أبو العباس فى سُميرية ، ومعه محمد بن شعيب ، وحفّ أصحابُه بالزنج مِن جميع جهاتهم ؛ فانهزموا ، ومنح الله أبا العباس وأصحابه أكتافَهم ، يقتلونهم ويطردونهم ، إلى أن وافوْا قرية عبد الله ؛ وهى على ستة فراسخ ، من الموضع الذى لقُوهم فيه ، وأخذوا منهم خمس شذوات وعشر سميريّات ، واستأمن منهم قوم ، وأسِر منهم أسرى ، وغرِق مِنْ سفنهم كثير ؛ فكان هذا اليوم أوّلَ الفتح على أبى العباس .

* * *

قال أبو جعفر : فلما انقضى هذا اليوم ، أشار على أبى العباس قوّاده وأولياؤه ، أن يجعل معسكره بالموضع الذى كان انتهى إليه ، إشفاقاً عليه من مقاربة القوم ، فأبى إلا نزول واسط بنفسه ، ولما انهزم سليمان بن جامع ومَن معه ، وضرب الله وجوهَهم ، انهزم سليمان بن

موسى الشعرانىّ عن نهر أبان ؛ حتى وافَى سوق الخميس ؛ ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير ؛ وقد كان القوم حين لَقُوا أبا العباس،أجالوا الرأى بينهم فقالوا : هذا فتًى حَدَث لم تطل ممارسته الحرب وتدرّبه بها ، والرأى أن نرميَه بجدّنا كلِّه ، ونجتهد فى أوّل لَقْية نلقاه فى إزالته؛ فلعلّ ذلك أن يروعَه،فيكون سببا لانصرافه عنّا ففعلوا ذلك وحشدوا واجتهدوا ، فأوقع الله تعالى بهم بأسه ونقمته،ولم يتمّ لهم ماقدروه ، وركب أبو العباس من غدِ يوم الوقعة ، حتى دخل واسطًا فى أحسن زىّ ، وكان ذلك يوم جُمْعة،فأقام حتى صلّى بها صلاة الجمعة ، واستأمن إليه خلق كثير من أتباع الزّنج وأصحابهم،ثم انحدر إلى العُمْر؛ وهو على فرسخ واحد من واسط،فاتّخذه معسكرا،وقد كان أبو حمزة نُصَير وغيره أشاروا عليه أن يجعلَ معسكره فوق واسط ، حذراً عليه من الزّنج فامتنع ، وقال : لست نازلا إلا العُمْر ، وأمر أبا حمزة أن ينزل فُوّهة برِدُودا فوق واسط ، وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شىء من آرائهم ، واستبدّ برأى نفسه،فنزل العُمْر وأخذ فى بناء الشّذَوات والسّميريّات ، وجعل يراوح الزّنج القتال ويغاديهم ، وقد رتّب خاصة غلمانه ومواليه فى سميريّات ، فجعل فى كلّ سميريّة أميراً منهم .

ثم إنّ سليمان استعدّ وحشد وفرّق أصحابه ، فجعلهم فى ثلاثة أوجه : فرقة أتت من نهر أبان ، وفرقة من برّ تمرتا ، وفرقة من برِدُودا ، فلقيَهم أبو العباس ؛ فلم يلبثوا أن انهزموا ، فلحقت طائفة منهم بسوق الخميس،وطائفة بمازروان ، وطائفة ببرّ تمرتا،وسلك آخرون نهر الماذيان ، واعتصم قوم منهم ببردودا ، وتبعهم أصحابُ أبى العباس ، وجعل أبو العباس قَصْده القوم الذين سلكوا نهر الماذيان،فلم يرجع عنهم حتى وافَى بهم بَرْمساور، ثم انصرف ، فجعل يقف على القُرى والمسالك ويسأل عنها ويتعرّفها ، ومعه الأدلّاء وأرباب الخِبْرة ؛ حتى عرف جميع تلك الأرض ومنافذها ، وما ينتهى إليه من

البطائح والآجام وغـيرها ؛ وعاد إلى مُعَسكره بالعُمَر ، فأقام به أياما مريحاً نفسه وأصحابه .

ثم أتاه مخبِر فأخبره أنّ الزّنج قد اجتمعوا واستعدّوا لكبس عسكره ، وأنهم على إتيانه من ثلاثة أوجه ، وأنهم قالوا : إن أبا العباس غلام يغرّر بنفسه ، وأجمع رأيهم على تكمين الكُمناء ، والمصير إليه من الجهات الثلاث ؛ فحذِر أبو العباس من ذلك واستعدّ له ، وأقبلوا إليه وقد كمنوا زهاء عشرة آلاف في برتمرتا ، ونحوا من العدّة في قسّ هثا[1] وتقدّم منها عشرون سميريّة إلى عسكر أبي العباس ؛ على أن يخرج إليهم فيهربوا بعد مناوشة يسيرة ، فيُجيزوا أبا العباس وأصحابه إلى أن يجاوزوا الكُمناء ؛ ثم يخرج الكمين عليهم من ورائهم .

فمنع أبو العباس أصحابَه من اتباعهم لما واقعوهم ، وأظهروا الكسرة والعوْد ، فعلموا أنّ كيدهم لم ينفذ فيه ، وخرج حينئذ سليمان والجبائيّ في الشَّذا والسميريّات العظيمة ، وقد كان أبو العباس أحسن تعبئة أصحابه ، فأمر أبا حمزة نُصيرا أن يخرُج إليهم في الشذا والسميريّات المرتّبة ؛ فخرج إليهم ، ونزل أبو العباس في شَذَاة من شَذَوَاتٍ قد كان سمّاها الغزال ، واختار لها جَدّافين ، وأخذ معه محمد بن شعيب الاشتيام ، واختار من خاصّة أصحابه وغلمانه جماعة ، دفع إليهم الرماح ، وأمر الخيّالة بالمسير بإزائه على شاطئ النهر ، وقال لهم : لاتدَعُوا السيرَ ما أمكنكم ، إلى أن تقطعكم الأنهار . ونَشَبت الحرب بين الفريقين ؛ فكانت معركة القتال من حَدّ قرية الرمل إلى الرُّصافة ؛ حتى أذن الله في هزيمة الزّنج ؛ فانهزموا ، وحاز أصحاب أبي العباس منهم أربع عشرة شذاة ، وأفلت سليمان والجبائيّ في ذلك اليوم بعد أن أشفَيَا على الهلاك راجلين ، وأخذت دوابّهما ، ومضى جيشُ الزّنج بأجمعه ، لا ينثني أحدٌ منهم حتى وافوا طَهِيثا ، وأسلموا ما كان معهم من أثاث وآلة ، ورجع

---

(١) في الأصول : « برهثا » .

أبو العباس ، فأقام بمعسكره بالعُمْر ؛ وأصلح ما كان أخذ منهم من الشَّذا والسفن [١] ، ورتّب الرجال فيها ، وأقام الزّنج بعد ذلك عشرين يوما لا يظهر منهم أحد .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إن الجبائىّ صار بعد ذلك يجىء فى الطلائع كلّ ثلاثة أيام وينصرف ، وحفر فى طريق عسكر أبى العباس آبارا ، وصيّر فيها سفافيد حديد ، وغشّاها بالبوارىّ ، وأخفى مواضعها ، وجعلها على سنن مسير الخيل ليتهوّر فيها المجتازون بها ، وجعل بواقِى طرف العسكر متعرّضا به ، لتخرج الخيل طالبةً له ، فجاء يوما وطلبته الخيل كما كانت تطلبه ، فقطر [٢] فرس رجل من قُوّاد الفراغنة فى بعض تلك الآبار ، فوقف أصحابُ أبى العباس بما ناله من ذلك على ما كان دبّره الجبّائىّ ، فحذِروا ذلك ، وتنكّبوا سلوك تلك الطريق .

قال أبو جعفر : وألحّ الزّنج فى مغاداة العسكر فى كلّ يوم بالحرب ، وعسكروا بنهر الأمير فى جمع كثير ، وكتب سليمان إلى القائم يسأله إمداده بسميريّات ، لكلّ واحدة منهن أربعون مجدافا ؛ فوافاه من ذلك فى مقدار عشرين يوما أربعون سميريّة ، فيها الرجال والسيوف والتِّراس والرماح ، فكانت لأبى العبّاس معهم وقعات عظيمة ، وفى أكثرها الظَّفَر لأصحابه والخذلان على الزّنج ؛ ولجّ أبو العباس فى دخول الأنهار والمضايق ؛ حتى انتهى إلى مدينة سليمان بن موسى الشعرانىّ بنهر الخميس التى بناها وسمّاها المنيعة ، وخاطر أبو العباس بنفسه مرارا ، وسلّم بعد أن شارف العطب ، واستأمن إليه جماعةٌ من قوّاد الزّنج فأمّنهم ، وخلع عليهم وضمّهم إلى عسكره ، وقتل من قوّاد

---

(١) الطبرى : « والسميريات » .
(٢) قطر : ذهب وأسرع .

الزّنج جماعة ، وتمادت الأيام بينه وبينهم ، واتّصل بأبي أحمد الموفّق أنّ سليمان بن موسى الشعراني والجبائيّ ومَنْ بالأعمال الواسطيّة من قُوّاد صاحب الزّنج ، كاتبوا صاحبَهم ، وسألوه إمدادَهم بعليّ بن أبان المهلبيّ ؛ وهو المقيم حينئذ بأعمال الأهواز ، والمستولى عليها ، وكان عليّ بن أبان قائد القواد وأمير الأمراء فيهم ، فكتب النّاجم إلى عليّ بن أبان يأمره بالمصير بجميع مَنْ معه إلى ناحية سليمان بن جامع ، ليجتمعا على حرب أبي العباس .

فصحّ عزمُ أبي أحمد على الشخوص إلى واسط وحضور الحرب بنفسه ، فخرج عن بغداد في صَفَر من هذه السنة ، وعسكر بالفِرْك وأقام بها أياما ؛ حتى تلاحق به عسكرُه ، ومن أراد المسيرَ معه ، وقد أعدّ آلة الماء[(١)] ورحل من الفرْك إلى المدائن ، ثم إلى دير العاقُول ، ثم إلى جَرْجَرايا ، ثم قُنَّى ، ثم جَبُّل ، ثم نزل الصِّلْح ؛ ثم نزل على فرسخ من واسط[(٢)] .

وتلقاه ابنُه أبو العباس في جَريدة خيل فيها وجوه قوّاده ، فسأله أبوه عن خبرهم ، فوصف له بلاءهم ونصحَهم ، فخلع أبو أحمد عَلَى أبي العباس ، ثم عَلَى القوّاد الذين كانوا معه . وانصرفَ أبو العباس إلى معسكره بالعُمْر فبات به ، فلما كان صبيحة الغد ، رحل أبو أحمد منحدراً في الماء ، وتلقّاه ابنه أبو العباس في آلات الماء بجميع العسكر في هيئة الحرب ، على الوضع الذى كانوا يحاربون الزّنج عليه ، فاستحسن أبو أحمد هيئتَهم ، وسُرّ بذلك ،وسار أبو أحمد حتى نزل بإزاء القرية المعروفة بقرية عبد الله ، ووضع العطاء، فأعطى الجيش كلّه أرزاقهم ، وقدم ابنه أبا العباس أمامه في السُّفن ،وسار وراءه . فتلقّاه

(١) الطبرى : « وقد أعد له قبل ذلك الشذا والسميريات والمعابر » .
(٢) بعدها في الطبرى : « فأقام هناك يومه » .

أبو العباس برءوس وأسرى من أصحاب الشّعرانىّ ، وكان لقيهم ، فأمر أبو أحمد بالأسرى فضربت أعناقهم ، ورحل يريد المدينة التى بناها الشعرانىّ بسوق الخميس ، وسمّاها المنيعة .

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب الشّعرانىّ قبل حرب سليمان بن جامع ؛ لأنّ الشعرانىّ كان وراءه ، فخاف إن بدأ بابن جامع ، أن يأتيَه الشعرانىّ من ورائه، فيشغله عمّنْ هو أمامه ؛ فلما قرُب من المدينة ، خرج إليه الزّنج ، فحاربوه حربا ضعيفة ، وانهزموا ، فعلّا أصحاب أبى العباس السُّور ، ووضعوا السيف فيمنْ لقيهم ، وتفرّق الزنج ، ودخل أبو العباس المدينة ، فقتلوا وأسروا ، وحوَوْا ما كان فيها ، وأفلت الشعرانىّ هاربًا ومعه خواصّه ، فاتّبعهم أصحاب أبى العباس ، حتى وافَوْا بهم البطائح ، فغرق منهم خَلْق كثير ، ولجأ الباقون إلى الآجام ، وانصرف الناس ، وقد استنقذ من المسلمات اللّواتى كنّ بأيدى الزّنج فى هذه المدينة خاصة خمسة آلاف امرأة ، سوى مَن ظُفِر به من الزّنجيات[١] .

فأمر أبو أحمد بحمْل[٢] النساء اللّواتى سباهنّ الزّنج إلى واسط ، وأنْ يدفعنَ إلى أوليائهنّ ، وبات أبو أحمد بحيال المدينة ، ثم باكرها ، وأذن للناس فى نَهْب ما فيها من أمتعة الزنج ، فدخلت ونهب كلّ ما كان بها ، وأمر بهدْم سورها ، وطمّ[٣] خندقها وإحراق ما كان بقى منها ، وظفر فى تلك القرى التى كانت فى يد الشعرانىّ بما لا يحصى من الأرز والحنطة والشعير ؛ وقد كان الشعرانىّ استولى على ذلك كلّه ، وقتل أصحابه ، فأمر أبو أحمد ببيعه وصرف ثمنه فى أعطيات مواليه وغلمانه وجنده .

---

(١) الطبرى : « من الزنجيات اللواتى كن فى سوق الخميس » .
(٢) الطبرى : « بحياطة النساء » .
(٣) طم الخندق والنهر : ردمه .

وأما الشعرانىّ فإنه التحق هو وأخوه بالمذار ، وكتب إلى النّاجم يعرّفه ذلك وأنه معتصِمٌ بالمذار .

* * *

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمدبنالحسن بن سهل ، قال : حدّثنى محمد بن هشام الكرنبائىّ المعروف بأبى واثلة ، قال : كنت بين يدى النّاجم ذلك اليوم وهو يتحدّث ، إذْ وَرَدعليه كتابُ سليمان بخبر الواقعة وما نزل به ، وانهزامِه إلى المذار ، فما كان إلّا أنْ فضّ الكتاب ، ووقعت عينه على ذكر الهزيمة ، حتى انحلّ وكاء بطنه ، فنهض لحاجته ثم عاد . فلما استوى به مجلسه ، أخذ الكتاب وتأمّله ، فوقعت عينُه على الموضع الذىأنهضه أولا ، فنهض لحاجته حتى فعل ذلك مرارا ، فلم أشكّ فى عِظَم المصيبة ، وكرهت أنْ أسأله ، فلما طال الأمرُ تجاسرتُ ، فقلت : أليس هذا كتاب سليمان بن موسى ؟ قال : بَلَى ، وردبقاصمة الظهر ؛ ذكر أنّ الّذين أناخُوا عليه أوقعوا به وقعةً لم تُبْقِ منه ولم تَذَرْ ، فكتب كتابه هذا وهو بالمذار ، ولم يسلم بشىءٍ غير نفسه . قال : فأكبرتُ ذلك — والله يعلم ماأخفى من السرور الذى وصل إلى قلبى — قال : وصبَرَ علىّ بن محمد على مكروه ماوصل إليه ، وجعل يظهر الجلَد ، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذى نزل بالشعرانىّ ، ويأمره بالتيقّظ فى أمره وحفظ ماقِبَله .

قال أبو جعفر : ثم لم يكن لأبى أحمد بعد ذلك همٌّ إلا فى طلب سليمان بن جامع ، فأتته طلائعه ، فأخبرته أنّه بالحوانيت ، فقدّم أمامه ابنَه أبا العباس فى عشرة آلاف ، فانتهى إلى الحوانيت ، فلم يجد سليمان بن جامع بها ، وألْفَى هناك من قوّاد السودان المشتهرين بالبأس والنجدة القائدين ، المعروف أحدهما بشبْل ، والآخر بأبى الندى[1] ، وهما من قدماء

---

(١) الطبرى : « أبو النداء » .

أصحاب النّاجم الذين كان قوّدهم فى بدء مخرَجه ، وكان سليمان قد خلّف هذين القائدين بالحوانيت ، لحفظ غلّاتٍ كثيرة كانوا قد أخذوها ، فحاربهما أبو العباس ، فقتَل من رجالهما وجرح بالسهام خلقا كثيرا - وكانوا أجْلَدَ رجالِ سليمان بن جامع ونخبتَهم الذين يعتمد عليهم - ودامت الحرب بين أبى العباس وبينهم ذلك اليوم إلى أن حَجَز الليل بين الفريقين . ورمى أبو العباس فى ذلك اليوم كُرْكيًّا طائرا ، فوقع بين الزّنج والسهمُ فيه، فقالوا : هذا سهم أبى العباس ، وأصابهم منه ذُعْر ، واستأمن فى هذا اليوم بعضُهم إلى أبى العباس فسأله عن الموضع الذى فيه سليمان بن جامع ،فأخبره أنه مقيم بمدينته التى بناها بطهيثا، فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان،وأن معه هنالك جميعَ أصحابه إلا الشبلا وأبا الندى ؛ فإنهما بالحوانيت لحفظ الغلّات التى حَوَوْها . فأمر حينئذ أبو أحمد أصحابه بالتوجّه إلى طهيثا ، ووضع العطاء ، فأعطى عسكره ، وشخص مصاعدًا إلى بردودا، ليخرج منها إلى طهيثا ؛ إذ كان لاسبيلَ له إليها إلّا بذلك ، فظنّ عسكره أنّه هارب ، وكادوا ينفضّون لولا أنّهم عرفوا حقيقــة الحــال ، فانتهى إلى القرية بالجوذية ، وعقد جسرا على النهر المعروف بمَهْروذ ، وعبَر عليه الخيل ، وسار إلى أن صار بينه وبين مدينة سليمان التى سمّاها المنصورة بطهيثا ميلان ، فأقام هناك بعسكره ، ومطرت السماء مطرا جَوْدًا ، واشتدّ البرد أيام مُقامه هنالك ،فشغل بالمطر والبْردعن الحرب فلم يحارب ،فلما فتر ركب فى نفر من قُوّاده ومواليه لارتياد موضع لمجال الخيل، فانتهى إلى قريب من سُور تلك المدينة، فتلقّاه منهم خلق كثير وخرج عليه كُمناء من مواضع شتّى ، ونشبت الحرب واشتدّت، فترجّل جماعةٌ من الفرسان ،ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التى كانوا أوغلوها ، وأسِر من غلمان أبى أحمد غلامٌ يقال له وصيف العَلَمدار وعدّة من قواد زيرك ، وقتِل فى هذا اليوم أحمد بن مهدىّ الجبائىّ أحد القوّاد العظماء من الزّنج ، رماه أبو العباس بسهم فأصاب أحدَ منخريه حتى خالط دِماغه ، فخرّ صريعا ،وحمِل من المعركة وهو حىّ ،فسأل أن يحمل

إلى الفاجر ، فحمل من هناك إلى نهر أبى الخصيب إلى مدينة النّاجم التى سماها المختارة، فوضع بين يديه ، وهو على ما به ، فعظُمت المصيبة عليه به إذ كانَ من أعظم أصحابه غناء ، وأشدّهم تصبّراً لإطاعته ، فمكث الجبائىّ يعالَج هنالك أياما ثم هلك ، فاشتدّ جزع الفاجم عليه ، وصار إليه ، فولىَ غسله وتكفينَه والصلاة عليه ، والوقوف على قبره إلى أن دفن ؛ ثم أقبل على أصحابه فوعظَهم ، وذكر موت الجبائىّ . وكانت وفاته فى ليلة ذات رُعود وبروق .

فقال فيما ذكر عنه : لقد سمعتُ وقتَ قبض روحه زَجَل الملائكة بالدّعاء له ، والترحّم عليه . وانصرف من دفنه منكسرا ، عليه الكآبة .

* * *

قال أبو جعفر : فلما انصرف أبو أحمد ذلك اليوم من الوقعة ، غاداهم بكْرة الغد ، وعبّأ أصحابه كتائب فرسانا ورجّالة ، وأمر بالشّذا والسميريّات أن يسارَ بها معه فى النهر الذى يشقّ مدينة طهيثا ، وهو النهر المعروف بنهر المنذر ، وسار نحو الزّنج ؛ حتى انتهى إلى سور المدينة قريب قوّادغلمانه فى المواضع التى يخاف خروج الزّنج عليه منها ، وقدم الرجّالة أمام الفرسان ، ونزل فصلّى أربع ركعات ، وابتهل إلى الله تعالى فى النّصر والدعاء للمسلمين ، ثم دعا بسلاحه فلبسه ، وأمَر ابنَه أبا العباس أنْ يتقدّم إلى السُّور ويحضّ الغلمان على الحرْب ففعل ؛ وقد كان سليمان بن جامع أعدَّ أمامَ سور المدينة التى سماها المنصورة خَندقا ، فلما انتهى الغلمان إليه تهيّبوا عُبورَه ، وأحجموا عنه ، فحرّضهم قوادهم ، وترجّلوا معهم فاقتحموه متجاسرين عليه ، فعبروه وانتهوْا إلى الزنج وهم مشرفون من سُور مدينتهم ، فوضعوا السلاح فيهم ، وعبَرت شِرْذمة من الفرسان الخندق خوضاً ، فلما رأى الزنج خبَر هؤلاء الذين لقوهم وجراءتهم عليهم ، ولّوْا منهزمين ، واتبعهم أصحابُ أبى أحمد ، ودخلوا

المدينة من جوانبها ، وكان الزّنج قد حصّنوها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام كلّ خندق منها سوراً يمتنعون به ، فجعلوا يقفون عند كلّ سور وخندق انتهوْا إليه، وأصحاب أبى أحمد يكشفونهم فى كلّ موقف وقفوه ، ودخلت الشذَا والسميريّات مدينتهم مشحونة بالغلمان المقاتلة من النهر الذى يشقّها بعد انهزامهم ، فأغرقت كلّ ما مرّت به لهم من شذاة أو سميرية ؛ واتّبعوا مَنْ تجافَى النهر منهم ؛ يقتلون ويأسِرون ؛ حتى أجلوْهم عن المدينة وعمّا يتصل بها ، وكان ذلك زُهاء فرسخ ، فحوى أبو أحمد ذلك كلّه ، وأفلت سليمان بن جامع فى نفرٍ من أصحابه ، واستحرّ القتلُ فيهم والأسر ؛ واستنقذ من نساء أهل واسط وصبيانهم وما اتصل بذلك من القرى ونواحى الكوفة زُهاء عشرة آلاف ؛ فأمر أبو أحمد بحياطتهم والإنفاق عليهم ، وحملوا إلى واسط فدفعوا إلى أهليهم ، واحتوى أبو أحمد على كلّ ما كان فى تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشى ؛ فكان شيئا جليلَ القدر ، فأمر ببيع الغلّات وغيرها من العُروض ، وصرَفه فى أعطيات عسكره ومواليه وأسر من نساء سليمان وأولاده عِدّة ، واستنقِذ يومئذ وصيف العَلمدار ومَنْ كان أسره الزّنج معه، فأخرجوا من الحبس وقد كان الزّنج أعجلَهم الأمر عن قتله وقتلهم ، وأقام أبو أحمد بطهيثا سبعةَ عشر يوما ، وأمر بهدْم سورِ المدينة ، وطمّ خنادقها ، ففعل ذلك ، وأمر بتتبّع مَنْ لجأ منهم إلى الآجام ، وجعل لكلّ مَن أتاه برجل منهم جُعْلاً ؛ فسارع الناس إلى طلبهم، فكان إذا أُتِىَ بالواحد منهم خَلَع عليه وأحسن إليه ، وضمّه إلى قوّاد غلمانه لما دبّر من استمالتهم ، وصرْفهم عن طاعة صاحبهم ، وندب نُصَيرا صاحبَ الماء فى شَذَا وسميريّات لطلب سليمان بن جامع والهاربين معه من الزّنج وغيرهم ، وأمره بالجدّ فى اتباعهم ؛ حتى يجاوز البطائح ، وحتى يلج دَجْلة المعروفة بالعوراء ؛ وتقدم إليه فى فتح الشّكور[1] التى كان سليمان أحدثها ليقطع بها الشذا عن دَجْلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبى الخصيب ؛ وتقدّم إلى

(١) السكور : جمع سكر بالكسر ؛ وهو ما سد به النهر .

زيرك فى المقام بطهيثا فى جمع كثير من العسكر، ليتراجع إليها الذين كان سليمان أجلاهم عنها من أهلها، فلما أحكم ما أراد إحكامه، تراجع بعسكره مزمعاً على التوجّه إلى الأهواز ليصلحها؛ وقد كان قدّم أمامه ابنه أبا العباس، وقد تقدّم ذكر علىّ أبان المهلبىّ، وكونه استولى على معظم كور الأهواز، ودوّخ جيوشَ السلطان هناك، وأوقعَ بهم، وغلَب على معظم تلك النواحى والأعمال.

فلما تراجع أبو أحمد وافَى بردودا، فأقام بها أياما، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه للمسير على الظّهر إلى الأهواز، وقدّم أمامه مَنْ يصلِح الطرق والمنازل؛ ويعدّ فيها المِيرَة للجيوش التى معه؛ ووافاه قبل أن يرحل عن واسط زيرك منصرفاً عن طهيثا، بعد أن تراجع إلى النواحى التى كان بها الزّنج أهلُها؛ وخلفّهم آمنين، فأمره أبو أحمد بالاستمداد والانحدار فى الشّذا والسميريّات فى نخبة عسكره وأنجادهم، فيصير بهم إلى دَجْلة العوراء، فتجتمع يده ويد نصير صاحب الماء على نقض دجلة، واتباع المنهزمين من الزّنج والإيقاع بكلّ من لقوا من أصحاب سليمان إلى أن ينتهىَ بهم المسير إلى مدينة الباجم بنهر أبى الخصيب، فإن رأوْا موضعَ حرب حاربوه فى مدينة؛ وكتبوا بما يكون منهم إلى أبى أحمد، ليرد عليهم من أمره ما يعملون بحسبه.

واستخلف أبو أحمد عَلَى مَنْ خَلَفه من عسكره بواسط ابنَه هارونَ، وأزمع على الشخوص فى خِفٍّ[1] من رجاله وأصحابه، ففعل ذلك بعد أن تقدّم إلى ابنه هارون فى أن يحدِر الجيشَ الذى خلّفه معه فى السفن إلى مستقرّه بدجْلة، إذا وافاه كتابُه بذلك، وارتحل شاخصا من واسط الأهواز وكُورها، فنزل باذِبين، إلى الطِّيب، إلى قُرْقُوب إلى وادى السوس؛ وقد كان عقِد له عليه جسْرٌ، فأقام به من أول النهار إلى وقت الظهر؛ حتى عَبَر عسكره أجمع. ثم سار حتى وافى السُّوس فنزلها؛ وقد كان أمر مسروراً البلخىّ وهو عامله على الأهواز بالقدُوم؛ عليه فوافاهم فى جيشه وقوّاده من غدِ اليوم الذى نزل فيه السُّوس؛

(١) الطبرى: « فيمن خف ».

لخلع عليه وعليهم ، وأقام بالسُّوس ثلاثا ، وكان ممّن أُسِر من الزنج بطهيثا أحمد بن موسى ابن سعيد البصريّ المعروف بالقَلوص ، وكان قائدا جليلا عندهم ، وأحد عُدَد النّاجم ، ومن قدماء أصحابه ، أُسِر بعد أن أثخن جراحات كانت فيها منيّتُه ، فأمر أبو أحمد باحتزاز رأسه ونصبه على جسر واسط .

* * *

قال أبو جعفر : واتّصل بالناجم خبرُ هذه الوقعة بطهيثا ، وعلم ما نيلَ من أصحابه ، فانتقض عليه تدبيرُه وضلّتْ حيلته ، فحمله الهلع إلى أن كتب إلى علىّ بن أبان المهلبىّ ، ـ وهو يومئذ مقيم بالأهواز فى زُهاء ثلاثين ألفا ـ يأمره بترك كل ما كان قِبَله من الميرَة والأثاث ، والإقبال إليه بجميع جيوشه ، فوصل الكتاب إلى المهلّبىّ ، وقد أتاه الخبر بإقدام أبى أحمد إلى الأهواز وكُوَرها ، فهو لذلك طائر العقل . فقرأ الكتاب ، وهو يحفزُه فيه حفزا بالمصير إليه ، فترك جميع ما كان قبله ، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائىّ . فلما شخص المهلَّبى عنه لم يثبُت ولم يقِمْ ، لما عنده من الوجل وترادُف الأخبار بوصول أبى أحمد إليه ، فأخلَى ما استخلِف عليه ، وتبعَ المهلبى ـ وبالأهواز يومئذ ونواحيها من أصناف الحبوب والتمر والمواشى شىء عظيم ـ فخرجوا عن ذلك كله ، وكتب الناجم أيضا إلى بهبوذ بن عبد الوهاب القائد ـ وإليه يومئذ الأعمال التى بين الأهواز وفارس ـ يأمره بالقدوم عليه بعسكره ، فترك بهبوذ ما كان قِبَله من الطعام والتمر والمواشى ، فكان ذلك شيئاً عظيما ، فحوى جمعَ ذلك أبو أحمد ؛ فكان قوةً له على الناجم ، وضعفاً للناجم .

ولما رحل المهلبىّ عن الأهواز بثّ أصحابه فى القُرى التى بينه وبين مدينة الناجم ، فانتهبوها وأجلوْا عنها أهلها ، وكانوا فى سِلْمهم ؛ وتخلّف خلقٌ كثير ممّن كان مع المهلبىّ من الفرسان والرجالة عن اللّحاق به ، وأقاموا بنواحى الأهواز ، وكتبوا يسألون أبا أحمد

الأمان لما انتهى عنه إليهم من عفوه عمّن ظفر به من أصحاب الناجم ؛ وكان الذى دعا الناجم إلى أمر المهلبىّ وبهبوذ بسرعة المصير إليه ، خوفه موافاة أبى أحمد بجيوشه إليه ، على الحالة التى كان الزنج عليها من الوجَل وشدّة الرعب ، مع انقطاع المهلبىّ وبهبوذ فيمن كان معهما عنه . ولم يكن الأمر كما قدّر ، فإنّ أبا أحمد إنما كان قاصداً إلى الأهواز ؛ فلو أقام المهلبىّ بالأهواز وبهبوذ بمكانه فى جيوشهما ، لكان أقربَ إلى دفاع جيش أبى أحمد عن الأهواز ، وأحفظ للأموال والغلّات التى تُرِكت بعد أن كانت اليد قابضةً عليها .

* * *

قال أبو جعفر : وأقام أبو أحمد حتى أحرز الأموال التى كان المهلبىّ وبهبوذ وخلفاؤهما تركوها ، وفتِحت السكور التى كان الناجم أحدثها فى دجلة ، وأصلِحت له طرقه ومسالكه . ورحل أبو أحمد عن السّوس إلى جُنديسابور فأقام بها ثلاثا ، وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر ، فوجّه فى طلبها وحملها ، ورحَلَ عن جُنْدَيسابور إلى تستَر ، فأقام بها لجباية الأموال من كُور الأهواز ، وأنفذ إلى كلّ كُورة قائداً ليروّج بذلك حملَ المال ، ووجه أحمد بن أبى الأصبغ إلى محمد بن عبد الله الكردىّ ، صاحب رَامَهُرْمُز وما يليها من القِلاع والأعمال ، وقد كان مالأ المهلبىّ ؛ وحمل إلى الناجم أموالاً كثيرة ، وأمره بإيناسه وإعلامه ما عليه رأيه فى العفو عنه ، والتغمّد لزلته ، وأن يتقدّم إليه فى حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز بجميع مَنْ معه من الموالى والغلمان والجند ، ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق ، وينهضهم معه لحرب الناجم . ففعل وأحضرهم ، وعُرِضوا رجلاً رجلاً ، وأعطوا ثم رحل إلى عسكر مُكْرَم ، فجعله منزلَه أياما ، ثم رحل منه فوافَى الأهوازَ وهو يرى أنّه قد تقدّمه إليها من المِيرَة ما يحمل عساكره ، فلم يكن كذلك ، وغلُظ الأمر فى ذلك اليوم ، واضطرب الناس اضطرابا شديدا ، فأقام ثلاثة أيام ينتظر ورودَ المِيرَة فلم ترد ، فساءت أحوالُ الناس ، وكاد ذلك يفرّق جماعتهم ، فبحث عن السبب المؤخر لورودها ،

فوُجد الزَّنج قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية ، كانت بين سوق الأهواز ورَامَهُرْمز ، يقال لها قنطرة أربق،فامتنع التجّار ومَنْ كان يحمل الميرة من الورود، لقطع تلك القنطرة، فركب أبو أحمد إليها ، وهى على فرسخين من سوق الأهواز ، فجمع مَنْ كان فى العسكر من السودان ، وأخذهم بنقل الصخر والحجارة لإصلاح هذه القنطرة،وبذل لهم من أموال الرعيّة ، فلم يرِمْ حتى أصلحت فى يومه ذلك،وردّت إلى ما كانت عليه،فسلكها الناس، ووافت القوافِل بالمِيرة ، فحيِيَ أهلُ العسكر،وحسُنت أحوالُهم ، وأمر بجمع السفن لعقد الجسر على دُجيل الأهواز ، فجمعت من جميع الـكُور ، وأقام بالأهواز أياما حتى أصلح أصحابه أمورَهم ، وما احتاجوا إليه من آلاتهم ، وحسُنت أحوال دوابّهم ، وذهَب عنها ما كان بها من الضّرّ بتأخر الأعلاف ، ووافَتْ كتبُ القوم الّذين تخلّفوا عن المهلّبىّ ، وأقاموا بعدَه بسوق الأهواز يسألون أبا أحمد الأمان،فأمّنهم،فأتاه منهم نحو ألف رجل، فأحسن إليهم ، وضمّهم إلى قوّاد غلمانه ، وأجرى لهم الأرزاق ،وعقد الجسر على دُجَيل الأهواز ، ورحل بعد أن قدّم جيوشه أمامه،وعَبَر دُجَيْلاً ، فأقام بالموضع المعروف بقصر المأمون ثلاثا،وقد كان قدّم ابنه أبا العباس إلى نهر المبارك،من فرات البصرة،وكتب إلى ابنه هارون بالانحدار إليه ليجتمع العساكر هناكَ ، ورحل أبو أحمد عن قصر المأمون إلى قُورَج العباس،ووافاه أحمد بن أبى الأصبغ هنالك بهدايا محمد بن عبدالله الـكردىّ صاحب رامهرمز من دوابّ ومال [1] . ثم رحل عن القُورَج فنزل الجعفرية ، ولم يـكن بها ماء ، وقد كان أنفذ إليها وهو بعد فى القُورَج من حفر آبارها ، فأقام بها يوماً وليلة ، وألفى بها ميراً مجموعة ، فاتّسع الجند بها، وتزوّدوا منها،ثم رحل إلى المنزل المعروف بالبشير ، فألفى فيه غديراً من ماء المطر ، فأقام به يوما وليلة،ورحل إلى المبارك وكان منزلًا بعيد المسافة،

---

(١) الطبرى : « وضوار وغير ذلك » .

فتلقّاه ابناه أبو العباس وهارون فى طريقه، وسلّما عليه، وسارا بسيْره ، حتى وَرَدبهم المبارك ؛ وذلك يوم السّبت للنّصف من رجب سنة : سبع وستين .

* * *

قال أبو جعفر، فأما نُصير ولزيرك، فقد كانا اجتمعا بدَجْلة العوراء، وانحدرا حتى وافيا الأبُلَّة بسفنهما وشذاها ، فاستأمن إليهما رجلٌ من أصحاب الناجم ، فأعلمهما أنّه قد أنفذ عددا كثيرا من السميريّات والزواريق مشحونة بالزّنج، يرأسهم قائدٌ من قُوّاده ؛ يقال له محمد بن إبراهيم ، ويكنَى أبا عيسى .

قال أبو جعفر : ومحمد بن إبراهيم هذا ، رجل من أهلِ البَصْرة ، جاء به إلى الناجم صاحب شُرطته المعروف بيَسار ، واستصلحه لكتابته فكان يكتب له حتى مات (١) ، وقد كانت ارتفعت حالُ أحمد بن مهدىّ الجُبّائىّ عند الناجم، وولّاه أكثر أعماله، فضمّ محمد بن إبراهيم هذا إليه ، فكان كاتبه، فلما قتل الجبّائىّ فى وقعة سليمان الشعرانىّ، طمع محمد بن إبراهيم هذا فى مرتبته، وأنْ يحلّه الناجم محلّه، فنبذ القلم والدواة، ولبس آلة الحرب، وتجرّد للقتال ، فأنهضه النّاجم فى هذا الجيش ، وأمره بالاعتراض فى دِجْلة لمدافعة مَنْ يردُها من الجيوش ، فكان (٢) يدخله أحيانا ، وأحيانا يأتى بالجمع الذى معه إلى النّهر المعروف بنهر يزيد، وكان معه فى ذلك الجيش من قُوّاد الزّنج شبل بن سالم وعمرو المعروف بغلام بُوذى (٣) وأخلاط من السودان وغيرهم ، فاستأمن رجلٌ منهم كان فى ذلك الجيش إلى لزيرك ونصير، وأخبرهما خبره، وأعلمهما أنه على القصد لسواد عسكر نُصير . وكان نصَير يومئذ معسكراً بنهر المرأة، وإنّهم على أن يسلكوا الأنهار المعترضة على نهر معقِل، وبَثق

---

(١) الطبرى : « فكان يكتب ليسار على ما يلى حتى مات » .
(٢) الطبرى : « فكان فى دجلة أحياناً » .
(٣) كذا فى الطبرى .

شيرين حتى يوافُوا الشرطة ، ويخرجوا من وراء العسكر ، فيكبّوا على مَنْ فيه ، فرجع نُصَير عند وصول هذا الخبر إليه من الأُبُلّة ، مبارزا إلى عسكره وسار لزيرك قاصدا بثق شيرين ، معارضا لمحمد بن إبراهيم ، فلقيَه في الطريق ، فوهب الله له العلوّ عليه بعد صبر من الزّنج له ، ومجاهدة شديدة ، فانهزموا ولجئوا إلى النهر الذى فيه كمينُهم ، وهو نهر يزيد ، فدلّ لزيرك عليهم ، فتوغّلت إليهم سمَيريّاته(١) ، فقتل منهم طائفة وأسر طائفة ؛ فكان محمد بن إبراهيم فيمن أسِر ، وعمرو وغلام بوذى ، وأخِذ ما كان معهم من السميريّات ؛ وهى نحو ثلاثين سميريّة ، وأفلت شبل بن سالم فى الذين نجوْا معه ، فلحق بعسكر الناجم ، وخرج لزيرك فى بَثْق شِيرين سالمًا ظافرا ، ومعه الأسارى ورءوس القتلى ؛ مع ما حوى من السميريّات والسفن ، وانصرف من دِجْلة العوراء إلى واسط ، وكتب إلى أبى أحمد بالفَتْح ، وعظم الجزَع على كلّ من كان بدَجْلة وكُورها من أتباع الناجم ؛ فاستأمن إلى نصير صاحب الماء ، وهو مقيم حينئذ بنهر المرأة زُهاء ألفى رجل من الزّنج وأتباعهم .

فكتب إلى أبى أحمد بخبرهم ، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان ، وإجراء الأرزاق عليهم ، وخلَطهم بأصحابه ، ومناهضة العدوّ بهم ، ثم كتب إلى نُصير يأمره بالإقبال إليه إلى نهر المبارك ؛ فوافاه هنالك .

وقد كان أبو العباس عند منصَرَفه إلى نهر المبارك ، انحدر إلى عسكر الناجم فى الشَّذَا ، فأوقع بهم فى مدينته بنهر أبى الخصيب ، فكانت الحرب بينهما من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر .

واستأمن إليه قائد جليل من قوّاد الناجم من المضمومين ، كانوا إلى سليمان بن جامع ، يقال له منتاب ، ومعه جماعة من أصحابه ؛ فكان ذلك مما كسر من الناجم وانصرف أبو العباس بالظّفَر ، وخلَع على منتاب الزنجىّ ، ووصله وحمله . فلما لقى أباه أخبَره خبَره ، وذكر

(١) الطبرى : « عليهم سميراته وشذواته » .

إليه خروجَه إليه فى الأمان ، فأمر أبو أحمد له بخلع وصلةٍ وحُملان ، وكان منتاب أوّل من استأمن من جملة قوّاد النّاجم .

* * *

قال أبو جعفر : ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك[1] كان أوّل ما عمل به فى أمر الناجم أن كتبَ إليه كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى ؛ مما ارتكب من سَفْك الدماء ، وانتهاك المحارم ، وإخراب البلدان والأمصار ، واستحلال الفُروج والأموال ، وانتحال مالم يجعله الله له أهلًا من النبوّة والإمامة ، ويعلمه أنّ التوبة له مبسوطة ، والأمان له موجود ؛ فإنْ نَزَع عمّا هو عليه من الأمور التى يسخطها الله تعالى ، ودخل فى جماعة المسلمين ، محا ذلك ماسلَف من عظيم جرائمه ؛ وكان له به الحظّ الجزيل فى دنياه وآخرته ، وأنفذ ذلك إليه مع رسول ، فالتمس الرسول إيصاله إليه ، فامتنع الزّنج من قَبُول الكتاب ، ومن إيصاله إلى صاحبهم ، فألقى الرسول الكتاب إليهم إلقاء ، فأخذوه وأتوا به صاحبَهم ، فقرأه ولم يجب عنه بشىء ، ورجع الرّسول إلى أبى أحمد ، فأخبره . فأقام خمسة أيام متشاغلًا بعرض السفن ، وترتيب القوّاد والموالى والغلمان فيها ، وتخيّر الرماة ، وانتخابهم المسير بها .

ثم سار فى اليوم السادس فى أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة النّاجم[2] التى سمّاها المختارة ، من نهر أبى الخصيب فأشرف عليها ، وتأمّلها فرأى مَنَعتها وحَصانتها بالسُّور والخنادق المحيطة بها ، وغوّر[3] الطريق المؤدّى إليها ؛ وماقد أعدّ[4] من المجانيق

(١) الطبرى : « ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك يوم السبت للنصف من رجب سنة سبع وستين ومائتين » .

(٢) الطبرى : « فلما كان يوم الخميس سار أبو أحمد فى أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الخبيث » .

(٣) الطبرى : « وما عور من الطرق المؤدية لها » .

(٤) الطبرى : « وأعد » .

والعرّادات[1] والقسيّ الناوكيّة ، وسائر الآلات على سُورها ، فرأى مالم يرَ مثله ممن تقدّم من منازِعى السلطان . ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم مااستغلظ أمره .

ولما عاين الزّنج أبا أحمد وأصحابَه ، ارتفعت أصواتهم بما ارتجّت له الأرض ،فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنَه أبا العباس بالتقدّم إلى سور المدينة ، ورَشْق مَنْ عليه بالسهام ، ففعل ودنا ، حتى ألصق شذواته بمسنّاة قصر الفاجر ، وانحاز الزنج بأسرهم إلى المواضع الذى دنتْ منه الشذا . وتحاشدوا ، وتتابعت سهامُهم وحجارة منجنيقاتهم وعرّاداتهم ومقاليعهم ورمى عوامُّهم بالحجارة عن أيديهم ؛ حتى مايقع طرف ناظر على موضع إلا رأى فيه سهما أو حجرا .

وثبت أبو العباس ، فرأى الفاجر وأشياعُه من جَهْدهم واجتهادهم وصَبْرهم مالا عهدَ لهم بمثله من أحدٍ ممّن حاربهم ، وحينئذ أمر أبو أحمد ابنَه أبا العباس بالرّجوع بمن معه إلى مواقفهم ليروّحوا عن أنفسهم ، ويداووا جروحهم ، ففعلوا ذلك ، واستأمن فى هذه الحال إلى أبى أحمد مقاتلان من مقاتلة السميريّات من الزّنج ، فأتياه بسُميريّاتهما وما فيها من الملّاحين والآلات ، فأمر لهما بخلَع ديباج ومناطق محلّاة بالذهب ، ووصلَهما بمال ، وأمر للملاحين بخلَع من الحرير الأحمر والأخضر الذى حسُن موقعه منهم ، وعمّهم جميعا بصِلاته ، وأمر بإدنائهم من الموضع الذى يراهم فيه نظراؤهم ؛فكان ذلك من أنجع[2] المكايد التى كيّد بها صاحب الزنج ؛ فلما رأى الباقون ماصار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم رغبوا فى الأمان ، وتنافسوا فيه ، فابتدر منهم جمع كثير مسرعين نحوه ، راغبين فيما شرّع لهم منه . فأمر أبو أحمد لهم بمثل ماأمر به لأصحابه ؛ فلمّا رأى الفاجر ركونَ أصحاب السميريّات إلى الأمان ، ورغبتهم فيه ، أمر بردّ من كان منهم فى دِجْلة إلى نهر أبى

(١) العرادة : شبه المنجنيق ؛ إلا أنها صغيرة .
(٢) الطبرى : « أبجع » .

الخصيب ، ووكّل بفوّهة النهر مَنْ يمنعهم الخروج ، وأمر بإظهار شذاواته الخاصّة، وندب لهم بهبوذ بن عبد الوهاب ـ وهو من أشدّ كماته بأساً ، وأكثرهم عَدداً وعُدّة ـ فانتدب بهبوذ لذلك ؛ وخرج فى جمع كثيف من الزّنج فكانت بينه وبين أبى حمزة نُصَيْر صاحب الماء وبين أبى العباس بن أبى أحمد وقعات شديدة ، فى كلّها يظهر عليه أصحاب السلطان ، ثم يعود فيرتاش ويحتشد ، فيخرج فيواقعهم ، حتى صَدَقُوه الحرب ، وهزموه وألجئوه إلى فناء قصر الناجم ، وأصابته طعنتان ، وجرح بالسهام ، وأوهنتْ أعضاءه الحجارة ، وأولجوه نهر أبى الخصيب وقد أشفى على الموت ، وقتِل قائد جليل معه من قُوّاد الزنج ذو بأس ونجدة ؛ وتقدُّم فى الحرب ؛ يقال له عميرة .

واستأمن إلى أبى أحمد جماعة أخرى ، فوصلهم وحَباهم وخَلَع عليهم ، وركب أبو أحمد فى جميع جيشه وهو يومئذ فى خمسين ألف رجل ، والناجم فى ثلاثمائة ألف رجل ، كلهم يقاتل ويدافع ؛ فمن ضاربٍ بسيف ، وطاعن برمح ، ورامٍ بقوس ، وقاذفٍ بمقلاع ، ورامٍ بعرّادة ومنجَنيق ، وأضعفهم أمرُ الرماة بالحجارة عَنْ أيديهم ، وهم النظّارة المكثرون للسّواد ، والمعينّون بالنّعير والصياح ، والنساء يَشْرَ كْنَهُم فى ذلك أيضا، فأقام أبو أحمد بإزاء عسكر الناجم إلى أن أضحى ، وأمر فنودى : الأمانُ مبسوطٌ للناس : أسودِهم وأحمرِهم ، إلا لعدوّ الله الدّاعى علىّ بن محمد . وأمر بسهام فعلقت فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان ، مثل الذى نُودى به ، ووعد الناس فيها الإحسان ورمى بها إلى عسكر الناجم ، فمالت إليه قلوب خَلق كثير من أولئك ؛ ممّن لم يكن له بصيرة فى اتباع الناجم ، فأتاه فى ذلك اليوم جمع كثير يحملهم الشّذَا والسُّميريّات، فوصلهم وحَباهم، وقدم عليه قائدان من قوّاده ، وكلاهما من مواليه ببغداد ، أحدهما بكتمر والآخر بغرا[1] فى جمع

(١) الطبرى : « جعفر بن بغلاغز » .

من أصحابهما ؛ فكان ورودهما زيادةً في قوّته . ثم رحل في غدِ هذا اليوم بجميع جيشه ، فنزل متاخماً لمدينة الفاجر في موضع كان تخيّره للنزول ، فأوطن [١] هذا الموضع ، وجعله معسكراً له وأقام به ، ورتّب قوّاده ورؤساء أصحابه مراتبهم ، فجعل نُصَيْرا صاحب الماء في أول العسكر ، وجعل زيرك التركيّ في موضع آخر ، وعليّ بن جهشار حاجبه في موضع آخر ، وراشداً مولاه في مواليه وغلمانه الأتراك والخزر والروم والديالمة والطبرية والمغاربة والزّنج والفراغنة والعجم والأكراد ، محيطاً هو وأصحابه بمضارب أبي أحمد وفَساطيطه وسُرادقاته ، وجعل صاعد بن مخلد وزيره وكاتبه في جيش آخر من الموالي والغِلْمان ، فوق عسكر راشد ، وأنزل مسروراً البلخيّ القائد صاحب الأهواز في جيش آخر على جانب من جوانب عسكره ، وأنزل الفضلَ ومحمداً ابني موسى بن بغا في جانب آخر بجيش آخر [٢] ، وتلاهما القائد المعروف بموسى [٣] ، ولَجُّوا في جيشه وأصحابه ، وجعل بُغراجَ التركيّ على ساقته في جيش كثيف بعدّة عظيمة ، وعدد جمّ . ورأى أبو أحمد من حال الفاجر وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم معه أنه لابدّ له من الصبر عليه ، وطول الأيام في محاصرته ، وتفريق جموعه ، وبذل الأمان لهم ، والإحسان إلى مَنْ أناب منهم ، والغلظة على مَنْ أقام عَلَى غيّه منهم ، واحتاج إلى الاستكثار من الشّذا وما يحارب به في الماء ، وشَرَع في بناء مدينة مماثلة لمدينة الفاجر ، وأمر بإنفاذ الرسل في حَمْل الآلات والصنّاع من البرّ والبحر ، وإنفاذ المِيَرِ والأزواد والأقوات وإيرادها إلى عسكره بالمدينة التي شرع فيها ، وسماها الموفقيّة . وكتب إلى عمّاله بالنّواحي في حَمْل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة ، وألّا يحمَل إلى بيت المال بالحضْرة درهمٌ واحد ، وأنفذ رسلا إلى سيراف وجَنّابة [٤] في بناء الشّذا

---

(١) أوطن الموضع : أقام فيه .

(٢) الطبري : « في جيشهما على النهر المعروف بهالة » .

(٣) الطبري : « موسى دالجويه » .

(٤) الطبري : « وجنابا »

والاستكثار منها لحاجته إلى أن يبثّها ويفرّقها فى المواضع التى يقطع بها المِيَرة عن النّاجم وأصحابه ، وأمر بالكتاب إلى عمّاله فى إنفاذ كلّ مَنْ يصلح للإثبات والعَرْض فى الدواوين ؛ من الجند والمقاتلة ، وأقام ينتظر ذلك شهرا أو نحوه ، فوردت المِيَر متتابعة ، يتلو بعضها بعضا، ووردت الآلات والصّناع وبنيت المدينة،وجهّز التّجار صنوف التجارات فى الأمتعة ، وحملوها إليها ، واتّخذت بها الأسواق ، وكثُر بها التّجّار والمجهّزون من كلّ بلد ، ووردت إليها مراكب من البحر ، وقد كانت انقطعت لقطع الناجم وأصحابه سُبُلَها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين ، وبنى أبو أحمد فى هذه المدينة المسجد الجامع ، وصلّى بالناس فيه واتّخذ دور الضّرب، فضرب بها الدنانير والدراهم ، فجمعت هذه المدينة جميعَ المرافق وسيق إليها صنوف المنافع ؛ حتى كان ساكنوها لا يفقدون فيها شيئا، مما يوجد فى الأمصار العظيمة القديمة ، وحملت الأموال وأدَرّ العطاء على الناس فى أوقاته ، فاتّسعوا وحسنت أحوالهم ، ورغب الناس جميعا فى المصير إلى هذه والمقام بها .

* * *

قال أبو جعفر: وأمر النّاجم بهبود بن عبد الوهاب، فعبر والنّاس غارّون فى سُميريّات إلى طرف عسكر أبى حمزة صاحب الماء، فأوقع به، وقتل جماعةً من أصحابه، وأسر جماعة، وأحرق أكواخا كانت لهم، وأرسل إبراهيم بن جعفر الهَمْدانى ـ وهو من جملة قوّاد النّاجم ـ فى أربعة آلاف زنجىّ، ومحمد بن أبان المكنى أبا الحسين ـ أخا علىّ بن أبان المهلّبى ـ فى ثلاثة آلاف والقائد المعروف بالدّور فى ألف وخمسمائة، ليُغيروا على أطراف عسكر أبى أحمد ويُوقعوا بهم. فنذِر بهم[1] أبو العبّاس ، فنهد إليهم فى جمع كثيف من أصحابه، وكانت بينه وبينهم حروب كان الاستظهار فيها كلّها له ، واستأمن إليه جماعة منهم ، فخلع عليهم ، وأمر أن يوقفوا بإزاء مدينة النّاجم ليعاينهم أصحابُه ، وأقام أبو أحمد يكايد النّاجم ، ويبذل

---

(١) نذر : علم .

الأموال لأصحابه تارةً ، ويواقعهم ويحاربهم تارة ؛ ويقطع المِيرة عنهم ، فسَرَى بهبود الزنجي في الأجلاد المنتخبين من رجاله ليلة من الليالى ، وقد تأدّى إليه خبر قَيْرَوان[1] ورد للتجّار ، فيه صنوف التجارات والأمتعة والمِيَر ، فكمن في النخل ، فلما ورد القيروان ، خرج إلى أهله وهم غارّون ، فقتل منهم وأسر ، وأخذ ما شاء أن يأخذ من الأموال .

وقد كان أبو أحمد علم بورود ذلك القيْروان ، وأنفذ قائداً من قُوّاده لبَذرقته[2] في جمع خفيف ، فلم يكن لذلك القائد ببهبود طاقة ، فانصرف عنه منهزماً .

فلما انتهى إلى أبي أحمد ذلك ، غَلظ عليه ما نال الناس في أموالهم وتجاراتهم ، فأمر بتعويضهم . وأخلف عليهم مثل الذى ذهب منهم ، ورتّب على فوهة النهر المعروف بنهر بيان ، وهو الذى دخل القيروان فيه جيشا قويا لحراسته .

* * *

قال أبو جعفر : ثم أنفذ النّاجم جيشاً عليه القائد المعروف بصندل الزنجيّ ، وكان صندل هذا — فيما ذكر — يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورءوسهن ويقلبهنّ تقليب الإماء ، فإن امتنعت منهنّ امرأة لطم وجهها ، ودفعها إلى بعض علوج الزّنج يواقعها ، ثم يخرجها بعد ذلك إلى سوق الرقيق فيبيعها بأوكس الثمن ، فيسّر الله تعالى قتلَه في وقعة جرت بينه وبين أبي العباس ، أسر وأحضر بين يدى أبي أحمد ، فشدّه كتافاً ، ورماه بالسهام حتى هلك .

* * *

قال أبو جعفر : ثم ندب الناجم جيشاً آخر ، وأمره أن يغير على طرف من أطراف عسكر أبي أحمد وهم غارُّون ، فاستأمن من ذلك الجيش زنجيّ مذكور ، يقال له مهذّب ،

---

(١) القيروان : القافلة . (٢) البذرقة : الحراسة والخفارة .

كان من فرسان الزّنج وشجعانهم ، فأُتى به إلى أبى أحمد وقت إفطاره ، فأعلمَه أنه جاء راغباً فى الطاعة والأمان ، وأن الزّنج على العبور فى ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات ، وأن المندوبين لذلك أنجادُهم وأبطالُهم ، فأمر أبو أحمد أبا العباس ابنَه أن ينهض إليهم فى قوّاد عيّنهم له ، فنهضوا ، فلما أحسّ ذلك الجيش بأنهم قد نذِروا بهم ، وعرفوا استئمان صاحبهم ، رجعوا إلى مدينتهم .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إن الناجم ندَب أجلّ قوّاده وأكبرهم قدْرا عنده ، وهو علىّ ابن أبان المهلبىّ ، وانتخَب له أهل البأس والجلَد ، وأمره أن يبيّت عسكر أبى أحمد ، فعبر فى زهاء خمسة آلاف رجل ، أكثرهم الزنج ، وفيهم نحو مائتى قائد من مذكوريهم وعظمائهم ، فعبَر ليلاً إلى شرقىّ دَجْلة ، وعزموا على أن يفترقوا قسمين : أحدهما خلف عسكر أبى أحمد والثانى أمامه ، ويغير الّذين أمامه على أصحاب أبى أحمد ، فإذا ثاروا إليهم ، واستعرت الحرب ، أكبّ أولئك الذين من وراء العسكر على مَن يليهم ؛ وهم مشاغيل بحرب مَن بإزائهم . وقدّر الناجم وعلىّ بن أبان أن يتهيّأ لهما من ذلك ما أحبّا ، فاستأمن منهم إلى أبى أحمد غلام كان معهم من الملاحين ليلاً ، فأخبره خبرهم ، وما اجتمعت عليه آراؤهم ، فأمر ابنَه أبا العباس والغلمان والقوّاد بالحذر والاحتياط والجدّ ، وفرّقهم فى الجهتين المذكورتين .

فلمّا رأى الزّنج أنّ تدبيرَهم قد انتقض ، وأنه قد فُطِن لهم ونُذِر بهم ، كرُّوا راجعين فى الطريق الذى أقبلوا فيه ، طالبين التخلّص . فسبقهم أبو العباس ولزيرك إلى فوّهة النهر ليمنعوهم من عبوره ، وأرسل أبو أحمد غلامه الأسود الزنجىّ الذى يقال له ثابت — وكان له قيادة على السودان الذين بعسكر الموفّق — فأمره أن يعترضهم ، ويقف لهم فى طريقهم

بأصحابه ، فأدركهم وهو فى خمسمائة رجل ، فواقَعهم وشدّ عَضُده أبو العباس ولزيرك بمن معهما ، فقتِل من الزنج أصحاب الناجم خلق كثير ، وأسِر منهم كثير ، وأفلت الباقون فلحقوا بمدينتهم ، وانصرف أبو العباس بالفتح وقد علق رءوس الزنج فى الشَّذَا وصلب الأسارى أحياء فيها ، فاعترضوا بهم مدينتهم ليُرهبوا أصحابهم ، فلما رأوهم رعبوا وانكسروا . واتصل بأبى أحمد أن النّاجم مَوّه على أصحابه ، وأوهم أن الرءوس المرفوعة مُثُلٌ مثّلها لهم أبو أحمد ليراعوا ، وأن الأسارى من المستأمنة . فأمر أبو أحمد عند ذلك بجميع الرءوس والمسير بها إلى إزاء قصر الناجم ، والقذف بها فى منجنيق منصوب فى سفينة إلى عسكره ، ففعل ذلك ، فلما سقطت الرءوس فى مدينتهم ، عرف أولياء القتلى رءوس أصحابهم ، فظهر بكاؤهم وصُراخهم .

* * *

قال أبو جعفر : وكانت لهم وقعات كثيرة بعد هذه ، فى أكثرها ينهزم الزنج ويُظفَر بهم ؛ وطلب وجوهُهم الأمان ، فكان ممّن استأمن محمد بن الحارث القائد ، وإليه كان حفظ النهر المعروف بَمُنكى ، والسور الذى يلى عسكر أبى أحمد ، كان خروجه ليلاً مع عدّة من أصحابه ، فوصله أبو أحمد بصِلاتٍ كثيرة ، وخلع عليه ؛ وحمَله على عدّة دوابّ بحليتها وآلاتها ، وأسنى له الرزق .

وكان محمد هذا حاول إخراجَ زوجته معه ـ وهى إحدى بنات عَمّه ـ فعجزت المرأة عن اللّحاق به ، فأخذها الزّنج فردّوها إلى الناجم ، فحبسها مدة ، ثم أمر بإخراجها والنّداء عليها فى السوق ، فبيعت .

وممن استأمن ، القائد المعروف بأحمد البرذعىّ كان من أشجع رجالهم ، وكان يكون أبدا مع المهلّبىّ .

وكان ممن استأمن مربدا [١] القائد وبرنكوبة [٢] وبيلويه [٣] ، فخلعت عليهم الخلع ووُصلوا بالصلات الكثيرة ، وحملوا على الخيول المحلاة ، وأحسن إلى كلّ مَن جاء معهم من أصحابهم .

* * *

قال أبو جعفر : فضاقت الميرُ على الناجم وأصحابه ، فندب شبلاً القائد وأبا الندى — وهما من رؤساء قوّاده ، وقدماء أصحابه الّذين يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم — وأمرهما بالخروج فى عشرة آلاف من الزنج وغيرهم ، والقصدِ إلى نهر الدير ونهر المرأة ونهر أبى الأسد ، والخروج مِن هذه الأنهار إلى البطيحة ، والغارة [٤] على المسلمين وأهل القرى وقطع الطرقات ، وأخذ جميع ما يقدرون عليه من الطعام والمِيرَة وحمله إلى مدينته ، وقطعه عن الوصول إلى عسكر أبى أحمد . فندَب أبو أحمد لقصدهم مولاه ازبرك فى جيش كثيف ، بعضه فى الماء ، وبعضه على الظهر ، فوافعهم فى الموضع المعروف بنهر عمر ، فكانت بينه وبينهم حرب شديدة ، أسفرت عن انكسارهم وخذلان الله لهم ، فأخذ منهم أربعمائة سفينة وأسرى كثيرين ، وأقبل بها وبهم ، وبالرءوس إلى عسكر أبى أحمد .

قال أبو جعفر : وندب أبو أحمد ابنه أبا العباس لقصْد مدينة الناجم ، والعلوّ عليها ، فقصدها من النهر المعروف بالغربى ، وقد أعد النّاجم به علىّ بن أبان المهلبىّ ، فاستعرت الحرب بين الفريقين ، فأمدّ النّاجم عليا بسليمان بن جامع فى جمْع كثير من قوّاد الزنج ، واتّصلت الحرب ، واستأْمن كثير من قواد الزنج إلى أبى العباس وامتدّت الحرب إلى بعد العصر ، ثم انصرف أبو العباس ، فاجتاز فى منصرفه بمدينة الناجم ، وقد انتهى إلى الموضع المعروف

---

(١) الطبرى : « مديد » .
(٢) الطبرى : « وابن أنكاويه » .
(٣) الطبرى : « ومنيته » .
(٤) الطبرى : « للغارة » .

بنهر الأتراك ، فرأى فى ذلك النهر قلّة من الزّنج الذين يحرسونه ، فطمع فيهم ، فقصد نحوهم ، وصعد جماعة من أصحابه سورَ المدينة ، وعليه فريق من الزّنج ، فقتلوا مَنْ أصابوا هناك ، ونذر الناجم بهم ، فأنجدهم بقوّاد من قوّاده ، فأرسلَ أبو العباس إلى أبيه يستمدّه ، فوافَى من عسكر أبى أحمد مَنْ خَفّ من الغلمان ، فقوِىَ بهم عسكرُ أبى العباس .

وقد كان سليمان بن جامع لمّا رأى أنّ أبا العباس قد أوْغَلَ فى نهر الأتراك ، صَعِد فى جمع كثير من الزّنج ، ثم استدبرَ أصحابَ أبى العباس وهم متشاغلون بحرب مَنْ بإزائهم على سور المدينة ، فخرج عليهم من ورائهم وخَفَقَتْ طبولهم ، فانكشف أصحابُ أبى العباس وحملت الزّنج عليهم من أمامهم ، فأصيب فى هذه الوقعة جماعةٌ من غلمان أبى أحمد وقوّاده ، وصار فى أيدى الزّنج عدّة أعلام ومطارد ، وحامَى أبو العباس عن نفسه حتى انصرف سالمًا ، فأطمعت هذه الوقعة الزّنج وأتباعهم (١) ، وشدّت قلوبهم ، فأجمع أبو أحمدَ على العبور بجيشه أجمع ، وأمر بالاستعداد والتأهُّب ، فلما تهيّأ له ذلك عَبَر فى آخر ذى الحجة من سنة سبع وستين ، فى أكثف جمع ، وأكمل عُدّة ، وفرّق قوّاده على أقطار مدينة الناجم ، وقصد هو بنفسه ركنًا من أركانها ، وقد كان النّاجم حصّنه بابنه الذى يقال له أنكلاى ، وكَنَفه بعلىّ بن أبان ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمدانىّ وحفّه بالمجانيق والعرّادات (٢) والقسىّ الناوكيّة ، وأعدّ فيه الناشبة (٣) وجمع فيه أكثر جيشه ، فلما التقى الجمعان أمر أبو أحمد غلمانه النّاشبة والرامحة (٤) والسُّودان بالدنوّ من هذا

---

(١) الطبرى : « وتباعهم » .

(٢) العرادة بالتشديد : من آلات الحرب ، أصغر من المنجنيق

(٣) الناشبة : الرماة بالنشاب ؛ والنشاب : السهام ؛ مأخوذة من النشوب .

(٤) الرامحة : الرماة بالرمح .

الركن ، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك ، وهو نهر عريض عزيز الماء ، فلما انتهوْا إليه أحجموا عنه ، فصِيح بهم ، وحُرّضوا على العبور ، فعبروه سباحةً ، والزّنج ترميهم بالمجانيق والعرّادات والمقاليع والحجارة عن الأيدى ، والسهام عن قسىّ اليد، وقسىّ الرجْل ، وصنوف الآلات التى يرمى عنها ، فصبروا على جميع ذلك حتى جاوزوا النهر وانتهوْا إلى السور ، ولم يكن لحِقهم من الفَعَلة مَنْ كان أعدّه لهدمه. فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح ، ويسّر الله تعالى ذلك ، وسهلوا لأنفسهم السبيل إلى علوّه ، وحضرهم بعضُ السلاليم التى كانت اتّخذت لذلك ، فعلوا الركنَ ونصبوا عليه عَلماً عليه مكتوب : «الموفق بالله» ، وأُكبّت عليهم الزنج ، فحاربوا أشدّ حرب ، وقتل من قوّاد أبى أحمد القائد المعروف بثابت الأسود ، رُمِىَ بسهم فى بطنه فمات ، وكان من جِلّة القوّاد ، وأحرق أصحابُ الموفق ما على ذلك الركن من المنجنيقات والعرّادات .

وقصد أبو العباس بأصحابه جهةً أخرى من جهات المدينة ليدْخلها من النهر المعروف بمَنكى ، فعارضه علىّ بن أبان فى جمع من الزّنج ، فظهر أبو العباس عليه ، وهزمه ، وقتل قوما من أصحابه ، وأفلت علىّ بن أبان المهلّبىّ راجعا ، وانتهى أبو العباس إلى نهر مَنكى وهو يرى أنّ المدخل من ذلك الموضع سهل ، فوصل إلى الخندق ، فوجده عريضاً منيعا، فحمل أصحابه أن يعبروه فعبروه ، وعبرته الرجّالة سباحة ، ووافوا السور فثلمُوا منه ثُلْمَةً واتسع لهم دخولها فدخلوا ، فلقى أوّلهم سليمان بن جامع وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية، فحاربوه وكشفوه ، وانتهوْا إلى النهر المعروف بابن سمعان ، وهو نهر يشق بالمدينة ، وصارت الدار المعروفة بدار ابن سمعان فى أيديهم ، فأحرقوا ما كان فيها وهدموها .

فوقفت الزّنج على نهر ابن سَمْعان ، ووقفوا طويلا ودافعوا مدافعةً شديدة ، وشدّ بعض موالى الموفق على علىّ بن أبان فأدبر عنه هاربا فقبض على مئزره ، فحل على المئزر ونبذه إلى الغلام ، ونجا بعد أنْ أشرف على الهلكة ، وحمل أصحاب أبى أحمد على الزنج ، فكشفوهم

عن نهر ابن سمعان، حتى وافوا بهم طرَفَ المدينة، وركب الناجم بنفسه فى جمع من خواصّه؛ فتلقّاه أصحاب الموفّق، فعرفوه وحملوا عليه، وكشفوا مَنْ كان معه حتى أفرد ، وقرب منه بعضُ الرجّالة حتى ضرب وجه فرسه بتُرْسِه ، وكان ذلك وقتَ غروب الشمس ، وحَجَز اللّيل بينهم وبينه وأظلم ، وهبّت ريح شمال عاصف ، وقوِىَ الجَزْرُ ؛ فلصق أكثر سفن الموفّق بالطين، وحرّض الناجم أصحابه، فثاب منهم جَمْعٌ كثير، فشدّوا على سفن الموفّق، فنالوا منها نيلاً ، وقتلوا نفراً ، وصمد بهبوذ الزنجىّ لمسرور البلخىّ بنهر الغربىّ، فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر أسرى، وصار فى يده دوابّ من دوابّهم، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفّق، وقد كان هرب فى هذا اليوم كثير من قوّاد صاحب الزّنج، وتفرّقوا على وجوههم نحو نهر الأمير وعبّادان وغيرها، وكان ممّن هرب ذلك اليوم منهم أخو سليمان ابن موسى الشعرانىّ ومحمد وعيسى، فمضيا يؤمّان البادية، حتى انتهى إليهما رجوعُ أصحاب الموفّق ، ومانيل منهم ، فرجعا ، وهرب جماعة من العرب الذين كانوا فى عسكر النّاجم ، وصاروا إلى البصرة ، وبعثوا يطلبون الأمان من أبى أحمد ، فأمّنهم، ووجّه إليهم السفُن ، وحملهم إلى الموفّقية ، وخلع عليهم، وأجرى لهم الأرزاق والأنزال .

وكان ممن رغب فى الأمان من قوّاد الناجم القائد المعروف بريحان بن صالح المغربىّ، وكانت له رياسة وقيادة ، وكان يتولّى حجبة أنكلانىّ بن الناجم(١). فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه، فأجيب إلى ذلك، وأنفذ إليه عدد كثير من الشَّذَا والسُّميريّات والمعابر مع لزيرك القائد ، صاحب مقدّمة أبى العباس ؛ فسلك نهر اليهودى إلى آخره ، فألفىَ به ريحان القائد ومَنْ كان معه من أصحابه ، وقد كان الموعد تقدّم منه فى موافاة ذلك الموضع . فسار لزيرك به وبهم إلى دار الموفّق ، فأمر لريحان بخلع جليلة ،

(١) الطبرى : « ابن الخبيث المعروف بأنكلاى » .

وحمِل على عدّة أفراس بآلتها وحليتها ، وأجيز بجائزة سنيّة ، وخَلَع على أصحابه،وأجيزوا على أقدارهم ومراتبهم،وضمّ ريحان إلى أبي العباس،وأمر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار النّاجم،فوقفوا هنالك فى الشّذَا ؛ عليهم الخلع الملوّنة بصنوف الألوان والذهب حتى عاينوهم مشاهدة ، فاستأمن فى هـذا اليوم من أصحاب ريحان الذين كانوا تخلّفوا عنه ومن غيرهم جماعة ، فأُلحقوا فى البرّ والإحسان بأصحابهم [1] .

***

ثم استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان فى أول يوم من سـنة ثمان وستين ومائتين ، وكان أحدَ ثقات الناجم ، ففعل به من الخلَع والإحسان مافعل بريحان ، وحُمِل فى سُميريّة حتى وقف بإزاء قصر الناجم ؛ حتى يراه أصحابه ، وكلّمهم وأخبرهم أنهم فى غرورٍ من صاحبهم ، وأعلمهم ماوقف عليـه من كذبه وفجوره ؛ فاستأمن فى هـذا اليوم خلقٌ كثير من قوّاد الزنج وغـيرهم ، وتتـابع النّاس فى طلب الأمان ، وأقام أبو أحمـد يُجِمّ أصحابَه ، ويُداوِى جراحهم ، ولا يحارب ولا يعبُر إلى الزّنج إلى شهر ربيع الآخر .

ثم عبر جيشه فى هذا الشهر المذكور مرتّبا على ما استصلحه من تفريقه فى جهاتٍ مختلفة ، وأمرهم بهدْم سور المدينة ، وتقدّم إليهم أن يقتصرُوا على الهدْم ، ولا يدخلوا المدينة ، ووكَّلَ بكلّ ناحية من النواحى التى وجّه إليها قوّاده سفناً فيها الرّماة ، وأمرهم أن يحمُوا بالسهام من يهدِم السّور من الفَعَلة،فثلمت فى هذا اليوم من السور ثُلَمٌ كثيرة، واقتحم أصحاب أبى أحمد المدينة من جميع تلك الثّلَم وهزموا مَنْ كان عليها من الزّنج ، وأوْغلوا فى طلَبهم ، واختلف بهم طرق المدينـة ، وتفرّقت بهم السّـكك والفِجاج ،

---

(١) فى الطبرى بعدها : « وكان خروج ريحان بعد الوقعة التى كانت يوم الأربعاء فى يوم الأحد لليلة بقيت من ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين » .

وانتهوا إلى أبعد من المواضع التى كانوا وصلوا إليها فى المرّة التى قبلها، فتراجعت إليهم الزّنج، وخَرَج عليهم كمناؤهم من نواحٍ يهتدون إليها، ولا يعرفها جيش أبى أحمد. فتحيّر جيش أبى أحمد، فقتِل منهم خلق كثير، وأصاب الزّنج منهم أسلحة وأسلابا؛ وأقام ثلاثون ديلميًّا من أصحاب أبى أحمد يُدافعون عن النّاس ويحمونهم، حتّى خَلَص إلى السفن مَنْ خَلَص، وقتلت الديالمة عن آخرها، وعظُم على الناس ما أصابهم فى هذا اليوم؛ وانصرف أبو أحمد إلى مدينته الموفّقيّة، فجمع قوّاده، وعَذَلهم على ما كان منهم من مخالفة أمره، والإفساد عليه فى رأيه وتدبيره، وتوعّدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لمثل ذلك، وأمر بإحصاء المقتولين[1] من أصحابه، فأُتِىَ بأسمائهم، فأقرّ ما كان جاريًا لهم على أولادهم وأهاليهم، فحسُن موقع ذلك، وزاد فى صحة نيّات أصحابه، لما رأوا من خياطته خلف مَنْ أصيب فى طاعته.

قال أبو جعفر: وشرع أبو أحمد فى قطع المِيرة عن مدينة الفاجر من جميع الجهات، وقد كان يجلَب إليهم من السّمك الشىء العظيم من مواضع كثيرة، فمنع ذلك عنهم، وقتِل القومُ الّذين كانوا يجلبونه، وأخذتْ عليهم الطُّرق، واسدّ عليهم كلّ مسلكٍ كان لهم، وأضرّ بهم الحصار، وأضعف أبدانهم وطالت المدّة، فكان الأسير منهم يؤسَر، والمستأمِن يستأمِن؛ فيُسأل عن عهده بالخبز[2]، فيقول: مذ سنة أو سنتين؛ واحتاج مَنْ كان منهم مقيما فى مدينة الفاجر إلى الحيلة لقوّته، فتفرقوا فى الأنهار النائية عن عسكرهم طلبا للقوت، وكَثُرت الأسارى منهم فى عسكر أبى أحمد؛ لأنه كان يلتقطهم بأصحابه يوما فيوما، فأمر باعتراضهم[3] لمّا رأى كثرتهم، فمَنْ كان منهم ذا قوّة وجَلَدٍ ونهوضٍ بالسّلاح منّ عليه، وأحسن إليه، وخلَطه بغِلمانه السُّودان، وعرّفهم مالهم عنده من البرّ والإحسان ومَنْ كان منهم ضعيفا لا حراك به، أو شيخًا فانيا لا يُطيق حَمْل السلاح، أو مجروحا جراحة قد أزمنته، أمرَ بأن يكسَى ثوبين، ويوصَل بدارهم، ويزوّد ويحمل إلى عسكر

(١) الطبرى: «المفقودين».
(٢) فى الأصول: «بالخبر»، والصواب ما أثبته من الطبرى.
(٣) د: «بعرضهم».

النّاجم ، فيلقى هناك بعد أن يوصى[1] بوصف ماعاين من إحسان أبى أحمد إلى كلّ مَنْ يصير إليه ، وأنّ ذلك رأيه فى جميع مَنْ يأتيه مستأمنا ، أو يأسره ، فتهيّأ له بذلك ماأراد من استمالة الزّنج ؛ حتى استشعروا الميلَ إلى ناحيته ، والدخولَ فى سِلْمه وطاعته .

* * *

قال أبو جعفر : ثم كانت الوقعة التى قُتِل فيها بهبوذ[2] الزنجىّ القائد وجرح أبو العباس ، وذلك أن بهبوذ كان أ كثرَ أصحاب الناجم غاراتٍ ، وأشدّهم تعرّضا لقطع السُّبل ، وأخْذ الأموال ، وكان قد جمع من ذلك لنفسه مالًا جليلا ، وكان كثير الخروج فى السُّميريّات الخِفاف ، فيخترق بها الأنهار المؤدّية إلى دَجْلة ، فإذا صادف سفينةً لأصحاب أبى أحمد أخذَها واستولَى على أهلها ، وأدخلها النّهر الذى خرج منه ، فإنْ تبعه تابع حتى توغّل فى طلبه ، خرج عليه من ذلك النّهر قومٌ من أصحابه ، قد أعدّهم لذلك ، فأقطعوه وأوقعوا به . فوقع التحرُّز حينئذمنه ، والاستعداد لغاراته ، فركب شذاةً ، وشبّهها بشذوات أبى أحمد ، ونصب عليها علماً مثل أعلامه ، وسار بها ومعه كثير من الزّنج ، فأوقع بكثير من أصحاب أبى أحمد ، وقتَل وأسر . فندَب له أبو أحمد ابنَه أبا العباس فى جمعٍ كثيف ، فكانت بينهما وَقْعةٌ شديدة ، ورُمِى فيها أبو العباس بسهمٍ فأصابه ، وأصابت بهبوذ طعنةٌ فى بطنه من يدِ غلام من بعض سُميريّات أبى العباس ، فهوَى إلى الماء ، فابتدره أصحابه ، فحملوه ورجعوا به إلى عسكر النّاجم ، فلم يصلوا به إلّا وهو ميت ، فعظمت الفجيعة به على الناجم وأوليائه ، واشتدّ عليه جزعهم ، وخفِىَ موته على أبى أحمد ؛ حتى استأمن إليه رجلٌ من الملاحين ، فأخبره بذلك ؛ فسرّ ، وأمر بإحضار الغلام الذى طعنه ، فوصله وكساه وطوّقه ، وزاد فى رزقه . وأمر لجميع مَنْ كان فى تلك السُّميريّة بصِلات وخِلَعَ ، وعولج أبو العباس مِنْ جُرْحِه مدّة حتى برأ ، وأقام أبو أحمد فى مدينته الموفّقية ممسِكاً عن حرب الزّنج ، محاصرا لهم

---

(١) الطبرى : « يؤمر » .   (٢) الطبرى : « بهبوذ بن عبد الوهاب » .

بسدّ الأنهار وسَكْرها ، واعترض من يخرج منهم لجلب الميرة ، ومنتظرا برء ولده؛ حتى كَمَل بعد شهور كثيرة ، وانقضت سنة ثمان وستين .

ونُقل إسحاق بن كنداجيق عن البصرة وأعمالها ؛ فولِّى الموصلَ والجزيرة وديار ربيعة وديار مُضر .

ودخلت سنة تسع وستين وأبو أحمد مقيمٌ على الحصار ، فلما أمِنَ على أبي العباس ، وركب على عادته ، عاود النهوضَ إلى حرب النّاجم .

* * *

قال أبو جعفر : وقد كان بهبوذ لمّا هلك طمِعَ الناجم فى أمواله لكثرتها ووفورها، وصحّ عنده أنه تركَ مائتى ألف دينار عينا ، ومن الجواهر وغيرها بمثل ذلك،فطلب المالَ المذكور بكلّ حيلة ،وحبَسَ أولياء بهبوذ وقرابته وأصحابَه، وضربهم بالسياط ،وأثار دوراً من دوره، وهدم أبنيةً من أبنيته ؛ طمعاً فى أن يجد فى شيء منها دفينا ؛ فلم يجد من ذلك شيئا؛ فكان فعله هذا أحدَ ما أفسدَ قلوب أصحابه عليه،ودعاهم إلى الهرب[1] منه،والزهد فى صحبته، فاستأمَن منهم إلى أبى أحمد خلقٌ كثير ، فوصَلَهم وخلع عليهم ، ورأى أن يعبُر دِجلة من الجانب الشرقىّ إلى الجانب الغربىّ ، فيجعل لنفسه هناك معسكرا ، ويبنى به مدينةً أخرى، ويضيق خناق الناجم ، ويتمكّن من مغاداته ومراوحته بالحرب ، فقد كانت الريح العاصف تحولُ بينه وبين عبور دَجْلة فى كثير من الأيام بالجيش ؛ فأمر بقطع النخل المقارب لمدينة النّاجم لذلك ، وإصلاح موضع يتخذه معسكراً ، وأن يحفّ بالخنادق ، ويحصر بالسور ليأمن بيَات الزّنج ، وجعل على قوّاده نوائبَ لذلك ، ومعهم الفعلة والرجال،فقابل الناجم ذلك ؛ بأن جعلَ علىّ بن أبان المهلبى وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانىّ نُوَبًا للحرب والمدافعة عن ذلك ؛ وكان أنكلاىّ بن الناجم ربّما حضر فى نَوْبة أيضا ، وضمّ

(١) الطبرى : « الحرب » .

إليه سليمان بن موسى بن الشعرانىّ ، وقد كان صار إليه من المذار بعد الوقعة التى انهزم فيها ، وعلم الناجم أنّ أبا أحمد إذا جاوره صعُب أمره ، وقرُب على مَنْ يريد اللّحاق به من الزّنج المسافة مع مايدخل قلوب أصحابه بمجاورته من الرّعب والرهبة ، وفى ذلك انتقاض تدبيره ، وفساد جميع أموره ؛ فكانت الحرب بين قوّاد أبى أحمد وقوّاد الناجم متّصلة ؛ على إصلاح هذا الموضع ، ومدافعة الزّنج عنه .

واتفق أن عصفت الرياح يوما وجماعة من قوّاد أبى أحمد بالجانب الغربىّ للعمل الذى يريدونه ، فانتهز الناجم الفرصة فى امتناع العبور بدَجْلة ، لعصف الريح ، فرماهم بجميع جيشه ، وكاثرهم برَجله ، فلم تجد الشّذوات التى مع قوّاد أبى أحمدَ سبيلا إلى الوقوف بحيث كانت واقفة به ، لحمل الرياح إياها على الحجارة ، وخوْف(١) أصحابها عليها من التكسّر ، ولم يجدوا سبيلاً إلى العبور فى دِجْلة ، لشدّة الريح واضطراب الأمواج ، فأوقعت الزّنج بهم ، فقتلوهم عن آخرهم ، وأفلت منهم نفر ، فعبَرُوا إلى الموفّقية ، فاشتدّ جزع أبى أحمد وأصحابه لما نالهم .

ولما تهيّأ للزّنج عليهم ، وعظُم بذلك اهتمامهم . وتعقّب أبو أحمد الرأى ، فرأى أنّ نزوله ومقامه بالجانب الغربىّ ، مجاور مدينة النّاجم خطأ ، وأنه لا يؤمن منه حيلة ، وانتهاز فرصة ، فيوقع بالعسكر بياتا ، أو يجد مساغاً إلى(٢) مايكون له قوّة ، لكثرة الأدغال فى ذلك الموضع ، وصعوبة المسالك ، وإنّ الزّنج على التوغّل فى تلك المواضع الوعرة الموحشة أقدَرُ وهو عليهم أسهل من أصحابه ؛ فانصرف عن رأيه فى نزول الجانب الغربىّ(٣) ، وصرف همّه ، وقصده

---

(١) الطبرى : « وما خاف » .
(٢) الطبرى : « إلى شىء مما يكون » .
(٣) الطبرى : « غربى دجلة » .

إلى هدم سور مدينة الناجم ، وتوسعة الطريق والمسالك لأصحابه فى دخولها؛فندب القوّاد لذلك ، وندب الناجم قوّاده للمدافعة عنها ، وطال الأمَد ، وتمادت الأيّام .

فلما رأى أبو أحمد تحاشُد الزّنج وتعاوُنهم على المنع من هدم السُّور،أزمَع على مباشرة ذلك بنفسه ، وحضوره إياه ، ليستدعىَ بذلك جِدّ أصحابه واجتهادهم،ويزيد فى عنايتهم وهِمَمِهم ، لحضر بنفسه ، واتّصلت الحرب ، وغلُظت على الفريقين ، وكثر القتل والجراح فى الحزبين ، وأقام أبو أحمد أياما كثيرة يُغاديهم الحرب ويراوحهم ، فكانوا لا يفترُون يوماً من الأيام ، وصعُب على أصحاب أبى أحمد ما كانوا يرومونه ، واشتدّت حماية الزنج عن مدينتهم ، وباشر النّاجم الحرب بنفسه،ومعه نخبة أصحابه وأبطالهم،والمؤمّنون أنفسَهم على الصّبْر معه ، لحاموْا جهدَهم،حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحداً منهم السَّهم أو الطعنة أو الضَّربة فيسقط ، فيجذبه الّذى إلى جانبه،فينحّيه، ويقف موقفه إشفاقا من أن يخلوَ موقفُ رجلٍ منهم ، فيدخِل الخللَ عليهم .

واتفق فى بعض الأيّام شدّة ضباب ستر بعضَ الناس عن بعض؛فما يكاد الرجل يبصر صاحبه ، وظهر أصحاب أبى أحمد ، ولاحتْ تباشيرُ الفتح ، ودخل الجندُ إلى المدينة وولجوها ، وملكوا مواضع منها ؛ وإنّهم لعلى ذلك ؛ حتى وصل سهم من سهام الزّنج إلى أبى أحمد؛رماه بهِ رومىّ كان مع الناجم،يقال له قِرْطاس؛فأصابه فى صدره وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين .فستر أبو أحمد وخواصّه ماناله من ذلك عن الناس ، وانصرف إلى الموفّقية آخرَ نهار يومه هذا،فعولج فى ليلته تلك وشدّت الجراحة، وغدا على الحرب على ماناله من ألمها ليشدّ بذلك قلوبَ أصحابه من أن يدخلها وهنٌ أو ضعف ، فزاد فى قوّة علّته ، بما حمل على نفسه من الحركة ، فغلظت وعظم أمرها،حتى خيف عليه العَطَب ، واحتاج إلى علاج نفسه بأعظم مايعالَج به الجراح ؛ واضطرب لذلك

العسكرُ والجند والرعيّة؛ وخافوا قوّة الزّنج عليهم؛ حتى خرج عن الموفّقيّة جماعة من التجّار كانوا مقيمين بها لما وصل إلى قلوبهم من الرهبة .

* * *

قال أبو جعفر: وحُدِّثت على أبى أحمد فى حال صعوبة علّته، حادثة فى سلطانه وأمور متعلّقة بما بينه وبين أخيه المعتمد، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرّحلة عن معسكره إلى بغداد ، وأن يخلّف مَنْ يقوم مقامه، فأبى ذلك، وحاذر أن يكون فيه تلافى ماقد فرّق من شمل صاحب الزّنج ؛ فأقام على صعوبة علّته، وغلظ الأمر الحادث فى سلطانه وصبر إلى أن عُوفِىَ ، فظهر لقوّاده وخاصّته ؛ وقد كان أطال الاحتجابَ عنهم ، فقويتْ برؤيته مُنّتُهم، وأقام متماثلاً مودّعا نفسه إلى شعبان من هذه السنة ؛ فلما أبلّ وقوِىَ على الركوب والنهوض ، نهض وعاود ما كان مواظباً عليه من الحرب، وجعل الفاجر لما صحّ عنده الخبر بما أصاب أبا أحمد يَعِدُ أصحابَه العِدَات، ويمنّيهم الأمانىّ ، واشتدّت شوكتهم، وقويَتْ آمالهم ، فلما اتّصل به ظهور أبى أحمد ، جعل يحلِف الزّنج على منبره ، أنّ ذلك باطل لا أصلَ له ، وأنّ الذى رأوْه فى الشّذا مثالٌ مُوِّه وشبِّه عليهم .

* * *

قلت : الحادث الذى حدث على أبى أحمد من جهة سلطانه ، أنّ أخاه المعتمد ؛ وهو الخليفة يومئذ ، فارقَ دار ملكه ، ومستقرّ خلافته مغاضباً له متجنّيا عليه، زاعما أنه مستبدٌّ بأموال المملكة وجباياتها ، مضطهدله مستأثر عليه ، فكاتب ابن طولون صاحب مصر ، وسأله أن يأذَنَ له فى اللّحاق به، فأجابه ابنُ طولون إلى ذلك، فخرج من سامُرّاء فى جماعة من قوّاده ومواليه، قاصداً مصر. وكان أبو أحمد هو الخليفة فى المعنى؛ وإنّما المعتمد صورةٌ

خالية من معانى الخلافة ، لا أمرَ له ولا نهى ، ولا حلّ ولا عَقْد ، وأبو أحمد هو الذى يرتّب الوزراء والكتّاب ، ويقوّد القوّاد ، ويقطع الأقطاع ، ولا يراجع المعتمدَ فى شىء من الأمور أصلا ، فاتّصل به خبر المعتمد فى شخوصه عن سامُرّاء ، وقصده ابن طولون ، فكاتب إسحاق بن كنداجيق وهو يومئذ على الموصل والجزيرة ، فأمره أن يعترضَ المعتمد ؛ ويقبض عليه وعلى القوّاد والموالى الذين معه ويعيدهم إلى سامُرّاء ، وكتب لإسحاق بإقطاعه ضِياع أولئك القوّاد والموالى بأجمعهم ، فاعترضهم إسحاق ، وقد قرُبوا من الرّقة ، فأخذهم وقبض عليهم ، وقيّدهم بالقيود الثقيلة ، ودخل على المعتمد فعنّفه ، وهجّنه وعذَله فى شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه ، ومفارقة أخيه على الحال التى هو بها ، وحرب مَنْ يحاول قتلَه ، وقتلَ أهلِ بيته وزوال ملكهم .

ثم حملهم فى قيودهم حتى وافى بهم سامراء ، فأقرّ المعتمد على خلافته ، ومنعه عن الخروج ، وأرسل أبو أحمد ابنَه هارون ، وكاتبه صاعد بن مخلد من الموفقيّة إلى سامراء فخلعا على ابن كنداجيق ، خِلعاً جليلة ، وقلِّد بسيفين من ذهب ؛ ولُقِّب ذا السيفين ؛ وهو أول مَنْ قُلّد بسيفين ، ثم خلع عليه بعد ذلك بيوم قباء دِيباج أسود ، ووِشاحين مرصّعين بالجوهر الثمين ، وتوّج بتاج من ذهب مرصع بنفيس الجوهر ، وقلّد سيفا من ذهب مرصّع بالجواهر العظيمة ، وشيّعه إلى منزله هارون وصاعد ، وقعدا على طعامه ؛ كلّ ذلك مكافأة له عن صنيعه فى أمر المعتمد. فليعجب المتعجّب من همّة الموفق أبى أحمد ، وقوّة نفسه ، وشدّة شكيمته ! أن يكون بإزاء ذلك العدوّ ، ويقتل من أصحابه كلّ وقتٍ مَنْ يقتل ، ثم يصاب ولده بسهم ، ويصاب هو بسهم آخر فى صدره يشارف منه على الموت ، ويحدث من أخيه وهو الخليفة مايحدُث ، ولا تنكسِر نفسه ولا يَهِى عزمُه ، ولا تضعف قوّته . ويحقّ

ماسمّيَ المنصورَ الثانى ! ولولا قيامُه فى حرب الزّنج ، لانقرض مُلْك أهلِ بيته؛ولكنّ الله تعالى ثبّته لما يريده من بقاء هذه الدولة .

* * *

قال أبو جعفر : ثم جدّ الموفّق فى تخريب السّور ، وإحراق المدينة ، إعداد المقاتلة والمحاطة عن سُورِه ومدينته،فكانت بين الفريقين حروب عظيمة تجلّ عن الوصف ، ورمى النّاجم سفنَ الموفّق المقاربة لسور مدينته بالرّصاص المذاب ، والمجانيق والعرّادات،وأمر أبو أحمد بإعداد ظلّة(١) من خشب [للشذا(٢)] وإلباسها جلودَ الجواميس، وتغطية ذلك بالخيوش المطليّة بصنوف العقاقير والأدوية التى تمنع النار من الإحراق،ففعل ذلك،وحُورب صاحب الزنج من تحتها،فلم تعمل نارُه ورصاصُه المذاب فيها شيئا،واستأمن إلى أبى أحمد محمدُ بن سمعان ، كاتب الناجم ووزيره فى شعبان من هذه السنة،فهدّ باستئمانه أركانَ الناجم ، وأضعف قوّته ، وانتدب أبو العباس لقصد دار محمد بن يحيى الكرنبائىّ ؛ وكانت بإزاء دار الناجم ، وشرع فى الحيلة فى إحراقها ، وأحرق الموفّق كثيرا من الرواشين(٣) المظلّة على سور المدينة وشعثها،وعلا غلمانُ أبى أحمد على دار النّاجم وولجوها وانتهبوها ، وأضرموا النّار فيها ، وفعل أبو العباس بدار الكرنبائىّ مثلَ ذلك، وجرح أنكلانى بن النّاجم فى بطنه جراحة شديدة ، أشفى منها على التّلف ، واتّفق مع هذا الظفر العظيم أن غرِق أبو حمزة نُصَيْر صاحب جيش الماء عند ازدحام الشّذَوات وإكباب الزّنج على الحرب،فصعُب ذلك على أبى أحمد،وقوِىَ بغرقه أمر الزّنج،وانصرف أبو أحمد

---

(١) الطبرى : « ظلال » ؛ وهما اسم جمع ؛ واحدهما ظلة ، بالضم .

(٢) من الطبرى .

(٣) الرواشين : جمع روشن ؛ وهو الكوة .

آخر نهار هذا اليوم ، وعَرَضت له عِلّة أقام فيها بقيّة شعبان وشهر رمضان ، وأيّاما من شوال ممسكاً عن حَرْب الزّنج ، إلى أن استبلّ من علته .

* * *

قال أبو جعفر: فلما أحرقت دار النّاجم ودُور أصحابه ، وشارف أن يؤخذ ، وعرضت لأبى أحمد هذه العلّة، فأمسك فيها عن الحرب ، انتقل النّاجم من مدينته التى بناها بغربىّ نهر أبى الخصيب إلى شرقيّه إلى منزل وَعْرٍ لايخلُص إليه أحد لاشتباك القَصب والأدغال والأحطاب فيه ، وعليه خنادق من أنهار قاطعة معترضة ، فقطن هناك فى خواصّه ومَنْ تخلّف معه من جلّة أصحابه وثقاته ، ومَنْ بقى فى نُصْرته من الزّنج ؛ وهم حدود عشرين ألف مقاتل ، وانقطعت المِيرَة عنهم ، وبان للناس ضعف أمرهم ، فتأخرّ الجَلَب الذى كان يصل إليهم ، فبلغ الرطل من خبز البُرّ عندهم عشرة دراهم، فأكلوا الشعير ، ثم أكلوا أصناف الحبوب ؛ ثم لم يزل الأمر كذلك إلى أن كانوا يتبّعون الناس ؛ فإذا خلا أحدٌ منهم بصبىّ أو امرأة أو رجل ذبحوه وأكلوه . ثم صار قوىّ الزّنج يعدُو على ضعيفهم ، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه ، ثم ذبحوا أولادَهم ، فأكلوا لحومَهم ، وكان النّاجم لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئا من ذلك إلا بالحبس ، وإذا تطاول حبسُه أطلقه .

ولما أبلّ الموفّق من علّته، وعلم انتقال الناجم إلى شرقى نَهر أبى الخصيب واعتصامه به، أعمل فكرَه فى تخريب الجانب الشرقىّ عليه ، كما فعل بالجانب الغربىّ ، ليتمكّن من قتله أو أسره ؛ فكانت له آثار عظيمة من قطع الأدغال والدِّحال[(١)] وسدّ الأنهار ، وطمّ الخنادق ، وتوسيع المسالك وإحراق الأسوار المبنية، وإدخال الشّذَا؛ وفيها المقاتلة إلى حريم الناجم ؛ وفى كلّ ذلك يدافع الزّنجُ عن أنفسهم بحرب شديدة ، وقتال عظيم تذهب فيها النفوس ، وتُراق فيها الدماء ، وكان الظّفر فى ذلك كلِّه لأبى أحمد ، وأمر الزّنج يزداد ضعفا

(١) الدحال : جمع دحل ، وهو النقب الضيق الأعلى الواسع الأسفل ؛ يمكن أن يمشى فيه .

وطالت الأيام على ذلك ؛ إلى أن استأمن سليمان بن موسى الشعرانىّ ، وهو من عظمائهم، وقد تقدّم ذكره ، فوجّه يطلب الأمان من أبى أحمد ، فمنعه ذلك لما كان سَلَفَ منه من العَيْثِ وسفْك الدماء بنواحى وسِط .

ثم اتّصل بأبى أحمد أنّ جماعةً من رؤساء الزّنج قد استوحشوا لمنعه الشّعرانىّ من الأمان ، فأجاب إلى إعطائه الأمان استصلاحا بذلك غيرَه من رؤساء الزّنج ، وأمر بتوجيه الشَّذا إلى موضِع وَقَعَ الميعادعليه، فخرج سليمان الشعرانىّ وأخوه، وجماعةمن قوّاده، فنزلوا الشَّذا ، فصاروا إلى أبى العباس ، فحملهم إلى أبى أحمد ، فخلع على سليمان ومَنْ معه ، وحَمَله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها، وأنزل له ولأصحابه أنزالًا سنيّة ، ووصله بمال جليل، ووصل أصحابه،وضمّه وضمّهم إلى أبى العباس، وأمر بإظهاره وإظهارهم فى الشّذا لأصحاب النّاجم ، ليزدادوا ثقة بأمانته ، فلم تبرح الشّذَا ذلك اليوم من موضعها ؛ حتى استأمن جمع كثير من قواد الزّنج ، فوصلوا وألحقوا بإخوانهم فى الحِبَاء والبِرّ والخلع ، والجوائز ؛ فلما استأمن الشعرانىّ اختلّ ما كان النّاجم قد ضبطه به من مؤخر عسكره ، وقد كان جمله على مؤخر نهر أبى الخصيب ، فوهَى أمره وضعف ، وقلّدما كان سليمان يتولّاه القائدالمعروف بشبل بن سالم – وهو من قوّادهم المشهورين – فلم يمسِ أبو أحمد حتى وافاه رسول شِبْل ابن سالم يطلب الأمان ،ويسأل أن يوقف له شَذَوات عند دار ابن سمعان ؛ ليكون قصده فى الليل إليها ،ومعه مَنْ يثقُ به من أصحابه ، فأجيب إلى سؤاله ، ووافَى آخر الليل ومعه عياله وولده ، وجماعة من قُوّاده ، فصاروا إلى أبى أحمد ، فوصَله بصِلةٍ جليلة ، وخلعَ عليه خِلَعًا كثيرة ، وحمله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها ، ووصل أصحابه ، وخلَع عليهم، وأحسن إليهم؛ وأرسله فى الشّذَوات، فوقفوا بحيث يراهم النّاجم وأصحابه نهاراً ،فعظُم ذلك عليه وعلى أوليائه، وأخلص شبل فى مناصحة أبى أحمد ، فسأل أنْ يضمّ إليه عسكرا يبيت به عسكر النّاجم ،ويسلك إليه مِنْ مسالكَ يعرفها هو ولا يعرفها أصحاب أبى أحمد،ففعل

وكَبَس عسكر النّاجم سَحَراً ، فأوقع بهم وهم غارُّون؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جمعاً من قوّاد الزّنج وانصرف بهم إلى الموفّق ، وذُعِر الزّنج من شبل وما فعله ، فامتنعوا من النّوم ، وخافوا خوفاً شديدا ، فكانوا يتحارسون بعد ذلك فى كلّ ليلة ، ولا تزال النُّفْرة تقع فى عسكرهم ، لما استشعروا من الخوف ، ووصل إلى قلوبهم من الوحشة ؛ حتى لقد كان ضجيجُهم وتحارُسهم يسمع بالموفقيّة .

وصحّ عزم الموفّق على العبور لمحاربة الناجم فى الجانب الشرقىّ من نهر أبى الخصيب، فجلس مجلسا عاما، وأمر بإحضار قوّاد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجّالتهم من الزّنج والبيضان فأدخِلوا إليه ، فخطبهم وعرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل، وانتهاك المحارم، وما كان صاحبهم زيّنه لهم من معاصى الله سبحانه ؛ وأنّ ذلك قد كان أحلّ له دماءهم، وأنه قد غفر الزّلة وعفا عن العقوبة ، وبذل الأمان ، وعاد على من لجأ إليه بالفضل والإحسان. فأجزل الصِّلاتِ ، وأسنى الأرزاق ، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة ، وأنّ ما كان منه من ذلك يُوجب عليهم حقّه وطاعته ، وأنهم لن يأتوا بشىء يتعرّضون به لطاعة ربِّهم ، والاستدعاء لرضا سلطانهم أولَى بهم من الجدّ فى مجاهدة الناجم وأصحابه، وأنّهم من الخبرة بمسالك عسكر النّاجم ومضايق طرق مدينته، والمعاقل التى أعدّها للحرب على ماليس عليه من غيرُهم؛ فهم أحرى أن يمحَضُوه نصحَهم ، ويجهدوا على الولوج إلى الناجم ، والتوغّل إليه فى حصونه ؛ حتى يمكّنهم الله منه ومن أشياعه ، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد ، ومن قصّر منهم استدعى من سلطانه إسقاط حاله ، وتصغيرَ منزلته ووضعَ مرتبته .

فارتفعت أصواتهم جميعا بالدّعاء للموفّق والإقرار بإحسانه ، وبما هم عليه من صحّة الضمائر من السّمع والطاعة والجدّ فى مجاهدة عدّوه ، وبذل دمائهم ومُهَجهم فى كلّ ما يقرِّبهم منه ، وأنّ مادعاهم إليه قد قوّى مِنَنهم ، ودلّهم على ثقته بهم ، وإحلاله إياهم

محلّ أوليائه، وسألوه أن يفردهم ناحيةً ، ولا يخلطهم بعسكره ، ليظهر من حُسْن جهادهم بين يديه ؛ وخلوص نياتهم فى الحرب ، ونكايتهم فى العدوّ وما يعرف به طاعتهم، وإقلاعهم عمّا كانوا عليه من جهلهم .

فأجابهم إلى ذلك ، وعرّفهم حسنَ ما ظهر له من طاعتهم فخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد .

* * *

قال أبو جعفر : ثم استعدّ أبو أحمد ورتّب جيشه ؛ ودخل إلى عسكر النّاجم نشرقىّ نهر أبي الخصيب فى خمسين ألف مقاتل ، من البرّ والبحر ، فرسانا ورجّالة ، يكبّرون ويهلّلون ويقرءون القرآن ، ولهم ضجيج وأصوات هائلة . فرأى الناجم منهم ما هاله وتلقّاهم بنفسه وجيشه ؛ وذلك فى ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين .

واشتبكت الحرب ، وكثر القتل والجراح ، وحامَى الزّنج عن صاحبهم وأنفسهم أشد محاماة ، واستماتوا ، وصبر أصحاب أبى أحمد ،وصدقوا القتال، فمنّ الله عليهم بالنصر، وانهزم الزّنج ، وقتِل منهم خَلقٌ عظيم ، وأسِر منهم أسرى كثيرة ؛ فضرب أبو أحمد أعناق الأسارى فى المعركة ، وقصد بنفسه دار النّاجم ، فوافاها وقد لجأ الناجم إليها ؛ ومعه أنجاد أصحابه للمدافعة عنه .

فلما لم يغنُوا شيئا أسلموها ، وتفرّقوا عنها ، ودخلها غلمان الموفّق ، وبها بقايا ما كان سلم له من مال وأثاث ، فأخذوه وانتهبوه، وأخذوا حُرَمه وولده الذكور والإناث؛ وتخلّص الناجم بنفسه ، ومضى هاربا نحو دار علىّ بن أبان المهلبىّ ، لا يلوى على أهل ولا ولدٍ ولا مالٍ ، وأحرقت دارُه، وحمل أولاده ونساؤه إلى الموفّقية فى التوكيل ،وقصد أصحاب أبى أحمد دار المهلبىّ ، وقد لجأ إليها الناجم وأكثر الزّنج ، وتشاغل أصحاب أبى أحمد بنهب

الأموال من دور الزنج ، فاغتنم الفاجم تشاغلَهم بالنهب ، فأمر قوّاده بانتهاز الفرصة ، والإكباب عليهم ، فخرجوا عليهم من عدّة مواضع ، وخرج عليهم كُمناء أيضا قد كانوا كمنوهم لهم ، فكشفوهم واتّبعوهم حتى وافوْا بهم نهر أبى الخصيب ، فقتلوا من فُرسانهم ورجّالتهم جماعة ، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوه من المال والمتاع .

ثم تراجع النّاس ، ودامت الحرب إلى وقت العصر ، فرأى أبو أحمد عند ذلك أن يصرفَ أصحابه ، فأمرهم بالرّجوع فرجعوا على هدوء وسكون ، كى لا تكون هزيمة ، حتى دخلوا سفنهم ، وأحجم الزنج عن اتّباعهم ، وعاد أبو أحمد بالجيش إلى مراكزهم .

قال أبو جعفر : ووافَى إلى أبى أحمد فى هذا الشهر كاتبُه صاعد بن مخلد من سامُرّاء فى عشرة آلاف ، ووافَى إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون ـ وكان إليه أمرُ الرّقة وديار مُضَر ـ فى عشرة آلاف من نُخبة الفرسان وأنجادهم ، فأمر أبو أحمد لؤلؤا أن يخرج فى عسكره فيحارب الزنج ، فخرج بهم ومعه من أصحاب أبى أحمد مَنْ يدلّه على الطرق والمضايق ؛ فكانت بين لؤلؤ وبين الزنج حرب شديدة فى ذى الحجّة من هذه السنة ؛ استظهر فيها لؤلؤ عليهم ؛ وبان مِن نجدته وشجاعته وإقدام أصحابه ، وصبرهم على ألم الجراح وثبات قلوبهم ما سرّ أبا أحمد وملأ قلبه .

* * *

قال أبو جعفر : فلما دخلت سنة سبعين ومائتين ، تتابعت الأمداد إلى أبى أحمد من سائر الجهات ، فوصل إليه أحمدُ بن دينار فى جَمْع عظيم من المطوّعة ، من كُور الأهواز ونواحيها ، وقدِم بعده من أهل البحرين جمعٌ كثير من المطوّعة زُهاء ألفَىْ رجل ، يقودهم رجلٌ من عبد القيْس ، وورد بعد ذلك زُهاء ألف رجل من فارس ، ورئيسهم شيخ من المطوّعة يكنى أبا سلمة ، وكان أبو أحمد يجلس لكلّ مَنْ يرد ويخلَع عليه ، ويقيم لأصحابه الأنزال الكثيرة ، ويصلهم بالصِّلات ، فعظُم جيشه جدًّا ، وامتلأت بهم الأرض ، وصحّ

عزمه على لقاء النّاجم بجميع عسكره ، فرتّب جيوشه ، وقسّمهم على القوّاد ، وأمر كلّ واحدٍ من القوّاد أن يقصد جهة من جهات معسكر الناجم عيّنها له ، وركب بنفسه ، وركب جيشه ، وتوغّلوا فى مسالك شرقىّ نهر أبى الخصيب ، ولقيهم الزنج ، وقد حشدوا واستقبلوا ؛ فكانت بينهم وَقعة شديدة ، منحهم الله تعالى فيها أكتاف الزنج ، فولّوا منهزمين ؛ فاتّبعهم أصحابُ أبى أحمد يقتلُون ويأسِرون ، فقتِلَ منهم كثير ، وغرِق كثير ، وحوَى أصحابُ أبى أحمد معسكر الناجم ومدينته ، وظفروا بعيال علىّ بن أبان المهلبىّ وداره وأمواله ، فاحتوَوا عليها ، وعَبَر أهلُه وأولادُه إلى الموفّقية مع كلابهم ، ومضى النّاجم ومعه المهلبىّ وابنه أنكلانىّ ، وسليمان بن جامع ، والهمدانىّ وجماعة من أكابر القوّاد ، عامدين إلى موضع كان النّاجم قد أعدّه لنفسه ملجأ إذا غُلِب على مدينته وداره فى النهر المعروف بالسفيانىّ . فتقدم أبو أحمد ومعه لؤلؤ قاصدين هذا النهر ، لأن أبا أحمد دلّ عليه ، فأوغَل فى الدّخول وفقده أصحابه ، فظنوا أنه رجع ، فرجعوا كلهم ، وعَبَرُوا دَجْلة فى الشَّذَا ظانّين أنه عبر راجعاً ، وانتهى أبو أحمد ومعه لؤلؤ ، قاصدين هذا النهر ، فاقتحمه لؤلؤ بفرَسه ، وعبَر أصحاب لؤلؤ خلفه .

ووقف أبو أحمد فى جماعة من أصحابه عند النّهر ، ومضى النّاجم هاربا ، ولؤلؤ يتبعه فى أصحابه ؛ حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريرى ، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه ، فأوقعوا به وبمن معه فكشفوهم ، فولوا هاربين حتى عبروا النهر المذكور ؛ ولُؤلؤ وأصحابه يطردونهم من ورائهم ، حتى ألجئوهم إلى نهر آخر ، فعبروه واعتصموا بدِحالٍ وراءه ، فولجوها ، وأشرف لؤلؤ وأصحابه عليها فأرسل إليه الموفّق ينهاه عن اقتحامها ، ويشكر سعيَه ، ويأمره بالانصراف ؛ فانفرد لؤلؤ هذا اليوم وأصحابُه بهذا الفعل ؛ دون أصحاب الموفّق ؛ فانصرف لؤلؤ محمودَ الفِعْل ، لحمله الموفّق معه فى شَذَاته وجدّد له من البرّ والكرامة ورَفْع المنزلة لِمَا كان منه فى أمر النّاجم ، حَسْبَما كان مستحقًّا له ؛ ولهذا نادى

أهلُ بغداد لما أدخل إليهم رأس الفاجر بين يدى أبى العباس : ماشئتم قولوا ، كان الفتح للؤلؤ .

* * *

قال أبو جعفر : فجمع الموفّق فى غَدِ هذا اليوم قوّاده وهو حنِقٌ عليهم لانصرافهم عنه ، وإفرادهم إياه ، وكان لؤلؤ وأصحابه تولّوْا طلب الفاجر دونهم ، فعنّفهم وعَذَلهم ووبّخهم على ما كان منهم ، وعجّزهم وأغلظ لهم ، فاعتذروا إليه بما توهّموه من انصرافه ، وأنهم لم يعلموا أنه قد لجّج وأوْغَل فى طلب الفاجر ، وأنّهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه .

ثم تحالفوا بين يديه ، وتعاقدوا ألّا يبرحوا فى غدٍ موضعَهم إذا توجّهوا نحو الزّنج ، حتى يُظفرهم الله تعالى به ، فإنْ أعياهم ذلك أقاموا حيث انتهى بهم النهار فى أىّ موضع كان حتى يحكم الله بينهم وبينه . وسألوا الموفق أن يردّ السُّفن إلى الموفّقية ، بحيث لا يطمع طامع من العسكر فى الالتجاء إليها والعبور فيها .

فقبِل أبو أحمد عذرَهم ، وجزاهم الخير عن تنصُّلهم ، ووعدهم بالإحسان ، وأمرهم بالتأهّب للعبور ؛ ثم عَبَرَ بهم على ترتيب ونظام قد أحكمه وقرره ، وذلك فى يوم السبت لليلتين خلَتا من صفر من سنة سبعين ومائتين ، وقد كان الفاجر عاد من تلك الأنهار إلى معسكره بعد انصراف الجيش عنه ، فأقام به ، وأمّل أن تتطاول به وبهم الأيام(١) ، وتندفع عنه المُناجزة ، فلقيه فى هذا اليوم سَرَعان(٢) العسكر ؛ وهم مَغيظون محنَقون من التقريع والتوبيخ اللاّحقين بهم بالأمس ، فأوقعوا به وبأصحابه وقعةً شديدة ، أزالوهم عن مواقفهم ، فتفرّقوا لا يلوِى بعضهم على بعض ، واتّبعهم الجيش يقتلون ويأسرون مَنْ لحقُوا منهم ، وانقطع

---

(١) الطبرى : « تتطاول بهم الأيام » .

(٢) سرعان الناس : أوائلهم . وفى الطبرى : « فوجد الموفق المتسرعين من فرسان غلمانه ورجالتهم » .

النّاجم فى جماعة من كُماته من قُوّاد الزّنج ؛ منهم المهلّبىّ ، وفارقه ابنه انكلانّى وسليمان ابن جامع ، فكانا فى أوّل الأمر مجتمعين ، ثم افترقا فى الهزيمة ، فصادف سليمان بن جامع قومٌ من قوّاد الموفّق ، فحاربوه وهو فى جَمْع كثيف من الزّنج ، فقتِل جماعة من كُماته ، وظُفِرَ به فأسر ، وحُمِل إلى الموفّق بغير عهد ولا عَقْد ، فاستبشر النّاس بأسر سليمان ، وكثر التكبير والضجيج ، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحابه غناء ، وأُسِرَ بعده إبراهيم ابن جعفر الهمدانىّ ، وكان من عظماء قوّاده وأكابر أمراء جيوشه ، وأُسِرَ نادر الأسود المعروف بالحفّار ، وهو من قدماء قوّاد النّاجم ، فأمر الموفّق بتقييدهم بالحديد ، وتصييرهم فى شَذَاةٍ لأبى العباس ، ومعهم الرّجال بالسلاح ، وجدّ الموفّق فى طلب النّاجم ، وأمعن فى نهر أبى الخصيب ، حتى انتهى إلى آخره .

فبينا هو كذلك ، أتاه البشير بقتل النّاجم فلم يصدق ، فوافاه بشيرٌ آخر ، ومعه كفٌّ زَعَم أنها كفه ، فقوىَ الخبرُ عنده بعض القوّة ، فلم يلبث أن أتاه غلام من غلمان لؤلؤ يركضُ ومعه رأسُ الناجم ، فوضعه بين يديه ، فعرضَه الموفّق على مَنْ كان حاضراً تلك الحال معه من قوّاد المستأمنة ، فعرفوه ، وشهدوا أنه رأس صاحبه ، فخرّ ساجدا[1] ، وسجَد ابنه أبو العباس ، وسجَد القوّاد كلهم شكرا لله تعالى ، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، وأمر برفع الرأس على قناة ، ونصبه بين يديه فرآه الناس ، وارتفعت الأصوات والضجيج .

* * *

قال أبو جعفر : وقد قيل : إنه لما أحيطَ بالناجم ، لم يبق معه من رؤساء أصحابه إلا المهلّبىّ ، فلما علما أنهما مقتولان افترقا ، فوقف النّاجم حتى وصل إليه هذا الغُلام ومعه جماعة من غلمان لؤلؤ ، فدافَع عن نفسه بسيفه حتى عجز عن الممانعة ، فأحاطوا به وضربوه بسيوفهم حتى سقط ، ونزل هذا الغلام فاحتزّ رأسه ، وأما المهلبىّ فإنّه قصد النهر المعروف

---

(١) بعدها فى الطبرى : « على ما أولاه وأبلاه » .

بنهر الأمير، فقذف بنفسه يرومُ النّجاة، وقبل ذلك كان ابن الناجم وهو المعروف بأنكلانى فارق أباه، ومضى يؤمّ النهر المعروف بالديناريّ، متحصّنا فيه بالأدغال والآجام، فلم يظفر بهما ذلك اليوم، ودلّ الموفق عليهما بعد ذلك.

وقيل له: إنّ معهما جَمْعاً من الزّنج وجماعة من جِلّة قوّادهم، فأرسل غلمانه فى طلبهما، وأمرهم بالتّضييق عليهما، فلما أحاطت الغلمان بهم أيقنوا أن لا ملجأ لهم، وأعطوْا بأيديهم. فظفر بهم الغلمان، وحملوهم إلى الموفّق، فقتل منهم جماعة، وأمَرَ بالاستيثاق من المهلبيّ وأنكلانى بالحديد والرجال الموكّلين بهما.

* * *

قال أبو جعفر: وانصرف فى هذا اليوم وهو يوم السبت، لليلتين خلَتا من صفر أبو أحمد من نهر أبى الخصيب، ورأس النّاجم منصوب بين يديه على قَناةٍ فى شذاة يُخْترقُ به فى النهر، والناس من جانبى النّهر ينظرون إليه حتى وافَى دِجْلة، فخرج إليها، والرأس بين يديه، وسليمان بن جامع والهمدانىّ مصلوبان أحياء فى شذاتين عن جانبيه، حتى وافَى قصره بالموفّقية. هذه رواية أبى جعفر وأكثر الناس عليهما.

* * *

وذكر المسعوديّ فى كتاب «مروج الذهب»[1] أنّ الناجم ارتُثّ، وحُمِل إلى أبى أحمد وهو حيّ، فسلّمه إلى ابنه أبى العباس، وأمر بتعذيبه، فجعله كردناجا[2] على النار وجلده ينتفخ، ويتفرقع حتى هلك.

والرواية الأولى هى الصحيحة، والذى جعل كردناجا هو قرطاس الذى رمى أبا أحمد

---

(١) مروج الذهب ٤ : ١٩٥.

(٢) الكردناج، معناه الكباب، أو ما يشبهه (وانظر دوزون).

بالسهم ، ذكر ذلك التنوخى فى " نشوار المحاضرة " ، قال : كان الزّنج يصيحون لما رمى أَبو أحمد بالسهم ، وتأخّر لِعلاج جراحته عن الحرب : ملّحوه ملّحوه ، أى قد مات وأنتم تكتمون موته ، فاجعلوه كاللحم المكْسُود .

قال : وكان قرطاس الرامى لأبى أحمد يصيح بأبى العباس فى الحرب إذا أخذتنى فاجعلنى كردناجا ؛ يهزأ به .

قال : فلما ظفر به أدخل فى دُبُره سيخاً من حديد ، فأخرجه منْ فيه ، وجعله على النار كردناجا .

***

قال أبو جعفر : ثم تتابع مجىء الزّنج إلى أبى أحمد فى الأمان ، فحضر منهم فى ثلاثة أيام نحو سبعة آلاف زنجىّ ، لما عرفوا قتلَ صاحبهم ، ورأى أبو أحمد بذلَ الأمان لهم ، كى لا يبقى منهم بقيّة يخاف معرّتها فى الإسلام وأهله ، وانقطعت منهم قطعة نحو ألف زنجىّ مالت نحو البرّ ، فمات أكثرها عطشا ، وظفر الأعراب بمَن سلِم منهم ، فاسترقّوهم ، وأقام الموفّق بالموفقية ، بعد قتل الناجم مدّة ، ليزداد الناس بمقامه أنساً وأمانا ، ويتراجع أهلُ البلاد إليها ، فقد كان الناجم أجلاهم عنها . وقدِم ابنه أبو العباس إلى بغداد ، ومعه رأس الناجم ، فدخلها يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة بقين من جمادى الأولى من هذه السّنة ، ورأس الناجم بين يديه على قناة ، والناس مجتمعون يشاهدونه .

***

وقد روى غير أبى جعفر ، وذكره الآبى(١) فى مجموعه المسمى " نثر الدرر " ، عن العلاء ابن صاعد بن مخلد ، قال : لما حُمِل رأس صاحب الزنج ودُخِل به المعتضد إلى بغداد دَخَلَ فى جيش

---

(١) هو الوزير زين الكفاة أبو سعد منصور بن الحسين الآبى ، وزير مجد الدولة رستم بن فخر الدولة ابن بويه . وكتابه نثر الدرر فى المحاضرات ؛ منه نسخ خطية ، وأجزاء متفرقة فى دار الكتب المصرية .

لم يُرَ مثله، واشتق أسواقَ بغداد، والرأس بين يديه، فلما صرنا بباب الطاق، صاح قوم من دَرْب من تلك الدُّروب: رحم الله معاوية وزاد! حتى علَتْ أصواتُ العامّة بذلك فتغيّر وجهُ المعتضد، وقال: ألا تسمع يا أبا عيسى! ما أعجبَ هذا! وما الذى اقتضى ذكر معاوية فى هذا الوقت! والله لقد بلَغ أبى إلى الموت وما أفلتّ أنا إلا بعد مشارفته، ولقينا كلّ جهد وبلاء، حتى أنجينا هؤلاء الكلاب من عدوّهم، وحصّنّا حُرَمَهم وأولادهم، فتركوا أن يترحموا على العبّاس وعبد الله ابنه ومَنْ وَلَد من الخلفاء، وتركوا الترحّم على علىّ بن أبى طالب، وحمزة وجعفر، والحسن والحسين؛ والله لا برحت أو أؤثّر فى تأديب هؤلاء أثرا لا يعاودون بعد هذا الفعل مثله! ثم أمر بجمع النفّاطين ليحرِق الناحية؛ فقلت له: أيّها الأمير، أطال الله بقاءك! إنّ هذا اليوم من أشرف أيام الإسلام فلا تفسِدْه بجهل عامّة لا أخلاق لهم. ولم أزل أداريه وأرفق به حتى سار.

فأما الّذى يرويه الناسُ من أن صاحب الزنج ملك سواد بغداد، ونزل بالمدائن، وأن الموفّق أرسل إليه من بغداد عسكرا، وأصحبهم دنان النبيذ، وأمَرهم أن ينهزموا من بين يدى الزنج عند اللقاء، ويتركوا خيامهم وأثقالهم لينتهبها الزنج وأنهم فعلوا ذلك، فظفر الزنج فيما ظفروا به من أمتعتهم بتلك الدِّنان، وكانت كثيرة جدا، فشربوا تلك الليلة وسكروا، وباتوا على غِرّة، فكبسهم الموفق وبيّتهم ليلا وهم سكارَى، فأصاب منهم ما أراد — فباطل موضوع لا أصل له؛ والذى بيّتهم وهم سكارى فنال منهم نيلا تكين البخارى؛ وكان على الأهواز بيت أصحاب علىّ بن أبان فى سنة خمس وستين ومائتين؛ وقد أتاه الخبر بأنّهم تلك الليلة قد عمِل النّبيذ فيهم؛ والصحيح أنه لم يتجاوز نهبهم ودخولهم البلاد النّعمانية. هكذا رواه الناس كلهم.

***

قال أبو جعفر: فأمّا علىّ بن أبان وأنكلانىّ بن الناجم ومَنْ أُسِرَ معهما، فإنّهم

حملوا إلى بغداد فى الحديد والقدّ ، فجعلوا بيد محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومعهم غلام للموفّق يقال له فتح السعيدىّ ، فكانوا كذلك إلى شوال من سنة اثنتين وسبعين ومائتين؛ فكانت للزنج حركة بواسط ، وصاحوا : أنكلانى ، يا منصور ! وكان الموفق يومئذ بواسط ! فكتب إلى محمد بن عبد الله ، وإلى فتح السعيدى يأمرهما بتوجيه رءوس الزنج الذين فى الأسر إليه ، فدخل فتح السعيدىّ إليهم ، فجعل يخرج الأوّل فالأوّل فيذبحه على البالوعة كما تذبح الشاة ، وكانوا خمسة : أنكلانى بن الناجم ، وعلىّ بن أبان المهلبى ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمذانىّ ، ونادر الأسود ؛ وقلَع رأس البالوعة وطرحت فيها أبدانهم ، وسدّ رأسها ، ووجّه برءوسهم إلى الموفق فنصبها بواسط ، وانقطعت حركة الزّنج ، ويئس منهم .

ثم كتب الموفق إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فى جُثث هؤلاء الخمسة ، فأمر بصلبهم بحضرة الجسْر ، فأخرجوا من البالوعة ؛ وقد انتفخوا وتغيّرت روائحهم ، وتقشّرت جلودهم ، فصلِب اثنان منهم على جانب الجسر الشرقىّ وثلاثة على الجانب الغربىّ ؛ وذلك لسبع بقين من شوال من هذه السنة ، وركب محمد بن عبد الله بن طاهر ؛ وهو أمير بغداد يومئذ بنفسه حتى صُلِبوا بحضرته .

وقد قال الشعراء فى وقائع الزنج فأكثروا كالبحترىّ وابن الرومى وغيرهما ؛ فمن أراد ذلك فليأخذه من مظانه .

* * *

الأصل :

منها فى وصف الأتراك :

كَأَنِّى أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المِجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ ، وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ .

فقال له بعض أصحابه : لقد أعطيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب ! فضحك عليه السلام وقال للرجل - وكان كلبيا :

يا أَخَا كَلْبٍ ؛ لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِى عِلْمٍ ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نفس بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . . ﴾ الآيَةَ ، فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ، مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ ، وَسَخِىٍّ أَوْ بَخِيلٍ ، وَشَقِىٍّ أَوْ سَعِيدٍ ؛ وَمَنْ يَكُونُ لِلنَّارِ حطباً أَوْ فِى الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً ؛ فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِى لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَدَعَا لِى بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِى ، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِى .

* * *

الشَّرْحُ :

المِجانّ : جمع مِجَنّ بكسر الميم ، وهو التُّرس ، وإنما سمىَ مِجَنًّا ، لأنه يُستَتر به ، والجُنّة : السُّترة والجمع جُنَن ؛ يقال استجنّ بِجُنّة ، أى استتر بسترة .

والمُطْرَقة ، بسكون الطاء : التى قد أطرق بعضُها إلى بعض ، أى ضُمّتْ طبقاتها ؛ فجعل بعضُها يتلو بعضا ، يقال : جاءت الإبل مطاريق ؛ أى يتلُو بعضها بعضا . والنعل المطرَّقة : المخصوفة ، وأطرِقَتْ بالجلد والعَصَب ، أى ألبست ، وتُرْسٌ مطرَّق ، وطِراق النعل : ما أطرقت وخرزت به . وريش طِراق ؛ إذا كان بعضه فوقَ بعض ، وطارق الرجلُ بين الثوبيْن ؛ إذا لبس أحدَهما على الآخر ؛ وكلّ هذا يرجع إلى مفهوم واحد وهو مظاهرة الشىء بعضه بعضا . ويروى : « المجانّ المطرّقة » ، بتشديد الراء ، أى كالتِّرَسة المتّخذة من حديد مطرّق بالمطرّقة .

والسَّرَق : شُقَق الحرير ، وقيـل : لا تسمَّى سَرَقا إلا إذا كانت بِيضا ، الواحـدة سَرَقة .

ويعتقبون الخيل ، أى يجنبونها لينتقلوا من غيرها إليها . واستحرار القتل : شدّته ، استحرّ وحَرّ بمعنى ، قال ابن الزِّبَعْرَى :

حيث ألقت بقُبَاء بَرْكَها واستحرّ القتل فى عبد الأشَلّ[1]

والمفلِت : الهارب .

يقول عليه السلام : إنّ الأمورَ المستقبلة على قسميْن :

أحدهما ما تفرّد الله تعالى بعلمه ، ولم يطلِـعْ عليه أحداً من خلقه ؛ وهى الأمور الخمسة المعدودة فى الآية المذكورة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[2] .

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٩

(٢) سورة لقمان ٢٤ .

والقسم الثانى مايعلمُه بعضُ البشر بإعلام الله تعالى إيّاه ؛ وهو ماعدا هذه الخمسة ، والإخبار بملحَمة الأتراك من جُملة ذلك .

وتضطمّ عليه جوانحى : تفتعل ، من الضمّ ، وهو الجمع ، أى يجتمع عليه جوانح صدرى ، ويروى : « جوارحى »،وقد روى أنّ إنسانا قال لموسى بن جعفر عليه السلام : إنّى رأيت الليلة فى منامى أنّى سألتك : كم بقى من عمرى ؟ فرفعتَ يدك اليمنى ، وفتحتَ أصابعها فى وجهى مشيرا إلىّ ، فلم أعلم خمس سنين،أم خمسة أشهر ، أم خمسة أيام،فقال : ولا واحدة منهنّ ، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التى استأثر الله تعالى بها فى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . . ﴾ الآية .

فإن قلت : لم ضحك عليه السلام لمّا قال له الرجل : « لقد أوتيت علم الغيب » ؟ وهل هذا إلا زهو فى النّفس ، وعُجب بالحال !

قلت : قد روىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ضحك فى مناسب هذه الحال ؛ لما استسقى فسُقِيَ وأشرف درورُ المطر ، فقام إليه الناس ، فسألوه أن يسأل الله تعالى أن يحبسه عنهم ، فدعا ، وأشار بيده إلى السحاب ، فانجاب حول المدينة كالإكليل؛وهو عليه السلام يخطب على المنبر ؛ فضحك حتى بدت نواجذُه،وقال : أشهد أنى رسول الله ؛ وسرّ هذا الأمر أنّ النبىّ أو الولىّ إذا تَحدُثُ عنده نعمة الله سبحانه ، أو عرف الناسُ وجاهتَه عند الله ، فلابد أن يسرّ بذلك . وقد يحدُث الضحك من السرور ؛ وليس ذلك بمذموم إذا خلا من التِّيه والعُجْب،وكان محضَ السّرور والابتهاج،وقد قال تعالى فى صفة أوليائه : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (١) .

فإن قلت : فإنّ من جملة الخمسة :﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾،وقد أعلم

---

(١) سورة آل عمران ١٧٠

الله تعالى نبيّه بأمور يكسبها فى غده ، نحو قوله : « ستفتح مكة »،وأعلم نبيُّه وصيّه عليه السلام بما يكسبه فى غده ، نحو قوله له : « ستقاتل بعدى الناكثين . . . » ، الخبر .

قلت : المراد بالآية أنّه لا تدرى نفس جميع ماتكسبه فى مستقبَل زمانها ؛ وذلك لا ينفى جوازَ أن يعلم الإنسان بعضَ ما يكسبه فى مستقبل زمانه .

[فصل فى ذكر جنكزخان وفتنة التتر]

واعلم أنّ هذا الغيب الذى أخبر عليه السلام عنه قد رأيناه نحن عِياناً،ووقع فى زماننا، وكان الناس ينتظرونه من أوّل الإسلام؛حتى ساقه القضاء والقدر إلى عصرنا ؛ وهم التتار الذين خرجُوا من أقاصى المشرق ؛ حتى وردت خيلُهم العراق والشام،وفعلوا بملوك الخطا وقفجاق ، وببلاد ماوراء النهر وبُخراسان وما والاها من بلاد العجم ، مالم تحتو التواريخ منذ خلق الله آدم إلى عصرنا هـذا على مثله ؛ فإنّ بابك الُخرّمىّ لم تـكن نـكايتُه وإن طالتْ مدّته نحو عشرين سنة إلا فى إقليم واحـد وهو أذربيجان ؛ وهؤلاء دَوَّخُوا المشرق كلّه ، وتعدّت نِـكايتهم إلى بلاد إرمينيّة وإلى الشام،ووردت خيلهم إلى العراق، وبُخْتَ نصّر الذى قتل اليهود إنما أخرب بيتَ المقدس ، وقتل من كان بالشام من بنى إسرائيل ، وأىّ نسبة بين مَنْ كان بالبيت المقدس من بنى إسرائيل إلى البلاد والأمصار التى أخربها هؤلاء ، وإلى الناس الذين قتلوهم من المسلمين وغيرهم [1] !

* * *

(١) ذكر ابن الأثير هذه الحادثة فى تاريخه (حوادث سنة ٦١٧ وما بعدها) ، وقال فى أولها : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لهـا ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليـه رجلا وأؤخر أخرى ؛ فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن ذا الذى يهون عليه ذكر ذلك ! فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ! إلى أن حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ؛ وأنا متوقف ؛ ثم رأيت أن ترك ذلك لايجدى نفعاً » .

ونحن نذكر طرفاً من أخبارهم وابتداء ظهورهم على سبيل الاختصار ، فنقول : إنّا على كثرة اشتغالنا بالتواريخ وبالكتب المتضمّنة أصناف الأمم ، لم نجد ذكر هذه الأمّة أصلاً ؛ ولكنا وجدنا ذكر أصناف الترك ؛ من القِفْجاق ، واليمك ، والبرلو ، والتفريه ، واليتبه ، والروس ، والخطا ، والقرغز ، والتركان ، ولم يمرّ بنا فى كتاب ذكر هذه الأمة سوى كتاب واحد ، وهو كتاب " مروج الذهب " للمسعودى فإنّه ذكرهم هكذا بهذا اللفظ « التتر » ، والنّاس اليوم يقولون : «التتار» بألف ؛وهذه الأمة كانتْ فى أقاصى بلاد المشرق فى جبال « طمغاج » من حدود الصين ؛ وبينهم وبين بلاد الإسلام التى ما وراء النهر ما يزيدُ على مسير ستة أشهر ؛ وقد كان خوارزمشاه؛ وهو محمد بن تكش استولَى على بلاد ماوراء النّهر ، وقَتَل ملوكها من الخطا الذين كانوا ببُخارَى وسَمَرْقَنْد وبلاد تركستان ؛ نحو كاشغر ، وبلاساغون ؛ وأفناهم ، وكانوا حِجابا بينه وبين هذه الأمّة ، وشَحَن هذه البلاد بقوّاده وجنوده ؛ وكان فى ذلك غالطا ، لأن ملوك الخطا كانوا وقايةً له ومِجَنًّا من هؤلاء ؛ فلما أفناهم ، صار هو المتولِّى لحرب هؤلاء أو سِلْمِهم ، فأساء قوّاده وأمراؤه الّذين بتركستان السِّيَرة معهم ، وسدُّوا طرقَ التجارة عنهم ؛ فانتدبتْ منهم طائفة نحو عشرين ألفاً مجتمعة ، كلّ بيت منها له رئيس مفرَد ، فهم متساندُون ، وخرجوا إلى بلاد تركِشتان ، فأوقعوا بقوّاد خوارزمشاه وعمّاله هناك، وملكوا البلادَ ، وتراجع مَنْ بقِيَ من عسكر خُوارزمشاه ، وسلِم من سيف التتار إلى خوارزمشاه ، فأغضى على ذلك ، ورأى أنّ سعة ملكه تمنعه عن مباشرة حربهم بنفسه، وأنّ غيرَه من قوّاده لا يقوم مقامه فى ذلك ، وترك بلاد تُرْكِشتان لهم ، واستقرّ الأمر على أنّ تركستان لهم ، وما عدَاها من بلاد ماوراء النهر كسمرْقَنْد وبُخارى وغيرها لخوارزمشاه ، فمكثوا كذلك نحو أربع سنين .

ثم إن المعروف بجنكزخان ـ والناس يلفظونَهُ بالراء ، وذكر لى جماعة من أهل المعرفة بأحوال التّتر أنه « جنكز » بالزاى المعجمة ـ عنّ له رأى فى النّهوض إلى بلاد تركستان ، وذلك أنّ جنكزخان هذا هو رئيس التّتار الأقصين فى المشرق ، وابن رئيسهم ، وما زال سلفه رؤساء تلك الجهة ، وكان شجاعا عاقلاً موفّقا منصوراً فى الحرب ؛ وإنّما عَنّ له هذا الرأى ؛ لأنّه رأى أنّ طائفةً من التّتار ـ لا ملك لهم ، وإنّما يقوم بكلّ فرقة منهم مدبِّرٌ لها من أنفسها ـ قد نهضت فملكتْ بلادَ تركستان على جلالتها ، غار من ذلك ، وأراد الرّياسة العامّة لنفسه ، وأحبّ المُلْك ، وطمِع فى البلاد ، فنهض بمنْ معه من أقاصى الصين ؛ حتى صار إلى حدود أعمال تركستان ، فحاربه التّتار الذين هناك ، ومنعوه عن تطرّق البلاد ، فلم يكن لهم به طاقة ، وهزمهم وقتل كثيرا منهم ؛ وملك بلاد تركستان بأجمعها ، وصار كالمجاور لبلاد خوارزمشاه ، وإن كان بينهما مسافةٌ بعيدة ، وصار بينه وبين خُوارِزْمشاه سِلْمٌ ومهادنة ؛ إلا أنها هُدْنة على دَخَن .

فمكثت الحال على ذلك يسيرا ، ثم فسدتْ بما كان يصلُ إلى خوارزمشاه على ألسنة التّجار من الأخبار ، وأنّ جنكز خان على عَزْم النّهوض إلى سَمَرْقَنْد وما يليها ، وأنه فى التأهّب والاستعداد ، فلو دَارَاه لكان أوْلَى له ؛ لكنّه شرَع فسدّ طرق التجار القاصدين إليهم ، فتعذّرَتْ عليهم الكسوات ، ومُنِع عنهم المِيرة والأقوات التى تجلب وتحمَل من أعمال ماوراء النهر إلى تركستان ، فلو اقتنع بذلك لكان قريبا ؛ لكنّه أنْهى إليه نائبه بالمدينة المعروفة بأوتران،وهى آخر ولايته بما وراء النهر،أنّ جنكزخان قد سيّر جماعة من تجّار التتار ، ومعهم شىء عظيم من الفِضّة إلى سَمَرْقَنْد ، ليشتروا له ولأهله وبنى عمّه كُسْوةً وثيابا وغير ذلك .

فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتل أولئك التجّار ، وأخذِ مامعهم من الفضّة وإنفاذها إليه ، فقتلَهم وسيَّر إليه الفِضّة . وكان ذلك شيئاً كثيرا جدًّا ؛ ففرّقه خوارزمشاه على تجّار سمرْقَنْد وبُخارى ، وأخذ ثمنه منهم لنفسه . ثم علم أنّه قد أخطأ ، فأرسل إلى نائبه بأوتران ، يأمره أن ينفذ جواسيس من عنده إليهم ، ليخبروه بعدّتهم ، فمضت الجواسيسُ ، وسلكت مفاوز وجبالا كثيرة ، وعادوا إليه بعد مدّة ، فأخبروه ، بكثرة عددهم ، وأنهم لا يبلغهم الإحصاء ولا يدركهم ، وأنهم من أصْبَر الناس على القتال ؛ لا يعرفون الفرار ، ويعملون مايحتاجون إليه من السلاح بأيديهم ، وأنّ خيلَهم لا تحتاج إلى الشعير ، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعى ، وأن عندهم من الخيل والبقر مالا يُحصى ، وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير ، وهم أصبرُ خَلْق الله على الجوع والعطش والشّقاء ، وثيابُهم من أخشن الثّياب مسًّا ، ومنهم مَنْ يلبس جلود الكلاب والدوابّ الميّتة ؛ وأنهم أشبهُ شئٍ بالوحش والسباع .

فأنهىَ ذلك كلَّه إلى خُوارزمشاه ، فندمَ على قتل أصحابهم ، وعلى خَرْق الحجاب بينه وبينهم ، وأخذ أموالهم ، وغلَب عليه الفِكْر والوَجَل ، فأحضر الشهاب الخيوقىّ ، وهو فقيه فاضل كبير المحلّ عنده ، لا يخالف مايشير به ، فقال له : قد حَدَث أمرٌ عظيم لا بدّ من الفكر فيه ، وإجالة الرأى فيما نفعل ؛ وذلك أنّه قد تحرّك إلينا خَصْمٌ من الترك فى عدد لا يحصى ، فقال له : عساكرك كثيرة ، وتكاتَبُ الأطراف ، وتجمع الجنود ، ويكون من ذلك نفيرٌ عام ، فإنّه يجب على المسلمين كافّة مساعدتُك بالأموال والرجال ، ثم تذهب بجميع العساكر إلى جانب سَيْحُون ، وهو نهر كبير يفصِلُ بين بلاد الترك وبين بلاد خوارِزْمشاه ، فتكون هناك ، فإذا جاء العدوّ وقد سار مسافة بعيدة ، لقيناه ونحن جامُّون مستريحون ، وقد مسّه وعساكرَه النصبُ واللُّغوب .

فجمع خُوارِزْ مشاه أمراءه ، ومَنْ عنده من أرباب المشورة ، فاستشارهم فقالوا: لا بل الرأيُ أن نتركهم ليعبرُوا ويجيئوا إلينا ، ويسلكوا هذه الجبال والمضايق ، فإنهم جاهلون بطرقها ، ونحن عارفون بها ، فنظهرُ عليهم ، ونهلكهم عن آخرهم .

فكانوا على ذلك حتى وصل رسول من جنكز خان ومعه جماعة ، يتهدّد خُوارِزْمشاه ، ويقول: تقتلُ أصحابى وتجارى ، وتأخذ مالى منهم ! استعدّ للحرب ، فإنى واصل إليك بجمْع لا قِبَل لك به .

* * *

فلما أدّى هذه الرسالة إلى خُوارِزْ مشاه أَمر بقتل الرسول فقتِل ، وحلق لِحَى الجماعة الذين كانوا معه ، وأعادهم إلى صاحبهم جنكز خان ليخبرُوه بما فعل بالرسول ، ويقولوا له: إنّ خُوارزمشاه يقول لك : إنى سائر إليك ، فلا حاجة لك أن تسير إلىّ ، فلو كنتَ فى آخر الدّنيا لطلبتك حتى أقتلك ، وأَفعل بك وبأصحابك ما فعلتُ برسلك .

وتجهّز خُوارزمشاه ، وسار بعد نفوذ الرّسول ، مبادراً لسبْق خبره ، ويكبس(١) التتار على غِرّة ؛ فقطع مسيرةَ أربعة أشهر فى شهر واحد ، ووصل إلى بيوتهم وخَرْكاواتهم(٢) فلم يرَ فيها إلّا النّساء والصِّبْيان والأثقال ؛ فأوقَع بهم ، وغَنِمَ الجميع ، وسبَى النّساء والذرّية .

وكان سبب غيبوبةِ التّتار عن بيوتهم أنهم سارُوا إلى محاربة ملك من ملوك الترك ، يقال له « كشلوخان » ، فقاتلوه فهزموه ، وغَنِمُوا أمواله ، وعادوا ، فلقيَهم الخبر فى طريقهم بما فعل خوارزمشاه بِخلْفهم ، فأغذّوا السيرَ فأدركوه ، وهو على الخروج من بيوتهم ،

---

(١) يقال : كبس القوم دار فلان ؛ إذا هجموا عليها فجأة واحتاطوها .

(٢) الخركاة : الخيمة الكبيرة ، المدورة الشكل (انظر دوزى).

بعد فراغه من الغنيمة ؛ فواقعوه وتصافُّوا للحرب ثلاثة أيام بلياليها ؛ لا يفترون نهارا ولا ليلا ، فقتِل من الفريقين ما لا يعدّ ، ولم ينهزم منهم أحد .

أما المسلمون فصبَرُوا حَمِيّةً للدين ، وعلمُوا أنهم إن انهزموا لم يبقَ للإسلام باقية ؛ ثم إنّهم لا ينجُون ، بل يؤخَذون ويؤسَرون لبعدهم عن بلادٍ يمتنعون بها ، وأما التتّار فصبروا لاستنقاذ أموالهم وأهلهم ، واشتد الخطب بين الطائفتين ؛ حتى إنّ أحدَهم كان ينزل عن فرسه ، ويقاتل قِرْنه راجلاً ، مضارَبةً بالسكاكين ، وجرى الدّمُ على الأرض ؛ حتى كانت الخيل تزلق فيه لكثرته ؛ ولم يحضر جنكزخان بنفسه هذه الوقعة ؛ وإنما كان فيها قاآن ولدُه ، فأحصِيَ مَنْ قُتِل من المسلمين فكانوا عشرين ألفا ، ولم يحصَ عِدّةُ مَنْ قتِل من التتار .

فلما جاءت اللَّيلةُ الرابعة افترقوا ، فنزل بعضُهم مقابِلَ بعض ، فلما أظلم الليل ، أوقد التتار نيرانَهم ، وتركوها بحالها ، وساروا راجعين إلى جنكزخان ملكهم ، وأمّا المسلمون فرجعوا ومعهم محمد خوارزمشاه ، فلم يزالوا سائرين حتى وافَوْا بُخارى ، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له بجنكزخان ، لأنّ طائفة من عسكره لم يلقوا خوارزمشاه بجميع عساكره بهم ، فكيف إذا حشدوا وجاءوا على[1] بكرة أبيهم ، وملكهم جنكزخان بينهم .

فاستعدّ للحصار ، وأرسل إلى سمرقند يأمرُ قُوّاده المقيمين بها بالاستعداد للحصار ، وجَمع الذخائر للامتناع والمقام من وراء الأسوار ، وجعل فى بخارى عشرين ألف فارس يحمونها ، وفى سمرقند خمسين ألفا ، وتقدّم إليهم بحفظ البلاد حتى يَعبر هو إلى خوارزم وخراسان ، فيجمع العساكر ، ويستنجد بالمسلمين والغزاة المطوّعة ويعود إليهم .

---

(١) فى الأصول) «عن» وصواب المثل ماذكرته . وانظر مجمع الأمثال ١ : ١٧٦ .

ثم رحل إلى خُراسان ، فعبَر جيحُون ؛ وكانت هذه الوقعة فى سنة ست عشرة وستمائة فنزل بالقرب من بَلْخ ، فعسكر هناك ، واستنفر النّاس .

وأما التتار فإنّهم رحلوا بعد أن استعدُّوا يطلبون بلاد ما وراء النهر ؛ فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من رحيل خوارزمشاه عنها ، وحصروها ، فقاتلوا العسكر المرابط بها ثلاثة أيام قتالا متتابعا ، فلم يكن للعسكر الخوارزمىّ بهم قوة ؛ ففتحوا أبواب المدينة ليلاً ، وخرجوا بأجمعهم عائدين إلى خراسان ، فأصبح أهلُ بخارى وليس عندهم من العسكر أحد أصلا ، فضعفت نفوسهم ، فأرسلوا قاضى بخارى[1] ليطلُب الأمان للرعيّة ، فأعطاه التّتار الأمان ، وقد كان بقى فى قلعة بُخارى خاصة طائفة من عسكر خوارزمشاه معتصمون بها .

فلمّا رأى أهلُ بخارى بذلَهم للأمان ، فتحوا أبوابَ المدينة ، وذلك فى رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل التتار[2] بُخارَى ، ولم يتعرّضوا لأحَدٍ من الرعيّة ، بل قالوا لهم : كلّ ما للخوارِزمشاه عندكم من وديعةٍ أو ذخيرةٍ أخرجوه إلينا ؛ وساعدونا على قتال مَنْ بالقلعة ، ولا بأس عليكم . وأظهروا فيهم العدْلَ وحسنَ السّيرة ودخل جنكز خان بنفسِه إلى البلد ، وأحاط بالقلعة ، ونادى مناديه فى البلدان : لا يتخلّف أحدٌ ؛ ومَنْ تخلّف قُتِل . فحضر النّاسُ بأسرهم ، فأمرهم بطمّ الخندق فطمّوه بالأخشاب والأحطاب والتراب ، ثم زحفوا نحو القلْعة ، وكان عدّةُ مَن بها من الجند الخوارزمية أربعمائة إنسان ، فبذلوا جهدَهم ، ومنعوا القلعة عشرة أيام إلى أنْ وصل النقّابون إلى سور القلعة ، فنقبوه ودخلوا القلعة ، فقتلوا كلّ مَن بها من الجُند وغيرهم .

---

(١) فى ابن الأثير : « وهو بدر الدين قاضيخان » .

(٢) ابن الأثير : « فدخل الكفار » .

فلما فرغوا منها أمر جنكزخان أن يكتُبَ له وجوهُ البلد ورؤساؤهم ، ففعل ذلك ، فلما عَرَضُوا عليه أمر بإحضارهم ، فأحضِرُوا ، فقال لهم : أريد منكم الفضّة النُّقْرة[1] التى باعها إياكم خوارزمشاه ،فإنّها لى ، ومِنْ أصحابى أخذَتْ . فكان كلّ مَنْ عنده شىء منها يحضره ، فلما فرغ من ذلك أمرهم بالخروج عن البلد بأنفسهم خاصّة ، فخرجوا مجرّدين عن أموالهم ، ليس مع كلٍّ واحد منهم إلا ثيابُه الّتِي على جسده ، فأمرَ بقتلهم ، فقتِلُوا عن آخرهم ، وأمر حينئذٍ بنهب البلد ، فنهب كلُّ ما فيه ، وسبِيَت النساء والأطفال ، وعذّبُوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال. ثم رحلوا عنه نحو سَمَرْقَنْد ، وقد تحققوا عَجْزَ خوارزمشاه عنهم ، واستصحبوا معهم مَنْ سَلِمَ من أهل بخارى ؛ أسارى مشاةً على أقبح صورة ، وكلُّ مَنْ أعيا وعجز عن المشى قتلوه .

فلما قاربوا سَمَرْقند، قدّموا الخيّالة ،وتركوا الرجّالة والأسارى والأثقال وراءهم ،حتى يلتحقوا بهم شيئا فشيئا ، ليرعِبوا قلوبَ أهل البلد ، فلمّا رأى أهلُ سَمَرْقند سوادَهم ، استعظموهم ؛ فلمّا كان اليوم الثانى وصل الأسارى والرجّالة والأثقال ؛ومع كلٍّ عشرة من الأسارى عَلَم ، فظنّ أهلُ البلد أنّ الجميع عسكر مقاتلة ؛ فأحاطوا بسَمَرْقَنْد ، وفيها خمسون ألفا من الخوارزمية ، ومالا يحصى كثرة من عوامّ البلد ؛ فأحجم العسكر الخورزمىّ عن الخروج إليهم ، وخرجت العامّة بالسلاح ، فأطمعهم التتار فى أنفسهم ، وتقهقروا عنهم ؛ وقد كمّنوا لهم كُمناء ؛ فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم منْ ورائهم ، وشدّ عليهم مِنْ ورائهم جمهورُ التتار ؛فقتلوهم عن آخرهم .

فلما رأى مَنْ تخلّف بالبلد ذلك ، ضعفت قلوبهم ،وخيّلت للجند الخوارزمىّ أنفسهم

(١) النقرة : القطعة المذابة من الفضة أو الذهب .

أنّهم إن استأمنوا إلى التتار أبقَوْا عليهم للمشاركة فى جنسية التركيّة ؛ فخرجوا بأموالهم وأهليهم إليهم مستأمنين ، فأخذوا سلاحهم وخيلهم ، ثم وضعوا السيف فيهم ، فقتلوهم كلّهم ، ثم نادوْا فى البلد : برئت الذمّة ممّن لم يخرج ، ومن خرج فهو آمن . فخرج النّاس إليهم بأجمعهم ، فاختلطوا عليهم ، ووضعوا فيهم السيف ، وعـذّبوا الأغنياء منهم ، واستصفَوْا أموالهم ، ودخلوا سَمَرْقَنْد ؛ فأخربوها ، ونقضوا دورها ؛ وكانت هذه الوقعة فى المحرّم سنة سبع عشرة وستمائة .

* * *

وكان خوارزمشاه مقيما بمنزله الأوّل ، كلّما اجتمع له جيش سيّره إلى سمرقند ، فيرجع ولا يقدم على الوصول إليها ؛ فلما قضوا وطرا من سَمَرْقند ، سيّر جنكزخان عشرين ألف فارس ، وقال لهم : اطلبوا خوارزمشاه أينَ كانَ ، ولو تعلّق بالسماء ، حتى تدركوه وتأخذوه !

وهذه الطائفة تُسمّيها التتار المغرّبة ، لأنّها سارت نحو غرب خراسان ، وهم الّذين أوغلوا فى البلاد ، ومقدّمهم جرماغون ؛ نسيب جنكزخان .

وحكى أنّ جنكزخان كانَ قد أمّر على هذا الجيش ابنَ عمّ له شديد الاختصاص به ؛ يقال له متكلى نويرة ، وأمَره بالجدّ وسرعة المسير ؛ فلما ودّعه ، عطف متكلى نويرة هذا ، فدخل إلى خركاة ، فيها امرأة له كان يهواها ليودّعها ، فاتصل ذلك بجنكزخان ، فصرفه فى تلك الساعة عن إمارة الجيش ، وقال : مَنْ يَثْنِي عزمَه امرأة لا يصلح لقيادة الجيوش . ورتّب مكانه جرماغون ، فساروا وقصدوا من جيحون موضعا يسمى « بنج آب » أى خمسة مياه ، وهو يمنع العبور ؛ فلم يجدوا به سفنا ، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار ، وألبسوه جلود البقر ، ووضعوا فيه أسلحتهم ، وأقحموا خيولهم الماء ، وأمسكوا بأذنابها ،

وتلك الأحواض مشدودة إليها،فكان الفرَس يجذب الرجل ، والرجُل يجذب الحوض، فعبروا كُلُّهم ذلك الماء دَفْعَةً واحدة ، فلم يشعر خوارزمشاه بهم إلّا وهم معه على أرض واحدة ؛ وكان جيشه قد ملئ رعباً منهم ، فلم يقدروا على الثَّبات ، فتفرّقوا أيدى سَبَا ؛ وطلبَ كلّ فريق منهم جهة، ورحل خوارزمشاه فى نفرٍ من خواصّه،لا يلوى على شىء، وقصد نيسابور،فلمّا دخلها اجتمع عليه بعضُ عسكره فلم يستقرّ، حتى وصل جرماغون إليه؛ وكان لا يتعرّض فى مسيره بنهب ولا قتل ؛ بل يطوى المنازل طيًّا ؛ يطلب خوارزمشاه ولا يمهله ليجمع عسكرا . فلما عرف قرب التّتار منه ،هرب من نيسابور إلى مازندران[1] ، فدخلها ورحل جرماغون خلْفه ، ولم يعرِّج على نيسابور ، بل قصد مازندران ، فخرج خوارزم شاه عنها،فكان كلّما رحل عن منزل نزله التتار ؛ حتى وصل إلى بحر طَبَرِسْتَان، فنزل هو وأصحابه فى سفن ، ووصل التّتار ، فلما عرفوا نزوله البحر ، رجعوا وأيسوا منه .

وهؤلاء الّذين ملكوا عراق العجم وأذْرَبِيجان ، فأقاموا بناحيةِ تِبْرِيز إلى يومنا هذا .

***

ثم اختلِف فى أمر خوارزمشاه ، فقومٌ يحكون أنه أقام بقلعة له فى بحر طَبَرِسْتان منيعة، فتوفِّىَ بها،وقوم يحكون أنه غرِق فى البحر، وقوم يحكون أنّه غرق ونجا عُريانا،فصعد إلى قرية من قرى طَبَرِستان،فعرّفه أهلها ، فجاءوا وقبّلوا الأرض بين يديه،وأعلموا عاملَهم به، فجاء إليه وخدَمه ، فقال له خوارزم شاه : احمِلْنى فى مركبٍ إلى الهند ، فحمله إلى شمس الدين أنليمش ملك الهند ؛ وهو نسيبه من جهة زوجته والدة منكبونى بن خوارزم شاه الملك جلال الدين،فإنّها هندية من أهل بيت الملك؛ فيقال إنه وصل إلى أنليمش،وقد تغيّر

---

(١) ما زندران : اسم ولاية بطبرستان .

